إسماعيل فهد إسماعيل

في حَضرة العَنقاء والخِلّ الوفيّ

رواية



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

في حَضرة العَنقاء والخِلّ الوفيّ

روايـة

إسماعيل فهد إسماعيل



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

في حَضرة العَنقاء
والخِلّ الوفيّ



الطبعة الأولى
1434 هـ - 2013 م

ردمك 978-614-01-0656-7



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

رواية كتبها المؤلف..
ويكتبها قراؤه أيضاً

سعديّة مفرّح

في حضرة العنقاء والخل الوفي، ينطلق اسماعيل فهد اسماعيل مستعيداً ذاته الكامنة في ما وراء الكلمات والشخصيات والمواقف، ليصنع روايته الجديدة وكأنه يصنع روايته الأولى، بعد تجريب كتابي طال وتمدد بين سنوات العمر وتضاعيف الموهبة وتداعيات الحياة بكل معطياتها.

في هذه الرواية يبدو هذا الروائي المخضرم شاباً موهوباً، للتو غادر السبعين من عمره كي يبدأ الكتابة في خضم الدهشة واسترسال الاكتشاف وزهو الموهبة الفريدة. ولعلي لا أبالغ إذا قلت أنني شعرت وأنا أقرأ هذه الرواية وكأنني أقرأ لاسماعيل فهد اسماعيل لأول مرة في حياتي، أنا التي اطلعت على معظم رواياته الاربع والعشرين السابقة والتي أصدرها على مدى أربعة عقود كاملة، ربما لأنه يحاول من خلالها أن يقدم نمطا كتابيا جديدا يخلط فيه وفقا لمقادير محسوبة، من دون أن تخل بعفوية الفن الروائي في ذلك الشق، بين الحياة كما عاش بعض مواقفها فعلا، وبينها كما يريد أن يعيش بعض مواقفها، وبين ما يتوقع ان تكون، وبين الحلم. وأيضا لأنه في هذه الحياة التي كتبها بين ثنايا رواية اختزل الكثير مما يقال في سبيل التطلع الى قارئ نوعي ومتلق جاد وذكي. والأهم عاشق للرواية.

«في حضرة العنقاء والخل الوفي» إذاً رواية «صعبة» ليس على صعيد الكتابة وحدها بل على صعيد القراءة، وأتوقع من المتلقي أن يجتهد كثيرا في سبيل استخلاص المتع الراسبة بين نهايات الفصول حتماً.

وعلى الرغم من أنني لا اريد أن أبدو كوصية على القارئ في هذه المقدمة التي أكتبها من خلال قراءة أولية لرواية تحتاج لقراءات متعددة كقصيدة مترامية الجماليات، إلا أن هذا لا يمنعني من تحذير القارئ اللاهي من الدخول في أجواء هذا النص الثري من دون أن يملك أدواته الخاصة هو أيضا في التلقي معرفياً..وإنسانيا أيضا. فمن الواضح أن اسماعيل فهد اسماعيل يتوسم خيرا كثيرا في من يقدم على قراءة هذه الرواية، ويتوقعه ذكيا جدا، بل يطالبه أحيانا بأن يكون شريكا في الكتابة بدلا من أن يبقى متلقيا للكلمة والحدث وما يتكون فيما بينهما ومن خلالهما. فالكلمات البعيدة هنا لا تقترب إلا بجهد من القارئ، والمعاني الكامنة لا يستحضرها الا القارئ، والجمل المبتورة تكتمل في سياق قرائي يرسم له اسماعيل فهد اسماعيل الطريق واضحا رغم صعوبته.

هل أقول أن «في حضرة العنقاء والخل الوفي» هي درة التاج الاسماعيلي الروائي؟ لو كان اسماعيل فهد اسماعيل ممن حرصوا على مثل ذلك التاج طوال عقود من الكتابة في الرواية وما حولها لقلتها، لكنه الكاتب الذي ظل ينقش في تفاصيل الهامش حتى كاد ذلك الهامش أن يحتل مساحات المتن كلها، وهو الكاتب الذي يكتب بقلق من يقبل على الكتابة الروائية للمرة الأولى في حياته. في هذه الرواية نجد أنفسنا في مواجهة مع الآخرين ضمن جغرافية كويتية صرف قد تبدو جديدة تماما في عالم هذا الكاتب المنداح في الجغرافيات العربية الأخرى أكثر من سياقاته الكويتية في إطارها

المحلي. وهو إذ يدخل عالم المجتمع الكويتي فإنه يدخله من خلال مأساة «البدون» والتي تعتبر واحدة من أهم التحديات المجتمعية الراهنة في هذا المجتمع العالق ما بين تقاليده وتقليديته من جهة، وحراكه السياسي المتقدم والنشط دائماً من جهة أخرى، في إطار من الوعي الثقافي المبكر والمنتج لبيئة سياسية متميزة بنزوعها الدائم نحو الديمقراطية وكل معطياتها الممكنة والقابلة للتحقق في هذه الجغرافيا.

و»البدون» كما تُسمى المشكلة، وكما يُسمى أهلها في الكويت، مصطلح يدل على عدد كبير نسبيا من المواطنين الذين يعيشون «بدون» جنسية تثبت انتماءهم لوطنهم قانونياً لأسباب ملتبسة عديدة فاقم من وطأتها الثقيلة عليهم وعلى الكويت مرور سنوات طويلة منذ صدور قانون الجنسية في بداية الستينات وحتى الآن بلا حل حقيقي.

ومع أن هناك من سبق اسماعيل فهد اسماعيل في مقاربة هذه المشكلة روائيا في تجارب قليلة أبرزها وأهمها وأجملها أيضا تجربة الكاتبة بثينة العيسى في روايتها؛ «ارتطام لم يسمع له دوي» التي صدرت في العام 2004، الا ان رواية «في حضرة العنقاء والخل الوفي» حاولت أن تتوغل في الصلب النفسي لهذه الفئة من الناس من خلال كائن واحد لا يمكن النظر إليه باعتباره النموذج بل باعتباره الحالة الخاصة..ربما للإشارة الى ان كل فرد من أفراد هؤلاء الفئة حالة خاصة في سياقها البشري وليست مجرد رقم في سياقها الفئوي العام. ولعل هذا ما تتشارك به رواية «في حضرة العنقاء والخل الوفي» تحديدا مع بقية روايات اسماعيل فهد اسماعيل.. الاحتفاء بالحالة الخاصة.

وماذا بعد...؟

قلق ينتج قلقا، وكتابة تتغول على كتابة، وهامش يتعالى على المتن، ونصوص تتسامى على كلماتها الحادة في جملها الناقصة، وشخصيات نعرفها في إطار الواقع، وسياق المتخيل.. وأخرى نتوقعها

تتمشـى داخل نسـيج الرواية لكنها تتفلت منّا كلما حاولنا الإحاطة بها عبر الصفات التي يجتهد الكاتب في رسمها، والسمات التي يشير إليها وكأنه يحرضنا على اكتشاف ما خفي في ضميره ككاتب وما ترسب في وعيه على مر السنين.

كل هذا في رواية لا أتورع عن وصفها بأنها رواية الكاتب الأولى، ولا أجـد غضاضـة فـي تـرك هذه الصفة غير المنطقية في سـيرة الكاتب لكي يبررها قارئ الرواية بعد الانتهاء من القراءة الأولى تمهيدا لقراءات لاحقة أتوقعها كحالة نادرةً من حالات اسماعيل فهد اسماعيل الروائية.. وما أكثرها..وما أندرها.

فصل أوّل

يا زينب، منذ عام 1996م، كنتِ وقتها في خامستكِ، وأنا أجاهدني بالكتابة إليكِ، اشرعُ أسوّدُ عشرات الصفحات ثمّ انقلبُ عليّ جرّاء يقيني إنّي في غفلة منّي أكتب بانفعال غير مبرر، أصرفني عن الكتابة سنة أو أكثر، ريثما يعود توقي للتواصل بكِ، أُقبل على الكتابة، لأنصرف عنها بعد قليل للسبب إيّاه، كل بداياتي تلك حفظتها داخل ملفات تحمل تأريخها آملاً أعودُ إليها أوظّفها ضمن مشروع واحد أتمنّى وصوله إليكِ كاملاً، الليلة اتخذتُ قرار البدء من جديد دون العودة لما راكمته في مرات سابقة، كذلك آليتُ على نفسي أكتبها خبط عشواء، غير ملزم بتسلسل الأحداث حسب المنطق المعتاد لتواليها، منساقاً لتداعي لحظتها الآنيّة حتّى لا أتذرّعُ بصعوبة التنسيق فانصرف عن المتابعة.

تمشياً مع التبرير أعلاه أبدأ التدوين انطلاقاً من موقف مفصل. في واحدة من أماسي شهر أغسطس 1971 فاجأني المخرج المسرحي صقر الرشود. تعال. تلفّتني وقتها، هل أنا المقصود، كان، هو ومجموعة من أعضاء فرقة مسرح الخليج، يواصلون أداء تدريبات على مسرحية كويتية باللهجة المحلية. أنا. أنت. اقتربتُ وجلاً متردداً، وقفتُ أمامه. يلزمنا صبي لأداء دور ثانوي بسيط. انشدهتُ لكلماته، يطلب مني. مشاركتهم تمثيلهم، أنا الغريب على المكان بمن فيه، دخلته قبل ساعات لا غير، قضيتُ معظمها داخل مطبخ المقر، إعداد الشاي والقهوة، لم يحضرني ردّ مناسب، داخلني إحساس بالرهبة، خطفتُ نظرة لوجه سليمان الياسين، كان شاباً يافعاً أيامها، تمنيتُ لو تدخّل لصالحي بصفته

الشـخص الذي قابلني لدى مجيئي طالباً عملاً، انبرى سـليمان الياسين. هو الفراش الجديد تحت التجربة. عاجله صقر الرشـود. أدري. التفتَ إليّ هادفاً طمأنتي. لايوجد ما يدعوكَ للخوف. وماخطر له إنّ صوته ذا القـرار العميـق الملفـت للأذن مدعاة خـوف قائم بذاته. أيامنا تلك، مقر مسـرح الخليج، بيت عربي منطقة النقرة، ضفة شـارع موسـى بن نصير، باحة البيت باتساع فاره، صفّتْ وسطها أرائك خشبية عارية متقابلة إلى جانـب طـاولات صغيـرة، نموذج لركن مقهى شـعبي، أظننـي تلعثمتُ. مـا المطلـوب. هـل سبق لك رأيت مقهى بوناشـي. رأيته. حاول تلعب دور صبي المقهى كما في الواقع. أومأتُ برأسـي، أشـار صقر الرشـود لممثليه بما فيهم سليمان الياسين، توزّعوا الارائك، بدأوا تدريبهم. وأنا أتحرّكُ بينهم منتحلاً شخصيّتي نبّهني. كُنْ على سجيّتك. لعلّي لم أحسن تقمّصي، أضطر صقر الرشـود لتنبيهي ثانية. كُنْ على سـجيّتك. قبل أنْ يلغي فكرة الاسـتعانة بي سـألني عن إسـمي، حسـبته غاضباً، حشرجتُ اسـمي همسـاً. لم اسـمع. تطوّع سليمان الياسين. إسمه منسي. ولأنّه لم يعرف إسم أبي بعد إلتفت إليّ، حشرجتي باقية همساً. لم اسمع. بدرتْ عن محمد السـريع ضحكة مرحة. نُطلقُ عليه إسـمه الفني المنسـي بن أبيه. منذ حادثتي هذه صرتُ إبن أبيه.

بـدأتُ كتابتـي ازاء زمـن موغـل، صيـف عـام 1971م، انطلاقاً من مسـرح الخليـج فـي منطقـة النقرة، أبـدأ كتابتي عن الزمـن الآن، صيف 2010، انطلاقاً من مسرح الخليج في منطقة السالمية، بيت عربي مترامي المسـاحة، ينفتـح بابـه على ناصية طريق خلفيـة، بما يمنحه ميّزة العزلة. الوقت ساعة ليل متأخّرة، هدوء شامل يتخلله دوي وحدة تكييف الهواء المثبتة على نافذة مطلّة على الطريق إيّاها، باب الغرفة خاصّتي موصد، رغـم ذلـك يبقـى أنفـي مؤهـلاً لالتقـاط رائحة زفـر البحر خلـل الهواء المحبوس المشـبع رطوبة، غرفتي واسـعة تصلح قاعة اجتماعات، لكنّ

أعضاء الفرقة باقتراح من جانب سليمان الياسين خصّوني بها إثر مغادرتي السجن ربيع عام 1992، لأحتلّها من وقتها. فرّاش المسرح الشاب السيريلانكي كومار يغط نوماً داخل غرفته الصغيرة الكائنة قرب ركن المطبخ. غرفتي على سعتها لها باب واحد احتفظ بمفتاحه، أعضاء فرقة المسرح احترموا خصوصيتي بما اتسمت به من خروج على المألوف. بعض الناس لديهم هواية جمع الطوابع البريدية. مَهّد بها أحدهم أثناء جلسة غداء يوم جمعة حضرها معظم أعضاء الفرقة الشباب. أنت يا منسي هاوي جمع قصاصات الجرائد. الأمر بالنسبة لإبن أبيه تحوّل من هواية إلى إدمان. عمّ جو المرح، كلماتهم لا تمتّ للسخرية بصلة. لكل شيخ طريقته. ضحكوا. غرفتكَ على ما نظن ضاقت بأرفف ملفّاتك. ليس قبل سنوات. الأرفف المعنيّة آخذة بالاصطفاف على جدران غرفتي أكثر فأكثر كلّما زاد عدد الملفّات. فكرة راودتني أمداً دخلت حيّز التنفيذ عندما قصدتُ محل نجارة الكهل الايراني حجّة الله، استقبلني حجّة الله بإبتسامة مرحّبة ضاقت لها فتحتا عينيه المغبرتين، سارع استلّ كسرة قلمه الرصاص من وراء أذنه مجهّزاً قصاصة ورق. أطوال أرففكَ الجديدة. لم آت لطلب رفوف. ارتفع حاجباه دهشة. أريد صندوقاً يسع أوراق فولسكاب. وجّه سنّ كسرة قلمه لقصاصة ورقته. القياسات اللازمة. أمليتُ عليه طلبه. تعال غداً عصراً لاستلام صندوقك. أريده الآن. رأيتُ الصندوق يتشكّلُ بين يديه. انقش على سطحه كلمة زينب. حدّق فيّ مستغرباً. إسم إبنتي زينب. مادمتَ ستهديه لابنتك امنحني الفرصة أعيد نجارته بشكل لائق. لن أهديه لها. اتسعت عيناه، ابتسمتُ له. أنوي توريثها الصندوق. حجّة الله لم يستوعب القصد، له الحق، أنا لم أستوعب أبعاد قصدي، يبقى هدفي أنْ أدوّن ما يساعدكِ زينب على معرفة أبيكِ لدرجة الحضور الفعلي، سواء كنتِ في الغياب أو في حكمه. من بين أشياء أعتزّ بها لدرجة الحنين لدى مفارقتي لها

سجادة صوفيّة بحجم دثار صغير ورثتها عن أمي، الملمس والرائحة، هذا أنا أجلس متربّعاً، النسيج الذاوي للسجادة يعزز شعوري بصلابة بلاط أرضية الغرفة، صندوقكِ الحامل إسمكِ يواجهني، اتخذته مسند كتابة، منذ وعي الاشياء، مزمعاً بدءاً ملتبساً، إسمي بانتمائه لمن، يوم أوّل، تلميذ صف أوّل، مدرسة النجاح الابتدائية بنين، صبيحة سبت، شهر سبتمبر 1963، إبن سابعة، صبية صغار تجاوز عددهم ثلاثين، وقف المعلّم المصري في مقدّمة الفصل، ظهره إلى السبورة، قائمة أسماء الطلبة بين يديه، بدأ ينطق الأسماء واحداً واحداً، قاصداً إثبات حضور، استجاب الصبية. أنا، أنا. وصل المعلّم لعند اسمي. منسي إسم متداول في مصر. استجبتُ له أنا، خطف نظرة لوجهي، عاد يدقق ورقته. أنت غير كويتي. وددتُ لو أصحح، كويتي. ظهر اليوم ذاته، السجادة الصوفيّة ذاتها، أمّي وأنا نجلس متقابلين تتوسطنا، صينية بصحن أرز الى جانب طاسة شوربة عدس، زمننا ذاك، أمّي تعمل فراشة تغذية في مدرسة الشرقية للبنات، سألتها عن نسبة إسمي لمصر مثلما قالها المعلم، مضغتْ لقمة رزها، تعلقتْ عيناي بعروق رقبتها النافرة، غافلتها زفرة حزينة. لأنكَ سألت. صوتها مع استطرادها يُضمر إعزازاً لثالث غائب. حملي الأول، أبوكَ وأنا لهفتنا لمجيء الطفل، جاء صبياً، توفى بعد ساعات من غير أن نسمّيه، حملي الثاني جاء صبياً أيضاً عاش يومين، مع بروز بطني بحملي الثالث اقترح أبوكَ إنْ جاء صبياً نطلق عليه إسم منسي لعلّ الموت ينساهْ. الموت حسابات مستغلقة على الفهم، أغفلني مقايضة، بادر خطف أبي قبل ولادتي. الساعة الآن جاوزت الثانية بعد منتصف الليل، رغم دوي جهاز التكييف تناهى إليّ صوت إطباق باب، لعل الشاب السيرلانكي كومار غادر غرفته قاصداً دورة المياه، مقر مسرح الخليج هنا لا يختلف كثيراً عن ذاك الذي كان في منطقة النقرة، صباحات أيامنا السالفة شبيهة بأيامنا هذه، يخلو المقر من الأعضاء، هم

كلهـم كويتيـون، والكويتيـون كلّهـم موظفـو دولـة، لأني الفـرّاش حينها اعتدتُ انجاز مهام التنظيف دون مضايقة أحد، شاداً عزمي بترديد أغنية شـادي الخليج، لي خليل حسـين، في واحد من تلك الصباحات هزّني صـوت عميـق القـرار. صبـاح الخير يـا إبن أبيه. كيف لـم أتنبّه لوصول صقر الرشـود، تابع طريقه نحو مكتب الإدارة، توقّف فجأة التفت إلي. فنجان قهوة. وأنا أضع طلبه أمامه أحالني على لحظة مفاجأتي بوصوله. تمتلكُ صوتاً معبّراً يا إبن أبيه. سألتني لحظتها ما الذي يعنيه، من جانبه أكمل مامفاده انّي امتلك أذناً موسـيقية تؤهلني لاجادة تأدية اللحن. لم أُحـر جوابـاً، لعلـه الفضـول، أراد معرفـة تحصيلـي الدراسـي. أكملـتُ المرحلـة المتوسـطة هـذه السـنة. هـل تزمـع مواصلة تعليمـك الثانوي. حارتْ بي إجابتي لثوان. لن أواصل. استدرتُ بغية الانصراف، أشار لي ابـق، بقيـتُ واقفـاً تتناهبني حيرتي، عمل أصابعه بعلبة سـجائره، اشـعل واحدة، أخذ لصدره نفسـاً. لماذا لا تريد مواصلة تحصيلك الدراسـي. مساء اليوم ذاته، باب مكتب إدارة المسرح موارب، اجتماع ثنائي لصقر الرشـود وعبد العزيز السـريع، عبرتُ الباب حاملاً صينية بفنجاني قهوة، وضعتُ طلب كل منهما أمامه، بادر عبد العزيز السـريع أشـار لكرسـي قريـب. اجلـس يـا إبـن أبيه. من بين ما تعلمته خلال معايشـتي للوسـط المسرحي إنّ الفن عامة ليس مهنة تؤدّي فقط، لكنه موقف انساني يبدو شخصياً أحياناً، الاثنان، صقرالرشود وعبد العزيز السريع، بعدما أجلساني أمامهمـا تناوبـا اسـتجوابي، بذلـتُ جهـدي أتهرّب من الرد على أسـئلة محددة جرّاء حياء قسري أو خصوصية ذات حساسية ولا مفرّ، لم يأبها لمعاناتـي حرجـي، عرفـا عـن يتمي من ناحية الأب قبـل ولادتي، تفهّما سبب التحاقي بالعمل في سنّي المبكرة، الالتهاب الرئوي الذي أصاب أمّـي وقـد آل مزمنـاً اضطرّهـا لتـرك العمـل وملازمة المنـزل. الالتهاب الرئوي قابل للعلاج. طبيب المستشفى الصدري قال فات الأوان بسبب

الاهمال والاسـراف المفرط في تدخين السـجائر. أنتَ تدخّن. ابتسـمتُ لسـؤال عبد العزيز السـريع. لا. حديثنا ذاك أشـبه بمشـهد حواري من إحدى مسـرحياتهما، التفتَ عبد العزيز السـريع لصقر الرشـود بمداخلة مرتجلة. لعلك تتعظ تتركَ التدخين. سيجارة صقر الرشود بين أصابعه، عـبّ منهـا نفسـاً عميقاً، التفـت ناحيتي. هل انصاعت أمـك لما تقتضيه صحتهـا تركـت التدخين. اضطررت للابتسـام ثانيـة. حاولت أمّي تقليل نسبة تدخينها دون جدوى. لماذا. تحوّلت ابتسامتي لضحكة خافتة وأنا أتذكر إجابات أمي. عندما اترك التدخين يشتد عليّ السعال أكثر. التفت صقـر الرشـود لعبـد العزيـز السـريع. هي مسـألة وفاء بالدرجـة الأولى. ادريـكِ يـا زينـب غير معنيّة بقراءة تفاصيل لا تمتّ لكِ أو لزمنكِ بصلة بيّنـة، لكنهـا تفاصيلـي تعيد لزمنـي ذاك دفئاً يحفزني أواصل، أعود أقول تنـاوب الإثنـان علـيّ، إنْ كان التحاقي بالعمل في سـن الصبا ناتجاً عن حاجـة لدخـل شـهري استطيع مزاولـة عملـي خـلال الفتـرة المسـائية والالتحاق بالمدرسة الثانوية صباحاً. ليتني استطيع. ما المانع إذن. سؤال محوري محيّر يقتضي إجابة بحجم ماذا، أنا مع نفسـي سـألتني سـبب مقتـي للدراسـة، ولـولا إلحاح أمّي لدرجة التوسّـل مـا أكملت المرحلة المتوسـطة، وطني الكويت سـلمت للمجد. هل يبدأ وعي الانسان بذاته نوعياً مع تجاوزه سـن عاشـرته، أم إنّه أمر متفاوت مرهون بظروف كلّ فـرد علـى حـدة، مدرسـة المتنبي المتوسـطة للبنين، الطابـور الصباحي، مراسـم رفـع العلـم، انتظـام الطلبة الصبيـة صفوفاً متراصّـة متوازية، كنا خليطـاً، فينـا الكويتـي، المصري، الفلسـطيني، العراقي، السـوري، دول أخرى، تنبّهت أوّل ما تنبّهت الى إنّ بعض الصبية الفلسـطينيين يتريّثون ما بعد كلمة وطني، ثم يهمسون بمفردة فلسطين، شيء أشبه بالعدوى، سمعت صبية آخرين يغمغمون أسماء أوطانهم إعتزازاً أو نكاية بمراسم مرعيّة، الكويتيون تحديداً كانوا يصدحون عالياً بمفردتهم، أنا من بينهم،

وما ترددتُ أو تشككتُ لولا لكزة في خاصرتي وجّهها كوع جاري في الطابور وكان سورياً. أنت غير كويتي. لا أدري إنْ كان توبيخاً أو شماتة، وأدري إنّ كشـوف حضور الطلبة وغيابهم، كشـوف درجاتهم، الأوراق الرسـمية للمدرسـة كافّة، أنا في خانة منها غير كويتي، إنْ كنت كذلك أنا ماذا، أمر ثان حفر له مكانا في وعي إبن العاشـرة، الزي المدرسـي المعتمد المؤلّف من قميص أبيض وسروال رمادي. اللون الرمادي سيد الألـوان، ألـوان الطيـف فيمـا يخصّني رماديـة، البحر والسـماء والطرق السـريعة وكذلـك الصحـراء ليـلاً، أنـا كمـا أرانـي رؤية متشـظية للحياة والموجودات قاطبة من خلال منظار محدودب ذي عدسـة تشـفّ لوناً رمادياً. لأنّه لون حليف لم تضطر أمّي لأن تبذل جهداً كبيراً في غسـل السـروال الرمادي، تكفيه مرّة واحدة في الشـهر، القميص الأبيض مثّل معضلـة. مـع مطلـع أيّ عـام دراسـي تصحبنـي أمّي إلى سـوق واجف، تشتري سروالاً واحداً وقميصاً واحداً، شرط أن يكونا راهيين بما يتماشى ونمو جسـدي خلال العام المعني، ارتدي الزي يوم السـبت، لا بأس، ارتديه يوم الأحد، لا بأس، السـروال الرمادي رمادي، يوم الاثنين تبدأ ياقـة القميـص الأبيـض إضافـة للأكمام بالتحوّل للـون الرمادي، الثلاثاء والأربعاء لون رمادي ضارب للسواد، الخميس إلى المشرف الاجتماعي. النظافة من الإيمان. ولا ينبري أحدهم يقول النظافة من الصابون، صباح الجمعـة تجلـس أُمّـي قرفصاءها عند طسـتها، تبذل جهـداً دقيقاً، تدعك قميصـي الـذي كان أبيـض محاولـة إعـادة لونه إليه، فـإن تداعى قفصها الصدري تحت وطأة سـعالها الحاد صرتُ مسـؤولاً أتابع مهمّة الدعك. يا منسي. نعم أستاذ. لماذا لم تلبس حذاء الرياضة الأبيض اليوم. نسيت. بالأمس تحججت بأنك نسيت. نسيت. نحيلك الى المشرف الاجتماعي. الأخير يحرر ورقة، مطلوب حضور وليّ الأمر. للسن أحكامها ومنحاها بالتعامل مع المحيط، آثرت تلقي المهانة اليومية من جانب المدرسـين

والمشرف الاجتماعي على أن أكرّسها مهانة تجاه رفاقي الصبية، مجيء أمّي الى المدرسة، عبورها الممر الكائن بين الفصول متوجّهة نحو مكتب المشرف الاجتماعي، من هي هذه المرأة، يقال عنها أم منسي، أكون ساعتها مدعاة سخرية لا قِبَلَ لي بها. أين ولي أمرك. لا ولي أمر. أبوك. متوفٍ. عمك. لا عمْ. أخوك الأكبر. بلا. خالك. لا. أمّك. تخجل من المجيء لهنا. إلى السيد ناظر المدرسة. يامنسي. تعددت وسائل التوبيخ مثلما تنوّعت أسباب المهانة. لزوم أترك المدرسة يا أميّ. أكمل المرحلة المتوسطة على الأقل. هذا الأقل كثير علينا، اشفق عليها لما تنتابها نوبة سعالها، أخالها بسبيلها لأن تموت، كانت تجالد نفسها تنهض مبكرة، المدرسة الشرقية للبنات، في الأيام الأخيرة لإمتحانات سنة رابعة متوسطة انهارتْ إحدى رئتيها، دخلت المستشفى الصدري، مكثت ثلاثة أسابيع ماعادتْ لائقة صحيّاً، ملازمة البيت ومراجعة المستشفى مرّة كل شهر، صرت عائلها. مساء يومي ذاك، مكتب إدارة مسرح الخليج، جالس أمام الإثنين، صقر الرشود وعبد العزيز السريع، استجوابهما لي مغاير لاستجواب المشرف الاجتماعي أو ناظر المدرسة، ألحّا قاصدين معرفة أسباب عزوفي عن مواصلة دراستي، لسبب، يمت للمكابرة بصلة أخفيتُ في البدء مرض أمّي، تعللتُ بضعف استيعاب دروس اللغة الانجليزية والرياضيات وكذالك التربية الإسلامية، ضحك عبد العزيز السريع، أبدى استنكاره. ألست مسلماً يا إبن أبيه. ضحك صقر الرشود أيضاً، اغتنمتُ الفرصة. قهوة ثانية. بادرني صقر الرشود. إجلس. جلستُ صاغراً، التفت لعبد العزيز السريع. بصرف النظر عن ادعاءات إبن ابيه هو شاب ذكي. معك حق.لابدّ لنا من إيجاد حلّ مناسب. البركة فيك. المنحى الجاد لصقر الرشود يتناغم مع روح الدعابة لدى عبد العزيز السريع. من الظلم أنْ لا يكمل دراسته الثانويّة. لا اعتراض. يتداولان شأني بصفتي غير موجود. يمتلك أذناً موسيقية

مرهفـة تـدلّ علـى موهبـة. لا علم لي بذلك. ماذا لو تدبّرنا أمره ألحقناه بمعهد الموسـيقى. إنْ كان عليّ أضمن لك قبوله في معهد الدراسـات المسـرحية، مديرالمعهـد الاسـتاذ زكـي طليمات يكنّ لنا إعـزازاً خاصّاً، الأمر، الآخر، وجوده بيننا يساعده على استيعاب موادّه الدراسية.

معلومات متفق عليها بحكم حقائق، سنّ الكهولة يبدأ مع الخمسين من عمر الإنسـان، يمتدّ زهاء خمس عشـرة سـنة إلى عشـرين، ومن ثمّ نحو سن الشيخوخة، إحساسي الشخصي انّي دخلت مرحلة الشيخوخة قبل بلوغي الأربعين من غير المرور بالكهولة، حسـاب سـنوات العمر، أنا الآن في الخامسة والخمسين، مشقّة أنْ يعيش الواحد مفتقداً أسباب بقائـه حيّـاً، مؤهّـلاً لأنْ يفارق نتيجة لا جـدوى وجوده، وحدها الذاكرة باقية بالشكل الذي يؤهّلني استعيدني أسألني، لو إنّ وعي صبي مدرسة المتنبـي المتوسـطة ظـلّ يـراوح مكانه من غير اتسـاع قوسـه، لو اسـتمر فـرّاش مسـرح الخليـج وقـد التحق بعمله عام1971 فرّاشـاً لـكلّ العقود التـي تلـت، لـو لـم يتدخل صقر الرشـود وعبـد العزيزالسـريع في حينه يلحقـان الفـرّاش المعنـي طالبـاً بمعهد الدراسـات المسـرحية ومنه إلى المعهـد العالـي للفنـون المسـرحية بكالوريوس أدب ونقد مسـرحي، لو لم ألتق باحداهن، لتنشـأ بيننا قصة حبّ عدائي جارف، لو لـم أتزوجها أو تتزوجني، لو لم يكن هناك اجتياح الثاني من أغسطس 1990 لتتحول الكويت محافظة نداء بناء على قرار قيادة نظام عراقي، من أجل كشف المسـتور يلجأ بعض الكتّاب إلى طرح تسـاؤلات توحي بإجابتها، تراني وُفقـتُ لتقديـم صـورة بورترية لك عن أبيـك، أنتِ في الغياب والإجابة الحاضـرة لـدي لا. اسـتطراداً لمـا فـات، بما إنّهما، صقر الرشـود وعبد العزيـز السـريع، اتخـذا قرارهمـا بصددي، معهد الدراسـات المسـرحيّة شـملتني حيرتي. بدء الدراسـة متى. الدراسـة بدأتْ والتحاق طلبة سـنة أولـى خـلال الأيـام الثلاثـة القادمـة. التسـليم وجه رضا قهـري، فهمت

من كلامهما، شـهادة المعهد تعادل شـهادة الثانوية العامّة. الدراسـة أربع سـنوات. فهمت أيضاً. الدراسـة مختلطة. الأهم من هذا كلّه فهمت. لا وجود لزي محدد. تلافياً لضيق الوقت عهدا بي لسليمان الياسين بصفته طالب سنة ثانية معهد، اصطحبني الأخير لشارع فهد السالم حيث سوق الملابس الرجالية. نشـتري لك ثلاث بدلات. لم اخف اندهاشـي. هذا كثير، تكفيني بدلة واحدة. حدّق إلي في عيني. عندما تجد نفسكْ داخل فصـل دراسـي تجـاورك فيه أنثى مشـروع فنانة يلزمـكَ العناية بمظهرك. هو شـخصياً يمتلك سـت بدلات ينوي شـراء سابعة. صباح اليوم التالي وقفت أمام المرآة لابسـاً بدلتي، هذا أنا، في العمق من المرآة، لمحتُ أمّـي تجمـع كفّيهـا باتجاه السـقف. عسـى اللـه يوفّقك. منطقة الشـامية عامـرة أيامهـا علـى طريقتها، مبنى معهد المسـرح يقع عند خاصرة مبنى وزارة الداخليـة، بالجـوار مـن المكتبة العامّة، اقتربُ وأتردد، تهيّب مبرر أوغير مبرر، شأنهم جديد بالنسبة لي، كما لو إنيّ الطارىء، لدى بلوغي البوابة الزجاجية لمدخل المعهد رأيت سليمان الياسين واقفاً في الجوار، هاجس اطمئنان، نبّهني إني طالب سـنة أولى مسـتجد، يلزمني والحالة هذه أشدّ أزر نفسي وصولاً لتأقلم منشود، شُدهتُ تجاه تواجد عدد لا يستهان به من الطالبات، مهرجان أزياء، فوجئت برؤية طلبة يرتدون الزي الوطني، عرّفني سليمان الياسين على طلبة زملاء، تحاشى تعريفي على زميلات. لماذا. حول هذا الأمر بالذات أنت مسـؤول. لأني المسـؤول تحاشـيت الاقتراب، أنا كما أراني لسـت مؤهلاً لأنْ، ولا حاجة بي أنْ، اكتفيـتُ أراقـب عبـر مسـافة أمـان كافية. مـرت أيام أولى، سـمعتُ عن وجود منحة مالية تصرف للطلبة، عشـرين ديناراً شـهرياً، ماذا بخصوص غير الكويتي، ساررتُ سليمان الياسين مدارياً فضولي. أنا توليت إعداد أوراق دخولـك المعهـد أنـت كويتـي بالـولادة، المكافأة تشـملك. عهد الدراسة ماقبل، الابتدائية والمتوسطة، كنت أغادر الفراش صباحاً مكرهاً،

مع المعهد صرت أنهض نشطاً لا ينقصني الحماس، أهم ما تعلمته هناك إن إحتراف الفن لا يعني صقل الموهبة واكتساب المهارة وحدهما، لكنّه السلوك أوّلاً، سيادة روح الفريق، وسط هذا المناخ المثبّت للعزيمة راوغني شعور محبط مرتبط بإسمي الفني الذي آل متداولاً وسط زملائي الطلبة، المنسي إبن أبيه، وغالباً مايغفلون إسمي ينادوني يا إبن أبيه، لا غضاضة أنْ يصير منسي منسياً فعلاً، الغضاضة في الدلالة. الله يسامحك يا محمد السريع. حزني استوطن صوتي وأنا أسارِرُ سليمان الياسين أشكو له محمد السريع، رفع سليمان الياسين حاجبيه دهشة. ما الذي يزعجك منه. ليته لم يبتدع لي كنية إبن أبيه. ليست كنية لكنه إسم فني يحتمل مفارقة تكفل له الانتشار السريع. مالي ومال الانتشار. حدجني نظرة مستنكرة، سألني إنْ كنت أعرف إسمه الحقيقي. سليمان الياسين. بل سلمان ياسين بو كنان. كاظم القلاف اختار له إسمه الفني، وسط دهشتي انبرى سألني هل أعرف الاسم الحقيقي للفنان غانم الصالح. من أين. إسمه صالح الغوينم. استمهلته ما اذا كان يعرف أو لا يعرف، عاد رفع حاجبيه دهشة، أفضيتُ بما يحزنني. كنية إبن أبيه تعني إني لقيط. أصابته الصدمة. الله يخسّك. ألحّ على معرفة مصدر المعلومة التي تحيلني إبن زنا. كُتُبُ التاريخ تؤكد ذلك، الرجال مجهولو الآباء وحدهم يكتسبون هذه الكنية. لم تقنعه إجابتي، أصرّ يعرف مصدر معلومتي، ذكرت له إسم هادي علوان. الأخير طالب سنة أولى مثلي، هزيل البنية، تبدو دشداشته كأنها تفيض عليه، سريع الحركة، تخاله يتواجد في كل مكان داخل المعهد، كلّما اختلى إثنان لتبادل حديث خاص كان ثالثهما خلسة، يصفه البعض بالفضولي، آخرون يسمونه المتلصص، لعل صفة طفيلي تناسبه أكثر، بدءاً تقبّلتُ شخصيته على عواهنها، أوّلت غرابة سلوكه بصفتها محاولات بائسة لإثبات الذات، سليمان الياسين سارّني ما معناه هادي علوان مشبوه. مشبوه بماذا.

أغلب الظن رجل مباحث موظّف لأداء أغراض تجسسية. لصالح من. سؤالك يجب أن يُصاغ ضدّ من. انشغل ذهني لأيام توصّلتُ بعدها لقناعتي، لا مبرر لتأويل ذي دلالة مخزية، اتخذتُ قراري أتحاشى إنفرادنا هادي علوان وأنا لأي سبب كان، تكفيه شبهته مباحث واكفيني ألماً مجانياً لا طاقة لي به، لم ترق الحال لهادي علوان، ترصّدني ذات يوم أمام بوّابة المعهد. أنت تتحاشاني. أنفي التهمة، يصر. أنت تشمئز منيّ. من أين يأتي باستنتاجاته هذه، أردتُ الإفلات، أكّدتُ له إنّ كلامه لا يمت للحقيقة بصلة، أزمعتُ الابتعاد، تشبّث بردن قميصي. لحظة لوسمحت. أستبدّني إنزعاجي، خطرتْ لي مواجهته. أنت إضافة لكلّ الذي قيل عنك بلا كرامة. لجمتُ غضبي، سألته ماذا يريد، شابَ تمنيه صوته. أنْ تفهمني. من أين يجئ الفهم، وسط انشداهي ومحاولة كبح جماح غضبي سمعته يواصل. أنا مثلك. أعوذ بالله. كلانا غير كويتي. ما الذي تريد قوله. أراد القول إنّه لم ينو اهانتي لمّا حدثني عن إحالة كنيتي، نفد صبري. أنا لم أطلب منك تبريراً لما بدر عنك. توسّلني. ليس تبريراً يا إبن أبيه.

التذكر في حالات كثيرة منه أمر مضن يثقل الروح، رغم هذا أوطّن نفسي أتذكر، أوطّنها على مواصلة الكتابة، الكلمة الفعل أوطّن تحيلني على وطني الكويت سلمت للمجد. المعني هادي علوان زاملني أربع سنوات، معهد دراسات مسرحية ومثلها معهد عال للفنون المسرحية، اثر تسلّمنا شهادات البكالوريوس انفرط شمل الطلبة، صرتُ لا أراه إلاّ لماماً جدّاً، غفلتُ عن توجيه سؤالي أين تعمل، لعلي كنت متيقناً إنه ما يزال مباحثياً، اختفى مع حدث الاحتلال عام 1990 ولم يظهر حتّى اليوم. مبنى معهد المسرح ومبنى وزارة الداخلية علاقة جوار، وهو يتشبث بردن قميصي قبل حوالي أربعين سنة وضّح هادي علوان ما تتوجّب عليّ معرفته بصفتي إبن أبيه، إنّ النعت لقيط ليس سبّة،

هـو فـي واقـع الحـال ميّـزة إنْ لـم يكن نعمـة تفوق ما أحلـم به. ماهذا الهـذر يـا إبـن العلـوان. لكنّـه تابـع مفضياً معلومات لـم تخطر لي على بال. اللقيط، أي لقيط مولود هنا يتمتع بحق اكتسـاب الجنسـية الكويتية إذا بلـغ الثامنـة عشـرة، القانـون ينـصّ، لـو إنّ أمّه لم تربط نفسـها لأبيه بوثيقة زواج شـرعية لاسـتعان بشخصين متقدمين سنّاً اصطحبهما للجنة الجنسـية، المدعـو هـادي إبـن زنا. هـل من المشـروعية أنْ ينال واحدنا حـق مواطنتـه شـرط إثبـات كونه ماذا. هادي علوان ذكر إسـم شـخص نعرفـه كلانـا صـار كويتياً، وقفتنا في جيـرة وزارة الداخلية، الفرصة وقد سنحت له كي يفضي أو يعترف، قال كلاماً كثيراً أسقطته الذاكرة جرّاء التقـادم عـدا جملـة أعقبت زفرة تسـليم تفيد، مبدأ التعـاون يذلل بعض العقبـات إضافـة لتسـاؤل مجتـزأ اتخـذ منحـي دعوة مفتوحـة صرّح بها مخالسـاً نظـره نحـو مدخـل وزارة الداخليـة، إذا راودتني يومـاً ما رغبة الانخراط متعاوناً سأجده نصيراً. المباحث من البحث والتقصي، بعض المهن تحتاج إمكانيات شـخصيةً لها صلة بالموهبة، المباحث إحداها، أينـي منهـا. ونحن نكابد سـنوات دراسـتنا تبـدو لنا بأيام وأسـابيع ثقيلة متباطئـة عصيّـة علـى الدوران، فإنْ مرّت لندخـل معتركاً آخر من حياتنا إسـتحال زمننا ذاك ذكرى شـفيفة، الآن بعد إنقضاء عقود، أسـتعيد أيام معهد الدراسـات المسـرحية، يناصبني ذهني التجاوز، كلها حلوة. تعال يا إبن أبيه. كان مساءً متأخّراً من مساءات ربيع عام 1975، كنت طالب سـنة رابعـة، وهـا هـو عبد العزيز السـريع يطلبني للقاء فـي مكتب إدارة المسـرح، رأيتـه جالسـاً علـى الصوفا، أشـار إلى مـكان بجانبه. اجلس. تواجـدي طـوال سـنوات أربـع أزال أسـباب الكلفـة إضافة لبدء تشـكّل ثقافتـي الفنيـة، صـرت واحـداً من أعضاء فرقة مسـرح الخليج، أصغيتُ لـه. قـررت تأسـيس مشـروع تجـاري إعلامي. المشـروع كمـا فكر عبد العزيز السريع يقوم على فرضية إنّ فناني الكويت كافّة بما فيهم كتّابها،

يبدون مهمومين بإشغالات الحياة اليومية غافلين عن رصد ومتابعة ما يُكتب بخصوصهم، هم بحاجة لمن يتولّى هذا الشأن الإعلامي، يجمع كتاباتهم وأخبارهم من الصحف اليومية والمجلات الأسبوعيّة، يؤرشفها، كل واحد ضمن ملف خاص به، يتسلّمه عند الطلب لقاء إشتراك شهري أربعة دنانير، خلص عبدالعزيز السريع لاقتراحه بودّه أن أكون ساعده الأيمن في مشروعه.على بركة الله. أقبلنا على عملنا متحمسين، نهضتُ بأعباء مهمّة جمع قصاصات الصحف والمجلات، تصنيفها ضمن ملفّات لمشتركين مفترضين، عرضنا فكرة المشروع على عشرات الأشخاص والمؤسسات، غالبية ردود أفعالهم جاءت سلبية، لاحاجة بنا، هل كنا متقدمين على زمننا أم متخلفين عنه، بعد أشهر قليلة نفض عبد العزيز السريع يده من مشروعه، لأتبناه أنا بما يشبه سريّة العمل في البدء، وجدته يشبع جانب الفضول، أوالإلمام بتاريخ هذه الشخصية العامة أو تلك من خلال ملاحقة أخبارها، تلوّنها، أو تناقض مواقفها بناءً على ما تستوجبه طموحاتها، الصحف اليومية، المجلات الأسبوعية والشهرية، العديد من ذلك يَردُ للمسرح بشكل منتظم يوفّر لي فرص التصفّح والاقتطاع، لم أعدم وسائل الحصول على دوريات ونشرات تخدم غرضي، لأتنبّه لكنز معلومات تحويه الجريدة الرسمية الحاوية مراسم منح الجنسية الكويتية أو حجبها، القوانين المستجدّة والمعدّلة، ترسية مناقصات كبرى على أسماء محددة من نزلاء ملفّاتي، لم يخطر لي ببال أنْ أستغل معلومات بحوزتي لغرض شخصي، لم يراودني هاجس تشهير، الهوس الذي لازمني حدّ الادمان يتصل بلذة الرصد. أبان ممارستي غوايتي هذه كنّا أمّي وأنا نسكن ملحقاً أرضياً في مبنى يتألف من ثلاثة أدوار، يقع على زاوية طريق جانبية تتصل بشارع موسى بن نصير في منطقة النُقرة بما يسهّل بلوغي مقر عملي في مبنى مسرح الخليج مشياً، ملحقنا عبارة عن غرفة واحدة للنوم

والمعيشة وممر ضيق يفضي إلى مطبخ يتصل بدورة مياه. إقبالي على إعداد ملفاتي لم يشغل بال أمّي في السنة الأولى، كانت تراقبني صامتة أو هكذا بدا لي، ريثما جئتها بدولاب خشبي كبير ذي أرفف كثيرة من سوق الأثاث المستعمل، احتلّ الدولاب حيّزاً من مكان الجلوس، استنطقتني وقتها بأسلوب أثار استغرابي. أنت الآن طالب جامعي سنة أولى معهد عال فنون مسرحية. تركتْ جملتها مفتوحة، نبرة صوتها حياديّة لا توحي بالذي سيأتي، أدريها تعي ما يدور حولها كفاية. ملفاتك تفوق كتبك المتصلة بدراستك. صوتها يشوبه استنكار، ناورتها. ملفاتي شأن مستقل عن دراستي. من كلّفك بعمل هذه الملفات. لا أحد. ما الذي تهدف إليه إذن. لا شيء.عيناها توحيان بتشككها. هكذا لوجه الله. قلت لها. الأمر برمته هواية شخصية، ملفاتي هذه لن يطّلع عليها أي مخلوق. عدانا أنتِ وأنا. ظهر اليوم التالي، دفعتْ لي ملفّاً حائل اللون متآكل الحواف. احرص على هذا الملف يحوي أوراقنا الخاصة بطلب الجنسية. أتذكرها لما كنت طفلاً تصحبني معها لمقابلة لجنة الجنسية، تحضرني أشبه بمن يحدّث نفسه. هم يتجبجبون من مواجهة إمرأة. لم افهم وقتها مفردتها يتجبجب، أستعيدُ صوتها تخاطبني لدى مغادرتنا مبنى اللجنة ذات ضحى. لو إنّ أباكَ لم يَمُت. أذكر هذا كلّه، أذكر دموعها، ولا أذكر مايفيد احتفاظها بملف، فتحْته بحذر يناسب أهمّيته عندها، واجهتني ورقة أولى، سمعتها تخبّر.عقد زواجي من أبيك.عيناي تلاحقان كلمات مكتوبة. أنا إمام مسجد منطقة الأحمدي على سنّة الله ورسوله، بحضور الشاهدين. خط يد بأسطر مائلة وحبر أقرب للون الزعفران. حُرر هذا العقد في السابع عشر من شهر جمادي الأول سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة وألف للهجرة. قلبتُ الورقة، طالعتني ثانية. شهادة وفاة أبيك. الثالثة كانت شهادة ميلادي، بانتقالي للورقة الرابعة نبهتني. مهمّة جداً، قسيمة تعداد السكان لعام 1965. ليس سوى إسمينا

هـي وأنـا، لأنّ ملفّهـا يمثّـل ذخيرتها أردتُ إضفاء طابـع إحتفاء، أخذته بخلسة منها لأحد مجلّدي الكتب، ارتأيتُ عليه تجليس حافظته بالجلد المُقـوى، حفـظ الأوراق ضمـن ترتيبها داخل مغلّفات شـفّافة. مارأيكِ. عيناهـا إتسـعتا حـال رؤيتهـا ملفّهـا، شـعّتا إعجابـاً. بعد عمري منسـي. تصفّحتْ المغلفات الشفّافة، شرد ذهنها برهة. لو كان لدينا ورقة أخرى. الحسرة مؤهلة تمحو الفرحة. مثل ماذا. وثيقة تملّك بيت. عالجتْ علبة سـجائرها، لا وقت لكي أُبدي عتباً، راقبتُ رجفة أصابعها وهي تشـعل سـيجارتها. فـي آخـر مقابلـة مع أعضـاء اللجنة قال لي أحـد رجالها لو عندكم وثيقة بيت باسـمكِ أو باسـم المرحوم زوجك تسـهّلتْ مسـألة منحكـم الجنسـية أنـتِ وولـدكِ. بعيداً عن إثارة همـوم أمّي بقيتْ جملة رجل لجنة الجنسية. لوعندكم وثيقة بيت. تتردد في رأسي، تريّثتُ طويلاً عنـد الحـرف الـذي بـدأ بـه. لو. وَرَدَ في معاجم اللغـة العربية لو حرف امتناع لامتناع بما يؤكّد امتناع الجواب لامتناع الشـرط، في الوقت ذاته شاغلني سؤال حاد مازال يجول داخل رأسي. أيّهما مرهون بالآخر وثيقة تملك بيت أم وثيقة إنتماء لوطن.

مصادفة سـكنى رسـام الكاريكاتيرالفلسـطيني ناجي العلي في شقة مـن الطابـق الأوّل فـي المبنـى حيـث الملحق، كان ذا قامـة هزيلة تميل للطـول، عينـاه بنظرة حادّة وسـط وجـه مرهق يوحي بكهولة مبكّرة رغم إنّه لم يبلغ الأربعين بعد. صباح الخير. مساء الخير. تحايا عابرة إعتدنا تبادلها بحكم الجيرة عندما نلتقي مصادفة أمام مدخل المبنى، مساء أحد أيام شهر أكتوبر 1976 فتح ناجي العلي عينيه عليّ وأنا أدفع إليه بفنجان قهوة سادة. أنت جاري في المبنى. مناسبة زيارته لمسرح الخليج، كانا هو وعبد العزيز السـريع يجلسـان في مكتب إدارة المسـرح، تطوّع عبد العزيز السريع. المنسي بن أبيه عصامي يحتذى به، يجمع بين عمله هنا ودراسته في المعهد العالي للفنون المسرحيّة. أطلق ناجي العلي ضحكة

قصيرة رائقة لا تخلو من دهشة. قبل أيام سألني أحد الزملاء في مجلّة الطليعة عن نسب حنظلة الذي أمهر به رسوماتي أجبته هو إبن أبيه نسبة للأب الأوّل فلسطين. لقاؤنا إياه لم انبس، أكتفيتُ بابتسامة مجاملة إزاء إشادة عبد العزيز السريع والإحالة العفوية من جانب ناجي العلي لنسب إبن أبيه، لقاؤنا بعد يومين أمام مدخل مبنانا السكني لم يقتصر على مساء الخير وحدها، ابتسامته العريضة منحتني ما يشبه الألفة، أحسسته يكنّ لي مودّة. أحوالكَ مع دراسة المسرح.لا بأس. حانتْ عنه نظرة نحو باب الملحق. أنت وأمّك تتشاركان السكن هنا. هذا صحيح. الكويتيون عادة لا يعملون في الخدمة ولا يسكنون ملاحق. صدرت عني ضحكة مفارقة خافتة. نحن كويتيون على الريحة. لاذ بصمته هنيهة. تصويرك لحالتك كاريكاتيري. تنبهتُ لتوظيف كلمة تصوير بدلاً من تعبير، سمعته يقول. على الريحة تنسب للقهوة. والقهوة التي شربها في مسرح الخليج ذات نكهة خاصّة، اكتفيتُ بالإصغاء. بودي لو أردها لكَ إن لم تمانع. كلماته عرض استضافة، لم أتردد طويلاً. أُمانع. عيناه صرّحتا بدهشته. لماذا. أشرت نحو باب الملحق. بيتي أقرب. أطلق ضحكة مرحة، خطف نظرة لشرفة شقته في الطابق الأوّل. لن أقول بيتي أعلى. أنتِ كما يفترض طالبة جامعية الآن، أكاد أجزم يا زينب إنّكِ لم تسمعي بناجي العلي، وإن صادفتِ إسمه أو بعض رسوماته في شبكة الانترنت مررتِ عليه أو عليها دون التريّث عنده أو عندها، في البال لو تواصلنا أنتِ وأنا، تبادلنا جانباً من معرفتنا، لكن نشأتكِ، بدءاً من يوم ولادتكِ بعيداً عنّي حالت دون ذلك، يبقى التعويض البديل ان يكون مصير هذه الأوراق عندكِ، بناءً عليه أقول لك. نقَاد عديدون سمّوا ناجي العلي ضميراً للثورة الفلسطينية، بعض المتربعين على رأس القضية عدّوه سكيناً في الخاصرة. طورد وطرد من بلدان عربية، عاش إحدى وخمسين سنة، قضى عشرينها الأخيرة هنا، قبل ان يُقالَ له غادر،

قضى عام 1987 في شارع لندني برصاصة من مسدس كاتم للصوت استهدفت مؤخرة الرأس، الموساد أفادت. شرف لم ننله. المنظمة قالت. خسارة لا تعوّض.العارفون ببواطن الامور تبادلوها همساً. نيران صديقة. إذا كان الحنظل أكثر ثمار الأرض مرارة، سخرية ناجي العلي حنظلية عن جدارة، لستُ بصدد أنْ أؤكد مات مغدوراً به، بصدد موقفنا هو وأنا أمام مدخل البناية لمّا ردد جملته لن أقول بيتي أعلى لم يضمر تحدّياً بقدر ما عنى استعداداً للموافقة، تملكتني حيرتي لحظتها، بيتي ملحق بغرفة واحدة محدودة المساحة تجمع ما بين النوم والمعيشة، لم يصدف لنا، أمي وأنا، أنْ استقبلنا ضيوفاً، فإنْ تجاوزتُ ذلك هناك أمر آخر، بيتنا خال من القهوة. ليس سوى الشاي. إبتسم. الشاي في مثل هذا الوقت أفضل. استمحته. دقيقة. ابتسم موافقاً، بقي واقفاً في مكانه، حثثت خطوي نحو باب ملحقي، دخلت. يا أمّي معي ضيف. ذهلت أمي لوهلة، خففتُ عنها. نشرب شاياً لا غير. بذلت جهدها استوعبتْ ما قلت. من هو ضيفك. جارنا ناجي العلي. انفرجت أساريرها. أبو حنظلة. هل أستغرب منها إطلاق تسميتها، حرّكتُ رأسي إيجاباً. أين هو الآن. أمام الباب. دبّت حيّويتها في حركتها. شاغله قليلاً ريثما أعدّ لكما مكان جلوس. أدري إنها سجّادتها وحدها، خرجتُ إليه مزمعاً مشاغلته وجدته شغل نفسه، رأيته مقعياً، إحدى ركبتيه على الأرض في حين إتخذ من الثانية مسنداً وضع فوقه كرّاساً يعمل قلمه الرصاص فوق صفحة منه، كان ينقل بصره بين الورقة وباب الملحق أمامه، خطوتُ محاذراً إثارة انتباهه عمّا بيده، وقفت وراء كتفه، أطللت، رأيتُ باب ملحقنا مواربأً، الجدار بالخطوط المتوازية والمتقاطعة للطابوق الجيري أشبه بالقفص، رأيت ناجي العلي يخط ملامح شاب يطلّ عبر فرجة الباب، رأيت شبهاً منّي، غمرني شعور اعتداد يغالبه عرفان، كتب ناجي العلي أسفل رسمته حنظلة الكويتي. اقتطع الورقة من الكراس، دفعها

لي.للذكرى. بعد دقيقتين دخلنا الملحق، سبقته باتجاه الغرفة، الاعتذار ينحو مفارقة، أشرتُ للسجّادة.على الأرض. طمأنني ردّه. مآلنا لها. حال جلوسه علقتْ عيناه بالدولاب، تأمّله لثوان، الزجاج يشف عمّا وراء، خلته يتصفّح ملفّاتي من مكانه على السجّادة. كتبكَ قليلة العدد مقارنة بهذا الكم الكبير من الملفّات. هواية جمع قصاصات صحف ومجلات. أمّي باقية تنشغل باعداد الشاي. لا أظنكَ من هواة جمع صور واخبار نجوم السينما ولاعبي كرة القدم. بدرتْ عنّي ضحكة خافتة. نجوم من نوع ثان. تأمّل إجابتي برهة. لن اسألك إنْ كنتَ تعّد لأمر في بالك. لازمت صمتي. المهم لم يخطئ حدسي أنت حنظلة آخر. توّطدت لدي ثقتي بي، بَلَغنا في التو صوت أمّي تمهّد لدخولها. حيّا الله من جانا. فوجئتُ به يهّب واقفاً، وقفتُ منصاعاً، دخلت أمّي حاملة صينية بثلاثة أكواب شاي، جلوسنا ثلاثتنا، طاب لأمّي أنْ تبادله الحديث على طريقتها، حدّثته عن حلم يراودها، الحج إلى بيت المقدس، أجابها عليها العودة لما قبل هزيمة 67 حيث كانت القدس خاضعة للانتداب الأردني، سألَته أمّي إنْ كان يعرف ناظرة مدرسة الشرقية للبنات فائزة كنفاني. قال لها فلسطينيو الكويت كافّة يعرفون فائزة. إلتفت إلي. هناك كنفاني ثان، كان يعيش هنا هو الكاتب غسان ليتك تقرأ له. أتى على بقية شايه. شايكم معتبر. إبتسمتْ أمي. كل يوم تعال.

في رواية الحمار الذهبي لمؤلفها لوكيوس ابوليوس تتجلّى الراعية إيزيس المعروفة لدى الشعوب الدارسة أمام الحمار المعني. جئت هنا رحمة بك في عذاباتك أنا هنا لأحسن إليك وانعم عليك فاترك بكاءك وشكواك وانبذ الحزن الآن يبزغ يوم سعادتك بفضل عنايتي فاصغ إلي إذن وانتبه إلى ما آمرك به ستتخلص حالاً من جلد هذا الحيوان. ثم يخبرنا الحمار الذهبي إنّ إيزيس اثر انهائها حديثها تلاشت في نفسها. فنفضتُ النوم عن عيني فغمرني الخوف والفرح ثمّ صبيب العرق. الحمير عبر التاريخ الذهبي والعادي تفرح وتحزن، تقلق، تخاف، تتصبب عرقاً عندما يصيبها حلم بذاته. بعيداً عن الحمار الذهبي أو تمثّلاً به أُصبتُ البارحة بحلم لم تتجلّ فيه الراعية إيزيس، لكنّها إمرأة لا شبيه لها. كنتُ، بعدما أجهدتني الكتابة إليكِ، اسندتُ رأسي لصندوقكِ عساني أنال قسط راحة قصيرا، أخذتني الغفوة. ليل مهيب لا أستطيع تحديد الوقت إنْ كان أوّله أو منتصفه، ظلام كثيف فاتن تتأكد فتنته بنعومة ملمسه لدى اختراقه، أنا أتولّى قيادة دراجة هوائية عائدة لصبي الخدمة السريلانكي كومار، مردفاً ورائي إمرأة فاتنة تتأكد فتنتها من خلال إحساسي بطراوة جسدها الملامس قفاي، ذراعاها البضّتان تطّوقان خصري بما يوحي إنّها تأخذني لها، من دون رؤيتي لوجه المرأة الحلم امنحها عمراً لا يتجاوز العشرين سنة على العكس من عمري الذي كان عصيّاً على التقدير، أخاله يراوح ضمن فترة برزخية لا هي متقدمة جزماً ولا متأخرة ضمناً، الأرض تحت عجلات دراجتي طيّعة، تسهّل الانطلاق قدماً، احسستُ بأنفاس المرأة تلامس أذني، سمعتها تسألني. متى نصل. لو أصدقتها الرد. قلتُ لها. لا أعرف. بديل ذلك طمأنتها. قريباً. اشتدت حركة

الرياح في الجوار. هل أتعبكِ الركوب. أتعبني الصمت. للأحلام آلية خاصّة بها، رسخ في وعيي الحلمي لحظتها إنّ المرأة الراكبة خلفي ليست سوى زوجتي، أُمّكِ عهود، رسخ في دخيلتي أيضاً واحدنا يكمل الثاني منذ الأزل، عرضتُ اقتراحي. نتحدّث. فأجاني ردها غير المتوقع عندي الحياة أنْ نعيشها لا أنْ نتحدثها. آثرتُ أنْ لا أثير جدلاً ينغّص علينا رحلتنا. همستُ لها. أنتِ جميلة لدرجة احتدام الرغبة. لا رد. عاتبتها. أنتِ ساكتة. أفلتت زفرة أسى لامست بدفئها جانب رقبتي. أخي يقول. تركت قولتها معلّقة. أخي مازال يقول. تركت قولتها الثانية معلّقة أيضاً، حضرني وجه خالك سعود الاستاذ الجامعي بعينيه الغائرتين، تكدّر مزاجي، لم أعن أسألها ماذا يقول، عوضتني، شدّت ذراعيها حول وسطي، تساءلتني بصوت هامس. متى نصل. أوشكنا. تشككت. هل أنتَ واثق. لم اشأ أكذب. لا. تلوّن صوتها احتجاجاً. معنى هذا. قاطعتها هادفاً لحرف انتباهها. أنظري. الجانب الأيسر للطريق تكشّف عمّا يشبه غابة كثيفة الأشجار تتخللها أعمدة إنارة أرجوانية متلألئة تنتهي عند ساحة مترامية مزحومة بالمركبات. قالت بما يشبه اللامبالاة. هذه سينما السيّارات. وافقتها تماماً. لم تخفِ احتجاجها أو انزعاجها. ما الذي يدور في ذهنكَ. يعرضون فيلماً لعادل إمام. أعادت تساؤلها. ما الذي يدور في ذهنكَ. سلّمتُ لها. نكمل طريقنا. نكملهُ إلى أين. لحين الوصول. احتجاجها يتشرّب صوتها. الوصول لأين. ولأنّي لا أملك إجابة واضحة. لهناك. حتّى متّى ولأنّي لا املك إجابة واضحة. حتّى بلوغ القصد. لعلّها لاذت بصمتها صاغرة، أمعنتُ تفكيري، أردتُ مشاغلتها بأن أجعلها تتولى قيادة الدراجة. انتِ تقودين الدراجة. ماذا. تركبينها وحدكِ. وأنتَ. أسايركِ مشياً أو ركضاً. أنتَ تجهل ما تقول. اعرفنا نصل أسرع. توقفتُ، اسلمتها قياد الدراجة، مانعتْ ثم سلّمتْ، حركتْ ساقيها فوق دواسة الدراجة، دفعتها من وراء. هيّا ابذلي جهداً أكبر. همّتي تشد

أزري، همتها تشدّها إلى أمام، بعد ثوانٍ بدأتْ الدراجة تندفع إلى أمام، آخذت تتسارع، ماشَيتها، سارعتُ المشي، هرولتُ وراءها، ولا مناص من الركض، مرّتْ وهلة زمن لم أستطع تحديدها، اختفتْ أنوار سينما السيارات، الطريق باقية تترامى أمامنا، الظلام الحالك الفاتن إيّاه يلامس وجهي تنازعه هبّات رياح منعشة، مرَّ لأيٍّ انعدمتْ بعده ملامح الطريق تماماً، تولّد لدي إحساس يفيد بانّي أعبر غابة أشجار حور عملاقة، الرائحة أكّدتْ وكذلك أصوات الجنادب.

الأحلام لا تُقيم اعتباراً لأصحابها، الدراجة تنطلق أمامي، في البدء كنت اسمع لهاث أمّكِ وهي تكابد الدراجة، لا بأس بمضاعفات غير محسوبة إذا كان في القلب من الحلم حلم آخر، كرّستُ إرادتي ركضاً، الخفّة تأخذني سلساً، قدماي لا تكادان تلامسان أرض الطريق، أنا والعدو صنوان متآلفان، توارتْ معضلة السن بالارهاق الملازم لها، قطعتُ ردحاً من زمن برزخي، فجأة تنبّهتُ إلى إنّي ما عدتُ أسمع لهاث أمّكِ، راودني تساؤلي، أيّنا قدر صاحبه، من منّا يسبق صاحبه، وقفتُ، سمّرتُ قدمي أرضاً، أصختُ السمع نحو الجوار، شاغلتني أصوات الجنادب، قبل أنْ يتناهى لي صراخها، كيف تخلّيتُ عنها بعيداً، صوتها الباكي يؤكد طلب استغاثة، ماذا أصابها، غافل أنا حدّ اللامسؤولية أم مغفّل حتّى الغباء، عاودتُ ركضي مسكوناً بهاجس الفجيعة، أنا الملوم. الحزن في سياق الأحلام يختلف عن حزن نعانيه في حالات الصحو، حزن الأحلام يجيئ خالصاً مقطّراً ينتاب الجسد كلّه، يتشرّبه كلّه، يبقى هناك بطعم حنظلة ناجي العلي، قبل أنْ يتفصّد عبر مسامات الجلد برائحته المرّة، ينازع رائحة غابة أشجار الحور، يطغي عليها، يلغي حضورها، مثلما صار العويل عاملاً لنفي أصوات الجنادب، تلك هي الحال، أنا والليل والعويل وهذا الشعور المباغت بحرقة العينين جراء انهمار الدموع، صرتُ اركض شوطاً، أتوقفُ، أصيخُ،

عويلها قيد شوط ثان، أصيحُ. لا تجزعي ها أنا قادم إليكِ. أركضُ، لا غابة، لا أشجار حور، لا أصوات جنادب، لا أثر لسينما السيارات، من الـذي ضلـل الآخـر أنا أم الطريـق. توقّفتُ بفعل حدس داخلي، تنبّهتُ، الصـوت يأتـي مـن فـوق، المـكان كما عهدتـه لا جبـال ولا مرتفعات، أنّبـتُ نفسـي، جـدل بـلا طائـل، رفعـت صوتي. هـا أنا قـادم. الصوت أعلـى الجهـة اليمين، مهمة التسـلق واردة، اتجهـتُ يميناً واجهني جدار صخري ينتصب عالياً، تحسسـت جانبه الأقرب، ملمسـه زلق، أعشـاب أو أشنات ذات رائحة نفّاذة مدوّخة في الوقت نفسه تنبت خلل شقوقه الدقيقـة، رغـم الظـلام الدامس دققـت النظر. أنا ازاء جدار أسـود يميل إلـى اخضـرار فيـروزي يضاهي لون النفط الخام، تراني حدسـتُ سـبب انبعاث الرائحة المدوخة. أين أنتَ. اسـتغاثتها الملتاعة تكرّس شـعوري بالفجيعة. أنا هنا في الجوار أسفل هذا الجدار. تحريّته باحثاً عن موقع يسـمح بالصعـود، لـم أسـائلني. كيف لهـا مع دراجتهـا أنْ تنتهي أعلى، واصلتُ التحرّي، واجهني مدخل، ربما مغارة، خطوتُ، حاصرتني جملة روائح زنخة. أنا وسـط مكب نفايات. أحلام الانسـان قادرة على صنع معجزات عصيّة التأويل، ها أنا في موقع متشـرّف عال، ها أنتِ أمامي، أمّكِ كما أراد لها الحلم إنسلتْ أو تلاشتْ لسبب يخصّها مخلية مكانها لكِ، داخلني يقيني إنيّ في حضرة زينب، شابّة لم تبلغ عشرينها بعد، أو إنّها أوشكت، لم أسألني عن الدراجة، رأيتكِ ملتمة على نفسكِ، محنية رأسـك علـى ركبتيـكِ المضمومتين لصدركِ، عند صخـرة تتقدّم مدخل مغارة محَدودة المسـاحة أشـبه بندبة في جسـد المنحدر الصخري، خيّل لـي إنّ أشـجار الحـور باقيـة تتزاحم أسـفل، أصختُ السـمع، لا وجود لصوت الجنادب، رأسـكِ المحني لم يمنحني فرصة رؤية وجهكِ رغم اقترابي منكِ قيد خطوة، لو إنّ الظلام تخفف من حلكته، تخفف فجأة، لاحت ثلمة قمر يتوسط السماء أعلى، حزمة ضوء فضي أنارت شعركِ،

هي زينب هذا شعرها، وجدتني مغموراً فرحاً يفوق الوصف، يشارف حدود الانتحاب، تدرين أنا لم أركِ ولا لمرّة واحدة، حتى آلية الحلم لم تسمح، رغم هذا ترسختني قناعتي أنتِ أجمل من أمّكِ. ما الذي أخرّ وصولكَ. كنتِ تعتبين وكنتُ الملوم، بركتُ عندكِ طلبتُ سماحكِ. ليتكِ تدرين. احترتُ كيف أتعامل مع احتدام مشاعري، أنا الأب، لكنّه عجز الحالمين في وهلة البرزخ، لم يثنكِ ترددي، بادرتِ من جانبكِ ملتِ عليّ، دفنتِ وجهكِ في صدري، جاشتْ أبوتي، حضنتُ كتفكِ. غاليتي. سمعتكِ تناشدين لا تتركني ثانية. استجبتُ لكِ. لن أفعل. تخللتْ أنفاسكِ قميصى، احسستكِ هناك داخل ضلوعي. حياتي لكِ. لم تنبسي، رأيتُ أصابع يدكِ اليسرى تتحسس كاحل قدمكِ اليمنى، سبقني تساؤلي. تؤلمكِ. حرّكتِ رأسكِ دلالة الإيجاب. بدرتْ عنّي. اللعنة على درّاجة كومار. أظنّكِ لحظتها اندهشتِ. غمغمتِ. ماذا قلت. تذكرتُ إنّ الحال غيرها. لا عليكِ. انصرف ذهني لحظتها لرواية الحمار الذهبي، لماذا أغفل مؤلفها تدوين شكوى حماره من إصابة نافذة في كاحل قدمه اليمين نتيجة ربطه بحبل ليفي خشن لأمد طويل، أزمعتُ أن أمدّ يدي أتحسس كاحلكِ المصاب، لولا ألم حاد يصاحبه خدر ثقيل شمل وجهي، صحوتُ، تنبّهتُ إلى إنّ حافة صندوقكِ الخشبي حزّتْ لي وجهي أثناء غفوتي، لماذا تنبتر الأحلام ما قبل ذروة الانكشاف، كنتِ عندي باحتدام حواسي، انصتُ لوجيب قلبي، يهفو أو يتوق، يعزيني إنّي قاربتُ مشاعر أبوّتي تجاهكِ. الاحلام كما أراها انعكاس غرائبي لما هو مكبوت، لتجيء أحياناً تعويضاً لحرمان، توليفاً مغايراً لأمر يبدو مستحيلاً واقعياً، تتضمّن إشارات مأخوذة عن تفاصيل تخصّنا، حلمي إيّاه حوى إشارات عديدة، ورود ملمح من رواية الحمار الذهبي، سينما السيارات، أمّكِ بتوقها لبلوغ القصد، ذكر خالكِ سعود من غير تحقق لوجود فعلي من جانبه، أنتِ بحضوركِ الطاغي دون أنْ تتوفّر لي

سانحة رؤية وجهكِ، الرائحة الزنخة واللون الفيروزي الشبيه بلون النفط الخام، المرتفع الصخري، المغارة والصخرة التي كنت جالسة عندها، غابة أشجار الحور، علماً إنّ الحور أشجار لا تعطي ثمراً يؤكل، عدا ذلك الكويت خالية منها، أجزمُ إنّ رؤيتي لها في المنام ترتّبتْ عن رؤية في الصحو، ترتّبتْ عن رحلة خارج الكويت، ترتّبتْ بدورها عن سبب يتصل بامتهاني كتابات نقدية ذات علاقة بالشأن المسرحي في الساحة المحلية.

منتصف شهر آغسطس عام 1985، فرقة المسرح العربي تستعد للمشاركة في مهرجان دمشق المسرحي ما بين 20 / 30 سبتمبر، تدريبات مكثّفة على نص مسرحي من إعداد الكاتب السوري سعد الله ونوس، شاغلني وقتها عنوان النص، رحلة حنظلة، تسمية حنظلة من ابتكار ناجي العلي. أيامنا تلك تولّى فؤاد الشطي مهام الإخراج، وقع اختياره على سليمان الياسين كي يلعب أحد الأدوار الرئيسية. نص ساحر ليتك يا منسي تحضر تدريباتنا. الاعجاب وكذلك الدعوة صدرتا عن سليمان الياسين. إنْ شئتَ ذهبنا معاً. أدريه لايبدى رأياً جزافاً، وافقته دون تردد، دخولنا القاعة حيث تقام التدريبات، استقبلني فؤاد الشطي بصوته الجهوري مضمراً عتباً. اينكَ يا رجل. العتب فحوى مجاملة. إلتفتَ لسليمان الياسين. إبن أبيه كاتب ملتزم. ترحيب ثان مدعّم إشادة، صف مقاعد أولى بمواجهة خشبة المسرح. اختار فؤاد الشطي مقعداً عند الوسط، إرتأى جلوسي إلى جواره، القاعة خالية إلا منّا هو وأنا وفريق التمثيل، رفع فؤاد الشطي صوته. ادركنا الوقت. صعد عدد من الممثلين فوق الخشبة من ضمنهم سليمان الياسين، بقي آخرون في الجوار، حالة انتظار، توزّع ممثلو الخشبة أماكن محددة سلفاً، سكنوا هناك استعداداً. مال فؤاد الشطي وراء متخذاً جلسة استرخاء. أروني أفضل ما عندكم والاّ شمتَ إبن أبيه بكم. نبرة صوته تراوح بين الجد

والهزل، ابتسمتُ مكتفياً بالمراقبة، أصدر فؤاد الشطي أمره. نبدأ. دقائق أولى، حوارات ممثلين وحركات مرسومة، التصقتُ بظهر الكرسي مبهوراً بالذي يدور أمامي، لحظة انتهاء اداء الجزء أو فصل المسرحية خطفتُ نظره لوجه فؤاد الشطي، رأيت علامات القلق والتوقّع، نزل سليمان الياسين عن الخشبة، احتلّ مقعداً إلى جانبي. ما رأيكَ. ليس النصّ وحده. لم اقصر إعجابي على ما سمعتُ. العملية الاخراجية متقنة أيضاً. كنّا سليمان الياسين وأنا نتبادل حديثنا همساً، استدار فؤاد الشطي لسليمان الياسين. ما الذي قاله إبن أبيه. قال إن جهدك الاخراجي متقن. التفت إلي. هل تكتب ذلك. إبتسمتُ له. أكتبه مفصّلاً بعد اكتمال فصول المسرحية وعرضها جماهيرياً. ابدى سليمان الياسين مداخلته. عرضنا الجماهيري سيكون في دمشق. وافقه فؤاد الشطي. ولا ندري إنْ توفرتْ لنا فرصة عرضه هنا. ابدى سليمان الياسين مداخلة ثانية بصيغة تساؤل. لو أخذنا معنا إبن أبيه لدمشق. نمّت قسمات وجه فؤاد الشطي عن اهتمامه، أصدر غمغمة خافتة، اغتنم سليمان الياسين الفرصة. يرافق الفرقة ويكون مسؤولاً عن التغطية الاعلامية بصفته ممثلاً للصحافة الكويتيّة. غمغم فؤاد الشطي ثانية، رفع كفّه لذقنه لامسها، تأمل كلمات محدّثه. فكرة معقولة. غريب هو الوازع الانساني لدى الفنان يا زينب، عميق بما لا يبلغه وعي اللحظة، كنتُ اجلس بينهما، فؤاد الشطي على يميني وسليمان الياسين على يساري، واقع الحال باستعادة مواقف كلّ من صقر الرشود وعبد العزيز السريع، طفقا يتداولان شأني، أنا الثالث الغائب الحاضر في الوقت نفسه. مرافقته لنا مكسب إعلامي للمسرح العربي، تغطية مجريات المهرجان بشكل يومي. سفره معنا لن يرهق ميزانيتنا مادام البلد المضيف يدفع تكاليف الإقامة. لم نسأله إنْ كان مستعداً للسفر. واجهني فؤاد الشطي. هل لديكَ رغبة بالسفر مع الفرقة. أنا بدون. اتسعت عيناه على وجهي. السفر لا يتحقق الاّ بوجود

جواز سفر ولا يحق للبدون حصولهم عليه. تبادل هو وسليمان الياسين نظراتهما. كل الناس يعرفونك إبن أبيه إبن الكويت. معرفة الناس شيء وفعل القانون شيء آخر. أنتَ ولادة الكويت. الولادة لا تكفي. سؤال محدد هل لديك رغبة بالسفر مع الفرقة. لدي. أياً كانت المشكلة لا بدّ من وجود حل. فؤاد الشطي يصرّ. نضمّه عضواً في الفرقة. أو نكلّفه رسمياً بالتغطية الاعلامية. الأهم من هذا نجعله مسؤولاً عن إدارة الانتاج. عام 1971 اجتمع الاثنان صقر الرشود وعبد العزيز السريع. إلى معهد الدراسات المسرحية، عام 1985 اجتمع الاثنان فؤاد الشطي وسليمان الياسين. إلى دمشق. عبر أنواع المعاناة كافّة، اللوائح والقوانين الصادرة، المضافة والمعدّلة، غير كويتي، بدون، مخالف لقانون الاقامة، مقيم بصورة غير شرعية. المشتغلون بالمسرح يولون الحبكة الدرامية رعاية خاصة بما يجعلها قادرة على اقناع المتلقّي بصدقية الحدث الدائر أمامه فوق الخشبة. فرقة المسرح العربي تعدّ عدّتها لتمثيل الكويت في مهرجان دمشق، تمثيلها إيّاه جاء بناءً على دعم جهة رسميّة ممثلة بالمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. علينا الاستعانة بنهج الحبكة الدرامية فيما يخص فكرة سفر إبن أبيه معنا. لا اعتراض إذا كان ذلك يحقق الغرض. سليمان الياسين وفؤاد الشطي يتابعان تداولي أنا الحاضر الغائب، أراقبهما، أسمعهما. نتحرّك في البدء باتجاه المجلس الوطني نسعى لاستخلاص موافقته. لو استخلصنا هذه الموافقة اسبغنا على إبن أبيه صفة تمثيل رسمي.

الجهد بالزمن الذي استغرقه، تعُلن الخطوط الجوية الكويتية عن قرب موعد اقلاع طائرتها المتجهة إلى العاصمة السورية دمشق، يرجى من السادة المسافرين التواجد عند البوابة رقم اثنين. استرعى انتباهي وجود موظفين عديدين يرتدون الزي العسكري يجلسون في كابينات زجاجية، يتولون تدقيق وثائق سفر المغادرين قبل ختمها استعداداً

لدخول قاعة الترانسيت، تطلعتُ أعلى الكابينات، بعضها يحمل لافتات كتب عليها مواطنو مجلس التعاون الخليجي، غير بعيد عنها كابينات ذات لافتات جنسيات أخرى، أنا لا تعاون خليجي ولا جنسيات أخرى، يبقى عزائي جواز سفري أزرق ما يزال بكراً لم يُمسّ لا يختلف من حيث مظهره الخارجي عن جوازات أعضاء الفرقة المرافقين لي. تبدو مشدوهاً. لم أصارح سليمان الياسين باسباب حيرتي، مدّ يده. هات جواز سفرك. سلّمته له. أخذني نحو كابينة لافتة مواطني مجلس تعاون خليجي، هناك كوّة في زجاج الكابينة تكفي لدفع وثائق السفر داخلها، تسليم واستلام، رأيت سليمان الياسين يضع جواز سفري فوق جواز سفره. يدفع الاثنين عبر الكوّة الزجاجية، فاجأني قلبي زاد سرعة وجيبه، هل تتاح لي فرصة اجتياز، أم إنّ الحد الاقصى لحلم السفر ينتهي هنا، مدّ موظفهم يده إلتقط جواز سفري، تصفّحه، رفع عينيه إلي تصفّح وجهي، كفّ قلبي خفقانه، شملني خرس داخلي، لحظتي إيّاها بمثابة مسافة عمر، خلته يزمع استجوابي. من أين لكَ هذا. انبرى سليمان الياسين. منسي مدير إدارة إنتاج فرقة المسرح العربي. بلغني صوت الرجل اللابس زيّاً عسكرياً. أهلاً. رأيته يقلب صفحة في جواز سفري بيد، يده الثانية تعاجل ختمه تدمغ، عبرنا الحاجز الزجاجي إلى حيث قاعة الترانسيت. انشداهكَ باق يلازمكَ. سليمان الياسين يبدي استغرابه، يوجّه خطواتي. تعال من هنا. لم ينتظر ردّي. كأنّكَ طفل يرى الأشياء للمرة الأولى. بدرتْ مني ضحكة ساخرة بي. طفل ثلاثيني. تجاوز سليمان الياسين ردّي المفارق ليباغتني سؤاله. متى تتزوج. أختضّ جسدي بضحكة لا إرادية. أضحككَ سؤالي. جدّاً. لماذا. أسباب خاصة. لم تتوفر له فرصة توجيه سؤال آخر، باقي أعضاء فرقة المسرح العربي يتوافدون نحونا، الأجواء الاحتفالية للشروع برحلة دمشق. النداء الأخير لركاب طائرة الخطوط الجوية الكويتية. ارتفع صوت فؤاد الشطي

جهورياً. إنتظموا واقفين في الصف يا شباب حان موعد السفر. السفر يضمر عودة، الزواج وجهة سفر مغايرة تضمر استقراراً لغرض تأسيس عائلة، زواج البدون يعني خلفة بدون، الفلسطينيون معروفون بكثرة الانجاب، يقال والعهدة على ناجي العلي، إنّهم يحتاجون تعويض فارق العدد الناتج عن إبادات جماعية تعرّضوا لها داخل فلسطين، أو داخل البلدان العربية، عدا عن تعويض آخر اتخذ صفة الحلم المؤجّل، عودة ما في يوم ما للوطن السليب. في سياقنا يولد الطفل، يكبر وإنْ حاز وعيه ألمّ بالذي يدور، واجه أبويه. لماذا أنا. الطائرة استعداد اقلاع، دوي محركاتها يصم أذني، يولّد دواراً، أعضاء الفرقة يحتلون مقاعد محيطة، جَلبتهم تضاهي جلبة الطائرة، يتصرّفون وكأنّ استعداد الطائرة للاقلاع لا يعنيهم، الاعتياد يحدّ منسوب توقّعات معبأة بالرهبة، كيان معدني هائل الحجم والوزن مأهول بشراً يزمع اقلاعاً نحو فضاء مأهول بالفراغ. خلال الدقائق السابقة لمغادرتي الملحق طفقت أمّي تذكّرني أنْ لا اغفل قراءة المعوّذات، هممت بالخروج، لم اغفل تقبيل مفرق شعرها. بضعة أيام غياب. لم اعتد غيابكَ عن عيني. دمعتْ عيناها. رحماكِ بكِ يا أمّي. حملتُ حقيبتي خارجاً رأيتُ ناجي العلي يهمّ بركوب سيّارته. أنتم السابقون. سألته إنْ كان ينتوي السفر أيضاً، إنفرج فمه بابتسامة أسيانة. فيما يخصني سيكون سفري من غير عودة. لماذا. أهل بلدكَ ضاقوا بي. يُصرّ على نسبتي لمن. يا ناجي العلي. حارتْ أسئلتي بي. كنتُ أنوى سؤاله عن علاقة حنظلته برحلة حنظلة سعد الله ونوس، متى تسافر. قريباً.عساني أراكَ عند عودتي. سافر بالسلامة. شدّ على يدي شددت يده. التقتْ عيناي بعينيه، حزن غامض يتوارى خلف نظرته. أفلتَ يدي، أفلتُ يده. كنّا واقفين مواجهة. فاجأني شرّع ذراعيه، أخذني لصدره كُن بعون نفسكَ.

فارق السن بيننا، سليمان الياسين وأنا، لا يكاد يذكر، رغم هذا أخذ

يتصرّف معي بصفته ولي أمري، أجلسني جواره، خصّني بمقعد النافذة. الطيران نهاراً له ميّزة إنّك ترى الغيوم عن قرب متلوّنة باشعّة الشمس مثلما ترى تضاريس الأرض تحتكَ. الجبال والبحار والأنهار وهي تبدو خطوطاً متعرّجة. من جانبي بدأتُ أتأقلم مع وضع السفر بعدما استوتْ الطائرة في قلب السماء غذّتْ سيرها نحو عمق الفضاء غرباً، زايلني طنين الأذنين وكذلك دوار الرأس. إنتظر ريثما تقترب الطائرة من دمشق تبدأ هبوطها التدريجي تحوّم فوق الغوطة. سليمان الياسين يروي عن خبرة، سبق له أنْ سافر لدمشق مرّات. سوف ترى حوض نهر بردى بزحمة أشجاره، ترى الخط الحديدي المتعرّج الصاعد من مدينة دمشق حتى مصيف الزبداني، تترامى على جانبيه غابات الحور. هنا يبدأ الحور يا زينب ولا ينتهي عند الحلم إيّاه مجرّداً من تاريخه، الحورعلاقة جدلية ارتباطاً بأمّكِ وتبعيّة مترتبة عائدة لمن. مساء هذا اليوم ومساء غد أيضاً. يتواصل الصوت الجهوري لفؤاد الشطي مخاطباً أعضاء الفرقة الجالسين في الجوار. يلزمنا إجراء بروفتين كاملتين استعداداً لعرضنا الجماهيري الذي تحضره لجنة التحكيم. انبرى أحد الشباب. حفظنا أدوارنا عن ظهر قلب وخشبة المسرح هي هي حيث نكون. كلام غير وجيه لأن المكان غيره والجمهور السوري متذوق نوعي عدا عن احتمال حضور صاحب النص سعد الله ونوس. صدرتْ غمغمات احتجاج تلاشت سريعاً، قرّب سليمان الياسين فمه لأذني. المخرج المسرحي يشبه ربّان السفينة يصدر أوامره وعلى الجميع طاعته. لم يتبادر لذهني أسأله ان كانت سلطة المخرج تشملني، عنّ لي استوضحه عن علاقة حنظلة المرتحل في نص سعد الله ونوس بحنظلة ناجي العلي. النص الأصلي أمريكي لاتيني اشتغل سعد الله ونوس على إعداده عربياً. سكتَ سليمان الياسين لثانيتين. الأسم اللاتيني للنص مختلف، أغلب الظن إنّ سعد الله ونوس وظّف إسم حنظلة نظراً لكونه شخصية اعتبارية معروفة على نطاق العالم

العربي بصفته شاهد عصره. لم أكاشف سليمان الياسين. احتفظُ برسمة لناجي العلي، أنا حنظلة الكويتي. ابتسمتُ في داخلي. حنظلة الكويتي في رحلة حنظلة. تلاشت إبتسامتي. أهل بلدكَ ضاقوا بي.عساني اراه قبل مغادرته، لم يحدث، رسمته وحدها وضعتها داخل مغلّف شفاف، صدّرتُ بها ملف طلب الجنسية الخاص بي. مياه نهر بردى تلتمع بلون فضّي برّاق جرّاء أشعة الشمس وسط سهل مترام، شتّان مابين زحمة الحياة الخضراء في غوطة دمشق وتواتر شجيرات الأثل ذات اللون الباهت في منطقة الفنطاس. اقترابنا لمطار دمشق الدولي، سكنني هاجس مفاده إن بدن الطائرة يوشك يلامس الأغصان العالية لأشجار الحور المحيطة بسكّة حديدية ملتوية. تذكّرتُ ما قاله سليمان الياسين منذ ساعة، تردد صوت أحدهم. يرجى من السادة الركاب ملازمة المقاعد وابقاء الأحزمة مربوطة. بعد دقائق معدودة ارتجّت الطائرة عند ملامسة عجلاتها أرض المطار، إلتفتَ إليّ سليمان الياسين. الحمد الله على السلامة. هل أحدثكِ يا زينب عن احتدام مشاعري وأنا أطأ أرض بلد ثان، عن توهان عيني عند رؤيتى معالم تاريخية تتصل بكتب قرأتها، دمشق، حضور الأمويين من خلال آثار عمرانية ماثلة، أم أكاشفكِ ارتباكي الداخلي ونحن نجتاز البوّابة الزجاجية لفندق الشام الفخم ليخصّوني بعدها بغرفة من طابقه الرابع، أتجاوز هذا كلّه لأتوجّه إلى ما يعنيني في الصميم لأنّه يعنيكِ. نظراً للحفاوة البالغة التي نالها عرضنا المسرحي من جانب لجنة التحكيم والجهة الرسمية المشرفة على تنظيم المهرجان ارتأتْ علينا اللجنة المذكورة تقديم عرض ثان استجابة لالحاح جمهور لم تسنح له فرصة المشاهدة. الجهد المكثف جاء بالنتيجة المرجوّة. فؤاد الشطي يؤكد ثقته بصواب رأيه. رأيته منتشياً تماماً، رأيت الاخرين يتداولون فرحهم بينهم، انتقلت عدوى الفرح إلي. موعد عرضنا الجماهيري بعد غد. انبرى أحد الممثلين. لا نحتاج لبروفة

جديـدة. هـذا كلام غيـر وجيه. تعبنا من كثرة البروفات. كلام غير وجيه أيضاً. عمّ الصمت الأعضاء كافّة بقيت عيونهم معلّقة بوجه فؤاد الشطي، كنّـا نحتـل طـاولات متقاربـة من مطعم الفندق لتناول وجبة العشـاء. أنا لـم آت علـى ذكـر بروفات. الاصغاء يشـمل الجميـع. الذي أردتُ قوله سيشـهد عرضنا زحمة جماهيرية غير مسـبوقة. نقل بصره فوق الوجوه. مطلوب منّا أنْ نكون عند مستوى المسئولية. استجاب عديدون. تحت أمـرك يـا نوخذانـا. ظهـر يوم عرضنـا الجماهيـري اجتمع فؤاد الشـطي بأعضـاء الفرقـة، أنا من بينهم. ضـرورة الالتزام بالنص حرفياً، الارتجال ممنـوع، النـص سـوري والجمهـور سـوري، احتمال تفاعـل الصالة مع الخشـبة، احتمال مطالبتهم إعادة مشـاهد معينة، إعادة تمثيل أي مشـهد مهمـا تفاعلـت معـه الصالـة ممنـوع. وافقـه الجميـع بغمغمـة. حاضـر. فاجأنـي لحظتهـا إلتفـت إلي. اليـوم يومكَ يا إبن أبيه. ألجمتْ دهشـتي لسـاني، اقتصرتْ اسـتجابتي على إيماءة رأس. لأن مسـمّاكَ مدير إنتاج نوليكَ مسـؤولية تنظيم المقاعد. سـكت هنيهة. الجهة اليسـرى للصف الأمامـي تخصـص لكبار موظفي السـفارة الكويتية ومن يرافقهم، الجهة اليمنى لكبار الشـخصيات وأعضاء السـلك الدبلوماسـي العرب، الصفّ الثانـي وكذلـك الثالث يخصصان للفرق المشـاركة فـي المهرجان، بقية الصفـوف لعمـوم الجمهـور السـوري، مدير الصالة انتدب ثلاثة شـباب مـن العامليـن معـه لغرض مسـاعدتكَ. حدّق إليّ فـي عيني. هل فهمتَ الـكلام. خطـر لـي أنْ أقـول كلام وجيـه. إكتفيتُ بايمـاءة رأس موافقة. قرّب سليمان الياسين فمه لأذني. ابشر بعوارالرأس. وصلتُ القاعة في الموعد، وجدتُ الشباب الثلاثة بانتظاري، تولّينا تثبيت قصاصات ورق مكتوبـة بالخـط الأحمـر محجوز على مقاعد الصفـوف الأمامية الثلاثة، فور انتهائنا بدأ توافد الجمهور، صَدقَ حدس فؤاد الشطي، غصّتْ القاعة بالمشاهدين مما اضطررنا لجلب المزيد من المقاعد وضعناها في الممر

الأوسـط وعلى الجانبين، مع اقتراب وقت العرض وصل أعضاء الفرق المشاركة في المهرجان، أعقبهم كبار الشخصيات، اقلقني وضع الجانب الأيسـر من مقاعد الصف الأمامي، موظفو السـفارة الكويتية لم يصلوا. دبّت الحركة في الكواليس. استعدادات الممثلين أشدّها. باق عشر دقائق على رفع الستارة، تنبّهتُ لفؤاد الشطي حاثّاً خطوه نحوي. سفيرنا على وشك الوصول كنُ باستقباله عند المدخل. الحيرة مدعاة شكوى. أخشى أنْ لا أعرفـه مـن بيـن آخريـن. ثقته تسـتوطن صوته. سـتعرفه. الانصياع أمر حتمي، هرعتُ إلى المدخل، البعض ما زال واقفاً خارج القاعة لم يعدموا أمل الحصول على أماكن في الداخل بعد. رأيتُ شـابتين تقفان جانبـاً، الهيـأة والسـمات لا بـد أنْ تكونـا كويتيتين، لعلّهمـا تمتّان لأحد موظفي السـفارة بصلة، هل أخطو إليهما أسـألهما، أم انتظر مبادرتهما. أكاد أجزم يا زينب إنّ الملل بدأ ينتابكِ وأنتِ تقرأين أوراقي هذه نتيجة تريّثي ازاء تفاصيل تتلوها تفاصيل. أحدسكِ تتسائلين ما شأني بكل هذا السرد. أقول لكِ هو شأنكِ ما دامت كبرى الشابتين ستكون أمّكِ عهود والأخرى خالتكِ جود. وقفتي هناك، وقفتهما جانباً. حَدثُنا ذاك قبل ست سنوات من زمن ولادتكِ، قبل خمس وعشرين سنة من الزمن الآن.

مـن سـكون ليـل السـالمية، مـن غرفتي فـي مسـرح الخليج حيث تحوطني أرفف ملفّاتي، من صيف عام 2010 أجلس مواجهاً صندوقكِ، أنوي أشرّع نفسي للكتابة إليكِ، موقناً إنّ كل الذي سبقت كتابته يمكن الاستغناء عنه باشتراط البدء من حيث صدفة لقائنا أمّكِ وأنا في خريف 1985، أعـود اذكّرنـي أو اذكّـركِ كنـت واقفـاً عنـد بـاب صالة المسـرح الدمشـقي عين على الممر المؤدي للبوابة الرئيسـية توقعاً لظهور السـفير الضيف، وعين على الشابتين الكويتيتين الواقفتين جانباً، تبادر لذهني إنْ كانتا من بين طاقم السفارة الكويتية وهما تتحريان وصول السفير أيضاً، اقدم أحد الشباب السوريين العاملين معي وارب باب الصالة درءاً لتسلل

أي من الواقفين خارجاً نظراً لاكتمال العدد في الداخل، استعيدني نهب حالة انتظار قلق، لغط جمهور الصالة يتسرّب لأذني، شاهدت الشابتين تتشاوران همساً قبل اتخاذهما قرار الاقتراب. مساء الخير. صوت كبراهما يضُمر ألفة. دام انتَ مع الفرقة حاول تشوف لنا كرسيين. اللهجة الكويتية إذا كانت صادرة عن انثى في بلاد غربة تمسّ شغاف القلب، أدركتُ أنْ لا علاقة لهما بالسفارة، من أين لي كلمات مناسبة تعني الاعتذار أو تبرير العجز، في اللحظة تحقق حدس فؤاد الشطي. ستعرفه. ها هو السفيربزيه الكويتي يصحبه أربعة رجال يغذّون خطوهم بالاتجاه، الشابتان تنحّتا مفسحتين طريق المرور، من جانبي هرعت للترحيب بالقادمين. أهلاً سعادة السفير. أراحني ظهور فؤاد الشطي عبر الباب الموارب، بادر رحّب بهم، رافقهم داخلين. الزمن عبر ظرف مثل هذا يكون مغفلاً أو مقفلاً على ذاته، حساب الثواني يرتهن بالحدث، في حين ينشط الذهن خارج سياق المعتاد. عدد مقاعد الجهة اليسار للصف الأمامي خمسة عشر قيد الحجز، القادمون خمسة لا غير، الكويتيون أحقّ باشغال ما لم يُشغل. التفتُ للشابتين. أمهلوني دقيقتين. أنا الذي يرجو وتعويضي نظرات امتنان أطلّت من عيونهما، أردت ابقاء خط رجعة. لا أعدكم لكني أحاول. الصلاحية التي منحها لي فؤاد الشطي لا تعني تجاوز التعليمات، انسللت داخلاً، سمعت صوت اطباق الباب من ورائي، الشباب السوريون يحسنون اداء الواجب الموكل إليهم، الصالة آخذة سبيلها للاظلام، أوان رفع ستارة خشبة المسرح، ارسلت بصري قدماً محاولاً تحديد مكان تواجد فؤاد الشطي، رأيته عند صف المقاعد الأول بصحبة السفير ومرافقيه، رأيتهم بمن فيهم فؤاد الشطي يبدأون احتلالهم مقاعدهم الأقرب للممر الاوسط، سرّعت خطوي. الكتابة لعبة محفوفة بالمشاعر يا زينب، بعض هذه المشاعر ينحو مفارقة، كنتُ أكتبُ متمهّلاً صرتُ الهثُ عساني الأُحق انثيالي، كأنّه

الآن. القاعة باتساعها، إظلامها التدريجي، فؤاد الشطي هناك، الموسيقى المصاحبة لرفع الستارة تضج داخل أذني، الشابّتان الآخذتان اهتمامي كلّه تنتظران خارجاً، كأنّه الآن، اقتربتُ منه. يا فؤاد الشطي. خير يا إبن أبيه. شابّتان كويتيتان لم تجدا مقعدين. هبّ واقفاً متلفتاً. أين. أراحني ردّ فعله الفوري. خارج القاعة. لماذا خارج القاعة. أشار لصف المقاعد. وعندنا تسعة مقاعد غير مشغولة. هذه المقاعد مخصصة لطاقم السفارة. الكويتيون في الخارج سفراء بلدهم. لا أذكرني إنْ كنتُ غمغمت. كلام وجيه. أذكر اكتمال إظلام الصالة وانبعاث إنارة مركّزة فوق الخشبة، اذكرني أوليتُ ظهري، واجهت ظلام الصالة بعمى وقتي، سلكتُ طريقي نحو الباب متحسساً مواقع قدمي ريثما اعتادت عيناى حلكة المكان، وعدتُ الشابتين أنْ لا أتأخّر أكثر من دقيقتين، عساني أكون عند حسن الظن. لحظة عبوري باب الصالة واجهتُ الضوء الخارجي بعمي آخر أبيض دام زهاء الثانية، تكشف المشهد بعده. المنتظرون المتخلّفون عن العرض من جمهور دمشق غادروا المكان، وحدهما أمّكِ وخالتكِ قيد انتظار. حيّاكم. نبرة صوتي كما اتخيلها توارب انجازاً، تعزز شعوري بالانجاز أكثر لدى احتفاء أمّكِ. فيك البركة يا المنسي. تسارع خفقان قلبي، هي تعرف إسمي، ظرفنا سمة استعجال، ضرورة ادراك العرض المسرحي من بدايته، استبعدتُ فكرة السؤال، كيف أو من أين، صحبتهما داخلاً، الظلام ثانية عدا إضاءة خشبة المسرح، أصوات الممثلين تتردد هناك، جمهور الصالة يغرق في الصمت، عيون الجميع مشدودة إلى أمام، همستُ للشابتين. إتبعوني. مشيتُ أمامهما، لوهلة عابرة خيّل لي إنّي فقدتهما، هل سبقتهما، التفتُّ، شاهدتهما واقفتين حيث تركتهما عند المدخل، ظلمة المكان على مايبدو أو غربته، عدتُ إليهما، عتب كبراهما شأن شكواها. لا تتركنا بروحنا. حركتي جاءت عفوية بريئة، مددتُ يدي. تعالوا. لمّا استجابتْ أسلمتني يدها لم اسألني كيف واتتني

بادرتي، كان ذهني خالياً من أيّ دافع يتصل بمشاعر محددة، لكن طراوة الكف الأنثوية بين أصابعي منحتني إحساساً بالسمو، أصارحكِ زينب، رغم مشارفة أبيك سن الثلاثين حينها إلاّ إنّه معطّل تجاه الجنس الآخر، لم يسبق له اختبار عواطفه بهذا الخصوص، مع تقدّمنا إلى أمام ما عاد ظلام الصالة بالشدّة مانعة الرؤية، إضاءة خشبة المسرح تكاد تشمل الصف الأول للمقاعد، أوان افلات الكفّ الأنثوية. هنا. أشارتْ لاختها باتخاذ المقعد الكائن في الطرف، اتخذتْ آخر مجاوراً لها، ازماعي الانصراف لشأني بلغتني همستها. وين بتروح. تساؤلها دعوة مُلازمة، المرأة عادة ما تكون أكثر جرأة من الرجل، انصعتُ جلستُ على المقعد المجاور لمقعدها. عند مشاهداتي للعرض المسرحي رحلة حنظلة سواء أيام البروفات في الكويت أو البروفات هنا، وحتّى العرض الكامل قبل يومين من تاريخه كنتُ انشدُ بحواسي كافة لما يدور فوق الخشبة معايشاً حدثها المسرحي.عرضنا المسرحي الأخير ذاك، تواجدي على المقعد هناك، أضعت خلال الفصل الأوّل تحديداً قدرة التركيز، انشغلتُ عن مجريات الحدث أمامي بالذي يحدث لي. جلستُ منكمشاً محاذراً حصول تماس غير مقصود لكتفي بكتف جارة المقعد، بادرة اخذي يدها وسط الظلام مبررة ظرفياً، ما عدا ذلك يُعدّ انتهازاً غير بريء، جارتي على النقيض، ذهنها خال من إحالات معيّنة، طفقتْ تتصرّف بعفوية، تميل نحوي بين الفينة والفينة تُبدي إعجابها همساً باداء هذا الممثل أو ذاك، ريثما فاجأني تساؤلها وهي تومئ. أظنّه سليمان الياسين. الزي التراثي والذقن المستحدثة لا يطمسان شخصيته الحقيقية. هو سليمان الياسين. أظنكَ لاحظته. ما به. لا يكاد يرفع عينيه عنكَ. حدّقتُ لسليمان الياسين في عينيه بغية التأكّد تجاه اجتهاد جارة المقعد، رأيتُ ابتسامة متوارية وراء قناع التمثيل. دقائق الإستراحة ما بعد الفصل الأوّل للمسرحية، إضاءة الصالة ولغط الجمهور، وجدتْ جارة المقعد

فرصتهـا. عرفتـكُ يـا المنسـي من صورك في الصحـف، قرأتُ لكَ أكثر من مقالة في جريدة السياسة أنتَ مهتم بالمسرح. الحديث شأن تبادلي. وانتِ هل لديكِ إهتمام بالمسـرح. لا. علتْ فمها إبتسـامتها. أنا مدرّسـة أولـى لغـة انجليزيـة. وسّـعتْ مـن إبتسـامتها. ماجسـتير أدب إنجليزي. معنـى هـذا إنّـكِ تقرأين بالإنجليزية. كنتُ أقرأ ما يخصّ دراسـتي، الآن لا وقـت لـدي للقـراءة. صـدرتْ عنها ضحكة خافتـة. الحقيقة لا مزاج عندي للقراءة. سـادت ثواني صمت، بدأتْ الصالة إظلامها التدريجي. وأنتَ. بكالوريوس أدب ونقد مسرحي. من بين موضوعات كانت مقررة عليّ في الماجستير مسرحية شكسبير حلم ليلة صيف باللغة الانجليزية طبعـاً، عانيـت صعوبـة فـي فهمها. وأنا أصغى لها تنبّهت إلى إنّ الشـابة الأخرى لم تشاركنا الحديث البتة، مذ رأيتهما خارجاً وهي تلازم صمتها. مجريات الفصل الثاني لعرض رحلة حنظلة تتواصل فوق خشبة المسرح الدمشقي، ناجي العلي لم يخطئ بتسميته لي حنظلة الكويتي، ونحن في الطائرة قال سليمان الياسين. حنظلة رمز للإنسان المضطهد. حنظلة في حالاتـه كلّهـا مضطهد، لكنّـه رغم ذلك جرىء، بدأ توتري يتخلّى عنّي، تخففت من انكماشي فوق مقعدي، حضرتني كلمات صقر الرشود. كُن على سـجيّتكَ. أعود إليّ أُسـاررني، كن أسـوة بجارة مقعدك، مسـاررتي لي حفّزتني أُرخي جسـدي في مقعدي، أريح يدي على مسـنده، حدث ما لم يكن بالحسـبان، تماسّـتْ لحمة ذراعي بلحمة ذراعها، هل أُسـارع أزيـح ذراعـي، القـرار الفعل وليد لحظته، ترددتُ انتظاراً لردّ فعلها. هل تغافلتْ أبقتْ ذراعها حيث هي. خطفتُ نظرة لوجهها، عيناها هناك مع خشـبة المسـرح، تراها تتابع الحدث الدرامي أم إنّ ذهنها اسـوة بذهني منصرف لرصد حدث آخر رهن مسند المقعد بيننا.

الحياة بوجود إمرأة أفضل. مقولة لأحدهم قرأتها في سن المراهقة، حياتي حتّى مناسـبة صالة المسـرح الدمشـقي كانت مقتصرة على وجود

أمّي، عدا ذلك تبقى قصص الأفلام السينمائية والروايات الرومانسية زاداً للخيال. متى افرح بزواجِكَ. تُسمعني أمّي تساؤلها بمناسبة ومن غير مناسبة، استجيبُ بابتسامة مستغربة أو اصرف نفسي من أمامها حائراً بي، تجمع كفّيها عند صدرها ترفع عينيها نحو سقف الملحق. ياربي تبلّغني بعيال منسي. الحلم طموح والطموح لدى أمثالنا سقف منخفض جدّاً، قبل بلوغي العشرين عزّ المراهقة كنتُ أُفلتُ العنان لخيالي، لو التقي نصفي الآخر، نعرفنا عن قرب، تقوم بيننا ثقتنا بنا، تنشأ صداقة أو صحبة، تتحوّل رويداً، تصير حبّاً، نقف ذات يوم بمواجهتنا نقول لنا. آن أنْ نتشارك في تأسيس حياة قادمة، نتزوج. اثر تجاوزي العشرين، يأس إصلاح الحال، لهاث غير مجد وراء سراب المواطنية، كبحتُ جماح خيالي، عساه أنْ لا يظلّ مدعاة معاناة مجانية، الغيتُ فكرة الزواج نهائياً، أمّي لم تعرف قرار الالغاء، تابعتْ جهدها تجمع كفّيها عند صدرها ترفع عينيها باتجاه سقف الملحق. الآن بعد عقدين ونصف من جلسة مقعد صالة المسرح الدمشقي أتأمّلني مستغرباً، كيف لكائن بشري بالعمر والخبرة المستقاة ان يتحوّل كلّه الى ذراع، إلى جزء صغير من جلدة ذراع، هو الحدوث القدري، تسام نوعي، تآلف غير مسبوق مع الذات، مشاعر فريدة تتولّد لتحتدم عند نقطة تلامس الجلد بالجلد، هو السلام الداخلي بتغييب الزمان والمكان، أنتَ مشدود إلى المقعد بصفتكَ المادية، أنتَ في الوقت نفسه مأخوذ نحو مجرّة مجهولة تخالها مأهولة بالوعود، كنتُ أتشرّبُ مشاعري الجديدة عليّ وما عنّ لي أتشككُ بخصوص المرأة باتصال ذراعها بها إنْ كانت تتشرّب مشاعر شبيهة، الحدوث أحيانا يتجلّى فعل سحر، في لحظة تواطؤ حانتْ عنها التفاتتها إليّ حانتْ عنى التفاتتي إليها، تلاقتْ عيوننا، نظرتها توحي بتساؤل يجمع بين الاستثارة والاستنكار، كمن يصرّح. ما هذا الذي نفعله. خطر لي هي بصدد إبعاد ذراعها، أبقتها حيث هي.

لمّا تعالى صوت موسيقى ختم العرض المسرحي، لمّا ضجت القاعة بالتصفيق وعمّ النور المكان انفصل ذراعانا، حبستُ زفرة أوشكت تفلت منّي. مسرحية جميلة.بلغني صوت الصغرى للمرّة الأولى، وافقتها الثانية مسبّقة بزفرة أسيانة. فعلاً. مشيتُ وراءهما، زحمة المغادرين إلى جانب لغطهم، شملني شعور بالفقدان، إحتمال تكرار اللقاء حكم استحالة، كنّا لدى اجتيازنا بوّابة مبنى المسرح بمواجهة ليل دمشق، هبّت نسمات خريفية يُفترض بها لولا الاعتمال الداخلي أنْ تجيء منعشة، هذا أنا، تلك هي، لقاء مصادفة، حلم ليلة صيف نص شكسبيري من ضمن مقرر ماجستير إحداهن، يا إبن أبيه يلزمكَ التعامل مع اللقاء المصادفة بصفته إحالة على النص الشكسبيري إيّاه، أفكاري تزحم رأسي وسط زحمة الجمهور، استوقفتُ لهما سيّارة أجرة، ركبتْ صغراهما، أبقتْ باب السيّارة مفتوحاً، في بالي أسمع الأخرى. شكراً. التفتتْ إلي، صوتها عند مستوى الهمس. أراكَ في لوبي الفندق بعد ساعة. في سيّارة باص تولّتْ نقل أعضاء فرقة المسرح العربي إلى الفندق احتلّ سليمان الياسين المقعد المجاور لي. الآن ادركتُ معنى ردّكَ الغامض. أربكتني كلماته. لم افهم قصدكَ. عندما كنّا في مطار الكويت أضحككَ سؤالي متى تتزوج بررتَ ضحكتكَ بأسباب خاصّة. تكرّس ارتباكي أكثر. ما الذي يريد قوله. أسبابكَ الخاصّة يا إبن أبيه سورية. شُدهتُ تجاه ما اسمع. عموماً أنا وأنتَ متشابهان. متشابهان في ماذا. كلانا رحل بعواطفه خارج الكويت. مهلكَ علي يا إبن الياسين. أنا اخترتُ إمرأة فرنسية وأنتَ اخترتَ فاتنة سورية. فؤاد الشطي يحتلّ مقعداً أمامنا، سمع حديثنا. استدار برأسه لسليمان الياسين، صحح معلوماته. كان إبن أبيه بصحبة بنتين كويتيتين. أعاد رأسه لوضعه السابق، حدّق إليّ سليمان الياسين في عينيّ مستنكراً. تواعد صديقتكَ الكويتية في دمشق. هي ليست صديقتي وأنا لم أواعدها.

الأحلام نوعان منام ويقظة، الناس شاكلتنا لا يحلمون يقظة، عندما التقيتُ أمّكِ، لم تكن حياتنا قد استغلقتْ تماماً، القوانين المنظمة للشأن السكّاني المأخوذ بها بعد سنوات قليلة منعت المأذونين الشرعيين من تحرير عقود زواج البدون، مطلوب ابراز أوراق ثبوتية رسمية، أمر المنع لا يتصل بمسألة تنظيم نسل أو تحديده، لكنّه الغاء حتمي لنسل البعض، لو كان واحدنا يمتلك جواز سفر سافر لبلد ما مجاور تزوّج وعاد، فإن لجأ بعضنا لحلّ ابرام عقد زواج غير موثّق في وزارة العدل، الزواج مبدأ تأسيس عائلة، مكابدة مصيبة أطفال مولودين، يُمنع منعاً باتّاً اصدار شهادات ميلاد لأبناء من لا يحملون وثائق ثبوتية، الطفل المولود صفر خارج السجلات الرسمية، المعضلة المحيّرة موتانا ممنوعون عن استصدار شهادات وفاة، لا اعتراض لدى الموتى والأحياء مطالبون أنْ لا يموتوا رحمة بذويهم.

متطلبات القلب كما يفيد علم الحب تعمل على طريقتها من غير الالتفات لما يمليه العقل، همسة مواعدة. أراكَ في الفندق. زعزعتْ قناعات اعتاد واحدنا أنْ يتحصّن بها بعيداً عن جري وراء سراب حتّى لا يناله الحنين الآخذ للشغف، غياب حسابات القادم، فارق الوقت ساعة، اخترتُ مقعد صوفا أمام البّوابة الزجاجية للفندق، سوف تدخل من هنا، الساعة جاوزتْ عاشرتها قليلاً، الجوار يعجّ بحركة أعضاء الفرق المسرحية المدعّوة للمهرجان، سقف البهو عال مشغول بالفسيفساء، جوانبه المتطاولة اتخذت سمة مشربيات أندلسية، قيل عن هذا الفندق إنّه كان مشروع استثمار كويتياً وضعتْ الحكومة السورية يدها عليه. خلال تواجدنا حول مائدة العشاء جال فؤاد الشطي بعينيه

على المكان المترامي. لو كان هذا الفندق الفخم موجوداً في القاهرة أو بيروت لما خلا طابقه العلوي من صالة تسلية. شاكسه سليمان الياسين. نحمدُ الله إنّه بدون صالة روليت. كلّما نطق أحدهم بالجار والمجرور بدون التفتُ عفوياً لداخلي، أجلسُ منتظراً وصول كبرى الشابتين، لو بانتْ الآن، اجتازتْ البّوابة. الوقت كثافة غريبة عليّ، البّوابة الكهربائية لاتني تنفتح تنغلق، تنفتح تنغلق، عشرات الداخلين والخارجين من الجنسين، المرأة التي لم اعرف إسمها بعد لم، اخطفُ نظرة لساعتي، العاشرة وعشر دقائق، ما أدراني إنهّا جادّة، لعلها اطلقتْ دعوتها بنيّة المجيء، نيّات البنات سحابات صيف، يا المنسي إبن أبيه عُد لأرض واقعكَ، خُذ من حياتكَ عواهنها لا غير تكفي نفسكَ مشقّات لا قبل لكَ بها، الوقت بطء ما بعده، ابذلُ جهدي اقتله، عيناي تمسحان أرجاء المكان، أرى كاميرا عملاقة إضافة لعمود إضاءة متنقلة في الزاوية الأبعد، مذيعة القناة التلفزيونية السورية تجري على الواقف لقاءً مع مخرج الفرقة القومية التونسية. المرأة التي أنتظر إطلالتها أجمل من مذيعتهم درجات، أعود أتطلّعُ للبوّابة الزجاجية، لا أثر لها، اخطفُ نظرة ثانية لساعتي، العاشرة والنصف، طعم المرارة يتخثر في الفم، هي لم، المشقّة الطارئة إيلام جديد النوع، للدلالة على يأس أحدهم من أمر ما جرى اعتياد ترديد مقولة نفضَ يده، أجدى بي أنْ انفضَ قلبي. المقعد الصوفا كان وثيراً قبل نصف ساعة، عيناي أثناء نهوضي تمسحان زجاج البوّابة مرّة أخيرة، إمتداد الشارع خارجاً لا يوحي باقتراب أيّ، أستديرُ بغية الانصراف لغرفتي، أُفاجأ أراها آخذة بالاقتراب قادمة من ناحية ركن المصاعد، يخطئ الحدس أو يصيب، وأنا أراها تمشي باتجاهي توارى الحضور، تلاشتْ مفردات المكان، بقيت هي، هل يعني هذا إنّي مغلوب عليّ. كانت ترتدي ثوباً بدا بسيطاً ذا لون عشبي، وجهها كما خُيّل لي خال من ألوان ملفتة. تأخّرتُ عليكَ. تحققُ المجيء يلغي أسباب

الاحتجاج، لم أقل لا، أشرتُ للبوابة. توقّعتُ قدومكِ من خارج. أنا وأختي نسكن هنا وصلنا من الكويت قبل ثلاثة أيام. أومأتْ برأسها نحو آخر البهو، اقترحتْ. نجلسُ في الكافيتريا. احتشاد مشاعري شغلني عن الرد، مشتْ، مشيتُ وراءها، إختارتْ طاولة صغيرة ذات مقعدين عند الزاوية الأبعد. مكاني المفضّل. أتطلّعُ فيها أو أتحاشى أتطلعُ، احتفائي ينازعه قلق غامض، يجدر بي أحتاط، خبرة سن الثلاثين ستكون مؤلمة، ربمّا مدمرة مع حالة محكومة بالفشل، التفاؤل مجازفة كبيرة لدى أمثالي، مع نفسي صارحتني خذ حذركَ، قالتْ. ليس من الأنصاف أنْ لا تعرف اسمي. أحشدني أسمعها، الطاولة صغيرة بما يجعلنا متقاربين كفاية. إسمي عهود. التمعتْ عيناها بابتسامتها. إسم أختي جود وقد أصرّتْ تبقى داخل الغرفة. الحديث يلزم مشاركة. عهود وجود أسماء بجرس موسيقي، الشخص الذي سمّاكما يتمتع بحس شاعري مرهف. توارتْ ابتسامتها من عينيها أطل حزن شفيف. أبي إختار لنا أسماءنا. انتقل أساها إلي. رحمة الله عليه. أخذتْ وجهها دهشتها. كيف عرفتَ إنّه متوف. من عينيكِ. عادتْ لعينيها التماعتهما. أنتَ دقيق الملاحظة. كنتُ أسير اللحظة، آثرتُ الاصغاء إليها ريثما تضطرّني أتكلّم. مجيئي هنا ليس سياحة. نبرة صوتها تنمّ شكوى، أختها جود اتكالية لدرجة اللامبالاة، اجتازتْ امتحانات الثانوية العامة، معدلها لا يؤهلّها تُقبل في جامعة الكويت. لأنّي أعرف جامعة دمشق جيّداً خلال سنتين قضيتهما هنا لنيل الماجستير. كان اقتراح أمّها سفر عهود رفقة جود، لعلّ وعسىّ، افلتتْ زفرة ارتياح. ضمنتُ لها مسألة القبول، تبقتْ مشكلة سكن الطالبات. أحسستني مستمعاً سلبياً، سمعتها. أظنني سأنجزها يومي السبت والأحد القادمين. توفّر لي هامش مشاركة تمثّل سؤالاً. ماذا بعدها. صدرتْ عنها ضحكة قصيرة صافية مسّتني من داخل. جود إلى سكن الطالبات وأنا إلى الكويت. تفحّصتْ وجهي، نظرتها دلالات عدّة،

نبرة صوتها إحالات موحية. هذا الفندق لا يصلح لإقامة طويلة لغرض العمل. جاريتها. لماذا. لأنّه مكلف مصنّف خمس نجوم. في التو سمعنا صوت سليمان الياسين وهو يقترب منّا. تصنيف غير وجيه. شملني شعور المباغتة في حين أخذ الاستغراب بوجه عهود، وقف ورائي، اسند كفيه إلى ظهر مقعدي، استطرد موجّهاً حديثه لها بجديّة مصطنعة. نظراً لخلو هذا الفندق من كازينو لقتل المال يصنّفه أحدهم أربع نجوم، وإنْ غَضَبَ ثلاث نجوم. إحدى مزايا عهود سرعة بديهتها، تجاوزتْ إرتباكها جارتْ سليمان الياسين في لعبته أو مزحته. لا أظنّكَ هذا الأحدهم. لا أؤمن بقتل المال. انحنى عليّ لافتاً اهتمامي إليه. هل ستتولّى مهمّة تعريفنا. تطوّعتْ عهود. أنا عهود. أومأ برأسه متأمّلاً برهة، وجّه حديثه لي. ليتكَ تحسن رعاية العهود. انضمامه إلينا ولّد جو ألفة، أزال بعض أسباب الكلفة التي كانت تحدّني ازاء تسلّكي مع المرأة، لم ينتظر دعوتنا له كي يشاركنا الجلوس، بادر سحب مقعداً لطاولة مجاورة، وضعه بيننا. لن أطيل تطفّلي. إنشدّتْ عيوننا لأحد النُدل مقترباً حاملاً صينيته. كاباتشينو حسب الطلب. رددها النادل بآلية وهو يضع الفناجين فوق الطاولة، تبادلنا عهود وأنا نظراتنا، منْ منّا صاحب المبادرة، إبتسم سليمان الياسين. من مكاني في آخر البهو رأيتكما منشغلين بكما اتخذتُ قرار طلب قهوة. استجابتْ عهود ممتنة. شكراً. رفع سليمان الياسين فنجانه، أخذ رشفة، دوّرها داخل فمه يتذوقها، ازدردها، عقد حاجبيه مصطنعاً إمتعاضاً. بالكثير ثلاث نجوم. اطلقتْ عهود ضحكة رائقة، واجهتني عينا سليمان الياسين مصطنعاً جديّة. لا تغضب منّي يا إبن أبيه. سكتَ هنيهة. مزاياكَ الشخصية قليلة. نقل عينيه لوجه عهود، شمله بنظرة إعجاب. الأكثر أهمية بين مزاياكَ إنّكَ رفيع الذوق. شعّتْ عينا عهود. كلام الممثل لا يؤخذ على محمل الجد. يؤخذ في تمييزه لسحر المرأة ولا يؤخذ به أمام القضاء. سايرته عهود ضاحكة. لماذا. إثنان لا

تُقبل شهادتهما أمام قضاة أيام زمان الأوّل صاحب الكار المشتغل بالتمثيل والثاني معلّم الصبيان. شاب الاحساس بالمفارقة صوت عهود. أنا معلمة. ضحكَ سليمان الياسين. رُبّ رمية من غير رامٍ. جالسنا بضع دقائق أشاع خلالها جو مرح أخّاذ. وعدتُ أنْ لا أطيل تطفّلي. لم ينتظر تعقيب أيّ منّا، نهضَ، أعادَ المقعد حيث كان، وجّه خطابه لي. للعلم فقط بعد اختفائكَ من المطعم تحدّث نوخذانا فؤاد الشطي بخصوص عودة الفرقة إلى الكويت سيكون سفرنا صباح السبت بعد غد، الأمر الجميل إنّ أعضاء الفرقة مدعوون يوم غد لغداء سياحي في عين الخضرا. نبستْ عهود. مكان ساحر. التفت سليمان الياسين إليها. توصيف غير دقيق. اضحكتها مشاكسته. لماذا. حقوق السحر محفوظة للنساء الفاتنات. عاد وجّه خطابه لي. الدعوة خاصة باعضاء فرقة المسرح العربي وعضوة الشرف عهود. لن أرافقكم لعين الخضرا. قالتها عهود اثر ابتعاد سليمان الياسين. ما المانع. وجودي معكم يحرجني. شملتني عيناها. يحرجكَ أيضاً، عدا عن هذا من غير المناسب أنْ أتركَ أختي وحدها. معكِ حق. نهضتْ. ستتوفر لنا فرصة لقاء ثان ليلة غد. جاريتها ناهضاً. بعد عشاء الغد عند هذه الطاولة. وهو كذلك. مشتْ، سايرتها ماشيين باتجاه ركن المصاعد. غرفتنا جود وأنا في الطابق الثامن. ليس مناسباً أنْ أقول لها، غرفتي أقرب، انفتح باب المصعد، دخلنا. أنتَ مُقل في كلامكَ. ماذا لو قلتُ لها، حياة الواحد منّا تضطره لأن يكون مُقلاً في كل شيء إلاّ المعاناة. قلتُ. لدي ما أخبرك به ليلة غد. عقدتْ حاجبيها وهي تحدّق إليّ، لم أشأ أُثر فضولها، توقّف المصعد عند الطابق الثامن. تصبح على خير. عُدتُ بالمصعد أرضاً، أردتُ التسكع في الجوار، تحاشيتُ لقاء سليمان الياسين، احتمال مواجهة أسئلة لا أملكُ إجاباتها، تمام الساعة الثانية عشرة إلى الغرفة، السرير وثير زيادة عن الحد، الذهن منحى احتدام زيادة عن الحد،

عرفتُ إسمها وإسم أختها وإسم مسرحية شكسبير، افتقاري لبعض من جرأة سليمان الياسين، أنتَ مُقل في كلامك، من منّا يملك حق أنْ يحبّ. ياربّي تبلّغني بعيال منسي، وما سألت أمي نفسها كيف. تجاوزاً لطموحات أمّي، عهود شابة كويتية في بلد غربة تعيش عفوية لحظتها لا غير، إيّاكَ أنْ تحاول تكثيف عمرك في برهة زمن طارئة بالنسبة لها، موعدكما القادم الأخير كما تعتقد، الطاولة بمقعدين، ستعتمدُ مبدأ الإصغاء، تتركها تتحدّث، ولن تستجيب إلا بناء على سؤال من طرفها، وبعكسه أنتَ أين. الوقت داخل الغرفة أبطأ مما تصورتَ، ليل دمشق غيره، ليلة ملحق الكويت بتواجد أمّكَ وصوت سعالها رغم محاولتها كتمانه يؤنسكَ، صارتْ الساعة ثالثة فجراً لا سبيل للإستغراق نوماً، تُبادر تجلس، تُغادر فراشكَ، تقتربُ للنافذة، ستارتها طويلة ظلّت مسدلة طوال أيام تواجدكَ، تزيحها قليلاً، ينكشفُ لكَ مشهد عدد من المباني، هناك مدرسة، تعرفها من انتظام غرفها وتواجد ساحة نصبتْ وسطها شبكة لكرة الطائرة، أنتَ طوالَ حياتك لم تصادفكَ فرصة ممارسة لعبة رياضية قصد الاتقان، تدري إنّ تفوّق شاب بدون، لعبة كرة القدم تحديداً، ضمان تبنّي أحد النوادي، حتّى إذا ما تفوّق جدّاً ضُمّ إلى المنتخب الوطني، كرة القدم ميّزة قصوى، احتمال تجنيس. ترفع نظركَ عن ساحة المدرسة، ترى ساحة داخلية لمبنى آخر من طابق واحد، ثلاث سيّارات جيب عسكرية وناقلة جنود واحدة، لا تقوم المدرسة إلاّ بوجود مركز أمني إلى جانبها، تُبقي على ستارتكَ مفتوحة، تعود لسريرك، متى يحلّ الصباح. حلول السادسة، عبرتْ حزم شمسهم الصباحية زجاج النافذة، غمرتْ طرف السرير، الإنارة النهارية رائعة جديرة بالإحتفاء لولا.الذهن الذي سارع لاستعادة أحداث ليلة فائتة، ما جدوي حياة تحاصرها تساؤلات بلا إجابات، بقيتَ مستلقياً على قفاكَ، ينشب عينيكَ إحساس حرقة مترتّب عن قلّة نوم، لستَ تظنّكَ مؤهلاً

لمشاركة أعضاء الفرقة دعوة غداء منتجع عين الخضرا، في الساعة الثامنة بدد رنين جرس الهاتف صمت المكان لدرجة المباغتة، خطفتَ سماعته. نعم. خضّكَ القرار العميق لصوت فؤاد الشطي. انزل لتناول إفطاركَ موعد تحرّكنا لعين الخضرا بعد ساعة. أوشكتَ تجيب، أرجو إعفائي، لكنّه أقفل الخط، بإمكانكَ مهاتفة سليمان الياسين تحميله رسالة الاعتذار، يتعالى رنين جرس الهاتف ثانية، الاتصالات لا تأتي فرادى، ترفع السماعة. نعم. ينهمر في داخلك مطر ربيعي، هو صوتها. صباح الخير منسي. مخطئ من قال أن الموسيقى تقتصر على آلات. أجبتها. صباح الخير. ولم تضف لها إسمها، سمعتها. هاتفني الاستاذ فؤاد الشطي على الغرفة قبل دقيقة دعانا أنا وأختي نرافقكم لعين الخضرا. سكن صوتها هنيهةْ، أرادتْ سماع استجابتكَ، ولأنّكَ لم تفعل أضافتْ. قال لي أصدقاء إبن أبيه هم أصدقاء فرقة المسرح العربي. سكن صوتها ثانية، الاستجابة أمر ملزم. عساكِ تأتين. ردّت. من غير المناسب أنْ ارفض دعوته. سماعة الهاتف إلى مكانها، دبْ نشاطكَ فيكَ، هل كنتُ محتفياً فعلاً، دعوة فؤاد الشطي شملتْ أختين، التلبية اقتصرتْ على واحدة، جود كما أفادت عهود اعتادت قضاء يوم الجمعة في السرير لا تغادره إلاّ بعد الظهر. ضحك فؤاد الشطي، قال لعهود بمنحى ترحيب. فيكِ البركة. اذهلتني عهود بقدرة تواصلها السريع مع الآخرين، لم تمض سوى دقائق حتّى بدتْ وكأنّها عضوة قديمة في الفرقة، عفويتها أزالت أسباب كلفة واردة، الآخرون تقبّلوها بصفتها شخصاً يخصّني، طريق عين الخضرا، انطلاق الباص، اتخذنا عهود وانا مقعدين متجاورين، يجدر بي أنْ لا أكدّرني بالتساؤلات المستغلقة، رفاق الرحلة ماضون يتبادلون أحاديثهم بينهم، قرّبت عهود وجهها إلي، أحسستُ بأنفاسها تلامس أذني. لدي كلام كثير أودّ قوله لكَ. سكتتْ لحظة. بعد وصولنا. وافقتها بإيماءة من رأسي. أرسلتُ بصري عبر زجاج النافذة، معالم

الطريق، التضاريس الطبيعية على جانبيه، جبل سفحه غابة تعلوه غابة يتخللها شلال ماء، الرؤية بمعزل عمّا عداها كفيلة بتحقيق دفق فرح يتجدد تلقائياً بتجدد المعالم المحيطة، استعادني صوت عهود وهي تشير. ذاكَ نبع عين الخضرا. شدهتني تفاصيل المكان، فوهة وسط صخور الجبل يتدفّق منها الماء شفّافاً نقيّاً تشوبه فقاعات هواء بيضاء، مُصدراً هديراً سرعان ما تألفه الآذان، يتحدّر فوق أحجار رمادية بدت نظيفة لامعة، سالكاً مجرى يبدأ ضيّقاً، يأخذ اتساعه رويداً، يتحول جدولاً، يتسع أكثر يصير رافداً، انتصبت على جانبيه أشجار حور عملاقة تتخللها نبتات خوخ ودرّاق، وعدد غير قليل من عرائش العنب، لم أترددني همستني، جناح من الجنّة، على الضفتين انتشرتْ مطاعم أقرب لأن تكون شعبية، طاولات من الخشب أو الخيزران تحوطها مقاعد خفيفة، بدا لي الجوار مزحوماً بالقادمين من أهالي دمشق، اليوم جمعة، مناسبة عائلية اختلط الرجال بالنساء بأطفال كثيرين، استمهلنا فؤاد الشطي. حجزنا لنا موقعاً عند العين. سبقنا حاثّاً خطوه، لحقنا به، الأرض، مع تقدّمنا تبدأ ارتفاعها التدريجي ريثما بلوغ سطيحة صخرية متشرّفة إلى يسار العين. حيّا الله ضيوف الشام. استقبلنا أحد الندّل، خصّنا بخمس طاولات متقاربة، همسنى سليمان الياسين. نجلس معاً. اختار طاولة تطلّ على مسقط الماء، أفرد كرسياً لعهود وآخر لي، لم أسأله إنْ كان هو الذي أوحى لفؤاد الشطي بدعوة عهود، وصل نادلهم. طلباتكم من المقبّلات. التفت سليمان الياسين لعهود. نسأل الجنس اللطيف أولاً. فاجأه ردّها الفوري. بعدين. ابعدتْ كرسيها، نهضتْ، حدّق إليها سليمان الياسين قلقاً. خير. انفرج فمها عن ابتسامة ود. أكيد خير. أشارتْ نحو مرتفع جبلي ما وراء الأغصان العالية لاشجار الحور. هناكَ مغارة صغيرة عرفتها أيام دراستي في جامعة دمشق أرغبُ أنْ أريها لمنسي. إرتج داخلي، المعني بالرؤية أنا، المعني بالمرافقة أنا، المباغتة

خارج التوقع، انلجم لساني مثلما انلجمتْ حواسي فيّ، سمعتُ سليمان الياسين يمارس مزحته. خلّي بالكِ على مدير إنتاجنا. إطمئن. وجّهتْ نظرها إليّ، عيناها تأمران، سمعتها تخبّر سليمان الياسين. لن نغيب طويلاً.

رغم كونكِ إبنتها عشتِ في كنفها أو تعايشتما معاً طوال حياتكِ بدءاً من ولادتكِ، اجزم يا زينب إنّكِ لا تعرفينها مثلي، الزمن عبر تقلّباته كفيل بتثوير إنسان ما خامل الفعل أو تدجينه إذا كان متمرّداً، أمّكِ يوم عين الخضرا ذاك مارستْ خروجاً عن المألوف أدهشني حدّ الاعجاب بقدر ما أثار تساؤلات بلا إجابات. أنتِ جادّة بخصوص المغارة. سألتها مسايراً خطواتها، إختصرتْ ردّها. جدّاً. الحيرة مدعاة إرتباك، الحال أشبه بنزوة مستعصية على الفهم، ولا سبيل أمامي سوى التسليم. سلكنا درباً ضيّقة مرصوفة بالحجر تفصل ما بين مطعمين، بلغنا طريقاً ترابية تصطف على جانبيها أشجار عملاقة، ارتقينا ما يشبه تلاًّ متواضع الارتفاع، صرنا ازاء سكّة حديد قطار المصايف الممتدة بمحاذاة سفح جبل أجرد ارتفع بشكل عمودي كأنّه جدار صخري عملاق، شاغلني هاجسي، ماذا لو تململ الجبل لدى مرور القطار عنده، حاذرنا مواقع أقدامنا فوق العوارض الخشبية الصلدة الحاملة للخطين الفولاذيين المتوازيين. إلى أين. نفاد صبري بمضاهاة حيوية صوتها. ثوان قليلة. توقّفنا أمام درب متعرجة صاعدة في جنح الجبل، ما الذي تقودني إليه عهود، طوال حياتي لم اسمح لنفسي أنْ اذهب بعيداً وراء نزواتي، حساب المغامرة من حساب المخاطرة، لا أظنكَ تعاني رهاب الأماكن المرتفعة. تساءلتْ ضاحكة، لعلها رصدت صراعي الداخلي. لا. سبقتني بخفة ماعز جبلي، لاحقتها لثوان أو لدقائق، لا ادري، صافحتْ وجهي نسمات باردة، وصلنا مسطّحاً حجرياً بحجم باحة منزل صغير تتوسطه صخرة مستطيلة خيّل لي إنّها نُحتت في زمن موغل، هل كانت الصخرة

مذبحاً لتقديم القرابين يوماً ما، بافتراض ذلك لماذا فوق هذا الارتفاع المعزول، المسطح الحجري يمتد داخل جسم الجبل مسافة أمتار من خلال فجوة خفيضة السقف، تنتهي بمنحوتة على شكل مصطبة، خلوة كاهن. أسميها مغارة اعتدتُ المجيء إليها خلال دراستي هنا، في عزّ الشتاء يقفر المكان من مرتاديه تصير العزلة مثالية. بقصد أو بغير قصد تكشف عهود عن جوانب من شخصيتها، أشارتْ للصخرة المذبح. إجلس. جلسنا متجاورين، وجهانا قبالة السماء الخريفية، نتف غيوم قطنية وأخرى بنيّة اللون تنتشر وسط السماء، الأغصان العليا لأشجار الحور تحجب زحمة الناس في المطاعم تحتنا، لغط الأصوات وصيحات الأطفال تتناهى لنا موحية بتسامينا عمّا هو أرضي. أنتَ لستَ على طبيعتكَ. أنا على طبيعتي. حدّقتْ فيّ مستغربة. الناس أمثالي يتهيبون مواجهة ما هو جديد. لم افهم. اغتنمتُ الفرصة. أنا بدون.

حدستُ إن جسدها تعرّض لرعدة خفيّة، تطلّعتْ صوب البعيد، أبقتْ عينيها مفتوحتين على هناك، سادتْ بيننا لحظات صمت قاس، هذا ردّ فعلها الأولي، ما الذي سيكون عليه تعاملها معي بعد دقائق أو ساعات، هل تبادر تهب واقفة، نعود إلى حيث يتواجد أعضاء الفرقة، أم ماذا، فيما يخصّني أحسستني تخففتُ من حمل أثقل صدري دون حاجة لأن أقلق، فيما يخصّها كيف، أخالها أعملتْ ذهنها سريعاً. إستدارت بوجهها إلي. صدّق أو لا تصدّق منذ البدء توقّعتُ وجود شيء مختلف فيكَ، أنتَ شخصية مربكة للآخرين. لم أسألها قصدها، أطلقتْ ضحكة خافتة. وأنا أقرأ إسمكَ تحت صورتكَ في جريدة السياسة استنتجتُ هو موريتاني. حرصتُ أداري استغرابي ملازماً صمتي. أيام دراستي هنا كان معنا زميل موريتاني يدعى عيسى ولد إبنو، وأنا أراكَ البارحة أمام باب المسرح أطلبُ مساعدتكَ صححتُ استنتاجي ذاك. عادتْ تطلّعتْ نحو البعيد. ها أنتَ الآن تصحح لي استنتاجي من جديد. سكتتْ برهة،

استدارتْ بوجهها إلي ثانية، صوتها لا يوحي باستنكارها لكنّها الدهشة. كلّ ما فيكَ يوحي إنّكَ كويتي. لم أعنِ افصح عن استنكاري لكنّها غصّة عمر. وماذا أكون. فاجأتني لامستْ ذراعي. لا تغضب. لمستها بادرة مشاركة، أبقت باطن كفّها فوق ذراعي، تماسّ ذراعينا بارحة المسرح مشاعر مغايرة، غافلتها زفرتها. أنا شخصية مربكة أكثر منكَ. احتفظ بتساؤلي، أين المقارنة. كم عمركَ. إختضّ جسدي لا إرادياً بضحكة مفارقة. لماذا السؤال. واجهتني في عيني، نظرتها تكاد تعريني من داخل. لا تتهرّب. تعتب أوتؤنب، ولا مناص. ثلاثون. سادتْ بيننا ثواني صمت، تنمّلتْ كفّها فوق لحمة ذراعي، أكاد أهوّم. المرأة تكره كشف حقيقة عمرها، أنا أكبر قليلاً. لم أنبس. سلوككَ العام لا يدل على إنّكَ متزوج. لم أنبس. أنا تزوجتُ قبل عشر سنوات، تطلّقتُ منذ خمس سنوات. تفاررتْ كلماتي، لم أتجرأ أعقب بكلمة ما، أنتَ في حضرة إمرأة دفعتْ ضريبة وجودها. لأنّك غير متزوج لن أسألكَ إن كان عندك أبناء. سكنني يقيني، عقلها يعمل منحى اشتباك، إختلجتْ أصابعها فوق لحمة ذراعي. سنة أولى زواج حبلتُ. سرى إختلاجها لصوتها. بعد عشرة أسابيع حمل اجهضتُ. من أين لي بكلمات مواساة تناسب الموقف، أنشبتْ أصابعها خلل لحمة ذراعي. إسألني ماذا أتمنّى. جاريتُ اشتباكيتها. ماذا تتمنين. سكتتْ لحظات، رأيتها تحبس دموعها، المشاركة اشكالية أكبر، هزّتْ رأسها مدللة على حيرتها، منحاها تفكيرها كيف، سمعتها ترجوني. إنسَ موضوع الأمنية. لم أصارحها، نسيان موضوع معيّن مرهون بمعرفته، جاريتها. نسيته. لي طلب أخير. قالتها راجية أيضاً، اصغيتُ لها متوجّساً. نكون أصدقاء. ذراعي ساكنة تحت ضغط كفّها مستسلمة تماماً، المكان حيث نحن، العزلة المستحوذة علينا، لا ازماع مبادرة ناتجة عن فعل مدرك مسبقاً بادرتْ يدي الطليقة شرّعتْ أصابع كفّي حضنتْ ظاهرَ كفّها الكائن عندي. نحن أصدقاء.

القمم الخضراء لأشجار الحور العملاقة تحت مستوى النظر، تجاوبتْ الآفاق مع صوت صفير معدني حاد، سمعتها تردد محتفية. قطار المصايف. راحت عيوننا باتجاه مدينة دمشق، نفثات دخان فضي اللون تتصاعد على هيئة سحابات حلقيّة صغيرة، تبدأ اتساعها لدى ارتفاعها أعلى نحو نتف الغيوم الساكنة هناك، مرّت بضع ثوان سمعنا اثرها هدير المحرّك البخاري للقاطرة الأم، إحساس بارتجاج هيّن للأرض، خنسنا في مكاننا، لم نر القطار، زحمة أغصان الأشجار حجبت مجال رؤية ما هو تحت، جلوسنا عهود وأنا فوق صخرة المذبح، تملكني شعور فيّاض بغنى داخلي، نمط فوز خالص بامرأة فريدة، الصداقة نمط ارتباط اختياري واع. قطار المصايف تابع طريقه، سمعنا صرير السكة الحديدية مع دوران عجلاته فوقها، أصدر صفيره الثاني وهو يبتعد. ما دمنا ارتضينا أنْ نصير صديقين في بالي كلام أقوله لكَ. صوتها يوحي برغبة مكاشفة أو نزوع لمشاركة، هفا قلبي، كنتُ انشدُ سماعها لولا انصراف ذهني لآخرين، رجوتها. وقت ثان . أطلّتْ خيبة أملها من عينيها، هفا قلبي أكثر. غيابنا عن أعضاء الفرقَة قارب ساعة. سبّقتْ بنهوضها مبدية هامش احتجاج. أنتَ تدقق في الشكليات. من أين تتأتّى لي امكانية فهم نوازع إمرأة لم أرها سوى البارحة، من أجل أنْ أبرر لها قلت. حتّى لا تساورهم شكوك. وقفنا متواجهين. ما هو الشك. حارت بي إجابتي. من أين يجيء الشك. عتبي ينازع حيرتي، رددت لها إسمها. عهود. اطلقتْ زفرة حرّى. يكفيني مريض الشك أخي سعود. أصابني خرس، المعرفة المنقوصة متاهة نوعية.

أواصلكِ زينب، أرصدُ بدء تشكّل علاقتي بأمّكِ، باذلاً جهدي أتذكّر كيفيّة تنامي هذه العلاقة، تطوّرها لما آلت إليه. رحلة عين الخضرا قرّبتنا لنا، بدونا كما لو إننا نعرفنا من أمدٍ ممتد في ماضٍ بعيد، تجاذب خفي بين روحين نالتا نصيباً من عذاب مقدّر، ما كان في البال أنْ نوغل

أكثر، الصداقة مفهوم يفي بالمطلوب، بعد عودتنا لفندق الشام عصراً صعدتْ عهود لغرفتها قاصدة تفقّد أختها، عدد من أعضاء الفرقة اتفقوا على قضاء الوقت المتبقي عن حلول الليل بارتياد سوق الحميدية، يومهم الأخير هنا، حاجة البعض لشراء هدايا تذكارية. لا تفوّت فرصة زيارة سوق الحميدية. نبّهني سليمان الياسين، المسجد الأموي يقع هناك عند نهاية السوق، هو أحد أهم المعالم التاريخية، العرض بالاغراء المرافق، ترددتُ قليلاً. عهود لا تعرف عن إزماع السوق أخشى أنْ تعتب. حسم محدّثي ترددي. بإمكانك الإتصال بها هاتفياً على غرفتها. لن أفعل. حسمني ثانية. إلى السوق إذن. بلوغنا سوق الحميدية، حضور مناخات العصر العثماني المتأخّر، زحمة المشترين أو المتسكعين، نداءات الباعة وهم يحاولون اجتذاب الزبائن لبضائعهم، أخذتُ سليمان الياسين من ذراعه. إلى أين. المسجد الأموي أوّلاً. استسلم لإلحاحي، حثثنا خطونا منفصلين عن باقي أعضاء الفرقة، تجاوزنا البوابة الحجرية في نهاية السوق، واجهتنا ساحة تصطف على جانبيها محلات بيع الكتب، تريّث مرافقي عند دكّة لبيع المؤلفات التراثية، سحبته من يده. بعدين. الباب الخشبي العملاق المعزز بالمعدن للمسجد الأموي مسافة أمتار معدودة. قلت له. نراه من داخل في ضوء النهار. رغم تسليمه لم يُدارِ امتعاضه. لن يحلَّ الظلام قبل ساعتين. عند دهليز المسجد خلعنا أحذيتنا، اودعناها لدى أحدهم، تجاوزنا العتبة، انشداهي يصحبه ذهولي، اصغى سليمان الياسين لتمتمات إعجاب تصدر عنّي، ابدى ملاحظته. أجدادنا الأوائل يحسنون بناء المساجد. استثارني رأيه. ليس المساجد وحدها. ويحسنون قول الشعر. أنت ناقم عليّ. أو على سدنة التاريخ. أنت جاد. قليلاً. ضحكتُ. جاراني ضاحكاً. يجدر بنا الاستفادة من فسحة الوقت قبل ارتفاع آذان المغرب. لماذا العجلة. في بالي اشتري عباءة حريرية لأمّي. من حق أمّي أيضاً. غادرنا المسجد الأموي، توغلنا

في السوق، سلكنا زقاقاً ضيّقاً متفرعاً اختصّت دكاكينه ببيع العباءات النسائية، انفقنا ما يقارب ساعة بشراء عباءتين، عبرنا الزقاق إيّاه نحو آخر أوسع نسبياً اختصّ ببيع المصنوعات الجلدية، استرعى انتباهي صندل نسائي رقيق مشغول من خيوط جلدية مضفورة عنابية اللون. أريد هذا. مال سليمان الياسين على أذني. هل تعرف مقاس قدمها. الصندل شبابي لاجدال، والسؤال المهموس يعود على عهود. الساعة جاوزت الثامنة ليلاً عندما دخلنا الفندق، تطلعتُ صوب الكافيتريا، صوب الطاولة ذات الكرسيين الكائنة في الركن الأبعد، رأيتها هناك وحدها، ساكنة في جلستها أمام الواجهة الزجاجية المطلّة على الطريق، تملكني إحساس طارئ بالذنب، لعلّني أخطأتُ تجاهها، لو أخذتُ باقتراح سليمان الياسين هاتفتها قبل الحميدية، أتطلّع عبر المسافة الفاصلة، إمرأة مثلها يصعب حدس ردّ فعلها، عمرُ المعرفة مدار يوم واحد ولا من يجزم بالآتي، مشيتُ، المسافة تتلاشى، وقفتُ وراء ظهرها، رأتْ انعكاس صورتي في زجاج الواجهة أمامها، استدارتْ بحركة هيّنة. الحمد لله على السلامة. نبرة صوتها حيادية لا تمت للسخرية أو الاحتفاء، أبقيتني صامتاً، عدّلتُ وضع الكرسي المجاور، جلستُ، دفعتُ لها علبة الكارتون، أخذتها دون أنْ تنبس، أزاحتْ غطاء العلبة، رأيتُ اتساع عينيها حال رؤيتها الصندل، تملكني فرح رائق، بادرتْ وضعتْ علبة الكارتون أرضاً، انحنتْ، سارعتْ خلعتْ حذاءها، دسّتْ قدميها في الصندل، تنفستُ مرتاحاً، مناسبة القياس، أمعنتُ النظر لرشاقة قدميها بلونهما الخمري النقي، أمرٌ أقرب للكمال، رأيتها تشدّ خيوط الصندل، تضع حذاءها الأوّل داخل علبة الكارتون، تطبق غطاءها. رشوة مقبولة لقاء زمن غياب. آلمني عتبها، من يمتلك حق ماذا، لم تواتني كلماتي. هل غاب عن بالكَ إنّك مسافر غداً صباحاً. أنا لا أصنّفُ نفسي قيمة ما لديها لكي تمتلك جرأتها تعتب بهذا الصدق، العتب دالّة على

المعتـوب بـه، لـم تواتنـي كلماتـي. كان بامكانكَ تطلب منّـي مرافقتكَ. صوتي غياب. لعلكَ خفتَ احتمال شكّ الآخرين. أبداً. واجهتني عيناها تستفهماني. خلتـكِ تحتاجيـن وجـودكِ إلى جانب أختـكِ جود. رفعتْ كفّهـا أمـام وجهـي. جـود تفضّل معاقـرة التلفزيون علـى التواجد معي. أنشـدهُ ازاء توظيفهـا كلمـة معاقـرة، أتجـاوز انشـداهي. وددتُ أنْ لا ازعجـكِ. افحمنـي ردّهـا. إزعجنـي ولا تخذلنـي. من يدّعـي فهم إمرأة بعينها، مجاهل سـاحرة محيّرة في الوقت نفسـه، ها أنا المتوحّد المنفي عند تخومه الخاصة به، اقتربَ منّا أحد الندل، تمالكتْ عهود هدوءها، سألتني إن كنتُ تناولتُ طعام العشاء، هززتُ رأسي نافياً، حددتْ طلبها للنادل. كيك فراولة لشخصين وقهوة سادة. اثر ابتعاد النادل بغية تجهيز الطلـب نوهـتُ لهـا بدهشـتي. العشـاء شـيء ثـان. تسـتطيع الالتحـاق بجماعتكَ في المطعم. اضحكُ أم امتعض، لجمتُ انفعالي. أفضّلُ البقاء معكِ اسمعكِ. لن تسمعَ منّي إلاّ ما يؤكّد زعلي. حدّقتْ إلي في عيني، أضافـتْ. الـكلام الحقيقـي لا يجـيء بنـاءً على الطلب. أزعـمُ زينب أنّ فهمكِ لشـخصية أمّكِ عهود يختلف جذريّاً عن فهمي لها، الأم، وهذا زعـم ثـان، تبـذل جـلّ جهدهـا تؤثِر ضناهـا عليها، بما يعنـي تفانيها في نكران ذاتها، تجيّر مشاعرها لارضاء مشاعر الأمومة، متجاوزة أو غافلة عن احتياجات إنسانية أساسية، بما يبقيها طي الاخفاء، لهذا السبب ابذل مـن جانبـي جهـدي كلّـه لغـرض تحديـد الإطـار الآخر لشـخصية أمّكِ بأفعالهـا وردود أفعالهـا، العفويـة تحديـداً، اظهار الجانـب المتمرّد فيها أيامها، رصد النأمة والكلمة، حدسـاً أو يقيناً، عسـى أنْ نلتقي أنتِ وأنا فـي آخـر هـذه الأوراق عند فهم مشـترك لجوانب شـخصيتها. بعد تلبية النادل طلبها، صفّ صحني الكيك بالفراولة وفنجاني القهوة على طاولتنا سادتنا لحظات صمت، أعقبها نمط من جدل فارغ. أنتَ لم تأكل. أنتِ لم تأكلي. حسـناً أبدأ آكل. لاكَ فمها شـريحة كيكتها، غمغمتْ. أفضل

ما في فندقهم كيكتهم هذه. أخذتُ لفمي شريحة كيك صغيرة، طعم الفراولة الطازجة، رفعتْ فنجانها، أخذتْ رشفة. لم تقربْ قهوتكَ. أشربها سكّر زيادة. لماذا لم تعترض في حينه، على العموم مع الحلو لا طعم للقهوة إلا إذا كانت سادة. ربّما. انفرج فمها عن ابتسامة أسيانة. أنتَ إنسان مسالم وأنا إنسانة تجيد الإساءة لصداقاتها. سادتْ لحظات صمت ثقيل بدده صوتها. مُنذ طلاقي. سكتتْ ثانيتين. مُنذ زواجي. سكتتْ ثانيتين أخريين. منذ الأيام الأولى لخطوبتي قبل ما يقارب عشر سنوات لم استطع الاحتفاظ بعلاقة مع أيّ من صديقاتي لمدّة شهر كامل. الا صداقتنا هذه. شملتني عيناها بنظرة امتنان غير متوقع. هل أنتَ متأكد. من نفسي. أطلقت عهود ضحكة رائقة، بلغنا صوت سليمان الياسين آخذاً بالاقتراب. اللهم اجعلهُ خيراً. إلتفتنا معاً، وقف عند طاولتنا. مساؤكما الخير أوّلاً. استجبتُ له متسائلاً. ثانياً. غفل الرد عليّ، تطلّع لبقايا الكيك. الناس تأكل الحلو بعد الوجبة وأنتما تسبّقان به. مثلما حدث قبل ليلة، وصول سليمان الياسين حقق مناخ مرح نفتقده كلانا عهود وأنا، سحب مقعد طاولة مجاورة، توسّط جلستنا. بصفتي وليّ أمركَ هنا كلّفني فؤاد الشطي إبلاغكَ. ترك جملته معلّقة، تقمّصَ صوت فؤاد الشطي. مطلوب من أعضاء الفرقة كافّة إعداد حقائبهم قبل خلودهم للنوم الليلة، سنغادر هذا الفندق قبل الساعة الثامنة صباح غد. أوشكتُ أستجيبُ بكلمة حاضر لولا مداخلة مباغتة من جانب عهود. منسي لن يسافر معكم. شلّتْ دهشتي لساني، في حين فتح سليمان الياسين عينيه علي مستغرباً. متى اتخذتَ قرار البقاء هنا. لم اتخذ أي قرار. همّ سليمان الياسين يردّ لولا توجّه عهود إليه. أعدكم أعيده لكم يوم الإثنين. الاستغراب إذا أُخذ مجرداً لا يكفي، وعدُ الإعادة يتصل بي أنا الغافل تماماً عمّا يدور في رأس عهود، يحدث أو لا يحدث، الفكرة لدى أخذها مجرّدة تبدو معبأة وعوداً، لكنّ واقع الالزام وسط

ظرف قائم يجعلها خيالية أقرب لأن تكون جامحة، عدّل سليمان الياسين صياغة سؤاله. أنتَ باقٍ هنا. لم تمهلني عهود فرصة الإجابة. أحتاج وجود منسي معي لغرض إنهاء إجراءات قبول أختي جود في سكن الطالبات. عمق العلاقة ما بين اثنين يحدد مدى دالّة واحدهما تجاه الآخر، عهود وأنا منذ يوم لا غير، حَريّ بها اذا كانت تحتاج بقائي إلى جانبها حقيقة أنْ تقترح صيغة طلب أو رجاء لا الافصاح عن قرار متخذ من جانب واحد، حاصرني سؤال سليمان الياسين. ما هو موقفكَ. حاصرتني حيرتي، آثرتُ ترحيل سؤاله إليه. ضع نفسكَ مكاني. ابتسم، لم يؤخّر ردّه. أوافق. عاتبته. تتحمّل التبعات. أتحمّلها إكراماً لعيني إمرأة فاتنة. يا إبن الياسين. لا ضير من بقائكَ يومين إضافيين. جادلته. مادمتُ جئتُ بصحبة الفرقة تتوجّب عودتي معها. للضرورة أحكام. لأنها تجالسنا لم أصارحه، الضرورة والاحكام تأتلفان تؤكدان شخصية المرأة الماثلة عهود ورغبتها الملتبسة أنْ أكون معها ولا منْ يجزم بالذي يأتي، اختصرتُ هواجسي. يصعب عليّ البقاء. أنتَ تصعّب الأمور. خلال جدلنا سليمان الياسين وأنا إلتزمتْ عهود صمتها قبل أنْ تبادر تهبّ واقفة. أغيب دقيقة واحدة. حثّتْ خطوها مبتعدة، قرّب سليمان الياسين رأسه منّي. مثل هذه الفرصة تصادف الانسان مرّة في العمر. أنتَ تفهم الأمور خطأ. ما ادراكَ إنّها ليست فرصة العمر بالنسبة لكَ. فهم متعجّل. إمرأة جميلة تدعوكَ للبقاء معها لماذا الرفض. لماذا القبول. أنتَ منحوس. شكراً. رقّ صوته. إنْ كانتْ تنقصكَ النقود. لدي. إنْ كان عامل قلق بخصوص موافقة فؤاد الشطي دعني أتصرّف.علام الإصرار. لا تركب رأسكَ تخيّبَ أمل المرأة.عند عودة عهود استقبلها سليمان الياسين بابتسامة واثقة. منسي باقٍ معكِ.

الناس أمثالنا يا زينب يكرهون المفاجآت، خشيتهم أنْ يحلّ طارئ خارج حسبانهم يزيد حياتهم تعقيداً، صبيحة يوم سفر أعضاء

الفرقة فاجأني غياب الأختين، توقّعتُ رؤيتهما في بهو الفندق أو الكافيتريا، الوقت حساب مضنٍ، تصبّرتُ حتى الساعة الحادية عشرة تجرأتُ بعدها هاتفتُ غرفتهما، رن جرس التلفون مرّات عدّة، أعقبها صوت المجيب الآلي مفيداً بامكانية ترك رسالة، اقفلتُ الخط محبطاً مشدوهاً ازاء توحّدي في الوقت نفسه، خطر لي اسأل إحدى موظفات الاستقبال عنهما، جاءني الرد. الشابتان الكويتيتان غادرتا مبكرتين. متى. حوالي الساعة السابعة والنصف. شملني ذهولي، هما أوّلاً ثمّ الفرقة، أنا الباقي هنا، صرفتني من أمام موظفتهم مشتت الذهن أعاني شعوراً بالضياع، حدسي لم يخطئ، لا أحد يستطيع الجزم بما يمكن صدوره عن إمرأة مزاجية حدّ اللامبالاة بالغير، أغلب الظن حدث سوء تفاهم بينها وبين أختها، اتخذت قرارها تسافران فوراً دون أنْ تلقي بالاً لإنسان ما أصرّتْ على استبقائه، مغفل أنا بالرضوخ لالحاحها، قادتني قدماي للطاولة ذات الكرسيين إيّاها، جلست هناك، حياتي سلسلة متصلة من خبرات محبطة هذه إحداها ولا مفرّ من تصرّف منطقي، وثيقة سفري في جيبي وكذلك تذكرتي، بامكاني سؤال موظّفة الاستقبال عن كيفية اجراء حجز مقعد على أوّل طائرة متجهة للكويت، اقترب أحد الندّل مني، نكاية بي طلبتُ فنجان قهوة سادة، ابتعد النادل، الطريق ما وراء الواجهة الزجاجية يعجّ بالسيارات والمارّة، وحدي في دمشق الأمويين، استعدتُ مهاتفة عهود لي ليلاً، كانتْ الساعة جاوزت الواحدة، في سريري نهب أفكار غير قابلة للانتظام ضمن نسق منطقي، أين أضعني داخل صيغة علاقة مرتبكة، رنّ جرس الهاتف خطفت سمّاعته. أدريكَ لم تنم بعد أنا أيضاً لم أنم. صوتها فعل السحر، اصغي لها. أرجو أنْ لا تظلّ حائراً. سكتت وهلة. لا أكذب عليكَ أنا سعيدة بكَ. قبل انهائها مكالمتها قالت كلاماً آخر، لكني استمهلُني عند نفيها لا أكذب عليكَ، صدقُها كان يتشرّب صوتها، لماذا تسلكها الخارج على المألوف اليوم،

وصـل النـادل، وضع فنجان القهوة أمامـي، علقتْ عيناي برغوة القهوة، الانفعـال رغـوة، لعلهـا وسـط انفعالهـا اتخذتْ قراراً متسـرّعاً بالسـفر، لعلّهـا لحظـة مغادرتهـا الفندق تذكّرتْ تركتْ رسـالة توضّح أسبابها أو رقم هاتفها في الكويت، تلبّسـني اسـتنتاجي، نهضتُ، اسـرعتُ لموظّفة الاسـتقبال. بخصـوص الشـابتين الكويتيتيـن، هـل تركتـا رسـالة. مدّتْ موظفتهم يدها لدرج عندها، تناولت مظروفاً صغيراً يحمل شعار الفندق. أنتَ الاسـتاذ منسـي. تواتر خفقان قلبي. أنا هو. مدّتْ يدها، اختطفتُ المظـروف، عـدتُ لطاولـة المقعدين، المظروف يحـوي قصاصة ورق، الخط الأنثوي نكهة خاصة. عزيزي منسي لم أشأ اوقظكَ في وقت مبكّر أنا وأختي جود بصدد الذهاب لإدارة سكن الطالبات الجامعيات، أراكَ بعد عودتي من هناك. أوان موجة فرح حقيقي مؤهلة لاكتسـاح أسـباب الاحباط والكآبة، ظلمتها لمّا ظننتها تخلّتْ، صَدَق سليمان الياسين، أنتَ منحوس، المنحوس هو الذي يسـيء الظن للاسـبب، سـمعتني اضحكُ للاسبب، صدى ضحكتي لفت انتباه نادلهم، أشرت له. كيك بالفراولة. الشابتان عهود وجود عادتا للفندق قبل الساعة الثانية ظهراً بقليل، عهود قسـمات وجـه منفرجة، جود لا تبـذل جهدها تخفي امتعاضها. الليرات تذلل العقبات، استطعنا انجاز مسألة قبول جود في سكن الطالبات خلال سـاعات، بامكانهـا الانتقـال لهنـاك منذ الآن. جود لـم تخف انزعاجها. منذ وصولنا وأنتِ تحاولين التخلّص منّي بأسرع وقت. تجاوزتْ عهود احتجـاج جـود إلتفتـتْ لـي، سـألتني إنْ كنتُ تناولتُ وجبـة الغداء. لا. نذهب لمطعم الفندق. مشـتْ جود وراءنا صامتة، جلوسـنا حول إحدى الطاولات، واصلتْ عهود حديثها. وجوب نيل قسط راحة ساعة قيلولة ثمّ إلى السوق لشراء احتياجات جود. الأخيرة اكتفتْ من الطعام بالقليل، همّتْ بالنهوض،استمهلتها إشـارة من يد عهود، قالت. احتفالاً بقبولك فـي الجامعـة نقصـد هذه الليلة مطعماً متميّزاً قريباً من المسـجد الأموي

يقدّم وصلات غنائية فولكلورية. هبّتْ جود واقفة. اصعد للغرفة. شيّعتها عهود بنظرة عطف. جود لم تستوعب بعد فكرة ابتعادي عنها وإنّها ملزمة تبقى وحدها هنا. جولة التسوّق استغرقت ساعة، ابدتْ جود خلالها تذمّرها. كفاية مشتريات أريد العودة للفندق. شملني ارتياح. شمس دمشق تؤذن بالمغيب، تجاوزنا بوابة الفندق الزجاجية، قررتْ جود. اصعد للغرفة. نفسيّتها آخذة تسوء آكثر، اسرعتْ نحو ركن المصاعد، التفتتْ إليّ عهود، عيناها تشفّان حيّرة. مضطرّة أكون معها، أحاول أنْ لا أتأخّر. لا بأس. حملهما مصعدهما، أنا الشيء الفائض عن الحاجة، عيناي تمسحان المكان، فائض عليّ، لابد من وجود صنف فنادق يصلح لسكنة الملاحق، تنقصني ميّزة اللياقة البشرية وإلاّ ما كنتُ انصعتُ لنزوة إحداهن، أعضاء فرقة المسرح العربي وصلوا الكويت، وصلتُ إلى أين، أحاول قضاء وقتي متسكعاً أذرع أروقة الطابق الأرضي للفندق، هناك دكان لبيع الكتب، أقف أمام الأرفف، اقرأ العناوين، ذهني لا يختزن ما تراه عيناي، أنا الطارئ على المكان، أتوجه إلى المصعد، الغرفة معتمة، التلفزيون نشرة أخبار محليّة، اترك الغرفة، ادخل المصعد ثانية، التسكع مهنة العاطلين، أتذكّر وعد عهود. احاول أنْ لا اتأخر. أعنفنّي، أحدنا تأخّر فهمه تجاه المكانة المقدّرة له عند صاحبه. أتذكر قولها. جود لم تستوعب بعد فكرة ابتعادي عنها. مطالب استوعب فكرة أنا سلعة يمكن الاستغناء عنها، أقفُ في بهو الفندق وحيداً إلاّ من شعوري الضاغط بالمحاصرة، الآخرون يمرون بي ولا يلحظون وجودي، حري بي أكون مثلهم، أتجاهلني حاضراً، أتسكع، أُراوغ الوقت عساه يمر، أعبر البوابة الزجاجيّة، أقف على الرصيف، الأرصفة هنا مرتفعة لدرجة حضور رادع، لا ابتعد عن المدخل مبقياً لعهود فرصة رؤيتي لوعنّ لها تبحث، أسمع مآذن مساجد دمشق تتجاوب بنداء أذان العشاء، حال معاناة ساعات الليل كيف، تهب رياح ليلية، خريف دمشق يبيّت برداً

شتائياً، اقفلُ عائداً، الكافيتريا مكان مناسب، أغيّرطاولة جلوسي. شاي أسود ثقيل. الدقائق تتعمد بطء تواليها، أمّي، الملحق، أداء فرض صلاة العشاء، معاناتها وحدتها، الوحدة هنا غير، ضحى اليوم عانيتُ مثل هذا لكن قصاصة ورق بخط اليد بددت كآبتي حققت كمّ فرح، أتطلع عبرالواجهة الزجاجية، الشارع بدأ يقفر من المارّة، السيارات العابرة صارت أقل، المصابيح المعلقة أعلى أعمدة حديدية ترسل إنارة صفراء باهتة، لا أتطلع لساعتي، لا حاجة بي لمعرفة مسار الوقت، الكافيتريا شبه مقفرة، لا أحد سوى ثنائي سياحي، رجل وامرأة تجاوزا سن الكهولة يحتلان طاولة قريبة يدققان النظر في خريطة فرداها أمامهما، هناك وراء كاونتر الخدمة نادل وحيد لا يخفي تذمّره وهو يعمل على تنظيف أوانيه، التقطتْ أذناي وقع خطوات مقتربة، التفتُّ، عهود، فز قلبي خارج إرادتي لمرآها، فزّ بأقوى عندما لاحظت شحوب وجهها، عيناها خاليتان من بهجتهما. هاتفتكَ على غرفتكَ. العتب منحى ألم. أنا هنا. صوتها جاء هابطاً، صوتي أيضاً، أشرتُ للمقعد القريب، استجابتْ جلستْ، سألتْ. تعشيتَ. لا. مطعم الفندق يقفل أبوابه مع الحادية عشرة. خطفتْ نظرة لساعتها. أقفلوه قبل ربع ساعة. ليكن. أنتَ لا تبالي. هل أصارحها، اللامبالاة حالة نسبية رهينة ظرفها. أقترح أنْ تصعدَ لغرفتكَ تتصلَ بخدمة الغرف تطلبَ كلوب سندويتش. لم أسألها عن سبب تحديد صنف أكلي، لكنني تساءلتني، عهود لم تعتذر أو تبرر سبب اهمالها لي حتّى حينه. كيف حال جود الآن. نص نص، تَشاركنا أنا وهي عشاءنا داخل غرفتنا. أتقبّلُ أمراً واقعاً لغرض تطويعي عندي. بدأتْ جود تتقبّل فكرة بقائها هنا بعد عودتي للكويت. نهضتْ فجأة. هيّا. الطلب بصيغة الأمر. ماذا. اصعدُ معكَ لغرفتكَ أطلبُ لكَ عشاءكَ. مسايرة أهواء الآخر تضغط على الأنفاس، ولا مناص، مشينا نحو ركن المصاعد، بهو الفندق خال من غيرنا، انفتح باب المصعد، دخلناه،

أحاول تثبيت نظري على أيّ شيء، لا أريد لها أنْ تتبين مشاعر كآبتي، الوحشة تعتمر رواق الطابق الرابع، سجاد الأرضية يكتم وقع خطواتنا، عهود تنتوي دخول غرفتي معي، ازمع خيالي يجمح، سارعتُ لجمته، فتحتُ الباب، افسحتُ لها طريق الدخول، سارعتْ عهود لجهاز الهاتف، سمعتها تطلب من أحدهم. كلوب سندويتش. إلتفت إلي. يصلكَ الطلب خلال عشر دقائق.لا بأس. استدارتْ متجهة نحو الباب، فتحته، انفلتتْ خارجة، لم تقل ما يفيد. أراكَ صباح غد، مشاعري خليط يصعب وصفه، منذ أمس وأنا بين مدّ وجزر، شخصية عهود كما يتوجّب عليّ فهمها واحد من اثنين، ذهن مشتت لدرجة الغفلة اللامسؤولة أو إنهّا تعاملني شيئاً مشاعاً حازتْ ملكيته بوضع اليد، في الاثنين يلزمني أخذ حيطتي، تحصين مشاعري، تبليدها تجاه خبرة جديدة متاحة أو مفروضة، بادرتُ لجهاز الهاتف. الرجاء إلغاء طلب السندويتش. سحبتُ لصدري نفساً ما، الراحة شأن نسبي، تطلعتُ للسرير، وثير زيادة عن المطلوب، النوم يتكفّل اطفاء المشاعر، ساعة، أكثر أو أقل، أظنني أوشكتُ اغفو، تعالى رنين جرس الهاتف، حَدثُ البارحة يعيدُ نفسه، أتململ لثوان، افترضني غافياً أو خارجاً، هاتفهم يلحّ، ضعفتْ مقاومتي، خطفتُ السماعة، الحدس الوارد عهود، أخطأ الحدس. مرحباً أستاذ منسي، أنا جود. صوتها مندّى ودّاً. عساني لم أقلق نومكَ. تُراني قادراً أنفي أو أؤكد. يكفيني ازعاجي لكَ طوال اليوم. الصحو لذّة مكتشفة. إفطارنا أنا وعهود سيكون الساعة السابعة صباحاً في مطعم الفندق، أتمنّى أراكَ. حديثها ببقيّة لم تتمها. أختها عهود خطفتْ سماعتها، سألتني إنْ كنتُ انهيتُ عشائي. وإنّ اعجبني الكلوب سندويتش. جدّاً. كنتُ واثقة من ذلك.

احسبكِ زينب تعانين الملل وأنتِ تقرأين هذه الأوراق، أو العكس، حيث يحفّزكِ فضولكِ لمعرفة جانب خفي في شخصية أمّكِ، الحال بالنسبة لي حساسية عالية تلامس حدود الألم تتجاوزه إلى ما هو أبعد أحياناً، استعادتي المقصودة لأيامنا تلك تحيلني حاضراً في قلب الحدث، أحسّني أعيشه كأنّه يواصل ذاته بذاته. كان صباح يوم أحد، أقلّتنا نحن الثلاثة سيّارة أجرة صغيرة، ركضت بنا عبر شوارع دمشق، استمتعتُ بمراقبة خالتك جود لدرجة الانتشاء، بدتْ سعيدة تفيض حيوية، نقيض ما أوحتْ به سابقاً، تراها توّها اكتشفتْ حقيقتها أو إنّها القناعة الملزمة بقبول الأمر الواقع. هنا. رفعت عهود صوتها للسائق، توقّفنا أمام بوابة مبنى سكن طالبات جامعة دمشق، وداع الأختين لحظة مؤثرة، تعانقتا، وعدتْ عهود أختها. أجيء لزيارتكِ ولو يومين خلال الشهرين القادمين. فكّتْ جود عناقها لعهود مدّتْ كفّها لي، قالت. أنتَ مسؤول عن رعايتها. المخاطب أنا وضمير الغائبة يعود على عهود. أبدتْ الأخيرة احتجاجاً هيّناً. مقبولة منكِ. تجاوزتْ جود احتجاج أختها قرّبتْ فمها لأذني. عهود مجنونة قليلاً طيّبة كثيراً. أنهتْ بها قبل تواريها وراء بوّابة سكن الطالبات، اطلقتْ عهود زفرة ارتياح. ها أنا أتفرّغ لكَ الآن. نبرة صوتها لا تشي بمكنونها، التفتتْ لسائق سيارة الأجرة. خذنا لمحطّة ركّاب السيّدة زينب. حبستُ استغرابي، أرجأتُ تساؤلي، مع عهود لا يملك الواحد إلاّ أنْ يمتثل ثم يسأل، عادت سيّارة الأجرة ركضتْ بنا عبر شوارع أخرى، افصحتُ لعهود عمّا يشغل ذهني. مقام السّيدة زينب حسب علمي موجود في القاهرة. جاءني ردّها محيّراً. السّيدة زينب ليست حكراً على القاهرة. ما الذي افهمه، اخترتُ سؤالاً

مغايراً. هل يبعد كثيراً عن هنا. في ضاحية السيّدة زينب. السؤال وعدمه سيان، لزمتُ صمتي، بعد دقائق توقّفت السيّارة عند ساحة مزحومة بالناس وحافلات ركاب صغيرة، أصوات الباعة الجوالين تتردد حولنا. تعال. وجّهتني وهي تأخذ يدي، شدهتني طراوة كفّها، وصلنا سيارة باص صغيرة، إختارتْ مقعدين متجاورين في المؤخرة، تساءلتُ مع نفسي إنْ كانت ستفلت يدي.

هنا الآن ليلة صيفية، مبنى مسرح الخليج، السالمية، داخل غرفتي تحوّطني رفوف ملفّاتي، أواجه صندوقكِ الحامل إسمكِ، استعيد صباحي الخريفي الدمشقي ذاك قبل خمس وعشرين سنة، تحضرني مفردات المكان نابضة حياة، الساحة والناس ومنبّه سيارة قريبة، أكاد أسمع لغط ركاب الباص، هذا كلّه بالأثر الذي يخلّفه لا يعدو كونه أمراً ثانوياً ازاء مشهد محدد ضمن مساحة صغيرة محصورة بركبة ساقي اليسرى، مقاعد الباص تفتقر لمساند تفصلها عن بعضها، جلوسنا عهود وأنا متقاربين، كفّانا ما زالتا معاً، ضيق المكان، ولا مفر من إراحة كفّي فوق ركبتي، كفّانا معاً، كنتُ ارتدي سروالاً أخضر زيتياً، شدّهني انسجام تشكيلي أخّاذ بين اللون الزيتي واللون الخمري الشفيف لظاهر الكف الانثوية، الجمال قياس مدرك، والجمال، في بعض الأحيان، خارج نطاق كلّ القياسات. أنتَ لم تسألني لماذا قررتُ الذهاب للسيدة زينب. حسبتني بدأت اقترب من إمكانية فهم المنحى التوليدي لمسارات تفكيرها. لماذا قرار الذهاب. وفاء نذر. سبّقتُ باستنتاجي لقاء قبول جود في الجامعة. اهتز جسدها ضاحكة. لو شاءت جود نذرتْ لنفسها. ليست خيبة، هو شعور بالمفارقة. نذري أنْ يحلّ أخي سعود عن ظهري. أخوها سعود شخصية غامضة بالنسبة لي، والمعنى المضمّن للفعل يحلّ يفارق، جاريتها دون أنْ أعني بمعرفة معلومات معينة. كيف حلّ. سافر إلى الولايات المتحدة قبل شهرين لدراسة الدكتوراه. نشط ذهني بدافع

فضول. كم أخ لديكِ. واحد. سكتت برهة. وأخت واحدة. تطلعّتْ في عيني. وأنتَ. وحيد نفسي لا أخ ولا أخت. صدّق أو لا تصدّق مُذ رأيتكَ حدستُ إنّكَ وحيد أبويكَ. عهود تجتهد على طريقتها، تستطيع التأكّد ما إذا كان الشخص وحيد أهله من حساسيته وعزلته حتّى لو كان وسط الآخرين، لم أجد سبباً للنفي أو للتأكيد. الأسواق الشعبية تكاد تحوّط مقام السيّدة زينب بمسجده الكبير، أصوات أبواق السيارات، الناس زحمة خليط ما بين رجال ونساء وأطفال، سحنات مختلفة، لاحظت تواجد عدد كبير من الإيرانيين، إضافة لاعداد لا يستهان بها من العراقيين، ظلّت يدي عالقة بيد عهود، أردت ابداء دهشتي ازاء حجم الحشود البشرية. كأن بيوتهم خلت منهم. أيام الجمع يتضاعف العدد مرّات. خلال زمن دراستها في دمشق كانت عهود تفضّل قضاء نهارات الجمع هنا. فتحتْ حقيبة يدها، تناولتْ شالاً حريرياً. يتوجّب حجب شعر المرأة لدى دخولها المسجد. قبّة فِيروزية عالية تتقدّمها ساحة واسعة يتراكض فيها صبية صغار يطاردون طيور حمام، عند اجتيازنا البوابة العملاقة احكمتْ عهود شالها حول شعرها، انفصلتْ عنّي مسافة خطوات، احترام المقام، تبعتها صامتاً، احتوي قوامها بعيني، سليمان الياسين أسمعني قولته. فرصة عمر. أتخيّلنا هي وأنا حياة مشتركة، تلتفتْ إليّ، تتأكّد من وجودي في الجوار، تحثّ خطوها نحو رجل خمسيني يعتمر طربوشاً أخضر. السلام عليكم أنا صاحبة نذر استوجبَ الوفاء أين أجد القيّم. حيّاكِ الله يا إبنتي بلغتِ قصدكِ. لم تتردد عهود، دسّتْ أصابعها وسط محفظتها دفعتْ للرجل الطربوش بضع ورقات نقدية، قالت. أريده خروفاً يوزّع لحمه على الفقراء. تفحّص الرجل ورقاته، قال. سيكون خروفاً صغيراً يا ابنتي. سلّمته عهود ورقتين أخريين. أراقبها لا تفتأ تحكم شالها حول شعرها، خلوة أولى في كافيتريا فندق الشام عرفتُ عنها، ماجستير أدب انجليزي، سلوكها ينمّ

مزاجية متمرّدة، ملازمتها أختها طوال يوم أمس والبارحة أكّدت وشيجة ارتباطها العائلي، حديثها بخصوص أخيها المدعو سعود أثبت العكس، لا ادري إنْ كان يحقّ لي آخذ مسألة وفاء النذر بجديّتها كاشفة جانباً إيمانياً في شخصيتها، أراقبها، أراها تقترب، تقف مبعدة خطوتين، تحدّق في عيني كمن يتوق لرصد فعل صاحبه مسبقاً. لعلّكَ تتذكّر ما قلته لك ونحن أمام المغارة المطلة على عين الخضرا. ابتسمتُ. قلتِ كلاماً كثيراً. عاتبني صوتها. لمّا قلتُ لكَ اسألني ماذا أتمنّى. وسّعتْ فتحتي جفنيها، سحر الانوثة لا حدود له. هل أنتَ مستعد لمعرفة أمنيتي. مستعد. تعال. أين. ندخل الضريح. مشت أمامي مبعدة خطوتين، اجتزنا عتبة باب قبّة الضريح، الإضاءة النهارية خافتة مقارنة بالخارج، الأصوات خافتة أيضاً، بعض النسوة يتشبّثن بالمشبّك المعدني الذي يفصل المدفن، دثار فيروزي وفير يغطي القبر، اقتربتْ عهود من مشبّك المعدن، وقفتْ مواجهته، كفّاها عند مستوى كتفيها، فردتْ أصابعها، تشبّثتْ بفتحات المعدن، أقفُ مبعدة خطوتين. اسألكَ ربّي بجاه نبيّك محمّد وصاحبة هذا المقام الطاهر. نبرة صوتها الخافتة تنحو توسّلاً خالصاً. أنْ تكون لي إبنة. إكتسب صوتها واعز الوعد المدعّم باشتراط. لو رُزقتُ بها سمّيتها زينب. المسجد الكبير والقبة الفيروزية للمقام صارا وراءنا، عُدنا لزحمة الطرقات المحيطة، عاد شعرها طليقاً، عادتْ يدها تأخذ يدي، عاودني سلامي الداخلي رغم انشغال جانب من ذهني بمحاولة فهم آلية تفكيرها. نشرب شاياً أسود ثقيلاً في مقهى أعرفه. اقتراحها قرار سبق لها اتخاذه، استسلمتُ صامتاً راضياً. المقهى مزحوم حدّه، الطاولة الصغيرة حيث جلسنا عند حافّة رصيف الشارع، المارّة يتحاشون الاصطدام بنا، قطعتْ عليّ سبيل احتجاجي ضاحكة. هذه ليست كافيتريا فندق الشام. حركة الناس المتجهين للمقام آلت أكثر تسارعاً، كلٌّ يبحث عن مصدر سلام نفسي، سلامي متى. ما الذي تمنيّته وأنتَ داخل الحضرة. لاشيء.

نمّتْ نظرتها عن خيبة أمل طفيفة. لم تُبدِ رأيكَ بأمنيتي. تمنيّتِ أنْ تكون لكِ إبنة وأنتِ بلا زواج. طوّفتْ وجهها سحابة حزن، تملكني شعور بالذنب تجاه ارتكاب غير مقصود. الأمنية أشبه بالصفقة إذ إنّ ضمان الانجاب يعني ضمان الزواج. شردت عيناها في البعيد. وإنْ كان الزواج حكم استحالة. لماذا حكم استحالة. لأنّي مطلقة. تفاررت كلماتي من واجهة مخيّلتي، واصلنا ارتشافنا شاينا الأسود الثقيل، خيّم علينا صمتنا لحظات، الزحمة البشرية من حولنا بدأت تخفّ مع اقتراب موعد آذان الظهر، عينا عهود على كوب شايها. هل أنت مستعد تسمع.

ألفتُ انتباهكِ زينب، زمن الكتابة الآن صيف كويتي عام 2010، محاولة استعادة حدث من خريف دمشقي عام 1985، استماحة أمّكِ إنْ كنتُ مستعداً أسمعها قابلتها بإيماءة رأس موافقة، لتبدأ حديثها حولها، الآثار المترتبة لقيم تأصّلت ثمّ سادت، تسليمك لظلم واقع عليك مرهون بقدرتكَ على الاحتمال، عجزكَ عن خلخلة واقع الحال من أجل تغييره مرتبط بماذا، لو إنّ الظلم كيان قائم تراه شققت عصا طاعته شرط أنْ لا تكون جزءاً من سياقه. حول طاولة صغيرة عند ناصية طريق في حي السيدة زينب وأنا اسمع حديث أمّكِ تولّد لدى يقين ليس البدون وحدهم ضحايا ظلم وإنكار وجود، المرأة بدون نوع ثانٍ. مطلوب من واحدتنا أنْ تتزوج صغيرة، المرأة إذا تجاوزتْ سن الثانية والعشرين ولم تتزوج أو يصادفها من يحجزها لزواج محتمل تبدأ معاناتها بصفتها ضيفاً ثقيلاً على منزل العائلة ما لم تمتلك مسبقاً بيتاً يخصّها، لتبدأ بعد سنوات معدودة أخرى تتمثل بخوفها من شبح العنوسة، يخطئ الواحد مرة وثانية وعاشرة، الأخطاء غالباً ما تكون قابلة للعلاج، أخطاء قليلة خطيرة غير قابلة تعالج، أحدها يتمثّل في رفض واحدتنا فرصة زواج عرضتْ لها وهي شابّة صغيرة لسبب يعود لطموحها باختيار شريك حياتها من جانبها، أو جرّاء عدم ملائمة الظرف كأن تريد

إكمال دراستها، هذا الرفض المبكّر يتحوّل إلى لعنة تطارد المرأة بصفتها مسؤولة عن إضاعة فرصتها، ما لم يتقدّم رجل آخر، للرجل حقّ أنْ يتقدّم المرأة سلعة قيد العرض وعسى أنْ يأتيها من يسومها، لا نقيصة لأعزب أو مطلّق أو أرمل أو متزوج من أخرى، له أنْ يعيش طولاً وعرضاً، المرأة عورة، مراعاة حرمة الرجل، لا تتبرّج أو تبدي مفاتنها على الملأ فتتسبب في افساد نوايا أحدهم. بعد طلاقي حجزني أخي في البدء داخل البيت. الأرملة تصادفها فرصة زواج ثان لأن ضياع الزوج خارج الارادة، مع المطلّقة لا بد من وجود عيب شرعي اضطر زوجها للتخلص منها، هي سلعة معطوبة. سكتتْ متأملة برهة توجّهت اثرها إلي. هل ترغب تعرف السر الكامن وراء سماح أخي بسفري الأوّل لهنا أيام دراسة الماجستير رغم كوني مطلّقة. حفّزني فضولي. أرغب. عقدتُ معه صفقة. دهشتي عقدتْ لساني. أبي رحمه الله ميسور الحال ترك لنا إرثاً كافياً اقنعتُ أخي بفكرة سفري عندما تنازلتُ له عن جزء من ميراثي، قلت له أسافر لدمشق رسالة ماجستير قال مستحيل قلتُ له تصحبني غداً صباحاً لوزارة العدل قال لماذا قلتُ أتنازل لكَ بصفتكَ شقيقي عن حصّة ميراثي من عمارة السالمية. تناولنا وجبة غدائنا كباب خشخاش كما شاءت هي، قضينا ساعة تجوال في الأسواق المحيطة بالمقام، حانتْ عنها نظرة نحو القبّة الفيروزية. لعلُّكَ غيرّتَ رأيكَ. بأي خصوص. أنْ تنذر. أصدقتها ردّي. لم أُمارس مثل هذه العادة من قبل. النذر شعيرة وليس عادة. لم يسبق أنْ نذرت. جرّب. لزمت صمتي. أنتَ تحتاج صفاء روحياً. بقيت ملازماً صمتي. التوجهات الروحانية الخالصة تحقق سلاماً داخلياً نحتاجه. خطر لي اسألها مدى صلاحية سلامها الداخلي. هل أنتَ مستعد تسمع. توقي للاصغاء يفوق رغبتها أو حاجتها للافضاء، حافلتنا الصغيرة تواصل سيرها نحو دمشق العاصمة. مستعد جداً. كنّا نجلس متجاورين، كفّاها كلتاهما تحضنان كفّي، مكان

استقرار الأكف الثلاثة عند مسافة محددة ازاء ركبة ساقها اليسرى، أخالها تتصرّف بعفوية أخّاذة افتقر إليها، قالت. من حسن حظ أمّها لم تكن ولوداً شأن نساء زمان، أبوها تزوج أمّها عام 1948، عمله تاجر قماش، امتلكَ ثلاثة محلات في المباركية، بعد مرور سنتي زواج رُزقتْ أمّها بسعود إيّاه، تريّثتْ خمس سنوات قبل انجابها لها، توقّفتْ عشر سنوات ثمّ حلّ دور صغرى العائلة جود، لهذا جاءت جود دلوعة، أبوها ليبرالي التوجه، لا الزام ولا التزام باتباع أنماط سلوكية مقيّدة، أمّها على غرار أبيها، انهى أخوها تعليمه الثانوي متفوّقاً، تكفلتهُ الدولة، وفّرتْ له فرصة دراسة الهندسة في الولايات المتحدة، الناس تسافر إلى اميركا تعود أكثر تحرراً وانفتاحاً، سعود بعد ما قضى خمسة أعوام هناك نال لقب مهندس عاد متزمتاً، حجاب المرأة لا يقتصر على ستر شعر الرأس، ارتداء المرأة للسروال يجسّد جوانب من أنوثتها، الثياب النسائية عامّة يتوجّب أنْ تكون فضفاضة طويلة تستر القدمين ومن غير ألوان ملفتة للنظر، الزينة بكافة أنواعها لا، العطور الباريسية وغير الباريسية لا، مشاهدة التلفزيون للبرامج الدينية وحدها، تتذكّر عهود سؤالاً حانقاً وجّههُ أبوها لأخيها، أين تصنّف نشرات الأخبار، كان أبوها مدخناً شرهاً إضافة لاعتياده الشيشة مرتين يومياً.السيجارة والشيشة حرام. أريد الاطلاع على فتوى التحريم هذه. من واجب الإبن أنْ ينصح أباه لما فيه خيره. من حق الأب أنْ لا يأخذ بنصيحة إبن متزمّت. العام الذي عاد فيه سعود من أميركا، الجدل المحتدم، حيرة الأم وعجزها عن الاتيان بفعل مجد، سعود لا ينـي يجد ما يستوجب تقويم سلوك غيره، أحد أيامه تلك تنبّه لأخته الصغرى جود، التفت لأمّه. متى تُلبسينها الحجاب. فجعتْ الأم. حرام عليك سعود اختكَ طفلة لم تكمل التاسعة. حافلتنا الصغيرة تواصل سيرها، اطلقتْ عهود ضحكة خافتة منزوعة الفرح. صدّق أو لا تُصدّق عندما سمعتْ جود ما قاله سعود انتابها فرح غامر تعلّقتْ باذيال

ثوب أمّها. أريد حجاباً. هذا كلّه لا يلغي الآخر نهائياً، معضلة عهود الكبرى تمثّلتْ في موقف أخيها من فكرة التحاقها بالجامعة، يكفيها تحصيلها الثانوي، من الآن وصاعداً مكانها البيت ريثما يأتيها نصيب زواج، عامهم ذاك كانت عهود أنهت توّها دراستها الثانوية، ثارت ثائرة أبيها، لن يسمح للقادم من أميركا مصادرة حقّ أخته في التعليم، أخوها أصر الدراسة الجامعية مختلطة وهذا حرام شرعاً، أبوها وليّ أمرها وهو الذي يقرر، أخوها مع خالص احترامه للأب الاّ إنّ الأخير علماني لا تصحّ له ولاية الأمر، حرب أعصاب أو حرب إرادات، دموع الأم والإبنة لا تجدي. وسط تأزم الظرف حدّ اليأس تقدّم أحدهم يطلبني للزواج.

عندكَ استعداد نمشي. هكذا عوّدتني عهود، تسألني عن استعدادي، تدري عنّي إنّي آخر من يقول لا، كنّا ترجلنا من حافلتنا، بودّها تمشي في شوارع وأسواق عرفتها سابقاً، أنا لا أعرف سوى شوارع وأسواق الكويت، منطقة النقرة خاصة. بامكاننا بلوغ ساحة المرجة خلال دقائق قليلة. لم أسألها لماذا ساحة المرجة، الأمور بالنسبة لي جديدة كلّها بما فيها هذه العلاقة التي نشأت بشكل طارئ، تملكني إحساس بفقدان وشيك، ساعات معدودة، ومن ثمّ إلى حال سبيلها بحياتها المعقّدة على ذاتها، وأنا ملحق نقرة. إنْ لم تمانع.ابقتْ جملتها الاشتراطية مفتوحة، تطلّعتْ إليّ كمن يترصّد ردّ فعل محدّثه، اكتفيتُ أومأتُ برأسي ممتثلاً. في الطرف من ساحة المرجة يوجد كشك لبيع الصحف. لو جمعتُ جملتها الاشتراطية المفتوحة بالثانية الخبرية ما الذي افهمه، ابتسمتُ لها علّها تفصح. يستطيع صاحب الكشك أنْ يدلّنا على مكان إمرأة غجرية عجوز تمتلك قدرة قراءة الطالع. النذر أوّلا ومن ثمّ الطالع، سانحة إطلالة واحدنا على دخيلة واحدنا إذا سمح أيّنا لنفسه يطلق عنان سجيّته. العجوز الغجرية تشتغل خفية، رجال الأمن هنا يطاردون المشعوذين. سألتها. هي مشعوذة. قالتْ. تجاه القانون. سكتُّ أمام قناعاتها. أريدها

أنْ تقرأ لي طالعي. ليكن. وأنتَ هل تريد قراءة طالعك. لا. شملتني بنظرة تحدّ. خوّاف. ضحكتُ. واصلتْ تحديها لي. تخشى سماع ما لا تتوقع. ضحكتُ ثانية. توقّفنا دقيقتين عند الكشك، استخلصتْ عهود خلالها عنوان المرأة الغجرية، مشينا زهاء نصف ساعة، طُفنا شوارع خلفية، اجتزنا أزقة ضيقة، أتذكرها أشارت بامتداد ذراعها نحو طريق صاعدة. حارة اليهود هناك. عهود تحفظ خارطة حوارى دمشق القديمة في مخيّلتها، وصلنا بّوابة كبيرة تفضي لما يشبه حارة مصغرة، اجتزنا باباً خشبياً متهالكاً، صعدنا سلّماً حجرياً، وقفنا أمام باب مغلق، كوّرتْ عهود قبضة يدها، ثلاث طرقات متتالية أعقبتها رابعة منفصلة، إشارة متفق عليها. دامت وقفتنا بضع ثوان كانت عهود حينها تعاني اضطراباً أرادتْ ابقاءه خفيّاً، لعله فعل الاستثارة أو هاجس التوقّع، أصدر الباب صريراً مكتوماً، رأينا إمرأة سبعينية ممتلئة الجسم، لها عينان تحاكيان خرزتين بنيتي اللون، تفحّصتنا على عجل. أهلاً وسهلاً. دخلنا متعجلين، أطبقت المرأة بابها، وجّهتنا نحو جلسة أرضية مفروشة حشيات صوفية، جلسنا متقاربين، غابت العجوز في عمق بيتها برهة، عادت حاملة صينية صغيرة بقدحي ماء، وضعتها جوارنا، جلستْ أمامنا طاوية إحدى ساقيها بموازاة عجيزتها الفارهة، فردت ساقها الثانية لتشكّل زاوية منفرجة مع جذعها، خيّل لي إنّي اسمع تنفّس عهود وقد قارب اللهاث، وجّهتْ المرأة خطابها لعهود بصيغة حسم. مئة ليرة. عند تسلّمها مئتها حدّقت الغجرية في وجه عهود. رأيتكِ قبل هذه المرّة. منذ ثلاث سنوات. حصرتْ الغجرية ذهنها، تساءلتْ مراوحة بين الشك واليقين. من الكويت. حرّكتْ عهود رأسها إيجاباً، دسّتْ الأخرى يدها في طيّات ثوبها، عادتْ بكفّها قابضة على ودعها كسر محارات صغيرة، حجر شذر متنوع الأحجام، خرز غريب الشكل، قرّبتْ كفّها بما فيها لفمها، غمغمتْ كلمات مبهمة ثم مدّتها نحو عهود، فهمتْ عهود القصد،

مـدّت يدها، لامسـتْ كف المـرأة، حولتْ الأخيرة عينيها لوجهي، حالة انتظار لم افهم مغزاها، بادرتْ عهود، أمسكتْ يدي وجّهتها نحو الكف الممدودة وهي تهمس لي راجية. لامس يدها. لامسـتها، أدارتْ المرأة كفّها القابضة كأنها تدير حجر رحى، قبل أنْ تفكَّ قبضتها، تناثر المحار والشذر والخرز بيننا، سرّحتْ المرأةُ بصرها في الخليط المنثور استعانتْ بالاصبع الخنصر ليدها اليسرى عدّلتْ وضع محّارة مقلوبة، قرّبتْ حجر شذر من خرزة قرمزية، رفعتْ وجهها، نقّلتْ عينيها على وجهينا. أطالتْ تحديقهـا فـيّ، خفّضـتْ بصرهـا لنثارها قالـت. لسـتما زوجين. لهجت عهود. مضبوط. حرّكتْ المرأة رأسها دلالة تأمّل. هناك خبرة زواجين. رددت عهـود بمنحـى المفارقـة. لعلّ وعسـى. حدجتها المـرأة محذرة، عـادتْ لودعهـا، أخـذتْ تعيـد صفّـه بطـرف إصبعها الخنصـر إيّاه، قبل أنْ تبادر تجمعه غمغمتْ. هناك طلاق. اسـتجابتْ عهود. طلاق سـابق. عادت المرأة حدجتها محذرة. حديثي عن القادم. عقدتْ عهود حاجبيها مسـتنكرة، أزمعـتْ تقـول شـيئاً، لولا إشـارة من يد المرأة. هـذا ما قاله الودع. رجتها عهود مومئة إلي. أنتِ لم تقرأي طالعه. قرأته.

أعود إليكِ زينب بعد غياب أيام لن اذكر لكِ عددها مادام اطلاعكِ علـى هـذه الأوراق لـو وصلتكِ سـيكون تراكمياً، أكتـبُ وانتِ تراودين مخيلتـي بصفتـكِ القـارئ المحتمل الوحيد في الوقت نفسـه، تحضرين كياناً افتراضياً أو شبحاً لا معالم محددة له، لأني لم أركِ إلاّ عبر سياق حلـم وحيـد غابـتْ فيـه ملامح وجهـكِ، ولا املك والحالة هذه سـوى احتدام مشاعر تجاه مجهول، على نقيض ظرف كتابتي عن أمّكِ، حيث تحضرنـي حيّـة نابضـة لا تنقصهـا مزاجياتها المتواتـرة، ليهفو القلب أو يقنـط، أنـا بكيانـي كلّـه قنطتُ خلال الأيام الماضيـة، كنت عاجزاً اكتب مزيـداً، تملكنـي إحسـاس يقينـيّ بلا جدوى متابعة الكتابـة، تعززه قناعة يقينية ايضاً تقضي بلا جدوى متابعة الحياة مثلما هي، ليس توجّهاً لوضع

فكـرة الانتحـار موضـع اختبـار، لكنها ملامسـة حدود اليـأس ازاء ما لا يسـمّى. قبل أسـبوع طالعتنا العناوين الرئيسـية لصحفنا المحلية ما مفاده صـدور تعليمـات رسـمية تقضي بقبول أبنـاء الكويتيات المتزوجات من رجال بدون في المدارس الحكومية، أمس الأول عناوين رئيسية اخرى، تعليمات تقضي بقبول أبناء الكويتيين المتزوجين من نسوة بدون، كثيرة هي التعليمات التي تصدر، وكثيراً ما يعقد الطرف الكويتي المتورط ببدون آماله، يتأبّط أوراقه، يتوجه لجهة اختصاص، ها نحن، ليسـمع ما يعيده لنقطة الصفر، لم يصلنا كتاب رسمي يفيد بذلك، تصدر تعليمات تعقبها حالة انتظار تطول سنوات، لتصدر تعليمات تؤكّد أو تنفي بصرف النظر عن نتائج غير متحصلة لتعليمات صادرة، أنتِ يا زينب بدون من طرف الأب، كيف حال بدون من طرفين. التعليم، الأوّلي منه على الأقل، حق إنساني إلزامي كوني، الوالدان يساءَلان قانوناً إنْ لم يوفرا لذريّتهما حدّاً من التعليم، الذي يسـائل الوالدين هو الدولة، هذا عن الدول المتمدنة أو المتحضرة أو المكتفية من حيث الدخل القومي أو ماذا. صباح اليوم خرجتْ علينا صحفنا إيّاها. المسـؤولون يفكرون بايجاد معالجة جذرية لقضية البدون. القضية كمفهوم قانوني تحتاج طرفين متنازعين، أو على خـلاف فـي وجهات النظـر، ولا ادري إنْ كان العلاج المتصل بالجذور لا يهدف لاجتثاثها. عناوين فرعية تؤكد وجود أفكار قيد الدراسة لدى وزارة التربية حول امكانية توظيف البدون. تصريحات، تعليمات، افكار متدارسة، هذا كلّه يبدو وكأنه سباق إعلامي محاذٍ لانتهاك الزمن، حزن البـدون صـار مزمنـاً بحكم التقادم، لأننا في مدار الحزن أقول لكِ أمّكِ عهود تمتلك خزينها المكثّف منه منذ ما قبل لقاء دمشق. عندما غادرنا عهود وأنا منزل الغجرية لم تخف استياءها. عجوز لئيمة إكتفتْ قدّمتْ لنا قدحي ماء لم نقربهما. ابتسمتُ لائذاً بالصمت، ما علاقة الماء بانفعال عهود. قالتْ عنّا غير متزوجين وافقناها، قالت خبرة زواجين وافقناها أنا

متزوجة سابقاً وعسى أنْ يجيء نصيب ثان. احتدّ صوتها قليلاً. كيف يحدث طلاق دون وجود زواج. هل أحيلها على نذرها وأمنيتها الأشبه بالصفقة، ما دام ضمان الإنجاب يعني ضمان الزواج أوّلاً، شأن ضمان الطلاق يعني ضمان الزواج أوّلاً، شابتْ صوتها نبرة استنكار. مشعوّذة إدّعتْ قراءة طالعك كذباً، لو كنتُ منحتها مئة ليرة ثانية أسمعتنا كلاماً مفرحاً. عهود تعرف عن المرأة إنّها مشعوذة، لماذا جهد الذهاب إليها، مرّت نصف ساعة على مغادرتنا بيت المرأة، عبرنا حارات دمشقية تعرفها عهود جيّداً، عدنا لساحة المرجة. ما الذي تفكّر فيه. سؤالها يتضمّن معنى ماذا ترغب أنْ تفعل، داخلني شعور ارتياح، عهود تخففتْ من نقمتها على المرأة الغجرية. أحتاج كوب شاي. معكَ حق الهواء المكتوم في بيت المشعوذة سبب لنا صداعاً. اضحكني تبريرها المفارق، فاجأني استطرادها. ودّي أراكَ تضحك دائماً. تقصدين أنا متجهم. كأن الدنيا كلّها تناصبكَ العداء. سكتتْ وهلة. إنْ لم تمانع. ابقتْ جملتها الاشتراطية ناقصة. نشرب الشاي عندكَ. عندي تعبير مراوغ، لو كنّا في الكويت لراح ذهني للملحق، تابعتْ عهود موضحة. نصل الفندق نصعد لغرفتكَ نطلب خدمة الغرف. تسارع خفقان قلبي، البارحة رافقتني لغرفتي، كلوب ساندويتش، سارعتْ غادرتْ، اقتراح الشاي يلزم بقاءها مدّة. لكي نصير أصدقاء حقيقيين. أبقتْ جملتها ناقصة، أكملتها بعد ثانيتين. يتوجّب عليّ أنْ لا أخفي عنك جانباً من حياة عشتها قبلكَ. أتقبّل كلامها بصفته إشارة لطموح تحقيق صداقة فريدة أم خطوة باتجاه متواليات قادمة أجهل نتائجها. الرجال يفضلونها شابة تحت العشرين عذراء لم تمسّ مع اشتراط كونها جميلة ممتلئة دون افراط شعرها ناعم مسترسل بشرتها صافية من غير سوء. عهود تحدد مواصفات الشابة المؤهّلة أو المرشحة للزواج على جناح السرعة. وسط احتدام خلاف الإثنين الأب الليبرالي والأخ المتزمّت اختلتْ أم عهود بعهود، جارتهم

أم أحمد، نقلاً عن إحدى قريباتها، وجود فرصة سانحة، شاب مهندس من عائلة طيبة يزمع التقدّم لطلب يدها، في البدء أُصيبت عهود بسكتة ذهنية، سماع الخبر يقتضي استيعابه، لماذا نقلاً عن إحداهن، الأمر الآخر أخوها سعود مهندس لتوّه، هي تعاني حساسية تجاه هذه الكلمة، أمر ثالث من هو المتقدّم وكيف، الرابع ما الذي يجب عليها قوله، التمعتْ عينا أمّها بابتسامة حنون، مدّت كفّها لرأس عهود مسّدت شعرها قالت ما مفاده ان الأهم من كل شيء هل المعنيّة عهود مستعدة للزواج راغبة به، الرغبة أو الاستعداد، كلاهما لهما حينهما، واصلت أمّها حديثها إنْ كانت عهود كذلك يجري التمهيد الأوّلي بزيارة نسائية من جانب أم الشاب وقريبات لها قصد التعارف ورؤية الفتاة، معرفة خلوها من أيّما عاهة أو مرض، أنهت أمّها توضيحها، القصد الأساسي للزيارة المرتقبة معرفة مدى صلاحية البنت لأن تكون شريكة حياة إبنهم، نبستْ عهود سألتْ عن موقف أبيها من فكرة الزواج، ابتسمتْ أمّها، حتى الآن لا أحد يعرف سوانا أنا وأنتِ، لم تتردد عهود طويلاً، أنا موافقة، استغربتْ أمها ردّها السريع، ارتأتْ عليها تريّثها، الزواج مسألة ارتباط مصيري يصعب فسخه. عهود أصرّتْ. أنا موافقة. اضطرتْ أمّها سلّمت لها. عسى أنّ تجيء العواقب سليمة.

لحظة دخولنا غرفة الفندق سارعت عهود لستارة النافذة أزاحتها جانباً، عمّت الإنارة النهارية المكان، جلسنا متواجهين تتوسطنا طاولة صغيرة مستديرة، مدّت عهود يدها لكوب شايها أخذت منه رشفة. للسيجارة لذّتها مع الشاي. ها أنا أكتشف جانباً مضافاً من شخصيتها. إنْ كنتِ راغبة بالتدخين. تركت التدخين. نبرة صوتها لا توحي بندم الترك، كأني أرتاد مجاهل نفسيتها، أنا أقرب إليها أكثر، الصداقة أنْ تقبل الآخر كما هو. أظنّكَ لم تقرب السيجارة أو الشيشة. إطلاقاً. علتْ فمها ابتسامة رضا. أفضل. شردتْ عيناها عبر زجاج النافذة. زوجي أقصد

طليقي كان يشمئز من رائحة التبغ. أطلقتْ ضحكة خافتة. في حين إنّ بخار فمه كريه لدرجة إثارة الغثيان. عَرَفَ الأب خبر إزماع أحدهم التقدّم لطلب يد عهود سارع أعلن رفضه متذرعاً بضرورة إكمال عهود دراستها الجامعية قبل الارتباط بزواج، على النقيض من أخيها سعود معلناً رأيه، مكان المرأة بيتها، رعاية زوجها وتنشئة أبنائها، لم يُعر أبوها أذناً صاغية لأقوال إبنه، بذل قصارى جهده لثني إبنته عن قرارها، صرّحت له عهود، أنا موافقة، جادلها، باستطاعتكِ اتخاذ قرارات متسرّعة تجاه مسائل عديدة إلاّ مسألة الزواج، أنا موافقة، مرّ يومان لا غير، تحدد موعد زيارة نسائية، وصلت جارتهم أم أحمد مصطحبة إمرأتين، الأولى أم الرجل الخاطب والثانية عمّته، استقبلتهم أمّها عند باب البيت بعدما أوصتْ أبنتها بضرورة مراعاة العرف السائد، تبقين بعيدة عنّا مدّة خمس دقائق ثمّ تدخلين غرفة الاستقبال حاملة صينية بأربعة أقداح عصير، تحيّتك تكون بصوت خفيض دال على الخفر، تقدمين العصير للمرأتين الضيفتين، تعقبهما أم أحمد وأخيراً أنا، حيث سأشير لك بالجلوس إلى جانبي. لدى دخولها غرفة الاستقبال حاملة صينيتها احتوتها نظرات المرأتين، جارتهم أم أحمد مهّدت، هذي العروس عهود، المرأتان الأخريان لهجتا معاً، تبارك الرحمن، جلستْ عهود على طرف الصوفا قرب أمّها، خاطبتها إحدى المرأتين، إبننا شاب ملتزم، فهمت عهود إنّ المعني متديّن، تبادر لذهنها وقتها إذا كانت لأخيها سعود يد خفيّة بهذا الذي يحدث، استعادها صوت المرأة تخاطب أمّها، هم يطمحون للمصاهرة ويرغبون بسماع الطلبات، إلتفتتْ أمّها اليها تسألها رأيها، طلب وحيد، قالتها عهود خافتة، أريد رؤية الرجل الذي تقدّم لي قبل البت بالموافقة، عهود لا تعرف عن ردّ فعل المرأتين في حينه، سادت لحظات صمت انهته جارتهم أم أحمد، هذا طلب شرعي من حق الفتاة المقبلة على الزواج رؤية شريك حياتها مسبقاً، أتعهّد بترتيب أمر اللقاء

عندي في بيتي. بعد مغادرة النسوة الثلاث توجّهت الأم بعتبها لعهود، حرّي بها مفاتحة أمّها حول رغبة رؤية المتقدّم لتحيله هذه إلى جارتهم أم أحمد، فتتولّى الأخيرة إبلاغه أولي الشأن دون أنْ تؤخذ عهود على محمل الجرأة لدى أناس ما زالوا غرباء عليهم. مقابلة النسوة أمر ثانوي، في بال عهود أن تبلّغ رسالتها للخاطب قبل أي شيء آخر، الرجال عامّة ينجذبون للمرأة الجريئة لحين امتلاكهم لها، الامتلاك يعني سلاسة الانقياد، التدجين وجه للإذلال. سبقني لبيت جارتنا أم أحمد، لمّا دخلتُ غرفة الضيوف هناك رأيته جالساً في صدر المكان، هبّ واقفاً أظنّه أُخذ بي، بادرتْ أم أحمد عرّفتنا لبعضنا سريعاً، انسحبتْ مفسحة لنا فرصة حديث ثنائي، نظرة أولى إليه، شاب في الخامسة والعشرين متوسط الطول وسيم بدرجة مقبول لولا أمر بسيط عابر عدم انتظام الصف الأمامي لأسنانه، فكرتُ لحظتها، يسهل عليه تقويمها، بدأتْ حديثي بسؤاله إنْ كان خريج أمريكا، اجابني، القاهرة. تملكني ارتياح، استبعدت الدور المفترض لأخي سعود، قلت له، الزواج قسمة ونصيب وإنْ كتب الله لنا تزوجنا هل نسكن بيت أهلك، أحبّ الاستقلال بحياتي سيكون لنا بيتنا الخاص، ان لم تمانع لدي رغبة مواصلة دراستي الجامعية، المانع الحقيقي أنْ لا تواصليها. غرفة من طابق رابع لفندق الشام، شرد ذهن عهود وهلة، بدت وكأنها تطارد أفكارها، وصلني صوتها محمّلاً شكوى، حين يُصادر آخرون حقك الأوّل بتقرير مصيرك وتجد نفسك رهين فرصة وحيدة متاحة، قاطعتْ زفرتها استرسالها. من جانبي راهنتُ على عبد السلام زوجاً مخلّصاً. ها أنا اعرف إسم طليقها. كنت ما قبل رؤية عبد السلام نهب ولايتَي أمر متضادتين أبي وأخي، أردتُ أنْ لا أكون سبب اشعال حربهما بينهما سارعتُ للفرصة المتاحة ألوذُ بولي أمر ثالث سيحتلّ حال عقد قراننا مرتبة ولاية أمر أولى بما يجعله صاحب القرار الفصل تجاه مصيري، في بيت جارتنا أم أحمد

تبادلتُ وإيّاه كلمات قليلة انهاها بسؤاله لي ما الذي أريده أيضاً انهيتها مرددة أمنية غيبية، عساني أكون قادرة على اسعادكَ. ندتْ عن عهود ضحكة مفارقة خافتة، واجهتني عيناها، للعيون قدرة إيصال المعاني ببلاغة تفوق الكلمات، رأيتُ الحزن والإحساس بالخذلان والأسف يطلان عبر نظرتها، خلصتْ لرأيها. السعادة تآلف أمزجة واستعداد لعطاء غير مشروط. ليلة زفافهما، خلوتهما بهما، قالت له مراوحة بين الرجاء والرضوخ، أنا خائفة، تعابير وجهه نمّتْ عن دهشته، وضحتْ، أنا عديمة خبرة، ضحك بدلالة الاحتفاء، لو انّكِ ذات خبرة ما تزوجتكِ، نحا صوتها إدانة موجهة لمن. الرجال يفضلونها عذراء حتّى النخاع. رحل صوتها وراء ذكراها. وهو يقاربني شملتني رائحة زنخة هوّمتُ لها، من أين لأنفاس رجل ما أنْ تكون هكذا. أمالتْ وجهها جانباً تحاشياً، لكنه بادر عدّل وضع رأسها، أبقاه عنده. لمّا سنحتْ لها فرصة دخول الحمام بركتْ أرضاً، تقيأتْ. أثقلتُ عليكَ. تساءلتْ عهود وهي تأخذ حقيبة يدها إليها. أنتِ لم تثقلي علي. طالعتني عيناها نظرة إمتنان، انشغلتْ تبحث داخل حقيبتها، تملكني فضول. خير. أبحث عن قرص مسكّن للصداع. وجدتْ ضالتها. ألقمتْ القرص فمها. حالة مقيتة كلما تذكّرتُ أيام عبد السلام أصابني صداع. خنستْ برهة. رغم الذي حدث ليلة الزفاف وليال أخرى لاحقة كان عبد السلام إنساناً طيّب السريرة، حاول قدر إمكانه أنْ يحتويني إليه. تريّث ذهني عند قصدها بالاحتواء. كان كريماً لم يبخل بشيء. وهي تتعرّض لأسباب فشل زواجها أو توزّعها تحيل عهود جانباً كبيراً من المسؤولية على شخصها، لو إنّها تمهّلتْ قليلاً، لو انتظرتْ فرصة تقدّم رجل ثان لطلب يدها، بعد مضي كلّ هذه السنوات تتوقّفْ مع نفسها تتساءلْ، هل كانت الدراسة الجامعية بالأهميّة إيّاها، تتحوّل لسؤال مغاير، أما كان أجدى لها أنْ تتفهّم سلوك عبد السلام تتقبّله كما هو، الزواج معاشرة، الزوجان يتشاركان حياتهما،

الألفة كفيلة بالقضاء على كل أسباب الكلفة، رسخ في دخيلتها إنّ الرائحة الكريهة المنبعثة من فم عبد السلام ناتجة عن تخمّر بقايا طعام عالقة في ثنايا أسنانه غير المنتظمة، في فمه كم من الأسنان يزيد عمّا لدى الآخرين، الصف الأمامي يشبه صفين متراكبين. إغتنمتُ لحظة صفاء، كان ذلك بعد شهرين زواج قلتُ له نذهب لعيادة أسنان قال عسى ما شر إبتسمتُ له بمحبّة الزوجة قلتُ من أجل تقويم أسنانكَ قال ما الداعي تغافلتُ عن تساؤله قلتُ يضعون لأسنانكَ أسلاكاً معدنية رفيعة تبقى بضعة أشهر ينتظم بعدها اصطفافها تبدو أجمل، حاول اخفاء انزعاجه قال الجمال للمرأة لا الرجل عدا عن إنّ أسنانه سليمة مئة بالمئة وهو غير مستعد للعبث بها، وما كان باستطاعة عهود مصارحته الرائحة النتنة تسمم ارتباطنا الزوجي. في زيارة لمنزل عائلة عبد السلام انفردتْ أمّه بعهود سألتها إنْ كانت هناك دلائل حمل، تحلم برؤية حفيد أو حفيدة، أجابتها عهود ما زال الوقت مبكراً، إبتسمتْ أمّه، عساكما سعيدين، منتهى السعادة لولا أمر وحيد، رائحة الفم، استجابتْ الأم ضاحكة، عبد السلام ورث رائحة الفم عن أبيه، سوف تعتادين عليها. شهر لاحق غاب عن عهود طمثها، لا مبرر للقلق، العوامل النفسية تلعب دوراً بهذا الخصوص، لمّا كانت في السابعة عشرة عانت انقطاعاً دام ثلاثة أشهر، وجّهتْ جلّ اهتمامها لدراستها الجامعية حينها، بعد مرور شهر ثان أخذتْ تراودها أحاسيس لا عهَد لها بها، شيء ما يحدث لها في غفلة منها. كنت أقف أمام المرآة أحدّق لوجهي أركز على أنفي هل هو بحجمه الطبيعي أم هناك حالة انتفاخ طفيف لا يراها سواي. لدى تنقلها عبر أروقة الجامعة صارت تسأل نفسها لماذا صارت تعاني تثاقلاً في خطواتها. بدأت أميل للاسترخاء استمتع به، بعد مغادرة عبد السلام للمنزل عصراً استلقي على قفاي وجهي نحو السقف ينازعني جسدي أشعر وكأني أطفو وسط مياه ساكنة. سكتتْ عهود فجأة، شمس

دمشق وقد مالتْ غرباً بعثتْ حزمة أشعة صفراء خلل زجاج النافذة داخل الغرفة سقطتْ فوق الطاولة التي تتوسط جلستنا. لم تكملي حديثكِ. اطلقتْ واحدة من زفراتها. ما الذي اقوله. رددتها كمن يؤنّب نفسه، شردتْ نظراتها وراء النافذة. كلمة ساذجة إذا أخذناها مجرّدة لا تكفي لتوصيف حالتي في زمني ذاك. خنستْ ثانيتين. كنتُ بلهاء غبية. تحوّلت بعينيها لوجهي. الغباء عند استفحاله يؤدي لارتكاب جريمة غير مقصودة. هبّت واقفة. نمشي. صيغة قرارها تشملني بها. أين. إلى أي مكان. من الغرفة إلى المصعد، بهو الفندق باتجاه البوابة الزجاجية إلى الخارج، تبعتها صامتاً مبقياً مسافة خطوتين، الطريق أعرفها سبق لي مشيتها برفقة سليمان الياسين، لو أعرف طريقة عمل ذهن عهود، سألتها بصوت محايد. سوق الحميدية. وقفتْ لتلتفتْ، صرتُ أمامها، مدّتْ يدها إلتقطت كفّي. عندكَ مانع. واصلنا مشينا، دخلنا سوق الحميدية، الزحمة أقلّ منها قبل يومين، اختارت محلاً للمشغولات اليدوية. لو حصلنا على شطرنج أنيق صغير الحجم. احتفظتُ بدهشتي، بادر البائع عرض عيّنات عديدة. ما رأيكَ بهذا. جميل. نأخذه. نقدتْ البائع ثمنه، دفعت لي بالشطرنج العلبة. سيكون معك، لعلنا بعد عودتنا للكويت نجد وقتاً. تذكّرتْ سألتْ. أظنك تجيد لعب الشطرنج. لا. أحسن. ضحكتُ لردّها. لماذا. أُعلّمكَ فاغلبكَ. وما درت إنّي مغلوب على حالي تجاه كل الذي يصدر عنها، واصلنا مشينا، تجاهلنا دعوات الباعة لمعاينة بضائعهم، نفذنا من سوق الحميدية إلى الساحة الكائنة أمام باب المسجد الأموي، اختارت طريقاً موازية لجدار المسجد، واجهتنا ساحة أخرى خلفية تتوسطها شجرة جوز عملاقة، انتظمت على أطراف الساحة مشاغل للنجارة اليدوية، سوق النجّارين، سمعتها تردد باحتفاء يشوبه حنين. أعشقُ رائحة نشارة الخشب فيها شيء من رائحة التبغ المخمّر لأرجيلة أبي. طفق أنفي يتشمم الهواء المحيط، أُخذتُ بالرائحة، لم

يسبقَ أنْ دخلتُ غابة بكراً، لكنّه حضور لبّ الخشب، تجاوزنا مشاغل النجارين، دخلنا طريقاً صاعدة نسبياً اصطفتْ على جانبيها أبواب خشبية لبيوت عربية قديمة، توقفنا عند باب مفتوح على مصراعيه، يكشف عن باحة يتوسطها حوض نافورة، حولها طاولات ذات مفارش بيضاء ومقاعد خشبية. هذا واحد من أشهر المطاعم التي تقدّم تختاً شرقياً في الليل، إنْ شئت عدنا بعد ساعات، تناولنا عشاءنا هنا حيث تتوفر لك فرصة سماع. قاطعتها. فرصتي الماثلة هي سماعي لكِ. واجهتني عيناها، أُصدّق أو لا أُصدّق، وهي في الثامنة من عمرها علمها أبوها لعبة الشطرنج، تتذكر طفولتها تلك، ما أنْ تنتهي أمّها من وضع جمرات الفحم فوق قمع تبغ الارجيلة يبادر أبوها يسحب لصدره نفساً عميقاً ينفثه عبر منخريه يبادر يصف أحجار الشطرنج فوق رقعتها، أوان المبارزة يا عهود، أنا جاهزة، أبيض أم أسود، اعتادت عهود تختار اللون الأبيض، أخوها سعود لا يتحمّس للعبة، أختها جود لم تكن وُلدت بعد. أجلس قبالة أبي أنغمر بدخان تبغه، أيّنا يهزم غريمه، فإن اقتربتْ لحظة هزيمتها كش ملك حيث لا مفر من التسليم خطفتْ ملكها ركضت به بعيداً، لن اسمح لك بقتل الملك، يضحك أبوها لدرجة السعال، يتمالك صدره، يعب نفساً تبغاً، زمن الزواج، كان عبد السلام يتهرّب من زيارة منزلنا، دخله مرّات قليلة لم يتوقّف خلالها عن إبداء تأففه، حتى جدران منزلكم مشبعة برائحة التبغ، المدخنون على حدّ قوله يمارسون انتحاراً بطيئاً، عبد السلام شديد الحرص على صحته، يجري فحوصات دورية.

كنّا، عهود وأنا، نواصل سيرنا نرتاد أزقة دمشق القديمة، سألتها. وأنتِ. جاءني نفيها قاطعاً. إطلاقاً. ذلك هو مركب نقصها، لو انّها تؤمن بضرورة استشارة الطبيب لدى أي طارئ صحي لما إنتهتْ بها سذاجتها أو لامبالاتها لقتل جنينها، حتى وهي تراقب متغيّرات لم تعهدها بدأت تنتاب جسدها لم تراودها فكرة مراجعة طبيب، لم يراودها خاطر

إخبار عبد السلام، ظلّ الأخير يمارس اغتصاباته لها بين ليلة وليلة، إحدى لياليها تلك، الغثيان قدر لا مفرّ منه ظنته ناتجاً عن رائحة الفم تصبّرتْ ريثما انتهى عبد السلام ركضتْ مبتعدة، لحظة دخولها الحمام أصابها دوار غريب، حاولتْ التشبّث بطرف المغسلة تحاشياً للسقوط، انزلقتْ قدمها، تهاوتْ، ارتطمتْ مؤخرتها بالأرض الرخامية، ألمها لا يطاق، شرارة كهربائية سرتْ عبر ظهرها، كتمتْ صرختها مبقية على الأنين وحده ملتمّة على بطنها، تنبّهتْ لعبد السلام واقفاً وسط فرجة باب الحمام، جذبه إليها صوت ارتطامها بالأرض. ماذا حدث. انزلقت قدمي. سلامات. مدّ يده ساعدها تقفْ، ألمها لم يكف ينشب ظهرها وأحشاءها، رحماك ربي. اقتادها عبد السلام لسرير الزوجية قبل ان يوليها ظهره ينام، رحمتك يا إلهي، الألم نمط جديد يأتي نوبات أو موجات، لا مناص من أخذ مسكنات ألم، أخذتْ، طفقتْ تتنصّتْ ألمها متى يخف. لا تذكر متى غفتْ، تذكر سماعها نداء آذان الفجر قادماً عبر خصاص النافذة، استيقظتْ حوالي الساعة الحادية عشرة قبل الظهر وسط نوبة ألم عاتٍ تجتاح أحشاءها، البيت خال من عبد السلام، أشفق عليها غادر لوظيفته من غير أنْ يوقظها، حبستْ أنفاسها، ألمها هناك في الداخل يشبه موجة ذات منحى دائري ضاغط على الحوض باتجاه أسفل، ما الذي يحدث لجسدها، تحسّه يتسلّك خارج ماهو مُدرك لديها، واصلتْ حبس أنفاسها، بدأ الألم يخف رويداً، سحبتْ لصدرها شهيقاً تعويضياً، تحركتْ جالسة بحذر، في الحمام داهمتها نوبة ألم أكثر حدّة أفلتَ فمها صرخة مدوية، خانتها ساقاها بركت على أرض الحمّام احستْ بجسدها وكأنه يزمع لفظ أحشائها. هاهو الموت يدركني وأنا وحدي، قوة عاتية كامنة في داخلي تضغطني أسفل، تقلصت أحشائي، تدفق سائل دافئ بين ساقي، شيء ما أخذ طريقه للانزلاق منّي، فقدتُ وعيي. أفاقتْ عهود من إغماءتها بعد ساعة، عودتها لصحوها بدأت في

ذهنهـا، لـم تفتـح عينيهـا، هـذا الذي عصفَ بها هل هـو مجرد كابوس، اصغـتْ لداخلهـا، آلامها ليسـتْ عاتيـة مثلما كانت، شـعورها بالارهاق أحالهـا كيانـاً متهافتـاً، فتحـتْ عينيهـا، فاجأهـا فمها اطلـق صرخة فزع، دماؤها تغطي أرضية الحمام، تطلعتْ لما بين ساقيها، رأت كتلة هلامية بنيّة اللون بحجم قبضة يد طفل يغلّفها سائل مخاطي، اتسع وعيها شمل حالتها، اختض جسدها، انتحبتْ.

تتفـرّع أزقّـة دمشـق القديمة من أجل أنْ تلتقـي، وجدنا حالنا أمام الباب العملاق للمسجد الأموي. من هنا. غمغمتها عهود بصوت هابط لتقتادنـي نحـو زقـاق عريضة نسـبياً تمتد بموازاة سـوق الحميدية. نعود للفندق. رسخ في دخيلتي إنّ تذكرها وقائع محددة من ماضيها أحزنها، حديثنا عن أحزاننا يخفف وطأتها أو يكرّسها أكثر. أمّك يا زينب مثلما عرفتهـا شـخصية عصيّـة على الاسـتيعاب، كلّمـا داخلنـي اطمئناني إنّي فهمـت نوازعهـا بـدر عنها ما يؤكّد العكس، هل هي فعلاً كذلك أم إنّها تتسلك ضد طبيعتها، تابعنا سيرنا صامتين، تطلعتُ لجانب وجهها، رأيتها تزمّ شـفتيها، حدسـتُ محاولتها احكام سـيطرتها على مشـاعرها، تنبهتْ لمراقبتـي، لـم تلتفـت صوبي. لا أظنكَ ترغب بسـماع المزيد. عاجلتها الرد. ارغب. اسـتجابتْ ضغطتْ كفي بلطف. بعد وصولنا لطاولتنا في كافتيريا الفندق. الجهل بارتكاب جريمة حتى إنْ بقيت خفيّة عن الآخرين لا يعنـي بـراءة مرتكبها تجاه نفسـه. لمّـا أفاقت عهود رأت الدم والكتلة الهلامية بنية اللون، هو جنين قيد التخلّق، لا وجود لمعالم واضحة، لا قـدرة علـى التفحّـص قصد التأكـد، فزعها ينازعه جزعها، ماذا لو فقدتْ وعيهـا ثانيـة، ظلّـتْ ملقـاة حيـث هي ريثما عودة عبد السـلام، ما الذي ستقوله، علاقتهما الزوجية نمط اغتراب يشوبه نفورها الصامت، تخشى اتهامـه لهـا بالاجهـاض المتعمّد، إضافة لكتمانها نبأ حملها، تخشـى ردّ فعل أمّه، تخشى معرفة أي كان دون أنْ تستثني أمّها التي لن توفّر تأنيبها ازاء لا مبـالاة تقتـرن.بلاهـة، الخـوفُ ضمـن الظرف يتسـيّد ما عداه من مشاعر، التقطتْ الكتلة الطرّية، لفتها، لون قماش الكفن أبيض، المحارم الورقية بيضاء، ضرورة إيداع اللفيفة في كيس بلاستيكي صغير، المهمة

الأصعب تمثلت في إزالة الدماء من أرضية الحمام، لهاثها المترتب عن شعورها بالضعف يكبس صدرها، وحدها بمواجهة مصيبتها. لا وقت لاعلان حداد أو مواصلة بكاء، الندم زمن لاحق. الساعة جاوزت الثانية عشرة ظهراً عندما انتهيتُ من إزالة آثار جريمتي وقفتُ مشدوهة أمام كيفية التخلص من الكيس البلاستيكي الحاوى مشروع طفل، ذكر أو أنثى لا أعرف، صدّق أو لا تصدّق، قرّ في يقيني هي أنثى، اغتسلتُ على عجل، في الملمات يمتلك الواحد إرادة استثنائية تقهر ضعفه، خطر لي القي الكيس داخل حاوية قمامة شرط أنْ تكون بعيدة عن المنزل، عبد السلام لن يعود قبل ساعتين، حملت كيسي ركبت سيارتي راودني هاجسي، لجنيني حقه بجنازة تليق به، ليس سوى بحر السالمية، هناك لسان صخري يمتدّ داخل البحر، قبل اسقاط الكيس في البحر قرأتُ الفاتحة. ربّي لن يغفر لي. كان مساء يوم أحد، مع مغيب الشمس ازدحمت كافيتريا الفندق بالروّاد، قرّبتْ عهود مقعدها، مالتْ عليّ قليلاً، واصلتْ حديثها بصوت خفيض. كتمانها خبر اجهاضها لا يعني نسيانها له، بات دخولها حمامها إيّاه يمثّل ما يشبه الكابوس. كلّما دخلته تخيّلتُ منظر الدماء والكتلة الجنين. مع مرور الوقت اتخذت مشاعرها منعطفاً مربكاً تجاه عبد السلام. لو كنا قريبين بعضنا لبعض لو تحقق بيننا حدّ أدنى من واعز الصحبة ومحاولة فهم الشريك ما يعنيه أو يعانيه شريكه لهرعتُ إليه بكيتُ على صدره. عبد السلام يراها طرف علاقة زواج، يجمع نفسه إليها يشكّلان ثنائي عائلة، هذا الثنائي مسؤول عن تأكيد وجوده بانجاب أبناء. زياراتنا المتكررة لبيت أهله يتصدّرنا تساؤل أمّه، متى، يجيبها إبنها. الأمور بيد الله. إن كان عليه هو يؤدي دوره يأتيها بانتظام، هي كما يراها، مجرّد وعاء يزرع فيه وعساها قادرة تصير حقلاً مؤهّلاً يُنبت، وسط هذا التعقيد الذي اتسمت به علاقتهما واصلتْ رائحة فمه الزنخة إتيانها لها بوتيرة مكثّفة. لجأتُ للبصل، بدأت آكله نيئاً قبل

صعودي السرير. مرّة أولى تغاضى عبد السلام، في المرّة الثانية صارحها قال لها أنتِ تتعمدين ابعادي عنكِ. ادّعتْ وقوعها في حبّ البصل. لمّا شكاها لأمّه وجدتْ الأخيرة تفسيراً، لعلّه الحمل، تفاءل يا عبد السلام لعلّ زوجتك تتوحم بالبصل، مرّت أيام، ثبت العكس. غابت شمس دمشق وراء مبانيها، عمتْ الجوار ما وراء الواجهة الزجاجية للكافيتريا ألوان رمادية منطفية، في حين ازدحم المكان حولنا بالناس والأنوار الكهربائية الصفراء، وجه المفارقة يا زينب أنّي لدى اصغائي لامّك وهي تتحدث عن البصل نشط أنفي لا إرادياً طفق يتشمم صوتها، ماذا لو كنتُ أنا عبد السلام. اثر فقدانها جنينها بدأ يتشكل في دخيلة عهود جنين كراهيتها لعبد السلام، حمّلته الجانب الأكبر مما حدث ويحدث، بعد انقضاء سنة زواج تذكر سألها تراها تحبّه. استنكرتْ مع نفسها جريان مفردة حبّ على لسانه، طمأنته بأنه الذكر الوحيد في حياتها. قبل نهاية سنة ثانية زواج ارتاى عليها اللجوء لاستشارة طبيب مختصّ. لماذا. لمعرفة ما إذا كان هناك عائق يحول دون الانجاب. رفضتْ باصرار. أنا سليمة تماماً. وأنا سليم أيضاً، كلّ واحد يرى نفسه سليماً، لهذا السبب اقترح ذهابنا معاً. إذهب وحدكَ. ذهب وحده، جاءها بعد أيام حاملاً حزمة أوراق، قال إنه اجرى كافة الفحوصات والتحاليل المختبرية بما يؤكد كونه كامل التأهيل. الدور عليكِ الآن. للحظة عابرة كدتُ أُسلّم لطلبه، تذكّرتُ حادثة الحمام، ما ادراني إنّ الفحوصات لن تفضح سرّي. لا. ما المانع. أنا واثقة من سلامتي جسدياً. من حقي أنْ أتأكد. لا. فتح عينيه على سعتهما، خالته سيرفع يده. تراجعتْ وراء. لم يتقدّم. صرخ بها. أنتِ عاقر. زجاج واجهة الكافيتريا عازل للصوت، صدى أبواق السيارات يتناهى إلينا مخنوقاً كأنه قادم من مكان ناءٍ. خلصتْ عهود لقرارها. لن أتحدّث أكثر. لماذا. حان دوركَ. لا شيء يستحق. من حقي أنْ اعرفكَ. لم أتساءلها لماذا، لم أطل ترددي. حياتي حتى

الآن مقفرة فقيرة لأحداث وخبرات جديرة بالافصاح. مستحيل. البعض محكومـون بالبقـاء على الهامش. شـردتْ عيناها عبر الزجاج. صدّق أو لا تصدّق خلال اشتغالي برسالة الماجستير لفتَ الاستاذ المشرف على بحثـي ضـرورة إيـلاء الهامـش أهمية لا تقلّ عن النـص الأصل. ماذا لو قلتُ. المقارنة مفارقة، قلتُ. أنا أقصد الحياة الواقعية. اغفلتْ سماعي، رددتْ. هؤلاء البعض ظاهرة كويتية. حضرتني مفارقتي. صنفها القانون الكويتي بصفتها خارجة عليه. احتدّ صوتها بنبرة غضب موجّه لمجهول. القانون ليس كتاباً منزّلاً هو من وضع البشر والبشر قادرون على تغييره، مئـات الكويتييـن والكويتيات تزاوجـوا مع البدون. تبادر لذهني، هل أنا أمام تلميح محدد، مدّتْ كفّها حضنتْ كفّي، تداعتْ مخيّلتي، ترانا عهود وأنا نمثل طموحاً لقوس علاقة أبعد من الصداقة، أخذني صوتها إليها. أريد أنْ اسـمعكَ. رجل أعزب في الثلاثين يناوشـه شـعوره بأنّه كهل، خريـج مدرسـة النجـاح الابتدائيـة. أطلقتْ عهود ضحكـة رائقة، نطقتْ اسمي تحذرني من التمادي بما تخاله لامبالاة. منسي. اغتنمتُ الفرصة. منسي إسم على مسمى.

الانسـان كائن لغوي يا زينب، أحاديثنا، أمّكِ وأنا قرّبتنا إلينا أكثر فأكثـر. مـا قبـل زواجي كنتُ أجد متسـع وقت اقضيه مع أبي. تسـلمتْ عهـود زمـام الحديث، شـيء إسـمه المكابـرة، لأنّها لـدى اتخاذها قرار زواجهـا خالفـتْ توقعـات أبيهـا وكذلك أمها اضطـرتْ للتظاهر أمامهما بانتظـام علاقتهـا الزوجيـة، أخفـتْ عنهمـا معاناتها. أمّي لـم تعرف خبر إجهاضي الاّ بعد طلاقي. منذ الأيام الأولى لزواجها أخذها عبد السلام على محمل جدّه الخاص به، وجدها طيّعة تأتمر بأمره، فقدانها سـندها الأساسي ممثلاً بالحضور المؤثر لأهلها ضمن علاقتها بعبد السلام كرّس سـلطة الأخيـر جعلهـا مطلقة حيث لا وجـود لمن يراقب أو يملك حق التدخّل، كان يصحبها لبيت أهله صبيحة كل يوم جمعة، تقضي نهارها

هناك، يصحبها لمنزل أهلها مرّة شهرياً شرط أنْ لا تزيد مدة مكوثهما عن ساعة واحدة يبدي إثرها تأففه. دخان سجائر ابيكِ تكتم أنفاسي. رغم صوتها المشبع أسى أطلقتْ عهود ضحكة خافتة. لدى مغادرتنا بيت أهلي ذات يوم واجهني عبد السلام ممتعضاً. أبوكِ يسمم دمي بدخان تبغه وأنتِ تسممين بدني برائحة البصل في الفراش. بعدما كان يأتيها بين الليلة والليلة حصر عبد السلام نشاطه مع بداية سنة ثالثة زواج جعله مرّة واحدة كل أسبوع، دام وضعهما بضعة أشهر، فاجأها بسرير ثان وضَعَه مبعدة مترين من سرير الزوجية قال. ننام منفصلين. قال. لم أعد أطيق رائحة البصل. أسابيع قليلة عن اكتمال سنتهم الثالثة تلك فاجأها ثانية دخل البيت مصطحباً خادمة آسيوية قال بحسّ مشاركة. حتّى لا تبقين وحيدة. قال دون حسّ مشاركة. سأضطر للمبيت خارج المنزل أحياناً. شملها على حين بغتة إحساسها بالفجيعة. هل تزوجتَ إمرأة ثانية. إنصعتُ لالحاح أمّي تُريد رؤية ذريتي، قال. تولّتْ أمور الإعداد للزواج، حددتْ له يوم الخميس القادم. تتلقى خبرك، تنفجع أو تُذهل، مَن يتحمّل وزر مَن، ردّ فعل النازلة باستيعابها، لحظتها كاشفتْ عهود نفسها، وحدها المسؤولة عن نتائج اختيارها، للرجل حقّ أنْ، وعلى المرأة أنْ، تتذكّره يقفُ قبالتها، مثله مثل أي رجل يحلم بذريّة، يريد أبناء يملأون عليه حياته، لا ذنب لعهود أنْ تكون عاقراً، هو يتفهّم ذلك، أمّه اختارت له إبنة أختها وليس ما يدعوه للرفض، قررتْ أمّه إبقاء الزوجة الجديدة عندها في بيتها، وافقها قرارها حرصاً على استمرار سكنى عهود في بيتها، أحستْ وقتها كأن عبد السلام يتفضّل بعطفه عليها، البيت لا يمثل شيئاً مقارنة بالمهانة المترتبة عن زواجه بأخرى، قررت أنْ لا تنكشف بضعفها أمامه، قالت له. لا أحتاج بيتكَ. لم يستوعب القصد، قالت. أنتَ وزوجتكَ أحق بالبيت. وأنتِ. طلقني. إلا هذا. لماذا. أبغض الحلال عند الله الطلاق. عدا عن كونه يحبّها ولا تراوده فكرة التخلّص

منها، هي زوجته والشرع أجاز له جمع أكثر من زوجة. أنا أريد الطلاق. أنا لا أريده ولا أريد أنْ أفكر به أنتِ غاضبة الآن غير قادرة على التفكير بشكل منطقي. المجادلة في القناعات مضيعة للجهد وايغال أكثر في المهانة، تذكرتْ أباها وأمّها، سيكون عتبهما أمّر من شعورها بالمذلة، قالتْ لعبد السلام راجية. طلب وحيد، أنْ لا تعلن خبر زواجكَ أمام أهلي. لكِ ذلك. انفرج فمه بابتسامة دالة على الإعتداد بالنفس. قبل اتخاذي قرار الزواج الجديد آليت على نفسي أكون عادلاً بينكِ وبينها كما يوجب الشرع.

يا زينب، وأنا أواصل الكتابة اليكِ تبدأين تفرضين حضوركِ عليّ كيّاناً مضبب الملامح، يواصل فعله بي، يتشرّبني آخذاً منحاه لأن يتماهاني، الأمر الذي يثير الدهشة، ظلال حضوركِ تجاوزتني، شملتْ شخصاً آخر تربطني به علاقة هامشية هو النجّار حجّة الله، البارحة وأنا أدوّن تفاصيل تخصّ حياة أمّكِ، سكنتني فكرة تزويد صندوقكِ بقفل، خشيتُ أنْ يعترضني طارئ غيرمحسوب، فأغيب أمداً أو أبداً، ساعتها ستكون أوراقي التي هي أوراقكِ عرضة لمن يطّلع عليها قبل وصولها إليكِ، قلتُ بيني وبين نفسي أودعُ نسخة من مفتاح القفل لدى شخص موثوق، أوصيه بأنْ يبذل جهده يوصل الأوراق إليكِ فيما لو. صباح هذا اليوم افرغتُ صندوقكِ من أوراقه، تأبطته، توجهّتُ به للنجار حجّة الله، استقبلني الأخير مبتسماً. صار زمان. دفعتُ له بالصندوق. أريد تزويده بقفل. كنتُ أدري. رفعتُ حاجبي مستغرباً، غاب داخل محله، عاد حاملا صندوقاً أنيقاً مشغولا من الخشب الصاج بالحجم ذاته. كيف. تساءلتها مذهولا فرحاً في الوقت نفسه، رأيت القفل مثبتاً جانباً، قرأت إسمكِ منقوشاً على ظهره، حضور الخط الكوفي ممّوهاً بماء الذهب. ما هذا يا حجّة الله. تجاوز دهشتي. أعجبكَ. أكثر مما تتوقع. الحمد لله. كم تكلفته. هديّة. ماهي مناسبة الهدية. استوقفني ردّه. أنتَ لا تدري.

لا أدري عن ماذا. تلفّت حجة الله حوله، التقط مقعداً خشبياً من غير ظهر. اجلس وأنا أقول لك. استبدّ بي فضولي، انصعت له جالساً، جلب له مقعداً مشابهاً جلس أمامي. قبل أسبوعين من تاريخه صادف حجّة الله ما ذكّره بي. جاءه زبون يراه للمرّة الأولى، طلب رفوف مكتبة، لا فكرة لدى الزبون حول طبيعة الرفوف، تفكير حجّة الله هداه لأن يقدّم لـه رسـمة رفـوف سـبق نفذّها لي، ابـدى الزبون اعجابه بالرسـمة، أريد مثلها. لم يجادلني حول السعر، دفعه مقدّماً. أُصغي لحجّة الله وفضولي بـاق معـي، لا علاقـة لما يقـول بالصندوق الهديّة، واصـل افضاءه. قال إنّه نام ليلته تلك ليراوده حلم فريد نوعه، رأى نفسه يؤدي زيارة لمقام السيّدة زينب. رأيتكَ هناك وسـط الحلم. إهتز جسـده الهزيل بضحكة تتضمن مفارقة. كنتَ غاضباً منّي. أنا غاضب منكَ. في الحلم. لم أشأ مقاطعته أكثر، واصل. أخذتني جانباً قلت لي أنتَ لم تكن عادلاً معي، رفـوف المكتبـة جيّـدة، لكن صندوق زينب تعبان. اهتز جسـده ضاحكاً ثانية. فاتتني فرصة الرد عليكَ داخل الحلم، لا اعرف لماذا صحوت من نومي فجأة، خايلني مقام السيّدة زينب كأني موجود فيه. شـملني بنظرة اعتزاز. قبل مواصلتي نومي آليت على نفسي أنْ أكون عادلا معكَ. عبد السلام آلى على نفسه أنْ يكون عادلا بين زوجتين، قالت عهود. لم يراع عبد السـلام وعده. كافيتريا فندق الشـام تضيق برواد ليل أحد دمشـقي، زواج عبـد السـلام مـن إبنـة خالته يوم خميس كويتـي، تقبّلتْ غيابه في يـوم زواجـه، اجرى اتصالا هاتفيـاً عصر يوم الجمعة إدّعى إصابته بنزلة برد شـديدة تضطره لملازمة السـرير. أعرف ما للحم الحي الجديد من سـحر على صنف عبد السـلام. زارها بعد ثلاثة ايام، جالسـها في غرفة المعيشـة، أبـدى خلالهـا تذمّـره من الوضـع المتدنّي لرواتب مهندسـي القطـاع الحكومـي مقارنة بمهندسـي القطاع الخاص، حسـبته يلمّح إلى ضرورة اقتصاد مصروفات المنزل، سألها إنْ كانت مرتاحة للخادمة. بنت

حلال. سألها هل أكلتِ بصلا. عندما تحين وجبة العشاء. عهود لم تأكل بصلها، عبد السلام غادر مجلسه، بعض زملائه ينتوون زيارته في البيت الثاني. حانت عني نظرة خاطفة لساعتي، الأخيرة جاوزت ثامنتها، مع الثامنة غداً صباحاً تتوجّب علينا مغادرة الفندق متوجهين لمطار دمشق الدولي، باق عن الزمن إثنتا عشرة ساعة لاغير، ما الجدوى من استعادة تفاصيل دقيقة لعلاقة انتهت طلاقاً، أردتُ لفت اهتمام عهود دون إيذاء مشاعرها. أحسدكِ على حدّة ذاكرتكِ. رسالتي المضمنة بلغتها فوراً، رددتْ عاتبة. يجبْ أن تعرف. قالتْ. عندما يدخل الرجل بزوجة ثانية تُهدر كرامة الزوجة الأولى، تُبتذل فيها إنسانيتها. حتّى لو كانت تكرهه. أفزعني ردّها. هذا إذا كان يستحق الكراهية. هبّتْ واقفة. نمشي.

سلوك عهود، شأن ردّ فعلها، أمر يصعب توقّعه، ماشيتها صامتاً، عبرنا البوّابة الزجاجية للفندق، احتوانا الليل، الطريق التي سلكناها قبلاً تعيد نفسها. إلى سوق الحميدية. لا أظنكَ تكره التخت الشرقي. ريثما اسمع. انفرجتْ نفسيتها، ادركتُ ذلك عبر حيوية صوتها. تسمع وتشاهد وتأكل مشويات دمشقية. إضاءة طرقات دمشق ليلاً غيرها عن إضاءة طرقات الكويت، مصابيحها المعلقة عالياً بالكاد، فاجأتني عهود تأبّطتْ ذراعي. بودّي لو أصمت لكنّ حافزاً قوياً يسوقني للحديث، من حقكَ أنْ تعرف. هي تقول، هي تحدد. زواج عبد السلام من إبنة خالته واقع قائم، مرّ أسبوع أوّل، تلاه ثان، طفق يطلّ بين اليوم واليوم يطمئن، يبقى نصف ساعة، يعتذر بانشغالات طارئة، يغادر. فيما يخصّني وجدتُ ما يشغلني، الشابة السريلانكية سيتا، إحتياجنا هي وأنا لأنْ نتأقلم مع بعضنا بلغة الإشارة حيناً، وبالرسم حيناً، بوضع الأشياء اليومية تحت بصرها وتسميتها باسمائها وتعليمها كيفية نطقها. الليل ساعات لا تحصى، أجلس لمشاهدة التلفزيون، أدعوها مستعينة بإشارة يدي، تستجيب تجلس متهيّبة، دقائق قليلة ثم يغالبها نعاسها، أرثي لها، أشير نحو باب

غرفتهـا، سـيتا تحتـاج ملابس، صحبتها لسـوق المباركيـة، صادفنا محلا لبيـع أشـرطة فيديـو، عيناهـا تعلقتـا بصـورة الممثل الهنديّ شـاروخان. تعالي. اشتريتُ مجموعة أشرطة أفلام هندية، ما عادتْ سيتا تنام مبكراً، بـدأتُ أعتـاد مشـاهدة الأفـلام الهنديّة، أكمل عبد السـلام شـهر زواجه الجديد الأوّل. سأنام هنا الليلة. حيّاك الله بيتكَ. رقّ صوته قليلاً. عساكِ لا تأكلين بصلاً. إلاّ البصل. نهض من فوره، قال نافضاً يده. على هواك. وصلنـا مدخـل سـوق الحميديـة، زحمـة الناس أقـلّ، ذراع عهـود باقية تتأبّطني، قرّبتْ فمها لعند أذني. أعدكَ أنْ لا أتحدّث عن حياتي مع عبد السلام هذه الليلة. طوال الساعات المتبقية عن موعد سفرنا إلى الكويت اغفلـتْ عهـود حديثهـا بخصـوص حياة عاشـتها ما قبل طلاقهـا، لتعود ترويها مجتزأة متواترة غير منتظمة زمنياً خلال لقاءاتنا في الكويت. حتّى أكـون أمينـاً معـكِ زينب أسـتعيد مجتزآت افضاءات عهـود من الذاكرة، أضعها داخل سياقها من حيث تواليها، أكتبها على لسانها، ملخصة قدر المستطاع. مساء أحد أيامنا تلك، بعد أربعة شهور من دخوله بإبنة خالته، دخل عبد السلام بيتنا مزمعاً المبيت. أظنني أنام هنا. هذا بيتك. جلس في غرفة المعيشة. أنا جائع. ماذا تريد أنْ تأكل. أي شيء. لمّا بدأ يأكل دعانـي للجلـوس إلى جانبه، تبـادر لذهني هناك كلام يُزمع قوله، غلبني فضولـي. هـل هنـاك مـا يقلقك. هي حامل. الغريب في عبد السـلام إنّه منذ زواجه بها وحتّى طلاقي منه لم يتلفظ إسـمها أمامي، صوته وقتها لا يـدل علـى فـرح، رغـم هـذا فـردتُ فمي بابتسـامتي. مبـروك. المرأة الحامـل تكـره رائحـة الرجل. لم أقل له. ذريعة مناسـبة. بات ليلته وكلّ الليالي التالية لحين ولادة طفله الأوّل، لدى عودته قادماً من مستشـفى الولادة قال. بدءاً من اليوم سيكون إسمي بو ضاري. نظر إليّ لحظات. لـو إنّـكِ تحمليـن. الله كريم.عـاد لحالات غيابه عن المنـزل، يطلّ بين اليـوم والثانـي يبقى نصف سـاعة، يسـارع ينهـض. زادت ارتباطاتي هذه

الأيـام، يغـادر، عـادت سـيتا تشـاركني المرابطـة أمام شاشـة التلفزيون، محلات الفيديو مليئة بالأفلام الهندية، رغم عدم قدرتي على تقبّله خير شر هناك حسنتان تحسبان لعبد السلام، إتيانه بسيتا مما خفف وحدتي، وتغاضيه عن مواصلتي دراسـتي الجامعية، عند نيلي شـهادة الليسـانس، برزت أمامي عقبة الالتحاق بوظيفة، كنت أحلم بالعمل في شركة النفط مؤهّلـة باجـادة اللغـة الانجليزيـة، عرف أخي سـعود، سـارع هاتف عبد السـلام، طلب لقاءه، خلال لقائهما بحثا أمري، توصّلا لقرار ثنائي. إن كان ولا بُـدّ، لديهـا فرصـة الاشـتغال معلمـة مدرسـة بنـات، الوظائـف الأخرى عرضة لمخالطة رجال، وهذا محرّم شرعاً، وإنْ رفضتْ وظيفة معلمـة تلـزم بيتهـا. بعد لقائه بسـعود واجهني عبد السـلام. إذا إلتحقتِ بوظيفـة وصـار لـكِ دخل شـهري يحيـن أوان مسـاهمتكِ بالانفاق على البيـت. مـا قاله ليس صيغـة اقتراح قابلة للأخذ والرد. الأهمية القصوى التي ألحّتْ على أنْ لا أكون حبيسة المنزل، كنا في مطلع عامنا الزوجي الخامس، العام الذي جاء مليئاً بأحداث كثيرة، تمثّل أوّلها باتخاذ سعود قـرار السـفر إلـى الولايـات المتحـدة، اسـتكمال دراسـات عليـا تحقيقاً لطموحه الشـخصي، امتهانه التدريس الجامعي. سـارر أمّي. لا أريد أنْ اتعـرّض للفتنـة، يتوجّب زواجي بشـابّة تصلح لي. الصلاح يعني التديّن مبالغـاً بـه، نشـطتْ أُمّـي تبحـث عمّا يفي غرضه، رأت في طلبه وسـيلة مثلى للتخلص منه، تزوج سريعاً، سافر مصطحباً زوجته، مرّ شهر بالكاد بـدأ أبـي يشـكو ورمـاً في الحنجرة، صوته ضـاع منه، ما عاد يقوى على التنفـس بشـكل اعتيادي، الفحـوص المخبرية أكدت وجود ورم خبيث، سـافر إلى بريطانيا للعلاج. مرّ شـهر ثان أعقبه ثالث دخل عبد السـلام البيت. المرأة الحامل تكره رائحة الرجل. قرر قضاء لياليه عندي، هالني إنّ اقبالـي علـى البصـل نيئـاً لم يعد يحدّ من اقباله عليّ، دأب يقول لي. أنتِ أجمل منها، جسدك منحوت ليس مثل جسدها، صدرك لم يتهدّل.

تمنيتُ أنْ أهدّل صدري عساه يحلّ عن ظهري، مع مطلع الشهر الرابع قطع سعود دراسته عاد مصطحباً زوجته، أخذها من فورها لبيت أهلها قبل أنْ يعلن طلاقه، قال لأمّي. أنتِ أسأتِ الاختيار. قرر السفر إلى بريطانيا. أبي يحتاج من يرعاه. الأطباء الذين تولوا علاج أبي هناك استأصلوا جراحياً جزءاً من حنجرته، أحدثوا له ثقباً أسفل رقبته، زودوه بخرطوم صغير يتنفس عبره، الزموه بالبقاء عندهم استكمالا للعلاج الكيمياوي. شهر خامس، ربّما سادس، طفح كيل سيتا بعدما ضايقها عبد السلام بخصوص شعرها. شعر المرأة عورة يتوجّب ستره. ذكّرته بأنّه جاء بها سافرة، قال. كنت ساهياً. قال. حين يتنبّه الإنسان لخطئه يجدر به اصلاحه. قال. الحجاب ستر المرأة. ذكّرته إنّ ديانتها بوذيّة. قال. ليتنا نهديها للدين الاسلامي الحنيف. قال. سيتا تعزّك كثيراً حاولي اقناعها. سيتا لم تنتظر هداية أحدنا، إختلت بي ذات يوم، أمّها مريضة، يلزم سفرها لكي تكون إلى جانبها، سألتها، تعودين، دفعت لي قصاصة ورق، عنوانها في بلدها، سيتا تودّ العودة، لكن أمر عودتها مشروط بعدم وجود عبد السلام في المنزل، صرنا أنا وعبد السلام وحدنا داخل البيت، صرتُ ملزمة بأعباء لا طاقة لي بها، هو والبيت والوظيفة، وسط حالة تشتتي تلك هاتف أخي سعود أمي من لندن، نقل لها خبره، سيعود مرافقاً والدي بعد ثلاثة أيام علينا مواجهة الأمر الواقع العلاج الكيمياوي لم يأتِ بالنتيجة المرجّوة، الورم السرطاني انتشر داخل الرئتين، الوفاة مسألة وقت، الأنسب لأبي أنْ يودّع الحياة محاطاً بأهله. انتظارنا في المطار أنا وأمّي وأختي جود ضاع سدى، قيل لنا. نُقل المريض بسريره الطبي داخل سيّارة اسعاف يرافقه سعود الى المستشفى المختصّ في منطقة الشويخ، هرعنا للمستشفى، قابلنا سعود عند باب إحدى الغرف هناك، هو الآن نائم يعطونه أدوية مسكنة للألم، يصحو بعد ساعتين، قال لأمّي. أنا مرهق أحتاج حمّاماً ساخناً، أنتم باقون هنا. سبقتنا أمّي

داخلة، لحقنا بها أنا وجود، كانت الساعة قاربت السابعة مساءً، ستارة النافذة مسدلة، الإضاءة الصفراء تضفي مناخاً من الوحشة، هالنا هزاله، دثاره الذي يلف جسده ينمّ عن هيكل عظمي ذاوٍ، لم يبن منه سوى رأسه الخالي من الشعر، صرخ بي داخلي، ليس أبي، سمعتُ نحيب أمّي، تبعتها جود، خلال ذلك سمعتُ صفيراً خافتاً يصدر عن فوهة الخرطوم المغروز أسفل رقبته، أبي يتنفس عبر هذا الشيء، رأيت جهاز المغذي مثبتاً على حامل معدني، دخل طبيب شاب حيّانا بايماءة رأس، أمّي وأختي بذلتا جهدهما كفكفتا دموعهما، اقترب الطبيب لكيس المغذي تأكّد من انسياب قطراته، مد يده تحت الدثار، سحب يد أبي بلطف، العظام الناتئة عبر الجلد الذابل لا تمثل يد أبي، تولّى الطبيب قياس معدّل النبض، أعاد هيكل اليد تحت الدثار، عاد حيّا بإيماءة رأس، إنسلّ خارجاً، لحقتُ به. حالة أبي ميئوس منها والأعمار بيد الله سبحانه وتعالى، نستطيع مخاطبته حين يصحو، حواسّه باقية تعمل، وكذلك ذهنه، لكنّه عاجزعن الكلام جرّاء استئصال جزء من الحنجرة. غاب الطبيب وراء باب ثان، انهرتُ جالسة مسندة ظهري لجدار الممر، بكيت، تمام الساعة العاشرة ليلا صحا أبي من نومه، رفّ جفناه أوّلا، تحلقنا أنا وأمّي وأختي جود حول سريره، فتح عينيه، بدا كأنّه لا يصدّق ما يراه، نقل نظراته بين وجوهنا، التمعتْ عيناه بفرح طفولي، أبي عاد طفلا مهشماً، انحنتْ أمّي فوقه، قبّلتْ جبهته. الحمد لله على سلامتك. نمّت شفتاه عن ابتسامة مفارقة، اقتربتُ بدوري، قبّلتُ جبهته، جود انتحبتْ على صدره، قبل أنْ تنتزعها أمّي، تملكنا ذهولنا لمّا رأيناه يتحرّك، يلجأ ليديه، يُبعد دثاره، يستند لكفيه، يرفعُ جسده أعلى، بادرتْ أمّي دسّتْ وسادة ثانية وراء كتفيه، بدا لنا نصف جالس، أشار بيده ما معناه إنّه يريد قلماً، أوّل جملة قالها أبي كتابة. خلصوني من سعود، لا احتمل انفراده بي. قلت له. أنا ابقى معكَ أشاركَ غرفتكَ هذه. ابتسم،

كتب. شرط أنْ يكون ثالثنا الشطرنج. وجدتني اضحكُ بغفلة مني، قالت أمّي مخاطبة أبي. لا تشغل بالكَ، أنا وعهود نتناوب البقاء عندكَ، لن نتركك بمفردكَ. شمل ارتياحه وجهه، بينما تساءلت جود. وأنا. قضينا ليلتنا هناك، عاد سعود في التاسعة صباحاً، أمّي وجود كانتا نائمتين كيفما اتفق، أبي يغط في النوم بعد جرعة مسكن، وحدي كنتُ أكابد نعاسي. أنتم مجانين، ما الذي دعاكم للبقاء، لامبرر لفعلتكم هذه، الكادر الطبّي مسؤول عن رعاية المرضى. استيقظت أمّي مرهقة، تابع سعود قائلاً لي. زوجكِ أقلق راحتي، اتصلَ ثلاث مرات يسأل عنكِ. غادَرَنا سعود لا أدري إلى أين، تشاورنا أنا وأمّي، اتفقنا أنْ نتقاسم مسؤولية ملازمة أبي، النهار لها والليل لي، اتفاقنا جاء عفوياً سريعاً، راعينا الالتزام به طوال الأيام العشرين التي سبقتْ وفاة أبي. لدى معرفة عبد السلام أمر اتفاقنا أنا وأمّي قال. هذرة حريم، ما الذي يستفيده رجل يشارف الموت من تواجدكما عنده. لم أعره أذناً صاغية، غيّر فحوى خطابه. أمّكِ بصفتها زوجته واجبها يقتضيها ملازمته، انتِ كما ينصّ الشرع واجبكِ هو امتثالك لزوجكِ. لم أعره أذناً صاغية. إنْ واصلتِ عنادكِ أقمتُ عليكِ الحدّ. لم افهم قصده، قلت له. أقم ما تريد. أُسقط في يده، بلغتني شكواه مقهوراً. زوجتان، إحداهما حامل لا تطيق رائحته والثانية وجدتْ ذريعتها شغلتْ نفسها بأبيها المريض. لم أقل شيئاً، سألني. حتّى متى تستمر حال مبيتكِ في المستشفى. إلى أنْ يأخذ الباري أمانته. بعد ثلاثة أيام من مناوبتنا عرفتْ أمّي سبب رفض أبي فكرة بقائه وحيداً مع أخي، قالت أمي. كانت الساعة حروة العاشرة صباحاً دخل سعود الغرفة ألقى التحية، كان أبوكِ مستيقظاً، طلب مني سعود مغادرة الغرفة، ظهرت آثار الانزعاج على وجه أبيكِ. طمأنه سعود. دقيقة يا أبي. أخذني خارجاً، فوجئتُ بوجود رجلين غريبين أحدهما يحمل ملف أوراق، وجّهتُ سؤالا هامساً لسعود. منْ هما. أجابني. الأوّل محامي والثاني موظف

في إدارة التوثيق. ما الغرض من مجيئهما معكَ. لأجل توثيق وصيّة أبي رسمياً. سارع وسّع طريق دخول الرجلين للغرفة وارب الباب، من مكاني خارجاً بلغني صوت أحد الرجلين يقرأ على مسامع أبيكِ ما معناه إنّ أباكِ وهو بكامل قواه العقلية يوصي بتوريث ممتلكاته كافّة لابنه الوحيد سعود، هالني سماعي، دخلتُ، رأيتُ الإحساس بالقهر يطلّ من عيني أبيكِ، سعود يمسك بيده من أجل أخذ بصمة إبهامه يطبعها على ورقة، صحتُ بهم. هذا حرام. تراجع الرجلان متوجّسين. توجّه سعود إلي يرجوني. أوشكنا ننتهي يا أمّي. صحت به مستنكرة. تنتهون من ماذا. بادر الرجلان انسحبا، انفرجت أسارير وجه أبيكِ، قال لي أخوكِ. تعالي. سبقني خارجاً، طمأنتُ أباكِ. أنا موجودة لا تقلق. لحقتُ بأخيكِ، رأيته يقف وحده بعدما انصرف مرافقاه، عاتبني أخوكِ متألماً. أضعتِ علينا فرصة إقرار الوصية قانونياً. زجرته. تقر وصيّة تفرضها على أبيكَ. أنتِ لا تعرفين. أعرف ماذا. لا تتطلّعين إلى المستقبل. أيّ مستقبل. إن لم نقرّ الوصية هكذا ذهب جزء من حلالنا لعبد السلام لأنّه زوج عهود، وسيذهب جزء آخر لشخص مجهول سيكون زوج جود. أنتَ تُجبر أباكَ على ما لا يريد. توالت ليالي تواجدي إلى جانب أبي، بدأتُ أتأقلم مع الوضع، عرفتُ أفراد الطاقم الطبي، مواعيد ترددهم على الغرفة، أنواع الأدوية المقررة، آلام أبي تشتدّ ليلا، تواجدي عنده خفف معاناته، كنت اقرأ له الصحف اليومية، كتب لي ذات ليلة. صوتكِ يلهيني عن ألمي. ليلة سابعة أو ثامنة، حوالي الساعة التاسعة، سمعتُ نقراً على الباب، ظننته أحد أفراد الطاقم الطبي. أدخل. وإذ بي أرى عبد السلام داخلا حاملا باقة ورد، للمرة الأولى من عمر علاقتنا يصدر عن عبد السلام تصرف لا يزعجني. أهلا وسهلا. أخذتُ ورده منه، اقترب لسرير أبي، انحنى قبّل جبينه، تمنّى له الشفاء العاجل. كعادته أبي انفرج فمه عن شبح ابتسامة مفارقة، خلال الدقائق القليلة لبقاء عبد السلام طفق أبي

ينقل بصره بين وجهينا، لدى إزماعه المغادرة طلب مني عبد السلام مرافقته خارج الغرفة.عساكِ قررتِ العودة لبيتكِ. في حينه. قلتها على عجل، ارفقت بها. مع السلامة. هزّ عبد السلام رأسه دلالة اليأس، سلك طريقه مبتعداً، دخلت الغرفة، عينا أبي سألتاني عنه، قلت له ذهب لبيته. هل كان لكلمة بيته معنى آخر، كتب أبي. أنتما لستما سعيدين. عيناه واصلتا تفحّص وجهي، حاولتا كشف المستور، ضعفتُ أمامه، ضاق صدري بي بكيت، لا أدري كم هو الوقت الذي استغرقه بكائي كنت انتحب لأواصل الانتحاب اذهلتني غزارة دموعي، أمر أشبه بالتطهير، ليلتها حكيتُ لأبي كل شيء بدءاً من سبب موافقتي السريعة على الزواج مروراً بالمكابرة الجوفاء للظهور بمظهر الزوجة السعيدة، خبّرت أبي عن الزواج الثاني لعبد السلام، أنا المرأة العاقر في نظره، ليُرزقَ بولد وينتظر ولادة طفل ثان، رائحة فمه والبصل، لمّا تحمل زوجته الثانية تطرده إليّ، حدّثته عن كل شيء إلا الاجهاض. كان الفجر وراء النافذة كتب أبي يسألني. هل أمّكِ تعرف. لا أحد سواك يعرف. ليالينا تلك، وفاته جاءت فجراً، أتذكّر جيّداً، حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل دخل علينا أحد الممرضين، غيّر كيس المغذي الخاص بالعلاج المسكن، لم يَبْدُ على حالة أبي إنّها ساءتْ عمّا سبق، لم يَصْحُ. وقت ملازمتي لأبي، أيامه الأخيرة، كان الأكثر حيوية في حياتي، أقرأ له أو أحدّثه ولا أكفّ الاّ إذا نام أو تناول قلمه يزمع كتابة ما. قبل وفاته بيومين زارنا عبد السلام ليلاً، وصل شأن مرّته الأولى حاملاً ورداً، رأيتُ عيني أبي تشعّان بتصميم غريب. كتب على ورقته. حيّا الله بو ضاري. أخذتْ الدهشة وجه عبد السلام، الاتفاق المبرم بيني وبينه أنْ لا يعرف أي من أهلي مسألة زواجه الثاني، تطلّع إلي مستفهماً. أبي يعرف. حرّك رأسه دلالة التسليم. من حق الرجل أنْ يكون له أبناء. إبتسم أبي، كتب. طلبتكَ يابو ضاري. عيناه تهيبان بالآخر، العرف السائد يقضي استجابة عطيتكَ. تردد

عبد السلام ثانيتين قبل أنْ ينطق بها، لحظتها أشار لي أبي بمغادرة الغرفة، انسحبتُ حائرة، لا أدري كيف سيقيم حواره مع عبد السلام، وقفتُ وراء الباب الموارب، مرّتْ فترة صمت بدت لي طويلة، أبي على ما يبدو كتب شيئاً، سمعت عبد السلام يقول مغلوباً على أمره. أنا لم أفعل منكراً. سادت فترة صمت أخرى، عاد صوت عبد السلام. هذا ظلم. صمت آخر أعقبه تساؤل مشحون بالقهر. أراكَ مصرّاً يا عمّي. ثوان قليلة خرج عبد السلام مكفهر الوجه، أتذكّره جيّداً حدّق فيّ بحقد. تكرهينني يا عهود. شعرتُ كأني استمدّ شجاعتي من أبي المتواجد وراء الباب. لم أعد أحبك. كان يقف مسافة خطوتين. تفو. اطلقها فمه، أعقبها تلفظه صيغة الطلاق، استدار، حث خطوه مبتعداً، خانتني ساقاي، تداعيت على الأرض. الطلاق بصرف النظر مؤلم كما الفقد الأبدي.

يا زينب، الكتابة جهد موصول بالوعي، يَصدفُ له في بعض الأحيان يكشف عن مخبوء نخاله جديداً. بعد انتهائي من تحرير صفحاتي السابقة نقلا عن لسان أمّكِ اطبقتُ صندوقكِ على ما فيه، قاطعتُ الفعل الكتابي يومين، كنتُ أحتاج فسحة زمن للتأمّل وكذلك لالتقاط الأنفاس، أملكِ وأنا تاريخ مشترك متصل بماض غير مشترك، لأنه تاريخها السابق لتواجدي معها عهدتُ لها مهمّة القصّ، بما اضطرني لتقمّص شخصيتها، شيء أشبه بالانتحال، هي تقول، هي تصف أو تصنّف آخرين سلباً وإيجاباً، ترصد الفعل وردّ الفعل، وما عليّ إلاّ التحلّي بأمانة النقل عبر التقمّص، تنكبي ذلك منحني فرصة لم تسنح خلال معايشتي لها، أنْ أطلّ على داخلها بمنحى حيادي، لتجيء حصيلة الإطلالة مضمّنة باستنتاجين، أنسبُ الأوّل منهما إلى بناء شخصيتها القائم أساساً على ردود الأفعال لا الأفعال، بما يعني غياب المبادرة الصادرة عن ذات مسؤولية، في حين تمثل الثاني بالاحادية، تجاوزاً لتوصيفات مرتبطة بالنرجسية أو الأنانية، كأن يقف الواحد وسط مجموع ولا يرى إلاّه، غياب مدعّم

بقناعة قائمة على نفي الآخر. أدريكِ زينب تحتجين تحاججين تقولين. سبق لكَ صنّفت المرأة بصفتها بدون من نوع ما، وإنّ سلطة الذكر وليّ الأمر، وإنّ وإنّ، أقول لكِ. كل الذي قلناه أمك وأنا صحيح، ولكِ خيار قبوله جملة أو جزءاً ولا خيار لي سوى المواصلة بالعودة لخريف دمشق 1985. الساعة تاسعة ليلا، سوق الحميدية أخذ يتخفف من مرتاديه، عبرناه إلى الساحة الكائنة أمام بوابة المسجد الأموي، الأخير له مهابته الخاصة به ليلا، حاذينا سوره الحجري الشاهق، دخلنا طريقاً جانبية، أعمدة الإنارة تتباعد عن بعضها في الطرق الفرعية، الظلام يتسيد مساحات واسعة، مالت عهود عليّ، تلامس جسدانا، المرأة والظلام ضدّان، تنفستْ خلاياي، هل أسائلني عن طور المراهقة متى يبدأ وأين ينتهي. كلانا ثلاثيني، أحدنا عاش خبرات ذات علاقة حتّى وإنْ جاءت شائهة، الآخر بدون خبرات، معاً تحت بند الصداقة، أرضى للصداقة أنْ تكون هكذا، أرضى لطريقنا الدمشقية المظلمة إلاّ قليلا أنْ تمتدّ بنا إلى ما لا نهاية باشتراط بقائنا جسدين متقاربين حدّ التماس. أوشكنا نصل. سمعتها تنبس، استدارتْ بنا الطريق، بانتْ لنا زحمة أضواء صفراء بيضاء تخالطها إنارة خلفية بالوان الطيف تعلو مدخل المطعم المعني، خطر لي، حان موعد انفصالنا عنّا، أحسستها تتعلق بي أكثر، كنّا صيغة زوجين أو عاشقين، ابقيتني على سجيتي. الطرقات التي عبرناها قبل وصولنا المطعم كانت مقفرة، المطعم زحمة ناس فوق العادة. اليوم أحد. همستْ عهود، قادنا أحد الندل نحو طاولة بمقعدين. حيّا الله ضيوف الشام. التخت الشرقي ثلاثة عازفين، عود، كمنجة، قانون، إنضم اليهم ضابط الإيقاع على الطبل. آخر مرّة جئتُ هنا قبل ثلاث سنوات. شرد ذهنها وهلة. دعوتُ استاذي المشرف على بحثي لتناول العشاء. طاولتنا عند حوض النافورة الصغيرة، شيء من رذاذ الماء، الليل الخريفي برودة محتملة. عشائي ذاك مع استاذي طلبتُ من التخت أن يسمعوني أغنية

طيري طيري يا طيّارة من ورق وخيطان. تحبينّ أغاني فيروز. وما زلت. ما الأغنية التي ستطلبينها الليلة. ضحكتْ. لن أطلب أغنية أكتب إسمك يا حبيبي. أسعدني تلميحها المشاكس. ما هي أغنيتكَ المفضلة. أغاني عوض دوخي. كويتي بصحيح. تفاءلوا بالخير. ضحكتْ. أيام الدراسة الثانوية والجامعية عندما تبدأ واحدتنا تخصص وقتها لسماع أم كلثوم نُجمع على إنّها تعيش طورها الوردي في العشق. خالجني تساؤلي، ما الذي تهدف إليه، بلغني صوتها. لم اتخصص لسماع أم كلثوم بعد. نشط خيالي يستنتج. هاهو الوعد يتماهى بمفردتها الأخيرة بعد. عدنا للفندق مع منتصف الليل، البهو خالٍ تماماً. ليلتنا الأخيرة هنا. لا مكان لمشاعر تتصل بالأسف على مفارقة المكان، الخشية مِن انقطاع حبل الوصل مع مَن. لحظة دخولنا المصعد بادرت عهود ضغطت على الرقم 4. أنتَ أوّلا. لو أجبتها. في أمور ثانوية مثل هذه. لو سألتني. ماذا بخصوص أمورأساسية، ماذا يشغل بالكَ. لو اجبتها. أنتِ. توقّف المصعد، انفتح بابه على الطابق الرابع، سبقتني خارجة. أوصلكَ لعند باب غرفتكَ. لو قلتُ لها. الرجل هو الذي يبادر. راحتْ يدها تسلّمتْ يدي. لا افهم سبب سكوتكَ. لو صارحتها. أنتِ. انقدتُ لها، أبواب الغرف تنتظم مقفلة على جانبي الرواق الطويل ذي الإنارة الخافتة، السكون يعمّ الجوار، حيث لا نأمة. كأنكَ فقدتَ قدرة النطق. لو قلت لها. ليس النطق وحده. وصلنا باب الغرفة، ذهني فوضى خيالات شتى، التوقع مدعاة لهاث داخلي، لم احدس منها جرأتها، مالتْ علي خلسة، الوهلة الخاطفة بحساب عمر مكرّس لِمجهول، شفتاها لامستا جانب رقبتي. تصبح على خير. من أين يجيء الردّ، انفلتتْ مبتعدة مبقية على نداوة شفتيها فوق جلدة رقبتي. للنوم أحلامه أو كوابيسه، لليقظة أيضاً، يُشاع، ولا يحق لي الجزم بذلك، إنّ أحلام اليقظة، وهي ارتحالات ذهنية رومانسية، تزحم وقت الواحد لما يكون في طور المراهقة، ريثما

بلوغ سن الحلم، لا يشاع، أكاد اجزم، إن البدون عامة يبلغون سن الحلم مبكرين، قبل سنتهم العاشرة على أكثر تقدير، فلا يكون لطور المراهقة عندهم معنى عدا ظواهره الحسية، قلق الوجود يأخذ تلابيب خوف المصير، إذا عجز ذهن الواحد عن استيعاب راهنيّته كيف له أنْ يذهب بعيداً رومانسياً، هذا أنا، فندق شام، طابق رابع، سرير وثير، غرفة لا تمت لملحق نقرة بصلة، ذلك هو أنا فوق سريرهم،عيناي تنفتحان سعتهما تجاه سقفهم، نداوة القبلة الخاطفة لأمّكِ تتنمّل رقبتي ما تزال، هل أقفلُ راجعاً، رغم ثلاثينيتي نحو طور مراهقة غاب عني أو غيّبته عفواً، أمارسُ حلم يقظة وردياً من بطولة عهود، موعد سفرنا صباحاً، تفصلني ساعات قليلة، الجسم يحتاج ينال قسط نوم، النوم لا يستجيب طواعية ولا عنوة، الحلم بزمن قادم خالٍ من لوني الرمادي يشاغل حواسي يحيلها إستنفاراً جامحاً، في معرض مساررته لي قال سليمان الياسين. فرصة عمر. الهاجس يطارد التوقع، رنّ جرس الهاتف، إلتقطتُ سماعته. أظنكَ لم تنم. صوتها المهموس معبأ إثارة. أنا لم أنم أيضاً. دبّتْ عجلات الطائرة فوق أرض المطار وئيدة بدءاً، تسارعتْ، ارتفع صدرها أوّلا انطلقتْ أشبه بالقذيفة، تضاءلتْ أحجام أبنية دمشق، تناءتْ غوطتها الخضراء، السماء نتف غيوم بيضاء. يستطيع السادة الركاب فكّ أحزمة المقاعد. موقع جلوس عهود عند النافذة. يجب أنْ تعرف. منحاها تفكيرها يضعني ازاء متاهة أسئلة، ما الذي يدعوها لمثل هذه الوجوبية، لماذا سرعة سرد الأشياء، ما الغرض المستهدف من اشراكي بمعرفة تراكمية، الأ يحق لنا أنا وهي أنْ نوظّف ما تبقى من وقتنا القصير لأمر مجدٍ أكثر. لأننا غادرنا دمشق. تركتْ جملتها مفتوحة. قضيتُ فيها سنتين كاملتين بغياب أي رقيب يحسبُ علي خطواتي. سكتتْ ثانيتين. وصلتُها مستنزفة المشاعر فريسة حالة يأس وقنوط ناتجين عن إحساسي بارتكابي الذنب تجاه نفسي وظلمي وتنكري الطويل لي.

لا أدعّي يا زينب إنّي ملمّ بعلم نفس سلوكي، لكني اجتهد أقول، لمّا يستفيق إنسان ما بعد فعل ايغال طويل عبر وضع كان مأخوذاً إليه أوقع خلاله عقاباً قاسياً على نفسه جرّاء بادرة غباء غير مبرر عدا يقينيته بضعفه ونشدانه لخلاص مستحيل يجيء ردّ فعله ما بعد الإفاقة مساوٍ للفعل من حيث الزخم، ولا أجزم لولا متابعة عهود حديثها. حياء المرأة إذا افترضناه فطرياً دام معي بعد وصولي دمشق شهراً واحداً، الوسط الطلابي داخل جامعة دمشق مغاير لما خبرته عهود في الكويت حيث العلاقات بين الجنسين أكثر انفتاحاً، الوسط الاجتماعي بالمثل، هناك نمط حياة خارج المنزل ولا فرق إنْ كان الوقت نهاراً أو ليلا، البيت مخصص للنوم، للراحة أحياناً، البيت في الكويت يمثل حياة كاملة بالنسبة للمرأة، ليس من سبب يدعوها لمغادرته إلاّمن أجل اداء واجب زيارة أهلها أو أهل زوجها، على حلّ شعري، سبّقتْ عهود لتوصيفها بضحكة خافتة مُشبعة مرارة، تساءلتني وقتها. هل أنا أمام حالة جلد للذات أم ازاء واعز تطهير، لعلّها حدستْ ما دار في ذهني. كنت انتقم لمعاناة قاتلة دامتْ خمس سنوات هي عمر زواجي من عبد السلام، انتقمُ وفي مخيّلتي أخي سعود بوجهه المتجهم ولحيته المدببة، جشعه ورشوتي له بتنازلي عن جزء من إرثي، الحرّية المتاحة باهضة الثمن لكنها من غير سطوة ولي الأمر. قرّ في دخيلتها اغتنام فرصتها، تعيشها حريّة مطلقة. لم أتسبب بالإساءة لأحد. كما لو إنّها صيغة اعتراف. أسأتُ لنفسي. الحرية الشخصية منحى سلوك معتاد لدى من نشأ عليها، حرية عهود بعدما انتزعتها من براثن آخرين توق ارتكاب، ليعرف كل الذين حولكَ إنّكَ تملك زمامكَ كله، لفت الأنظار باللبس نصف المحتشم، نبرة الصوت ذات الإيحاء بامكانية بلوغ القصد، الضحكة، التزيّن المفرط، ارتياد أماكن تسلية ليلية، صحبة شباب من الجنسين، تفادي مصاحبة كويتيين، حرصاً على السمعة هناك، إيحاء مدروس

أشبه برسالة موجّهة للمحيطين بكَ أنا سهل المنال، فإنْ أقدم أحدهم حانت فرصة ردّه على أعقابه مخذولاً، المتعة ليست ابتذالك جسدك، حصرتْ ذهنها برهة بغية استطرادها، نفضتْ رأسها حائرة. المتعة على ما أظن تمثّلتْ بمعاقبة الجسد ذاته. التدخين خطوة تمهيدية بدأتْها بقبولها سيجارة قدّمتها زميلة، لا مبرر للرفض، اللقاءات والسهرات، السيجارة مناخ ملائم، لياقة الواحد تقتضيه اسوة بمن حوله، تتذكّر عهود شراء أوّل علبة تبغ من كشك ساحة المرجة إيّاه، تتذكّر دعوة غداء جمعة في أحد مطاعم عين الخضرا، بعض الزملاء طلبوا ارجيلة، تجرأتْ عهود طلبتْ. حين تسلك طريقاً لا معالم لها تجد نفسك أين، النبيذ الأحمر طعم يحيلك لحموضة خلّ مخففة، الأبيض إلى حدّ ما، البيرة رائحة خميرة تدارى طعماً يشبه عفن الخبز، مشروبات أكثر تركيزاً، دمشق سنتان، حظيتْ أولاهما بانفلات ملفت لدرجة المبالغة، مع مطلع السنة الثانية تريّثتْ عهود، تأمّلتْ داخلها، يكفي. لأنني شبعتُ صياعة أم هي صحوة ضمير غير منتظرة. بتغيير السلوك، بتغيير العادات، بتغيير العلاقات. انسحاب، قطع أو بتر، ولا بأس من بقاء الواحد وحيداً لحين، الآخرون يستغربون، يستنكرون، يتساءلون، ما بالها الكويتية عهود. الشذوذ خرق للقاعدة، انصرافها عن شلتها مثّل خرقاً. خلال ظرف وحدتي أو توحّدي صرتُ أتردد بشكل شبه منتظم على المغارة التي أخذتكَ إليها، حالة بحث دائب عن سلام نفسي، زارتني أمّي برفقة جود، سكنتنا فندق الشام ثلاثة أيام. ما عدا ذلك ظلّ رتم زمنها مشدوداً إلى انجاز بحثها، وقلقها ازاء فكرة عودة نهائية للكويت، سعود هناك، شردتْ عيناها عبر زجاج نافذة الطائرة نحو الفضاء اللامحدود، لم تُخفِ ارتعاشة صوتها. إرتكبتُ المعصية. المراوغة فعل لا مجدٍ. مرّة واحدة. خارج شلّتها تلك، الحدوث قرار متخذ، هل يمتلكُ إنسان ما حقه في أنْ يختبر جسده، يتأكّد من كونه حيّاً فعلا، على افتراض ذلك، هل لديه

خزين مشاعر تؤهّله لاستجابة حسيّة، الاختيار وسيلة اختبار، القوس ينفتح، أرادتْ عهود تحسس مدى سطوة أنوثتها على استاذها، إشارة للتخت الشرقي، المطعم عشاء أخير، مع عبد السلام كان الغثيان، كراهية الظرف من كراهية الجسد، ما بعد عشاء التخت الشرقي اشمئزاز تجاه النفس، احتقار الجسد، إحساس كريه، لماذا هي، لماذا هو، محصلة إقدام محكوم بالذنب، لو كان بالامكان تحقيق عودة زمنيّة وراء لغرض الغاء الفعل قبل الحدوث. وحدكَ تعرف. لاأدري لماذا أومأتُ برأسي ممتناً، الأنّها أولتني ثقتها، اتخذتني مستودع أسرارها، رأيت عينيها تغرورقان. لم يبق ما يستحق الاخفاء. أومأت برأسي ثانية. بعد هذا كله. أبقتْ جملتها مفتوحة. هل يتأثر موقفكَ تجاهي بصفتي صديقتكَ. مُحال. الزفرة تدلل على الارتياح، قالتْ. الصداقة الحقّة تمثل دائرة ذات محيط واسع وتكون قادرة أن تستوعب اصناف العلاقات الأخرى كافّة. أُساررني. بعد هذا كلّه ما الذي تتوجّب معرفته ضمن دائرة صداقة ذات محيط مفتوح على الاجتهاد.

يرجى من المسافرين الكرام، يتردد صوت مضيف الطائرة، تلتفتْ إليّ عهود. أنتَ حتّى الآن لم تحدّثني عن نفسكَ كما يلزم. عتبها فحوى إدانة، كيف للواحد أنْ يميّز بين ما يلزم وبين ما لا يلزم. ليس لدي ما أقوله. مستحيل. فضول الأنثى شأن سحرها أمران يصعب تجاوزهما، شحذتُ ذاكرتي، لا جدوى من حديث يتصل بملف الجنسية إحالة على حنظلة الكويتي أو ناجي العلي، قلت لها. عندي هواية خاصة تبدو شاذة. فضولها تنازعه استثارتها. شاذة. أردتُ طمأنتها. في نظر الآخرين. حسّ استثارتها يلازمها. كيف. وجدتني مضطراً أحدّثها بخصوص ملفّاتي، عملي الدقيق عليها، مصنّفة حسب الأشخاص أو الموضوعات، اصغتْ صابرة. هواية استخباراتية. استخباراتية لاشباع ميل ذاتي. صداقاتكَ. ما بها. سليمان الياسين أو فؤاد الشطي هل لهم نصيب من ملفّاتك. إلى حد ما. لماذا إلى حد ما. استحداثي لملف معيّن مرهون بأهمية الشخص. تجاهكَ أنتَ أم تجاه المجتمع. حيّرني فضولها. تجاه المجتمع بالدرجة الأولى. معنى هذا هناك درجة ثانية. قليلا. ماذا عنّي. أصابني ذهول. ماذا عنكِ. اظنني اصلحُ مادّة لملفّ من الدرجة الأولى. لماذا. خُذ حياتي على سبيل المثال ألا تصلح نموذجاً لخيبة حياة المرأة الكويتية. لا. فتحتْ عينيها على وجهي بنظرة تساؤل لا تخلو من خذلان. لا أستطيعُ اتخاذكِ مادّة ملف. لماذا. أحسكِ صرتِ جزءاً مني. غلبها انفعالها، بلغني صوتها مهموساً. حبيبي. لا أوان لاحتفاء ذي دِلالة ما دمنا ندور وسط محيط مترام لدائرة صداقة.

كثيراً ما ألومني وأنا أكتب إليكِ زينب، أهيبُ بي، إبذل جهدكَ حاول العثور على ما يفرحها وأكتبه، من الظلم أنْ تظلّ تدور في حلقة

ألم مفرغة، من أين لي بالذي يشير للسعادة حتّى لو كانت عابرة، وقفنا أمّك عهود وأنا في طابور ختم جوازات القادمين من مواطني دول مجلس التعاون الخليجي، كلانا يمسك جوازه الأزرق، دولة الكويت، الشعار والطباعة الأنيقة، المطار يزدحم بناس جنسيّات شتى، تسحّبنا نحو الكابينة الزجاجية حيث يجلس موظفهم الأمني، عهود تتقدّمني، مدّتْ جواز سفرها عبر كوّة الكابينة، تسلّمه رجلهم، ختمه، دفعه لها. أهلا وسهلا. تجاوزتْ عهود العارضة المعدنية، وقفتْ تنتظرعبوري، أنا وكوّة الكابينة، دفعتُ جواز سفري، تسلمه رجلهم، فتحه، تطلّع للصورة، انتقل لوجهي، نظرته تحمل امتعاضاً طارئاً، زم شفتيه، كمن يمنع نفسه عن قول ما، عاد ينظر في صفحة جواز السفر، قرأ إسمي بنبرة صوت تراوح بين التساؤل والتشكك، اعترفتُ له. أنا. رفع عينيه لوجهي ثانية، عندما يتفحّصكَ أحدهم بصفتكَ ماذا يعتريكَ شعور يفيدكَ إنّ الآخر يعرّيك، ثوان معدودة تساءلتُ خلالها، لو قال لي.عُد من حيث جئت. تطلعتُ لعهود، لو هرعتْ تدخلتْ، انهاها رجلهم تناول ختمهم دمغ جواز السفر بقوة خلتها حاقدة، مال جانباً، فتح درجاً عنده، رمى جواز سفري هناك، أقفُ مشدوهاً أو مأخوذاً لا استوعب الحدث، سمعته. ماذا تنتظر. يدهُ تشير للعارض المعدني سمعته ينهرني. إمشِ. أمشي مقترباً من عهود، أراها تعقد حاجبيها قلقة. ما بكَ. أمر عابر. لكن وجهكَ ممتقع. وجهي يتسلّك على هواه. تبدو مغموماً. لا تكاشفها، حين يهينكَ مسؤول لا يعرفكَ يبتذل فيكَ انسانيتكَ لسبب تجهله ولا تملكُ من جانبكَ سوى عجزك عن الرد تنتابكَ سكين مسننة الحواف عند الخاصرة، لم يخطر ببالكَ تفصح. وطني الكويت سلمت للمجد. الأمر وما فيه. قلتها فارغة أضفت. بدون رغم أنف أحدهم. لم أفهم. أنا أيضاً لم. أنتَ غير طبيعي. غادرنا مبنى المطار، للمرأة قدرتها على إعادة الرجل لطبيعته بسرعة الحب. لا أظنكَ تركت سيارتكَ هنا.

اندهشتُ. لماذا اتركها هنا. تجاوزتْ تساؤلي. تركب معي سيارتي. شدهني عرضها. حال الكويت غير حال دمشق، خشيتي من أنْ يرانا أحد معارفها. سيارات الأجرة متوفرة. سمعتها. كان في بالي أرى خالتي. حاصرني جهلي، ما شأن رؤيتها لخالتها بركوبي معها سيارتها ريثما وضّحتْ قصدها. خالتها المعنية هي أمّي. إحتبس لساني، السماع بمثابة فعل محسوس، كما لو إنّها أخذتني بغتة لحضنها، إعلان رغبة الرؤية بالانتماء المضمّن، تماهاني سحر اللحظة، تبددتْ من داخلي سحابة غمّ إهانة كابينة الجوازات، الكويت ليست حكراً لأيّ. في الوقت ذاته شاغلني وجه أمّي، ما الذي سيكون عليه ردّ فعلها عندما أصل الملحق مصطحباً إمرأة فاتنة. من أين لك، كيف، متى ومن هي. خلال راهنيتي إيّاها راودتني خيالاتي، بادرة عهود بالصيغة التي وردت بها ليست سوى نزوة يمكن احالتها إلى ما يطلق عليه فوضى خلاّقة جديرة بالاحتفاء، لكنها من جانب ثان غزوة مفاجئة تستهدفني في عقر ملحقي دون سابق استعداد. يا زينب، لن أقول لكِ هذه أمّكِ، أقول هذا ملمح عابر من شخصيتها، الملمح الأهم إرادة آنيّة مقرونة بالظرف الصدفة أو الموقف المستجد، مواجهتها لما يعترضها، لا تتجاوز تبنّيها أول فكرة طرأت لها سيارتها الرياضية الحمراء، جلوسي بجانبها، الطريق المؤدي لمنطقة النقرة يؤدي لاحتدامي من داخلي بتوتر أكبر، كنتُ متشظياً أكثر، سيارتها تختزل المسافات، دخولنا شارع موسى بن نصير. وصلنا. ذلك هو المبنى والملحق السكن، رغم تشتتي خطفتُ نظرة لشرفة شقة طابق أوّل مبنى. اعتاد ناجي العلي طوال سنوات اقامته هناك على رعاية بضع نبتات زرعها في أصص فخارية، اعتادتْ تلك النبتات على تدلية غصونها الخضراء فوق افريز الشرفة، نظرتي إرتدّت إلي، لا وجود لنبتات ناجي العلي. تضع في ذهنكَ سيناريوهات متعددة لحدث ما قادم، يجيء الحدث مخالفاً توقعاتكَ كلها، امتثلتْ عهود، توقفتْ بسيارتها في فسحة

الأرض الفضاء أمام المبنى، تطلعتُ صوب باب الملحق، هو مغلق. أجزم بأنّ أمّي تنتظر داخله، بادرت عهود ترجّلتْ، فتحتْ صندوق سيارتها، أفسحتْ لي مجال حمل حقيبتي لتنبهني متلفّظة إسمي بصوت هامس. منسي. الحقيبة على الأرض وعهود تومئ نحو باب الملحق، وجهتُ بصري، الباب نصف مفتوح، أمي تقف وسط فرجته تتطلع، الوقت منتصف نهار، المسافة التي تفصلني عن أمّي بضعة أمتار، كوني أقف في الشمس بانارتها الحادّة وهي تقف مغمورة بالظل لم أتبين طبيعة ما تصرّح به نظرتها. هل هو استغراب من مرافقة إمرأة غريبة، استنكار، استهجان، رفض، لا أعرف ولا خيار عندي سوى حملي حقيبتي بغية عبور المسافة الفاصلة موطداً عزمي، أوضح لها عساها تتفهّم، غفلتُ وجود عهود أو تغافلته، تقدّمتُ صوب أمّي، رأيتها تغادر فرجة الباب، تتقدّم. الحمد لله على السلامة. صوتها الذي شاءتْ له أنْ يكون حيادياً نسبياً ينزعُ للإيحاء بفرحها، عيناها انتقلتا لما وراء كتفي، إلتفتُ، عهود تمشي باثري، لا مفرّ من قولي. هذه عهود يا أمّي. أذهلني إنّ أمّي لم تفاجأ، انتظرتْ ريثما لثمتُ جبينها فاجأتني فتحتْ ذراعيها. حيا الله بنتي عهود. هرعتْ الأخرى للذراعين المشرعتين، أراهما تتعانقان، كيف، قالت أمي وهي تسبقني داخلة آخذة بيد عهود. جاءني صاحبكَ سليمان الياسين أمس الاوّل خبّرني عن بقائكَ في سوريا يومين إضافيين وإنّك ستعود بصحبة. لم أسمع بقية كلام أمّي راح ذهني سريعاً لسليمان الياسين لا يقلّ جنوناً عن عهود وإلاّ ما كان استبق حدثاً لم يدر بخلدي، عزائي إنّه كفاني إحراجاً أكيداً، عزائي الأهم تمثل بالاحتفاء الذي أولته أمّي للقادمة. داخل الغرفة، كعادتها أمّي أصرّت. نشرب الشاي. همّت عهود تنهض. أنا أعدّه خالتي. الزمتها إشارة من يد أمّي بالبقاء جالسة، هل جنح خيال سليمان أوحى لها بفكرته، فرصة عمر. أم إنّه اجتهادها يجاري طموحها المؤجّل، متى تتزوج وأرى عيالكَ. لدى انصراف أمي

للمطبخ علقتْ عينا عهود بدولابي. لعلكَ تسمح لي أتصفح ملفاتكَ. أزمعتُ أجيبها لولا استدراكها. ليس الآن. احسستني أمام قرار مُبيّت بزيارة أو زيارات لاحقة، أدرينا نتحرّك داخل دائرة صداقة، يبقى كيفية فهمها لها. جلستنا الثلاثية دامت ساعة، استغلتها أمّي وجّهتْ لعهود أسئلة ذات طابع عام، أهلها، مكان سكنها، وظيفتها، عند مغادرتها إرتأتْ عليها أمّي. زورينا دائماً يا بنتي. اطلقتْ عهود ضحكة قصيرة رائقة. حاضر خالتي. صدقتْ حدوسي، ها هما المرأتان تبرمان اتفاقهما خارج إرادتي. لدى مرافقتي لها حتى سيّارتها راحتْ عيناي عفوياً إلى شرفة شقة الطابق الأوّل، سمعتها تتساءل. مرة ثانية. صوتها يداري عتبها، تملكتني دهشتي. ماذا. لحظة وصولنا تطلعتَ لتلكَ الشرفة والآن أيضاً. يا لدقة ملاحظتها. عادت تساءلت بمعنى ملتبس. من هي الجارة المحظوظة التي تترقب رؤيتها. حضرني وجه ناجي العلي. شقة خالية. أخالها حدست حزني من نبرة صوتي. متى أخلتْ. شدهني فضولها. من هي. جارتكَ الحسناء. لمّا يضحك الواحد عنوة. هو صديق فلسطيني فنان كبير يدعى ناجي العلي سفروه خلال أيام وجودي في دمشق. آل فضول عهود مشاركة. لماذا سفروه. أهل بلدكِ ضاقوا به. إستغربتني. لماذا بلدي. لأنكِ كويتية. فور عودتي للملحق طاردتني سؤالات أمّي. منذ متى تعرفها. بضعة أيام. أنتَ تكذب. على هواكِ. كم عمرها. ثلاثينية. تبدو صغيرة. مطلّقة. لا حول ولا قوة الاّ بالله. منذ خمس سنوات. هل لديها عيال. لا. أحسن. يا أمّي. البنت تحبك. يا أمي. زواجك من كويتية يعزز طلبكَ للجنسية. أو العكس. منسي.

الشطرنج الذي اشترته عهود من حميدية دمشق وَجَدَ له مكاناً داخل دولاب ملفاتي، بقي هناك، لم يخطر ببال أيّ منا عهود أو أنا نخصص وقتاً نمارس لعباً محدداً رغم كوننا صرنا نلتقي يومياً لساعات أحياناً، لقاءاتنا تلك لم تترتّبْ عن مبادرة من طرفي، الرجل خوّاف

بطبيعته، بعد أسبوعين شاهدتُ حارس البناية عم عبدو يعمل على غسل أرضية شرفة طابق أوّل إيّاها مستعيناً بخرطوم مياه، رفعت صوتي صوبه. مَنْ يكون جارنا الجديد. إنفرج فمه بابتسامة عريضة. السيدة عهود هي التي استأجرت الشقة. دهشتي من احتفائي، ما الذي يدور في رأسها، لماذا كتمانها الخبر، لدى رؤيتي لها استوضحتها. غاب عن بالي. ما هو الغائب عن بالكِ. أوصي العم عبدو يكتم السر. دهشتي ألجمت لساني. أردتها مفاجأة. غلبني استغرابي، مفاجأة بحجم شقّة. وهي تسوق مسوغاتها قالت. الشقّة المعنية كانت مشغولة من صديق لي يعزّ علي، عزّ على عهود أنْ يستأجرها نفر مجهول لا يليق بها، المسوغة الثانية، عمر عهود الحقيقي المتبقّي كما تراه هي لا يزيد عن أربع سنوات، أخوها سعود مؤهّل لانجاز رسالة الدكتوراه بعد هذه الأربع، لدى عودته هنا لن يتردد عن، فرض وصايتهُ الصارمة على حريم البيت، أم عهود بغياب إبنها سعود لا تدقق، هناك ثقة متبادلة بين الإثنتين، عدا هذا كلّه عهود تحلم تكون لها مملكة صغيرة تُمارس فيها نفسها كما تشاء بضع ساعات من اليوم. وجودي في الجوار منكم أنتَ وخالتي يحقق لي شعوراً بالأمان. هل تعلم أمكِ باستئجاركِ الشقة. لا. سكتتْ ثانيتين. لا داعي لأن أشغل بالها بأمر لا يخصّها. سكتتْ ثانيتين، تطلعتْ إليّ في عيني كمن يريد معرفة ما يفكر به الآخر. إطمئن لستُ من صنف البنات المستهترات. لمّا ناجي العلي هنا كانت شرفة الشقة مزحومة نبتات خضراء متدلية الأذرع. شاءتْ عهود للشقة، رغم محدودية المساحة، أنْ تكون أشبه بجنّة أرضية صغيرة خاصة بها، أوكلتْ للعم عبدو مهام الاستعانة بعمال فنيين والاشراف عليهم، شهران من العمل الدؤوب، إزالة وتجديد، إعادة طلاء الجدران كافة باللون الابيض المطفي، اللون إيّاه لأطقم دورة المياه والمطبخ، الأبواب بيضاء أيضاً، الأرضيات خشب باركيه بُني فاتح، أثاث بسيط ينتمي لتدرجات اللون

ذاته، أولتْ عناية للزرعات الداخلية اختارتها بعناية بثتها في أنحاء الشقة بما يوحي لمن يراها بأنه ازاء حرش استوائي، حوض أسماك ملوّنة في ركن غرفة المعيشة، عُلّقتْ على الجدار فوقه لوحة تشكيلية شعبية من أعمال الفنان أيوب حسين بالحجم المعروف، دفعني فضولي أسأل عن كلفتها، ضحكتْ. لن تعرف. تحوّل فضولي لاتجاه آخر. هل لديكِ مقتنيات تشكيلية في بيتكِ. سؤالي على ما يبدو لا أوان له، طوّفتْ وجهها سحابة أسى. هذا بيتي. إنسحب أساها إلي، إبداء الأسف فعل غير مجدٍ، أخذتُ يدها. أغضبتكِ. نفضت رأسها. لا، أنتَ لا تغضبني. حدقتْ في عيني. لكن. بترتْ تتمة كلامها، شغلتْ نفسها بسلسلة مفاتيحها. إنسَ الموضوع. شملتني حيرتي، ليست مرّتها الأولى، وما دار في خلدها، كيف يتسنّى للآخر نسيان موضوع لم يعرفه بعد، فوجئت بها تدفع لي نسخة من مفتاح باب الشقة. تواجدي هنا سيكون لساعات قليلة من النهار. حصرتْ ذهنها برهة. إلاّ إذا. عادت بترتْ جملتها، لم استوضحها، سمعتها. لكَ أن تلجأ للشقة متى شئتَ. تريّث ذهني عند مفردة تلجأ. في حالات غيابها كلّها لم أدخل شقتها، سلّمت نسخة المفتاح لأمّي، الزرعات الإستوائية تحتاج رعاية منتظمة وكذلك حوض الأسماك. الأيام حتمية تواليها، الأسابيع، الأشهر، بصرف النظر، محيط دائرة الصداقة ميّزته إتساعه المسبوق أو غير المسبوق، بصرف النظر. أكتبُ إليكِ يا زينب، أتوقّفُ حيناً أعود لأوراق سوّدتها، أُمزقها لأسباب تتصل بالحشمة، أو لأنّها محصلة ثرثرة لا تضيف شيئاً، اقدِمُ على الكتابة ثانية، أتوقّف، أحسّني بلغتُ منطقة رمال متحركة لها كمائن خاصة بها، أسائلني إنْ كان بإمكاني إغفالها كأنْ أدور حولها أتجاوزها بلوغاً للقصد، لكلّ علاقة حبّ، أتناسى كلمة صداقة هنا، فترة ذهبية تطول أو تقصر بناء على قدرة مقاومة طرفيها، في علاقتنا، أمّكِ وأنا غاب مثل هذا الترف الرومانسي، توارى جرّاء حالة معاناة أو لهاث بمواجهة

مـاذا. السـؤال المـلازم لي، ماجـدوى ارتباط زوجي يعقبـه انجاب قبل تأمين المصير. يا منسـي. أمّي لاتني تناشـدني. زواجكَ من كويتية. فإن كابرتها. في حينه. ذكّرتني. عهود تحبّكَ. لم أحاجج أمّي. الحبّ حالة تماهـي الأنـا عبـر الآخر، الحـب أنْ يصير الواحد كيانـاً منقوصاً مضيّعاً عندمـا يعانـي بعـاد الحبيب، ترددت ان أصارحها، عهود لم تتخلّص من ماضيها، أخلو بها فيحضرها اغتصاب عبد السلام لها. مرور سنة وبضعة أشـهر منذ الشـقة، مع بداية ربيع عام 1987 حيث ينشـط طوز الكويت بـدأت تتدهـور صحّـة أمّي، صرنا ملزمين نراجع مستشـفى الصدري كلّ عشـرة أيـام علـى الأقل، ترقد فـي إحدى غرف مستشـفاهم لِما يتجاوز خمس سـاعات، يزودونها بالأوكسـجين من خلال كمام للأنف، إضافة لسـائل مغذ، تسـتعيد بعض نشـاطها شـرط مداومتها على تناول الدواء بانتظـام، أنّبهـا الطبيـب مـرّة. أنتِ برئة واحدة نصف صالحة، سـتموتين خلال سـنة إنْ لم تقلعي عن التدخين. أقلعتْ، ظلّتْ صحتها هي هي، خلوت بالطبيب ذات ضحى. تركتْ أمي التدخين ولم تتحسن. الترك لا يعنـي ترميـم مـا تهدّم لكنّه تلاف لهدم جديد.الحل. تصفح أوراق ملفها الطبـي. أمّـكَ فـي الرابعة والخمسـين بإمكانها العيش حتّى السـتين وقد تصل للسبعين اذا أوليتها الرعاية اللازمة، غذاء جيّد، راحة، مواظبة على الدواء، احضارها لهنا بانتظام قصد تعويضها بالاوكسجين. أطبق ملّفها، ختم. إذا وفّرتَ لها ذلك واصلتْ حياتها بشكل طبيعي. للأمانة زينب، أمّـكِ فُجعـتْ بتـردّي الحالة الصحيّة لأمّي، أولتها رعايتها، أصرّتْ على مرافقتنا للمستشـفى في كل دورة علاجية، دأبتْ تلازم سـرير أمّي هناك طـوال سـاعات، الحال باسـتمرارها الأقرب للروتينـي، صرنا عهود وأنا بمثابة زوجين أمام حارس البناية العم عبدو وجيران السكن.

خلال زمننا ذاك نقلتْ لي عهود مرّات عدّة نتف أخبار بخصوص رجـال تقدّمـوا لخطبتهـا، ناظر مدرسـة ابتدائية تجاوز الخمسـين، أصغر

أبنائه طالب ثانوية، يصلح يكون أباً. وقت لاحق تقدّم تاجر أقمشة أربعيني تَطلّقَ حديثاً، ثلاثة أولاد، أكبرهم بلغ العاشرة، جاء بتزكية من عمّها. لم اسمع عن وجود عمّ. هو الشقيق الوحيد للمرحوم أبي، لو تعرّفتَ عليه أعجبكَ، يشبه أبي شكلا وموضوعاً، ليبرالي التفكير منفتح، اختلى عمّي بي امتدح الرجل قال طيّب إبن حلال، ناقشته حول مسألة كون الرجل مطلقاً وأني سأكون مسؤولة عن رعاية أبنائه قال ضاحكاً المطلقون للمطلقات، شكرت عمّي على جهده، قلت له أظنني وجدتُ الإنسان الذي أحلم بالزواج منه، سألني متى يتقدّم رجلكِ الحلم لطلب يدكِ قلت له عندما يحين الوقت. أخبارها تتوالى بين وقت وآخر، في إحدى مناسباتنا ساررتني إنّ عمّها سألها عن إسم الرجل الذي رصدتْ حياتها لأجله. لاذتْ بصمتها، تآكلني قلقي. هل افصحتِ لعمّك عن اسم الرجل. تطلعتْ إليّ، حبستُ أنفاسي. لا لم أخبره بالإسم لكنّي حددتُ له صفاته. مثل ماذا. واحد متردد لا يعرف ما يريد ولا يكلف نفسه معرفة ما يريد. ظهر يوم من أواخر شهر آغسطس 1988، عهود تتولّى قيادة سيارتها أجلسُ إلى جانبها، أمّي تحتلّ المقعد الخلفي وقد استعادت بعض حيويتها اثر استنشاقها كمية كافية من الأوكسجين، سخونة صيف الكويت بالرطوبة المصاحبة ما زالتْ تُثقل الأنفاس، تردد صوت أمّي مضمّناً تخوّفاً. ليتني أتيقن. أبقتْ جملتها منقوصة المعنى موجّهة إلى لا أحد، التفتُّ إليها. ماذا يا أمّي. ليتكما تقولان الحقيقة. نبرة صوتها ما بين العتب والتأنيب، استفهمتها. ما الذي يدور في بالكِ. أنتما متزوجان. لحظتها تبادلنا عهود وأنا نظراتنا، ضحكنا معاً. يا أمّي. لم تعرني سمعها، واصلتْ موجهة خطابها لنا معاً. لأمر يخصّكما تخفيان أمر زواجكما. قناعتها تترسّخ صوتها، أضافت متسائلة بعتب مر. لماذا. يا أمّي. طفقتُ أوضّح، أنفي وأؤكّد النفي، إنبرت عهود من جانبها تؤيّد كلامي، لاذتْ أمّي في ركن مقعدها الخلفي قانطة، منكمشة على

جسـدها الهزيـل، رصـدتُ عينيها، نظراتها نمّتْ عـن حزن ثقيل يخالطه إحبـاط، ترانـي امتلـكُ إمكانية التخفيف، لمّا تكـون مُطالباً من الغير بما لا طاقة لكَ به، وصولنا سـاحة المبنى، سـارعتُ بالترجّل، فتحت لأمّي الباب، مددتُ يدي أهدفُ لأنْ اسـندها، دفعتْ يدي، تبادلنا عهود وأنا نظـرات صامتـة مفادهـا، ما العمل. انتـاب علاقتي بأمّي خلل خفي إمتدّ ليشـمل علاقتهـا بعهـود، سـمعتها تغمغـمَ بصوت خفيض أكثـر من مرّة كلمات تتصل بارتكاب الإثم وإنّ الله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل، صارت تتحاشـى التطلّع إلي في عيني. معاناتي أيامي تلك باتت دخيلة شاذة لا قِبل لي باحتمالها. عندما تحوّط واحدنا حيرته من جوانبه كافّة، عجزه ينازعه احباطه يتخللهما يأسه، ليس لي سوى أمّي وهاهي تنبذني تكابـد وجـودي صاغـرة مع مكابدتها مرضها الذي لا شـفاء منه، صرتُ أُصـارع أفـكاري بعدمـا تبلـورتْ باتجاه أكرهه وأتوقه في الوقت نفسـه. زمن أمّي لن يدوم طويلا. أصبرُ ريثما تموت اسـتعين باصدقاء لغرض الحصـول علـى وثيقة سـفر ذهاب من دون عـودة، نحو بلد يقبل لجوءاً إنسـانياً مـا دمـتُ فـرداً واحداً منقطع الجذور لن أخلّـف ورائي ما يثقل علي أو يقيّدني لهنا، أُصارع أفكاري، ما زلتُ خيّراً أُمّي باقية حيّة ترزق مؤهلـة مـع الرعايـة اللازمة لأنْ تبلغ السـبعين عدا هـذا أين عهود منّي. باقتراب عام 1988 من نهايته خلتني وكأنّي اشيخ فجأة، هناك نوع متفرّد لشـيخوخة تصيـب البـدون دون غيرهـم تتسـرّب اليهم علـى حين غفلة تتشـرّب دواخلهـم قبـل أنْ تؤكـد حضورها ممثلة بخطوط حول الفم أو علـى الجبهـة. أنـتَ مريـض. سـألتني عهـود بحاجبيـن معقوديـن وهي تتفحّـص وجهـي مليّـاً. لا. عـادتْ تسـاءلتْ مسـتنتجة. معنى هـذا إنّكَ مُرهق. ربّما. قلتها مفرغة، شرد ذهنها لثوان، قالت مهوّنة. لا تقلق الدنيا بخير. لم أشـأ تكديرها، في الوقت ذاته تملكني حدس يرقى لمسـتوى اليقيـن، عهـود تخفـي أمراً لا تزمع الافصاح عنه، الوقت ظهر، كنّا نقف

وسط صالة شقتها كنتُ أُجاريها في تحقيق إحدى نزواتها، تزيين شجرة ميلاد صناعية جاءت بها، تحميلها كرات ملونة وتطويقها باشرطة أضوية صغيرة. الآن نوصل الكهرباء. تراقصتْ الأضواء خضراء حمراء صفراء على الجدران البيضاء للصالة، تواترت حركة الأسماك داخل حوضها، في حين بدتْ لوحة أيوب حسين نشازاً لدى انعكاس الأضواء المختلطة عليها. لأن هذه الليلة كريسماس. صوتها يُضمر طعمَ استثارة، سمعتها. لـن أعـدم حجّـة أحتـال بها على أمّي. سـكتتْ برهة. لولا وصول اختي جود قادمة من دمشـق أمس. جَهَدَ ذهني يطارد المعاني الضائعة وسـط جُملهـا المبتـورة، أفصحـتْ قسـمات وجههـا عـن انطباع بالحيـرة، قبل ابدائهـا إصرارهـا. لا بُـدّ لـي مـن حجّـة غيـاب عـن البيـت. احتفظـتُ باحتجاجي نهب إلتباس المعاني، دبّتْ حيويتها في صوتها. نقضي ليلتنا هنا وحدنا. فاتتني فرصة الرد، واتاني تساؤلها سريعاً. عندك مانع. عهود لم تَعُد لشـقتها ليلا من أجل احتفال ثنائي بالكريسـماس، وعلى المعني أنْ يعاني قلقاً لا إسم له، تمنّيتُ ان يكون سبب غيابها قاهراً لكي أجده مبـرراً، جـاءت عصـر اليوم التالـي. اختي جود أصـرّتْ على اصطحابي لبيت عمّي. عمّها اسـتبقاهما عنده حتى السـاعة الحادية عشـرة، صرفتْ ذهنهـا عـن فكـرة المجـيء، يجـدر بي مـن جانبي أصـرف قلقي صوب نفسي، خُيّل لي حينها إنّ المعنيّة بدأت مراحل أولى لفكّ العلاقة، وعليّ أنْ أتحلّى بالتفهّم ولا أُصدم لدرجة تفوق الاحباط، لستُ مستعداً أكنّ كراهيـة تجـاه إنسـان مـا ما دام هـذا الما تحوّل بفعل الحلول إلى نَسَـغ تشرّبته الذات غفلة أو سهواً، عهود وقد اكتفت بتبرير سبب نكث وعدها تحمّستْ لعرض ثان. ما رأيك بليلة رأس السنة، باق خمسة أيام. لزمتُ الصمت، يثير اسـتغرابي إنّها غير معنيّة بفهم الديانة المسيحية، ولا أنا ممن ينتظرون مناسـبات محددة، أمر آخر مثير للريبة، مُنذ شـقتها وحتّى حينه تَعاقبَ أكثر من كريسماس ومثله ليالي رأس سنة، عهود كما عرفتها

لا تأبه، ماذا يدور في رأسها هذا الوقت تحديداً لكي تُبدي اهتماماً احتفالياً، هل تهدفُ تترك انطباعاً طيّباً قبل إقدامها على بتر منجز لعلاقتها بي. ما رأيكَ لو عوّضتكَ عن ليلة الكريسماس بليلة رأس السنة. أسألني إنْ كان فعل التعويض يشمل مشاعر مُهدرة، الحبُّ طرفان، كلاهما أوّل، والحبُّ حالة عطاء تُضمرالأخذ، ولا عزاء لطرف قيد التعويض، ولا مناص من استجابة معلّقة. في حينه. انخطف لون وجهها. أنتَ زعلان. تداعتْ مقاومتي وسط مكابرتي، هززتُ رأسي نافياً، ألحّتْ تعرف سبب مراوحتي بين الموافقة وعدمها، أسعفتني ذاكرتي. رأس السنة يصادف يوم سبت أخشى أنْ يتأخر نومي ولا أصحو مبكراً، لأن موعد مراجعة أمّي للمستشفى الصدري الساعة الثامنة صباح يوم الأحد. لن يتأخر نومكَ. عززتْ قرارها واثقة. سأكون معكَ. الذي حدث ليلة الكريسماس عاد حدث ليلة رأس السنة، لا أثر لعهود، تناهبتني هواجسي، لم أنم ليلتي تلك، ماذا استنتج من تصرّفها غير المسؤول، ليتها تُبقي على القليل من احترامي لها، بمقدورها اختصار مشروع الفكّ بكلمة واحدة، آسفة. قبل سنوات، لما كنّا في دمشق تحدّثتْ عن المحيط المترامي لدائرة الصداقة، أينها من إحاطتها لذاتها، لو إنّها توازنت تجاه نفسها، واجهتني. يصعُب علينا استمرارعلاقتنا. كفتني مشقة إهدار كرامتي، عهود نهجتْ سلوكاً لامبالياً عن قصد مؤلم، كانت الساعة تشارف السابعة صباحاً، أنا وأمّي الناقمة عليّ بصمتها الموصول بصدد المغادرة إلى المستشفى عندما تردد صدى طرقات على خشب باب الملحق، أمثالنا لا يتوقعون أي ضيف، عساه كيف، فتحت الباب، كانت عهود. صباح الخير. قبل أنْ أردّ لها تحيّتها. أنا أُرافق خالتي للمستشفى. هاهي تغفل حصيلة ليلة البارحة وكأنّ الأمر لم يكن، لا اعتذار ولا كلمة أسف، تجيء، تفصح، تقرر. أنتَ تبقى هنا. تُراني أين، تجاوزتني داخلة. هيا يا خالتي أدركنا الوقت. أنشدهُ مُصاباً خرساً، أمّي بلامبالاتها بنا كلينا

لـم تفـه، إنصاعـتْ دون اعتـراض، إنفلتـتْ خارجـة، تحركـت السـيارة بالمرأتيـن، بقيـتُ واقفـاً فـي فرجـة البـاب أرثي حالـي أم اطلقُ ضحكة سـاخرة بقـدر مـا هي مريرة، تذكّرتُ ناجـي العلي لمّا رأيته مقعياً مبعدة خطـوات يرسـم علـى قصاصـة ورق خطـوط الطابـوق الجيـري لجدار الملحـق أشـبه بالقضبـان، بابـه نصف موارب، أحدهـم يطلّ من فرجته، حنظلـة المنتهـك. بـاب الملحق مُطبق، أنا في الداخل اذرعُ أرض الممر الموصـل الغرفـة بالمطبـخ، إبريق الشـاي باق على امتلائـه، هو الصباح الباكر لليوم الأول من يناير، البرد خارج الملحق أشـدّه، الريح شـمالية نشطة، عهود كانت ترتدي ثياباً ثقيلة تبدو معها وكأنها أكبر سناً، ما الذي يجبرنـي لأن اشـغل ذهنـي بهـا وحدهـا، تصرفاتها خـلال أيامنا الأخيرة بالذات تلقيني في خضم خيالات رمادية تشلّ قدرتي أفكّر بشكل سليم، اذرع ضيـق الممـر، أعـود أقف أمام إبريق الشـاي، املأ كوباً آخذ لفمي رشـفة، شـاي أمّي طعم متميّز، تناوشـني هواجسـي، قبل انغمار أمّي في حالة قنوطها جرّاء يقينها إنّي أعيش علاقة محرّمة شرعاً واصلتْ توقها ترانا عهود وأنا زوجين توسّلا بذريعتها، زواجك من كويتية يعزز طلبكَ لحـق المواطنيـة، تسـوقُ ذريعـة أخرى.عهـود تحبّـكَ. أوافقهـا ذريعتها الأخـرى ولا أملـكُ جـرأة الـرد، حُبّـي لعهود لا يقلّ، لـولا كونها إمرأة جامحة، وزواجي منها يحيلني ملحقاً بها، أُعارض أمي ذريعتها الأولى. الـزواج مـن إمـرأة كويتيـة لا يقـدّم ولايعزز إنْ لم يضـف لحياة الواحد المرتبكـة إربـاكاً نوعيـاً، حيث يجد حاله في قادم أيامه بعد تكاثره عيالا منبوذاً داخل بيته رغم أنفه. أذرع الأرض هنا والريح الشمالية في الخارج شمالية أكثر، استعيدني أنا المولع أكثر فأكثر بالبحث والتقصّي، أجريتُ قبل عامين من تاريخه، اسـتجابة لواعز ذاتي، ما يشـبه الاحصاء لبدون عامليـن فـي الوسـط الصحفي متزوجين نسـوة كويتيات، معايشـتي لهم ساعدتني على انجاز عملي دون علمهم، اخترتُ عشرة، خمسة تزوجوا

قبل عشرين سنة، والنتيجة المتحصلة أربعة منهم انتهى زواجهم بالطلاق، تحريّتُ السبب الأساس، حتّى لا يحرم العيال فرصة اكتساب مواطنية كويتية. الزيجة الخامسة واصلت صمودها. لا عيال. ثلاثة تزوجوا قبل عشر سنوات يعيشون منفصلين يكابرون باخفاء طلاقهم ولا يصرّحون به إلاّ لخاصّتهم. للعيال حقهم أنْ يعيشوا حياة كريمة. أذكرني أضفتُ قصاصة ورق تحوي خلاصة البحث لملف مستحدث يحمل عنوان قانون الجنسية. أكفّ عن مواصلة الذرع، أتوجّه لدولابي، افتح بابه الزجاجي، ملفّاتي تزاحم بعضها، أمدّ يدي أستلّ الملف المعني، أتفحصه، قانون الجنسية سيادي يُفصح في إحدى فقراته ما مفاده. إذا كانت المرأة الكويتية المتزوجة من غير كويتي أرملة أو مطلّقة يحق لابنائها اكتساب الجنسية الكويتية إن لم يتجاوزوا الثامنة عشرة. افترضتنَي إبناً لأم كويتية متزوجة من، وإنّي أراوح عند مقتبل تفتّح وعي الحالة بالقانون المنظّم كأن أكون، في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، أنا كويتي نسبة لأمي لكن هذا وحده لا يكفي، أراقبُ صبية كويتيين يماثلوني سنّاً، هل يصحّ لي ضمان مستقبلي اسوة بهم، الفرصة المتاحة عدّ تنازلي، تمرّ سنة، تلحقها ثانية، الأمر أشبه باقتراب من نقطة الصفر حيث ضياع الفرصة إلى الأبد. يا أمي. ماذا يدور في رأسكَ. أبي. إلاّهذا. أبي حجرعثرة أمام حصولي على. عيب يا ولد. أعرفُ أحد أصحابي نال فرصته. لا اسمع. وجوب طلاقكِ منه. لا اسمع. إن بقيتما زوجين تسببتما. قلب الأم مع الالحاح والتوسل ينحاز لفلذة كبدها. دعنا نحاول اقناعه بطلاق صوري. اخشى أنْ لا يوافق. ماذا يدور في رأسك. قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق.

يا زينب، الصدمة ردّ فعل أوّلي يطول أو يقصر بناءً على شدّة التأثّر، يحلّ من ثمّ الاستيعاب بفهم الأسباب، تقبّلها أو رفضها، أمّكِ بصدماتها لي حينها لم تمنحني وهلة زمن كافية لكي استوعب واحدة

قبل أنْ تباغتني ثانية. وأنا أكابد يومي ذاك، ضيق مساحة الملحق لا تحاصرني، كنت مُحاصراً بغضبي، بالحيرة والعجز عن إتيان فعلٍ ذي قدرة تغييرية، حوالي الساعة الثانية ظهراً فُتح باب الملحق، ها هما المرأتان تعودان من مشوار المستشفى، أدهشتني أمّي أوّلا، تطلّعتْ إليّ بحنان إفتقدته طوال أشهر دأبتْ خلالها على تجاهل وجودي، كمن يواجه تحوّلا غير متوقّع في شخصية الآخر، تنفس داخلي بواعز ارتياح، دار في بالي إننا أمّي وأنا سنتبادل حديثاً يهدف لإزالة رواسب متراكمة عند إنفرادنا بنا، لولا مفاجأة عهود لي. تعال معي. نبرة صوتها قاطعة، عصف بي داخلي، لستُ سلعة قيد الطلب، ماذا لو حرنتُ رفضتُ الانصياع، سمعتها تستحثني. لا وقت لدينا. ليتها تسأل نفسها مَنْ منّا لا يقيم وزناً للوقت، أراها واقفة أهبة استعداد، مغادرتها مرهونة بانقيادي لها، خطفتُ نظرة لوجه أمّي استشفُ موقفها مما يدور، أومأتْ أمّي برأسها مشجّعة، تملكتني حيّرتي، هناك تواطؤ بين الإثنتين، نشط ذهني يجتهد، لا اعتراض على التواطؤ إذا كانت محصلته رضا أمّي علي، لكنّه السؤال الملحّ. أين. وجّهته لعهود مدارياً استهجاني من تعاملها معي بصفتي مُلحقاً لا رأي له، بلغني ردّها صادماً. معي. هل أحتدُّ أصرّخُ. إجابتكِ وعدمها سيان. هناك شخص ينتظرنا. مشتْ نحو الباب، لم أنصع، هاجس الواحد بالمؤامرة غيره عن شعوره بالاقبال على خوض مغامرة. منسي. عهود تردد إسمي تستعجلني، خطفتُ نظرة ثانية لوجه أمّي طلب استشارة أم محاولة كشف مستور ما، انفرج فم امّي بابتسامة حرمتني منها لأشهر. إذهبْ مع عهود يا منسي. ابتسامتها مبعث اطمئنان وقتي، خطوتُ صوب الباب، أخالها جمعتْ كفّيها، رفعت عينيها للسقف. عسى الله يوفقكَ دنيا وآخرة. كيف لشخص ما تقبّل فكرة تحوّله كياناً آلياً يستقبل ولا يرسل، شيء من تبلّد ذهني يرافقه تصحّرمشاعر، اكاد لا اعرفني واجزم إنّي لا اعرف الآخر المرافق،

المعرفة شأن مرتبط بالفهم، أنا عاجز عن فهم عهود رغم كلّ المحاولات والحب المبذول أو الممتهن لا فرق، عهود تتوّلى قيادة سيارتها، اجلسُ في المقعد المجاور لها، زجاج الأبواب مقفل يخفف من وقع الأصوات الآتية من خارج، أشعة شمس ظهيرة اليوم الاول من يناير صفراء لامعة تمنح إحساساً موهوماً بالدفء. يجب أنْ تعرف. عادتها لمّا تمهّد لحديثها، لستُ مستعداً اسمعُ تفاصيل تاريخ شخصي مغيّب، أحدق للطريق أمامي، كنُا نسلكُ شارع الاستقلال متجهين جنوباً. سمحتُ لنفسي. قالتها مبتورة، ها هي تأخذني لإحدى حلقاتها المفرغة، لو سألتها. ما الذي سمحتِ به لنفسكِ. أجابتْ. إنسَ الموضوع. آثرتُ التزام الصمت. أنتَ ساكت. ما الذي أقوله. انفرج فمها عن ابتسامة مراوغة، اومأت برأسها نحو المقعد الخلفي.هناك شيء يخصّك. تبادر لذهني ربما تكون هدّية ترضية على الطريقة الكويتية، ترددتُ قليلا ثم التفتُّ، رأيتُ مظروفاً كبيراً بدا منتفخاً، الهدّية مظهر أنيق وهذا المظروف شكل نشاز، لم استطع مداراة انزعاجي. لماذا يخصّني. لأنّه كذلك. مددتُ يدي، حملتُ المظروف، أحسسته ثقيلا كفاية، وضعته فوق ركبتي. أُنظر ما فيه. كما لو إنّه يوم تلقي الأوامر، دسستُ يدي داخل المظروف، عرفتُ بوجود ملف، سحبته خارجاً، شملني ذهولي، ملف طلب الجنسية الخاص بنا أمّي وأنا، غلبني انزعاجي. من أين. أتاني ردّها. استعرته قبل أيام. سيارتها تواصل طريقها، مستشفى هادي على يميننا، لم أقل لها مبدأ الاستعارة تمشياً مع أمانة مفترضة لا يشمل مواضيع شخصية، انصرفَ ذهني لأمر ثان، كيف غفلتُ إختفاء الملف أنا الذي إعتدتُ تفقّد دولابي يومياً، يومي هذا بالذات. خشيتُ أنْ أستأذنكَ باستعارته فتسألني لماذا. لمّا يصادفك من يستبيحك بحسن نيّة مبيّتة، تذكّرتُ التحسّن الطارئ لمعاملة أمّي لي، كيف لكَ أنْ تفصل بين المبيّت والعفوي. هل كانت أمّي تعرفُ موضوع الاستعارة. اخبرتها

به ونحن في طريق ذهابنا إلى المستشفى. اجزمُ انّها انفردتْ بأمّي أسرّتْ لها ما لا اعرفه، النساء يُجِدن فهم بعضهن. أنتَ غاضب. تسترضيني أو بالأحرى تجاريني بصفتي مغلوباً على حاله. كنتُ أحتاج الاطلاع على الملف. أتأمّل ذريعتها، الاطلاع مجرّد تصفّح يستغرق بضع ثوان. بعد اطلاعي عليه وجدته كفيلا باقناع عمّي. غمرني انشداهي كليّاً، ما شأن عمّها المجهول عندي بوثائق تخصّني، منازل منطقة بيان على يمين الطريق. نحن ذاهبان إلى منطقة مشرف. لماذا. بيوتنا هناك. جمع البيوت يعود على عهود، ملحقنا أنا وأمي غير قابل للجمع. نذهب لبيت عمّي أوّلا. ازعمُ يا زينب إنّ أمّك عهود اخفتْ عنكِ تفاصيل حياة عاشتها جرّاء كراهيتها لها في وقت لاحق، خبرتها المريرة بزواجها من عبد السلام وسمتْ سلوكها، آلت نهجاً تشرّب شخصيتها، ازعمُ أيضاً إنّ إدمانها على مشاهدة الأفلام الهنديّة مع خادمتها سيتا أيامها تلك أوحى لها بفكرة إختلاس ملفّي إيّاه عساها تحقق غايتها. نصلُ بعد دقائق. أفضتْ بجملتها الخبرية، طفقتْ إثرها تتحدّث إختزالاً. منذ عشرة أيام فوجئت هي وأمّها باتصال هاتفي من أخيها سعود في أمريكا، قال إنّه وفّق لانجاز الدكتوراه قبل موعدها المقرر، يعود للكويت يوم 5 يناير، خلال سماعي لها نشط ذهني يحسب الأيام المتبقية، أربعة لا غير، عودة سعود تعني مصادرة عهود، ليس هذا وحده. هناك موقف خالتي منّا أنا وأنتَ طوال الأشهر الماضية وقلقها من كوننا نعيش علاقة غير شرعية. كانت عهود ترصد كراهية أمّي لها من خلال تحاشيها النظر في عينيها. أمر مؤلم جدّاً، لا تريد لخالتها أنْ تظنَ بها السوء، تحالف الظروف، وصول جود قادمة من دمشق، وحدها تركن لها عهود، تأتمنها أسرارها، إنهارت عهود أمام اختها، افضت لها أسرارها ولم تستثن خبر الشقة. عودة سعود تعني ضياع كل شيء. ما الحل. تزوجي من منسي الآن، فإن عاد سعود وجد نفسه أمام وضع قائم. وضع قائم آخر تجهله جود،

لا يحقّ للمرأة أنْ تتزوج إلاّ بموافقة وحضور وليّ الأمر. لكنّك مطلّقة وسنّك جاوز الثلاثين. مطلقة أو أرملة أو بلغت الثمانين، لا بُدّ من موافقة وليّ الأمر. أبي متوف سعود ولي الأمر. لعّل عمّي فرحان بغياب سعود يصلح أنْ يكون. هل يوافق. جود تولّت ترتيب خلوتهما بعمهما فرحان. الساعة السابعة ليلة الكريسماس إيّاها. رسخ في دخيلة عهود إنّ لقاءهما ينتهي حوالي التاسعة تسرع بعده إليّ، نقضي سهرتنا معاً. الله يطوّل عمره عمّي أصرّ أنْ نتناول عشاءنا معه، طال الحديث وتشعّب، امتدّ حتّى منتصف الليل، لم يرفض عمّها فكرة زواجها منّي. قال انّه يحترم كتاباتك في جريدة السياسة، لكنّه لا يعرف عنك سوى إسمكَ الملفت إبن أبيه، البدون أمر ثانوي، كويتيات كثيرات تزوجن من بدون، تلزمه معرفة أمور أخرى تتصل بنسبكَ العائلي، ما يضمن عامل تكافؤ يبرر المصاهرة. اقتراب موعد عودة سعود وما كان أمام عهود إلا الاستعانة بالملف. لماذا الملف. لأنّه يفي بالغرض. انفعالاتي تمورُ في داخلي أنا المأخوذ غفلة، أبذلُ جهدي حتّى لا يحتدّ صوتي. لماذا لم ترجعي إليّ. أردتُ أنْ لا تعرفَ ريثما أتأكّد من موافقة عميّ. ماذا عنّي. إستغربتْ تساؤلي. ماذا عنكَ. ما ادراكِ إنّي مستعد للزواج الآن. بَهُتَ لون وجهها فجأة، كنّا بدأنا دخول منطقة مشرف عبر الطريق المتفرّعة من شارع الاستقلال، خففتْ سرعة سيّارتها. ظننتكَ تحبني. تدريني أحبكِ لكنّ العقبات التي. قاطعتني وقد استعاد وجهها دفق دمائها. الحبّ الحقيقي كفيل بتذليل كلّ العقبات.توغّلتْ بنا السيارة في منطقة مشرف، توقفتْ أمام منزلين متجاورين، أحدهما يتألف من طابقين والآخر طابق واحد، أشارتْ عهود نحو الطابقين. بيتنا، البيت الثاني لعمي. الساعة قاربتْ الثانية ظهراً، بدا الجوار مقفراً، اطفأتْ عهود محرك سيارتها، تملكني إحساس غريب، كما لو إنّي القادم من البعيد لغرض التطفّل على مَنْ، منقاداً لِمنْ، خلتها تترجّل من فورها. يجب أنْ

تعرف. لازمتها إيّاها أشبه بمطرقة توالي ضرباتها داخل رأسي. عمي أعزب تزوج في مطلع شبابه، ترمّل بعد أشهر، قرر أنْ لا يتزوج ثانية، يعيش مع خادمة فليبينية وطباخ هندي. اصغي لها متنقلاً بعيني على بابي البيتين، متوقعاً انفتاح أحدهما، سمعتها. صدّق أو لا تصدّق، عندما تصفّح عمي ملفّك قال عنك هو أصيل يشرّف أيّ عائلة يتزوج منها، قال انه يحتاج ابقاء الملف لديه ليوم أو يومين، بغية التأكد من أمر يتصل بمستقبلنا أنا وأنتَ قبل توجهه بسؤاله إن كانت أمّي تعرف، أجبته لا أحد سواكما أنتَ وأختي جود قال لي لا تقلقي أنا أتولّى مسألة إقناع أمّكِ. مساء أمس، بينما كانت عهود تتأهّب للمجيء إلى النقرة تنفيذاً لاتفاق رأس السنة فاجأها عمّها دعا نفسه للعشاء عندهم، لديه ما يودّ قوله بحضور النسوة الثلاث. احتفاء أمّها بطلب عمّها، إعداد أصناف طعام يحبّها، تواجدها مع اختها في المطبخ حتى الساعة العاشرة ليلا، خلال جلوسهم حول مائدة طعامهم بدأ عمّها حديثه. رجل معروف من عائلة كريمة تقدّم لطلب يد عهود يماثلها سناً جامعي لم يسبق له الزواج، هناك عقبة بسيطة الرجل بدون لكنّه من المتقدّمين للحصول على الجنسية الكويتية، حتّى أرضي ضميري أطمئن على مستقبل عهود كلّفتُ صديقاً متنفذاً في وزارة داخلية بالتحرّي عن طلب الرجل للجنسية أفادني إنّ إسمه مدرج ضمن قائمة المستحقين بما يضمن نيله حقّ المواطنيّة قريباً. شاع فرح أمّها في وجهها، العم بمثابة أب، ولا بأس من إنتظار عودة ابنها سعود بعد خمسة أيام. انبرى عمّها لأمّها. معنى هذا لا زواج. أُصيبت أمّها بالذهول. لماذا. الاّ إذا تنازلت عهود لسعود عن جزء آخر من إرثها. ما الذي يدعوها تتنازل. أنتِ لا تدرين. فغرت أمّها فمها وهي تسمع للمرة الأولى خبر تنازل عهود عن حصّتها من عمارة السالمية لسعود قبل سنوات حتى لا يعارض سفرة دمشق. غمغمت أمّها مقهورة. حسبي الله ونعم الوكيل. قبل انصرافه قال عمّها.

أعـددتُ كلّ شـيء يتـمّ عقـد القرآن على بركـة الله في بيتي غداً عصراً. الغـد العصـر صـار الآن، ربّما بعد سـاعة، أكثر أو أقل، أحسّـني أُخذتُ على حين غرّة كما لو إنّي في الهامش من الحدث عند ضفة زمن مغفل، عالجـتْ عهـود أكـرة بـاب سـيارتها، فتحته قليلا. هل أنت مسـتعد لأنْ تتزوجني. تجاوزنا بوابة سور منزل العمّ فرحان، ممر مرصوف بالحجر تنتصب على جانبيه سـت نخلات وارفات السـعف، مبعدة أمتار سـلّم رخامـي مـن سـت درجات يفضي لسـطيحة تتصدر مدخـل البيت، لدى ارتقائنا السلم فُتح الباب، همست عهود. هذا عمّي. رغم تجاوزه الستين الاّ إنّه بقامة أقرب لأن تكون رياضية، متوسـط الطول، حاسـر الرأس، شـعره الأبيـض ببشـرته القمحيـة وعينيـه الحادتين تذكّر مـن يراه بممثل أفلام الأكشـن شـون كونري في سـنواته الأخيرة. حيّا الله كاتبنا منسـي. كفّه وهو يشـد على يديّ قويّة، إلتفتَ لإبنة أخيه. منسـي بين أيدٍ أمينة. أضاف. يلزمكِ الاستعداد، المأذون والشهود يصلون بعد ساعة. صوت عهود يتلون بفرحها. أمركَ عمي. غادرتْ مسـرعة، سـبقني العم فرحان داخلا، وجدتني وسط صالة مترامية المساحة عالية السقف، خيّل لي إنّ المنـزل مجـرّد صالـة، رأيتُ نوافذ طولية على الجانبين الأيمن والأيسـر تمتـد مـن الأرض حتـى السـقف بما يوفر إضاءة نهارية غامرة، شـدهني منظر مكتبة مزحومة بالكتب تحتل جداراً خالياً من النوافذ، عساها تكون للقـراءة فعـلاً لا مظهر ديكور شـأن بيوت بعـض المرفهين، نبتات بامبو عملاقـة فـي الاركان، طاولـة طعام بسـتة مقاعد، ممر بعرض ثلاثة امتار يفضي لغرف النوم. شـدهني سـؤالي أين مكان الجلوس. تقدّمني العم فرحان نحو عمق الصالة، تبدّتْ لعيني جلسة صوفا مستديرة ذات مقاعد وثيرة صفت داخل مستوى منخفض من أرض المكان، بما يخفيها عن العيـون للوهلـة الأولى، تتصل بسـلّم رخامي، افسـح لـي طريق النزول. نجلسُ هنا. لاحظتُ وجود طاولة زجاجية تتوسط الجلسة، لفت انتباهي

وجود أحد أعداد جريدة السياسة فوق الطاولة، إخترتُ المقعد الأقرب للسلّم، إحتلّ مقعداً قريباً. أظنّك تستغرب وضع ركن الاستقبال، في البدء كانت حمام سباحة داخلياً، تحمستُ له على مدى سنتين، لكن تقدّم السن يزّهد الواحد بهوايات عديدة، قررتُ تحويل حمام السباحة لركن جلوس. نازعني فضولي، تشجعّتُ، أشرتُ للمكتبة. لكن هواية القراءة كما يبدو باقية. شاب صوته هامش ندم. ما عدتُ اقضي ساعات متواصلة أقرأ. لم أُعقّب. أوافقكَ الرأي أنْ لا علاقة بين التقدّم بالسن والانصراف عن القراءة. لم أُعقّب. القراءة تشحذ وعي الواحد تجعله يفهم ما يدور حوله. سكت وهلة. لعّل السرّ يكمن في إنّ الفهم مدعاة غم. نفض رأسه كمن تنبّه فجأة. دعنا نتحدث في موضوع يسرّ النفس. إبتسمتُ مشاركاً، قال مقرراً. نتحدّث عن منسي. أومأتُ موافقاً. أنتَ إنسان غيرعادي، أمران يستحقان التأمّل، الأوّل مقالتك الأسبوعية في جريدة السياسة. وجّه إصبع يده نحو عدد الجريدة فوق الطاولة. مقالتك التي نشرتها قبل اسبوع بمناسبة الذكرى العاشرة لوفاة صقر الرشود مؤثّرة، الأمر الثاني علاقتك الشخصية برسام الكاريكاتير ناجي العلي. تملكتني دهشتي. كيف عرفتَ. حنظلة الكويتي. تذكّرتُ اطلاعه على ملف طلب الجنسية. هناك معنى بليغ في تصويره لكَ بصفتكَ حنظلة، ومثله في تضمينكَ رسمته داخل ملّفكَ. نشطتْ حركة شابّة فليبينية ورجل هندي عند ركن مائدة الطعام، نشط أنفي يشم، المعدّة الخاوية تستحلب الريق، أنا منذ أمس. على مسافة خمسة بيوت من هنا. مهّدَ بها العم فرحان ونحن ننشغل نأكل. يسكن أحد تلامذة صقر الرشود. تطلّع إليّ يحدس ردّ فعلي للسماع، أفضى. الفنان مبارك سويد. حضرني وجه الاخير بابتسامته الماكرة. هو أحد اصدقائك. اكتفيتُ أومأتُ برأسي موافقاً. من أجل رفع معنوياتكَ دعوته لأن يكون شاهداً زواجك.

قلائل، يا زينب، أولئكَ الذين يستطيعون أخذ الآخر إليهم خلال

ساعة لتعارفهم بهم، العم فرحان، شقيق جدّكِ لأمكِ، أحدهم. منذ الجلسة التي كانت حمام سباحة، منذ حديثه عن صقر الرشود وناجي العلي ودعوته مبارك سويد يكون شاهد عقد زواج وفّقَ العم فرحان لأن يحتلّ موقعاً أثيراً في النفس، شيء من عفوية رجل البحر الكويتي ما قبل ظهور النفط، شيء من حنكة التاجر ودبلوماسيته الهادفة لبعث الثقة في دخيلة القادم إليه، قدر معقول من علمانية المثقف الليبرالي، فهمه لمتغيرات محيطه، إنْ كان المعني كما أفادت عهود، نسخة عن أبيها بامكاني ادراك العامل المؤثر في بُنية شخصيتها، تحررها لمّا تواتيها الفرصة، لا أدّعي فهمي أسباب ارتباكها الداخلي الموجِّه لمنحى تسلكها غير المتوقع، إلى جانب قدرتها على اختلاق نمط واقع مواز، لتبدو وسط توزّعها وكأنّها تعيش حياتين متجاورتين، إحداهما حقيقية. فيما يخصّني ادّعي إنّي احبّها لدرجة الاعتياد والاستعداد لخوض تجربة مجازفة ملازمتها، لولا خبرة معاناة القلق الذي لا يكاد يخف حتّى يعود كثيفاً أكثر مصحوباً حيرة جرّاء جهد محاولة استيعاب الآخر من خلال فهمه، العم فرحان وهو يبادلني الحديث وصفها مجنونة، توصيفه لها باتخاذ منحى المزحة لم يهدف للحط من شأنها، لكنّه ماذا. اجلسُ قبالته حول مائدته، ارقبهُ من طرف عيني، أراه يتلذذ بتذوق أصناف طعام يغلب عليها الطابع النباتي، وعي المرحلة العمرية بالحمية الغذائية، استغلُ لحظات صمتنا، استعيدُ صياغة جملته التي حوت كلمة مجنونة، أضعها في سياق شخصيته، أجدها أقرب لاعلان ضمني بابراء الذمّة، أحسسته اختصر حديثاً ثانياً مفاده، أنتَ قررتَ، اقدمتَ، تحمّل تبعات ما سيأتي. لو اغتنمتُ الفرصة سألته توضيحاً، لو أجاب، أين احتمال التراجع.

وصـول مبـارك سـويد قبـل موعده بعـث روح دفـء في جلسـتنا، أمدّني بواعز من الثقة والاطمئنان، أخذني لصدره مبدياً دهشـته. أخيراً. التفت للعم فرحان. عندما طلبت مني أكون شـاهد زواج لم اسـتوعب فكرة انّه المعني منسـي. جاراه الآخر متسـائلاً. هل هناك منسـي ثان في الكويت. وصول المأذون الشرعي مصطحباً رجلين، اتسعت بنا الجلسة التي كانت مسـبحاً، تولّى العم فرحان مهمة التعريف بي. قال المأذون مضمراً تعجّلاً. حضر العريس وولي أمر العروس أين العروس إنْ شاء اللـه. اجابـه المضيـف. سـتصل حالاً إنْ شـاء الله. نهـض متوجهّاً نحو الباب الرئيسي لحظة دخول نسوة ثلاث، عهود وجود والأم، أشار لهن العـم فرحـان باتجـاه الممـر المؤدي للغـرف الداخلية، عـاد واصطحب المأذون لهناك لغرض سماع موافقة العروس. نبدأ على بركة الله. قالها المأذون لدى عودته، أمرني بالجلوس إلى جانب العم فرحان، وأنْ أشُدّ علـى كفّـه طـوال فتـرة تلقين صيغة عقد القـران. الحدث يا زينب عصر يوم الأوّل من يناير 1989، ما قبل إحدى وعشـرين سـنة، لسـتُ واثقاً إنْ كنتُ قادراً، بعد توالٍ غير محسـوب لأحداث جسـام، على اسـتعادة مشـاعري مثلمـا كانـتْ إزاء ابـرام عقد ارتباطي بأمّـكِ، أتذكر كفّ العم فرحـان تضغـط كفّـي قويّـاً بما اضطرني لأن أُدعّـم قوة كفّي لئلا تنصهر تحت ضغطه، أتذكرني خطفتُ نظرة لوجه مبارك سويد، صادفتني عيناه، رأيتهما تشـعّان باحتفائه، هو يفرح لي، يجدر بي والحال هذه أنْ افرح لـي أيضـاً. قبـل وصول مبارك سـويد ومـن ثمّ المأذون كنـتُ أعيش ما يشـبه انعدام الوزن، وصولهما ولّد لدي يقين الأمر الواقع، هذا الزواج آخذُ سبيله يُبرم، واجهتُ بيني وبين نفسي تسليماً أواستسلاماً لمجريات

تولاّها آخرون، صرتُ شخصيتين، إحداهما حاضرة تنساق وراء توالي الحدث، والثانية محايدة تنهض بأعباء المراقبة عن كثب، مع بلوغنا مرحلة التلقين تملكني إحساسي، لست وحدي. أسمعُ تلقين المأذون للعم فرحان، اسمعُ الأخير يردد إنّ امّكِ تقبلني زوجاً لتبدأ موجات فرح لم اعهده قبلاً تتطامى في الأغوار السحيقة لداخلي، تصعد رويداً، يتفتح لها صدري، اكرهُ تسميته فرح امتلاك الواحد أنثاه الخاصه به على امتداد العمر، لكنّه في حقيقته كان كذلك، عهود لي. حبيبتي عهود صارت زوجتي بحكم الشرع والقانون وعلى الملأ. لا مكان لتذكّر سلبيات شخصية عهود، سلبياتها وليدة ظروف لا إنسانية عاشتها رغم أنفها، نحنُ الآن، هي وأنا، وجودنا معاً نشدّ أزرنا بنا، نواجه حياتنا سويّة، جهدنا المشترك كفيل باعادة صياغة سلوكها، ستستعيد توازنها النفسي، الفرحة الأكبر نصيب أمّي، ها هو طموحها يتحقق، منزل الزوجية شقّة ناجي العلي المطلّة على الملحق حيث أمّي، نشكّل ثلاثياً إنسانياً فريداً، عهود، أمّي وأنا، المواطنية الكويتية مسألة وقت كما أفادت تحريات العم فرحان، لا فرق أنْ أكون مدرجاً ضمن قوائم فئة باء أو غيرها ما دامت عهود معي، الحياة تبدأ من التو. غافلني فمي انفرج بابتسامة رضا واسعة ظلّت مطبوعة هناك. مبروكِ يا منسي. فاجأني العم فرحان بعدما افلتَ كفّي هبّ واقفاً، وقفتُ، فتح ذراعيه على سعتهما، ضمَني لصدره، مبارك سويد يقفُ عنده، أخذني إليه، ضمّني قوياً. تناهت الينا أصوات زغاريد نسائية من ناحية الغرف الداخلية، أم عهود وكذلك جود تعلنان احتفاءهما. لمّا شيّع العم فرحان ضيوفه حتّى باب المنزل، مبارك سويد من ضمنهم، صار لزاماً عليّ أنْ احذو حذوه مادمتُ المعني بمجيئهم. يا منسي. خاطبني العم فرحان بواعز المكاشفة بعدما أطبق باب منزله اثر مغادرة الآخرين، حوّط كتفي بذراعه، أخذني إلى حيث جلسته إياها. أتفهّم سبب شرود ذهنكَ. لم أقل له أخالني تخلّصتُ

مـن شـرود ذهنـي. الـزواج خبـرة محفوفـة باحتمـالات لا حصـر لهـا. شـدهتني صياغتـه لجملتـه. عـدا عن كونكَ تزوجتَ امرأة مرهقة نفسـياً جرّاء تجربة زواج سابق فاشل، أنت طوق نجاة عهود. لجمتُ دهشتي. سـيكون دورك أقرب لدور المعالج النفسـي، أنتَ قادر على ذلك. وما دار ببال العم فرحان إنّ تنكب المسؤولية يقتضي إعتداداً بالنفس. عهود تحبّكَ، أنا وجود نعتز بكَ، أم عهود سـتحبكَ بعد معرفتها لكَ. سـكتَ هنيهة، شاب صوته هامش تحذير. سيواجهك عدو واحد شرس، لعلك عرفتَ عنه من عهود، أخوها سـعود. اسـمعُ به ولا أراه. سـعود إنسـان موتور مؤهل لارتكاب حماقات غير متوقعة. مثل ماذا. كلّ ما مِنْ شأنه الإسـاءة لشـخصه. حصرَ ذهنه. يسـتطيع سـعود فرض إرادته على عهود حتّـى مـا قبـل سـاعة بصفته ولـيّ أمرها، بدءاً من تحريـر عقد زواجكما زالت سلطته، ولاية أمرها آلت إليك.

الكلمـة المفـردة أخيـراً توحي بما يعني تقـادم العهد، يومي الأوّل مـن ينايـر ذاك قُيّـض لـي أنْ اسـمعها مرتين، الأولى قالها مبارك سـويد ضمـن غرضهـا المتصـل بتأخـر زواجـي مقارنة برجال غيـري، في حين صـدرت الثانيـة عـن جود لـدى اقترابها من مكان جلوسـنا العم فرحان وأنـا، مسـبّقة لوصـول أمّهـا واختها عهـود باثرها، أنا منسـي في حضرة نسـوة ثـلاث، العـم فرحان شـاهد حدث، رغم هـذا ظل الغياب يلامس حـدود الفقـدان، الأمنيـة محكومة بظرفهـا، تداعى ذهني يتوقُ، لو كانت أمّـي معنـا. اصـرفُ توقي الطاريء، أرقبُ الملامح الطفولية لوجه جود، سـنوات وجودها في دمشـق نحتتْ جسـدها، بدتْ مكتملة الأنوثة. مُنذ أيـام الشـام. لـم تـوفِ جملتها، كلمة شـام جـاءتْ محببة على لسـانها، حضنـتْ يـدي يدهـا، التفتـتّ لعمّها. هل يمكنني تقبيـل زوج أختي. أنا أوّلاً. افلتـتْ يـدي، هرعـتْ لعمّها ضاحكة، طبعتْ قبلتها فوق خدّه قبل تحوّلها إلي، أحسستُ نداوة شفتيها على خدّي، يحقُّ للواحد الاحتفاظ

برعشة استثارة واردة، هناك مواقف تتسم بالفرادة، تحدث مرّة أولى أخيرة. حيّا الله ابني الثاني. فأجاني الترحيب الحار للأم مثلما فاجأتني ذراعاها انفتحتا لاحتضاني، تشمم أنفي رائحة دهن العود، عينا عهود ترمقان بحبّ يفيض عليّ، افلتتْ أم عهود ذراعيها، بادرتُ طبعتُ قبلة عند أعلى جبهتها. سمعتها تلهج. عسى الله يبارك فيكَ. هناك نماذج بشر نشكُ بازماعها منحها ذاتها رغم معايشتنا لها، ريثما ندرك إنّ جهد المنح موكول بانكشافنا عليها، لحظة مغادرتنا بيت العم فرحان، سيّارة عهود في الجوار، كنتُ مشغول الذهن بأمّي وكيفية تلقيها خبر زواجي، عندما دفعت لي عهود مفتاح سيارتها. أنتَ تتولّى القيادة. تراجعتُ خطوة. الاّ هذا. دارتْ إحساسها بالاحراج. لأنّكَ زوجي ستكونُ مسؤولاً عني. ليتني أكونُ مسؤولاً عن اسعادكِ. شعّت عيناها بفرحها. حبيبي. جلستْ وراء مقود سيارتها. جلستُ إلى جانبها، تنبهتُ لثالثنا، ملف طلب الجنسية، أعدته للمقعد الخلفي. إنْ لم تمانع، نقصد منطقة الشويخ قبل ذهابنا لخالتي. هفا قلبي، الخالة المعنية أمّي وبي توق للقائها في التو. نذهب للمشاتل نشتري نبتة برتقال. شدهني برتقالها. نذر جديد. حرّكت رأسها نافية. يجب أنْ تعرف. لازمتُ اصغائي. يوم عودتنا هي وأنا من دمشق قبل سنوات، زيارتها الأولى لخالتها، رأتني انشدّ بعيني لشرفة شقّة طابق أوّل، عرفتْ إنّ الشقة كانتْ عائدة لصديق فلسطيني ضاق أهل بلدها به، رحّلوه، الترحيل شأن حكومي لا علاقة لعهود به، كرّستْ اهتمامها تضع يدها على الشقّة، اسعدها وقتها اشتراطي تزويد الشرفة بنبتات متدلية الأذرع. علاقتنا سنوات اختزلتها أيامنا الأخيرة لمّا اختلستْ ملفي المعني، سلّمته لعمّها، يوم تال لحادثة الاختلاس اختلى عمَها بها، فتح الملف أمامها، رأتْ رسمة لجدار الملحق، بابه نصف مفتوح، وجه رجل يطلّ منه، قالتْ لعمها. هذا منسي يطلّ من باب بيته. أفادها عمّها. الرسمة لفنان عظيم القدر يدعى ناجي العلي كان يعمل

فـي الكويـت قبـل أنْ يُبعد عام 1985، تذكرتُ ما قلتُ لها بهذا الصدد، الأمـر الأكثـر أهمية حمـاس عمّها لفكرة زواجها مني ترتّب عن إعجابه بـي جـرّاء تكريـس ناجـي العلي إحدى رسـماته لـي، حنظلـة الكويتي، صرتُ أنا المنسـي كبيراً في نظره، موقف عمّها ادهشـها مثلما افرحها، بعث في نفسـها إعتزازاً لغائب يُدعى ناجي العلي، تمنّتْ لو تعرف عنه أكثر، عمها أفادها. ناجي العلي فلسطيني وفلسطين أرض البرتقال، تحيّة لناجي العلي نشـتري شـجرة برتقال مزروعة في أصيص كبير، نفرد لها مسـاحة من شـرفة شـقتنا. يا منسـي، أخاطبكَ بصفتكَ الحاضر غياباً أو العكس، أسـتعيدُ وإيّاكَ تحالف شـخصين خالصين نقاءً، أحدهما صقر الرشود الذي غرّبه وطنه، مات في الإمارات، وثانيهما عبدالعزيز السريع، تحالفا عليك تطوعاً بدءاً من عام 1971، غيّرا لك مجرى حياتك، صرتَ أنـتَ الآن. شـخصان آخـران خالصـان نقاءً أيضاً تحالفـا عليكَ دون أنْ يعـرف أيّ منهمـا شـريكه، أحدهمـا ناجي العلي الذي غرّبـه مَنْ، ليقتل فـي لنـدن، وثانيهما العـم فرحان، تحالفهما القدري قلب موازينكَ تجاه مـا تريـد ولا تجـزم إنّـكَ تريد، انتهى بكَ زوجـاً لعهود، هل تملك حقّ أن تفـرح حقيقـة، معنـى ثان، تراكَ قادراًعلى نسـيان واقع قائم، سـكناكَ ملحق محدود المساحة، أمّكَ رئة واحدة، إلتهاب مزمن لا شفاء منه، أم تتشبث بما قالته عهود نقلاً عن العم فرحان. منسي مدرج ضمن قوائم طلب الجنسـية فئة باء، مسـألة وقت. قلقكَ تناوشـه ظنونكَ، يناوشـهما استنتاجكَ، إذا كانت القناعة كذلك لماذا لا تحتفل بك. ياحبيبي. ردَدتها عهـود على مسـامعكَ، اسـتجاب صـدركَ تطامى انتشـاء. كنتما انجزتما نبتة البرتقال وهاهي الرائحة الفاتنة تُضمّخ الهواء داخل السـيّارة، عندما توقّفتْ السيّارة انفتح باب الملحق، أطلّت منه أمي، اظنها بقيت تترقبْ عودتنا طوال سـاعات غيابنا، أحسسـتُ وخزة شـعور بالذنب، الأخير لا يفـرّق بيـن يسـار الصـدر أو فوق الحجـاب الحاجـز، تذكّرتها خضعتّ

لجلسة أوكسجين ومغذٍ في الوريد قبل ساعات، بما يستدعي خلودها للراحة، سارعتُ ترجلتُ حثثتُ خطوي، سمعتُ وقع حذاء عهود خلفي، رأيتُ أميّ تخطو باتجاهنا، البناية مزحومة بساكنيها، يحرجني إعلان خبر زواجي على الطريقة الحريمية، هرعتُ لأمي أخذتُ بيدها. ستسمعين خبراَ مفرحاً، ارجوكِ لا تُبيبي. ضحكتْ أمّي بفرحة طفل، لم يسبق لي سمعتها تضحك هكذا، ضغطتْ على يدي. تعال. اخذتني للداخل، أخذتني لصدرها، لا وجود لرائحة دهن العود، لكنّها رائحة أمي، فكّتْ ذراعيها عني، شرعتهما لعهود، إلتفتتْ ناحيتي. يبيتُ صباحاَ. إندهاشي من سعادتي، سمعتها توضّح. داخل السيّارة لمّا كنّا في طريقنا للمستشفى عهود اخبرتني عقد قرانكما اليوم طلبتْ منّي كتمان الخبر عنك. عادتْ اطلقتْ ضحكتها الطفولية. عهود خططت لمفاجأتكَ حتّى لاتجدَ وقتاَ للاعتراض. الزواج شكل ارتباط في وضح النهار، لاحاجة لأيّ منّا عهود أو أنا أنْ يسرق وقتاً لكي يكون مع الاخر، مساء يومنا ذاك وجدتُ فرصتي أقفُ أمام مرآة الحمام ابدأ أتمّرن على تلفّظ كلمة حبيبتي دون تصنّع، ما دامتْ عهود سبقتني اعتمدتْ مفردتها الموجهة لي حبيبي عوضاً عن منسي. في سياق قراءات سابقة ورد ما معناه، الزواج الرسمي إحدى صيغ تمّلك الرجل للمرأة، تلفّتُ داخلي لم أجد صدى يخصني، وجدتني باحساس المملوك طواعية، تحاشياً لعامل تنغيص نفسي لا مبرر له، اقنعتني كنُ على سجيّتك.

للكاتب السوري محمد الماغوط اصدار يحمل عنواناً ذا دلالة حّادة، الفرحُ ليس مهنتي، ليت البعض منا يتخذونه شعار تعريف أو توصيف، مطلع زواجنا لم تدّخر عهود جهدها تعوّض عليّ مافاتني تسعدني، رغم جهودها كلهّا تابع ذهني يغافلني يشرد مني، انتبه لها تسألني. لماذا أنتَ حزين. الحزن سمة مَنْ.انفي صادقاً. لستُ حزيناً، ولا سبب يدعوني له. تعاتبني. وجهكَ متجهّم. أُجاريها ضاحكا،

تطالبني. إفْرد وجهكَ، إرخ حاجيبك، إنْ كان هناك ما يزعجك. أُقاطعها. وجودكِ عندي يسعدني. زمننا ذاك، تقدّمت عهود بطلب خط هاتفي للشقة. وجود الهاتف بمتناول يد عهود حقق لديها توازناً نسبياً، وفرّ لها إمكانية تواصلها اليومي مع أمهّا، الأم وابنتها ابرمتا اتفاقا يقضي بأنْ تتحين الأولى فرص غياب سعود عن المنزل تجري اتصالها. ساعة وصوله قادما من أمريكا عرف سعود بترك عهود للمنزل. الزواج شأن شرعي، ما الذي حدا بها تتكتم، هناك سّر ما. ألحّ على أمّه. من هو هذا الزوج. بلغ غضبه أقصاه عندما عرف إنْ المعني بدون. حرصا منها على عدم المساس بكرامة العم فرحان اغفلتْ الأم ذكر دوره بمسألة اتمام الزواج. منتصف شهر يناير إيّاه، الساعة الحادية عشرة ليلا، البرد أشدّه خارجا، كنتُ انشغلُ بتحرير عمودي الصحفي، عهود تتابع شاشة التلفزيون، رنّ جرس التلفون، نشطت عهود. هذه أمّي. خطفتْ السمّاعة. هلا يُمّه. اصغت لثوان، سمعتها تهتف متسائلة بجزع. ماذا. تطلعّتُ إليها، هالني امتقاع وجهها. خير. لم تجب تساؤلي. تابعتْ اصغاءها لحديث أمهّا برهة، غمغمتْ ممتثلة. حاضر. اقفلتْ الخط. عهود. بدا لي كأن صوتي لم يصلها، كانتْ مبعدة مترين مني، عيناها على وجهي ولا تراني، إنتابني قلق لا عهد لي به، أخالني ازاء داهم ما، شرود ذهنها وقنوطها، قرّ في دخيلتي إنّها عجزتْ عن استيعاب ماسمعته في الهاتف، هرعتُ إليها، حوّطتها بذراعي. حبيبتي. دفنتْ وجهها عند رقبتي، انتفض جسدها، انتحبتْ. ماذا حدث. لا ردّ. ما الذى قالته أمّكِ. وصلني صوتها مفجوعا. سعود عرف مكان عملكَ، قال لأمّي هو بصدد مواجهتكَ في مبنى جريده السياسة. ردّي الوحيد وقتها جاء استجابة عفوية مشوبة لا مبالاة. حيّاه الله. احتمال مجئ سعود لجريدة السياسة قاصدا مساءلتي لم يرعبني بقدر ما اقلقني، تذكرّي كلمات العم فرحان. سعود موتور مؤهل لارتكاب حماقات.

الحماقات شتىّ، صراخ، شتائم، لجوء لاستخدام اليد أو العقال، هذا كلّه لابأس به، البأس أنْ يتصادف ازدحام قاعة المحررين في مبنى جريدة السياسة بالزملاء، لتأتي حصيلة اللقاء فضيحة مُنجزة، صرتُ كلما اقتربتُ من مبنى الجريدة تلفّتُ الجوار، احاولُ المكوث داخل المكتب أقلّ وقت ممكن، اغادر المبنى متلفّتا ثانية، ما ادراني إنّ احدهم لا يترصّدني عند البوابة، اركبُ سيّارتي، أتنفس الصعداء، الزواج توق لاستقرار نفسي، الزواج معي حالة حذر تُضمر ماذا. مرّ أسبوعان ولا شئ ينبئ بالحدوث، مطلع أسبوع ثالث وصلتُ مبنى الجريدة وقت غروب الشمس، حالة سكون تخّيم على المكان، دخلتُ قاعة المحررين، رأيتها خالية إلاّ من زميل لبناني ينشغل كتابة، تنبّه لحضوري. رجلان كويتيّان سألا عنكَ قبل دقائق. ردّ فعل السماع رعشة داخلية مصحوبة بجفاف فم مفاجئ، تمالكتُني، سألته. مَنْ هما. لم يذكرا إسميهما. ماذا أرادا. لم يصرّحا، خبّرتهما باحتمال قدومكَ خلال ساعة. جلستُ وراء مكتبي، لاوقت لجهد تحريري، ذهني أفلت مني، طفقَ يطارد شبحين مجهولين، احتمال أن يكون سعود أحدهما، وازنتُ خياراتي، لدي فرصة المغادرة حالا وإذا ماعاد الرجلان، جاء منسي وغادر من فوره. يبقى احتمال ترصدهما لي غدا أو بعد غد أولأيام لاحقة، قدر داهم تتوجّب مواجهته، لا تؤجّل مصيبة اليوم ليوم ثان، يجدر بكَ البقاء وراء مكتبكَ، إنْ كان الغول سعود فلا بأس من فضيحة بوجود شاهد واحد. هل كانا طبيعيين. سؤالي فاجأ زميلي. لم افهم قصدك. حددت هدفي. أسألكَ إذا كان شكل الرجلين يوحي بغضبهما. حصر زميلي ذهنه برهة. لا أظن. استنتاجه لاينفي شكّه. صمتَ ثانيتين. الأصح إنّهما متجهّمان. تجهّمتُ من داخلي، اطلق الزميل ضحكة قصيرة دالّة. شأنهما شان أيّ رجل كويتي بالزي الوطني عندما يقابل آخر غير كويتي لا يعرفه شخصيا حيث الخطاب الفوقي بالتجهّم الملازم له. استجبتُ مبتسما، تابع. انزع عن

الكويتي دشداشته يتغيّر سلوكه. بماذا أردّ. انحنيتُ على مكتبي عساني انشغل، مرّ وقت قبل أنْ يتمخّض باب القاعة عن دخول رجلين كويتيين متجهّمين فعلاً، أحدهما بلحية مشّذبة وأنف بارز، أحالتني قسماته على العم فرحان، هو سعود حتما، الثانى حليق الوجه يماثل رفيقه سناً، لم يلقيا تحيّة، اقتربا من مكتبي، وقفا مواجهة، للحظة عابرة راودتنى فكرة النهوض احتراما، سارعتُ صرفتُ فكرتي، نقّلتُ نظراتي بين وجهيهما، عساني أحدسُ ما يزمعانه، همّ سعود بالكلام، اسكتته إشارة يد مرافقه. أنا مسؤول. قالها محذرا، وجّه سؤاله لي. أنتَ استاذ منسي. من يكون هذا الذي جاء به سعود معه، أخاله بذل قصارى جهده ضبط انفعاله، ضبطتُ انفعالي بدوري. إنْ شاء الله. عقد الرجل حاجبيه مستغربا إجابتي، لكنّه تجاوز استغرابه، إلتفتَ لزميلي اللبناني أمره. نُريد الانفراد بالاستاذ منسي. هبّ زميلي واقفا، وجدتني أقف أيضا، قلتُ للزميل. ابق مكانك. قلتُ لصاحب الوجه الحليق. نقصدُ غرفة مجاورة. لم اسنح له فرصة اعتراض، مشيتُ نحو باب القاعة دون أنْ التفت، سمعتُ وقع خطوات الرجلين ورائي.

أتريّثنى قليلا، أقول لكِ زينب إنيّ مارستُ حقّي في مقاطعة الكتابة على مدى عشرة أيام، تملكتني حاله عزوف، آثرتُ اشغال نفسي بالعودة لكدس كبير من الصحف والمجلات، تصفّحتها، اقتطعتُ عشرات القصاصات، صنّفتها بما يناسب ملفاتي، لا ادري إن كان عزوفي مرتبطا باليأس الذى يغالبني أحيانا، أو بالمناخ العام الآخذ بالترّدي نحو ماذا، بصرف النظر عمّا لا يمتُّ لنا بصلة بيّنة، صادفني ضحى اليوم أمر حفّز فيّ رغبة العودة للكتابة، كنتُ أواصلُ جهدي الملفّاتي عندما سمعت نقراً على باب غرفتي أعقبته إطلالة رأس الشاب السيرلانكي كومار. جاءك ضيف. أعقبها في التو صوت أحدهم. عيب يا رجل. صوته ألفة عاتبة مُغيّبة في عمق زمن ماض. التفتُّ، رأيتُ قامة مبارك سويّد تسدّ

فرجة الباب، تابع عتبةُ المؤنّب. تختفي ولا تترك أثرا يدلّ عليك. فاجأني صدرى تطامى فرحا، ضحكتُ ملء فمي، نهضتُ فاتحا ذراعيّ، لقائي الأخير به قبل سنوات، زارني عصر يوم خريفي فى مكتب محرري جريدة السياسة، أتذكر كلماته. طريق المطار سالكة من هنا. لديه ساعتان عن موعد اقلاع الطائرة المغربية، حتىّ لا يُبقي حسرة في نفسه خصّني بنصف ساعة رؤية. بعد مرور سنتين على تحرير الكويت اتخذ مبارك سويد قراره، هاجر إلى المملكة المغربية، لتنقطع أخباره، لولا زيارات خاطفة يؤديّها بين عام وآخر، مَن منّا يعاتب صاحبه، لحظة العناق بموازاة زمن الغياب، لفت الشاب كومار اهتمامنا إليه. شاي أم قهوة. أجابه مبارك سويد. بعدين. تطّلع لكمية الجرائد والمجلاّت قيد العمل. مازلت عبداً لهوايتك الشاذّة. ضحكتُ. إلاّ إذا كان لديكَ إقتراح ثان. تعال. ركبنا سيارته القديمة موديل 1987، دوي محركها يصمّ الآذان. أحسدكَ اخلاصكَ لهذه السيارة. تجاوز نبرة السخرية فى صوتي. إشتريتها جديدة. سلكنا شارع الخليج بإتجاه منطقة المسيلة، تململتُ. مابكَ. عسانا لا نقصد بيتكَ في مشرف. حانتْ عنه نظرة استنكار. لم ادخل منطقة مشرف منذ أيامنا تلك. عقد حاجبيه. عندك حق. سكت وهلة. لا تملك أيّ حق، نفورنا تجاه قاطني المكان يجب أنْ لا يشمل المكان، الناس الذين كانوا جيراني ماعادوا، بيوتهم ماعادتْ، بيت سعود وبيت العم فرحان اشتراهما وزير سابق، بادر هدمهما، دمج ارضيهما بنى قصراً فخما. تملّكني أساي، تذكرتُ بيت العم فرحان، صالته المترامية، الجلسة التي كانت حوض سباحة، استعادني صوت مبارك سويد مشوبا مرحا مشاكساً. رغم كوني اعيش في المغرب أتابع مايحدث هنا. سلّمت له. ما الغرض من أخذي لمشرف. تشاركني وجبة غداء طبخة مموش. لا مجال لاعتراض مُعلن، قضينا مبارك سويد وأنا زهاء خمس ساعات كانت كفيلة باعادة تشكيل مزاجي. ولا اجزم إنّ مبارك

سويد هدف لمقاربة تاريخ شخصي لمّا قال.عصر أمس طرأ العم فرحان علـى بالـي، تملكتنـي رغبة رؤيته، هو كما تعرف تجاوز الثمانين، لعلّك لا تعرف إنّه نزيل دار الرعاية الاجتماعية الآن. تداعتْ مُخيّلتي استعادتْ لحظـة رؤيتـي المعنـي للمـرة الاولـى، القامـة المتينة المربوعـة، اللحية البيضاء المشذبة، شبهه بممثل أفلام الأكشن شون كونري، بادرتني زفرة ألم لفتتْ انتباه مبارك سويد، أطلّ من عينيه أسى مشارك. قال. تأكدتْ إصابـة العـم فرحـان بمرض باركنســون قبل أربعة أعـوام، بادر إبن أخيه سعود اثرها التفتَ إليه، اولاه اهتماما خاصا ريثما اوهمه بجدوى تنازله عمّـا يملـك مـن خـلال عقد مبايعة. اصغيـتُ له، الخلاصـة الواردة في الذهن، وَضَع سعود يده على عقد المبايعة، أخلى منزل عمه من عمه، أخـذه غصبـاً عنـه لـدار الرعاية الاجتماعية للمســنين بحجـة توفيرمتابعة صحية ضرورية على مدار الساعة. خلاصة اخرى، لمّا نجح سعود بابعاد عمّـه عـن البيـت بـادر باع البيت إضافة لبيت عائلتـه، عقد صفقة اخرى باع محلات الاقمشة وكذلك عماراتهم القديمة، اشترى قسائم استثمارية محاذية لبحرالفنطاس، بنى مجمعات سـكنية عملاقة، انضمّ لنادي كبار ملاكي العقار. أذنوا لي بزيارة العم فرحان، رافقني عامل نظافة آسيوي قادنـي إلـى حيـث قاعـة يرتادهـا المسـنون لمشـاهدة التلفزيـون رأيـتُ العديدين يرابطون أمام الشاشة، فرحان لم يكن بينهم، أشار عامل النظافة نحو نافذة بعيدة تطل على ساحة مزروعة، رأيته يَفرد نفسه عن الآخرين يقتعد كرسيه هناك موليا ظهره لمن في القاعة. حثّ مبارك سويد خطوه، وقف أمام العم فرحان حاجزا نافذته، نشّه الآخر بإشارة يده. آلمني إنّه لم يعرفني، رغم هذا انحنيتُ قبّلتُ رأسـه، أردتُ تنشـيط ذاكرته، قلت له أنا جارك مبارك سـويد، أطّلتْ من عينيه نظرة طفل مفعمة شـكوى، أدركتُ السبب، اخليتُ مساحة النافذة، أعدتُ تعريفي بنفسي، استجاب متسائلا بهامش استنكار. خير إنْ شاء الله. مبارك سويد لم ييأس تماماً،

جـاء بكرسـي، جلـس عنـد العم فرحان. وددتُ انعـاش ذهنه، رويتُ له مواقف واجهناها معاً. هل تتذكر لمّا، تطرقتُ لأيام الاحتلال، عيناه ظلتا فارغتين من انعكاس يفيد بالتذكر، تلوتُ عليه أسماء أشخاص نعرفهم. عندمـا تلفّـظ مبارك سـويد إسـم سـعود انتفـض العم فرحـان كالمدوغ، اعتكـر مزاجـه، هـبّ واقفا، مشـى نحو زحمة رفاقه المسـنين المرابطين أمـام شاشـة التلفزيـون. قبـل انضمامه لهم التفتَ العـم فرحان إلي رفعَ صوته صارخا بي. راجع الطبيب المختص. مبارك سويّد صاحب مزاج شاذ، وإلاّ ما الذي دعاه لأنْ يتجشّم عناء زيارة دار رعاية اجتماعية من أجل لقاء جار سـابق خَرف. كيف يتسـنى لواحد مثل سـعود يضع رأسه فـوق وسـادته ليـلا ينـام مرتـاح الضميـر. طريق عودتنا من مشـرف إلى السالمية حيث مستقري طغى دوي محرك سيارة مبارك سويّد على صوته لـدى حديثـه عـن تفاصيل حياتـه المغربية في حين رحل ذهني يسـتعيد تفاصيـل لقائـي الأوّل بسـعود لمّـا جاءنـي لجريـدة السياسـة مصطحبـا أحدهـم، أتمثلنـي يومي ذاك، أتمثّل مشـاعري وقتهـا، كانت بدءا مزيجا من القلق والتهيّب، سـرعان ما تبددتْ، أزاحها إحسـاس طاغ باللامبالاة تجـاه مـأزق قائـم، الممـر الكائـن بيـن المكاتـب بامتـداد كاف، غرفـة الاجتماعات مبعدة بضعة أبواب، حضرني قراري ان آخذ الإثنين لهناك. شـهر يناير، البرد الملازم، وها هو جسـدي ينزُّ عرقا، مالذي اتوقعه من هذيـن. إهانـة لفظيـة، اعتداء بالضرب، أم هناك ماهو أبعد. سـبق لمبنى جريدة السياسـة شـهد محاولة اغتيال رئيس تحريرها أحمد الجار الله، إنْ كان قدري شبيها لابأس من انهاء حياة واحد بدون حافلة معاناة صفة مهانات، وقفتُ أمام باب غرفة الاجتماعات، أدرتُ أكرته، انفتح المنظر عن طاولة زجاجية كبيرة تحوّطها دزينة مقاعد جلدية سـوداء، افسـحتُ لهما طريق الدخول صامتاً، تبادلاً نظراتهما، عبرا داخلين، لحقتُ بهما، اطبقـتُ البـاب بعـد دخولي، وقفتُ أمامهما، نعم. رددتها صيغة تسـاؤل

جاف تشوبه صلافة مقصودة. بلغ غضب سعود حدّه، امتقع وجهه، بينما ابقى الآخر على هدوئه، بادر سحب كرسياً، أشار لسعود. حيّاك دكتور تفضّل اجلس. غمغم سعود نافد الصبر. الله يكون بالعون. جلس، سحبَ الآخر كرسياً، جلس، وجّه خطابه لي بمنحى النّدية. هلاّ جلست يا استاذ منسي. بدأ قلقي ازاء احتمال تعرّضي لاعتداء جسدي يتلاشى، جلستُ مبعدة مقعدين، أعدتُ ترديد تساؤلي بصلافة أخف. نعم. قرّب الآخر فمه لأذن سعود همس كلمات لم أُميّز معظمها لكنّي سمعته ينهي محذّراً. رجاء التزام الصمت. أومأ سعود برأسه دلالة الامتثال. التفتَ الآخر لي. الناس المتحضرون يسعون لحل نزاعاتهم ودّيا. تطلّع إلي ينتظر استجابة من جانبي. لا اعتراض. إذا استعصى على هؤلاء الناس المتحضرين أنْ يتوصّلوا لحلول ترضيهم، لجأوا إلى ساحة القضاء. عيناه تواصلان تحديقهما في وجهي، ما الذي يتوجّب عليّ قوله لانسان لا اعرفه البتة، أعملتُ ذهني برهة، توليتُ صياغة سؤالي. ماذا تريدان مني. ازمع الآخر الرد لكني واصلتُ مضمراً امتعاضاً. حتى الآن لم تعرّفاني بشخصيكما. تململ سعود في مقعده مُصدراً غمغة خافتة، انبرى الآخر. انا الأستاذ سليمان المحامي. أشار للجالس عنده. وهذا موكلي الدكتور سعود. آثرتُ أنْ لا أفصح عن غيظي. نعم. نَمّ فم المحامي سليمان عن ابتسامة استهانة سارع لمداراتها. العائلات الكويتية الكريمة تتحاشى كلّ ما له علاقة بانتشار الفضيحة. سكت برهة كمن يجسّ نبض محدثه. لهذا السبب قصدناك شخصياً عسى ان نتوصّل لتسوية ترضي الطرفين. تسوية حول ماذا. أصدر سعود زمجرة غضب، تشبّث المحامي بصبره. قصدناك لهنا من أجل حسم مسألة تطليق السيدة عهود أخت الدكتور سعود. لم أتاخر اجابتي. الزواج وكذلك الطلاق كلاهما أمره مرهون بالسيدة عهود. تجسّدتْ حيرة المحامي على وجهه لحظة رفع سعود صوته غاضبا. اسمع يا البدون أنت حقير وعهود حقيرة

مثلك. أومأت برأسـي مُسـتهيناً. الحمد لله. ضرب سعود سطح الطاولة بيـده، هـبّ واقفـا، تشـبث بـه محاميـه. أعصابك دكتور. سـمعتُ لهاث سعود، نهض محاميه، حوّط كتفه بذراعه، إقتاده نحو الباب، التفتَ إليّ. انتظرني من فضلك. فتح الباب، غادرا معاً، عمّ السكون المكان، تراني أين، الحال الآن، والآتي كيف، ظننتني مؤهّلا لمواجهة مَنْ، عهود صيغة سلوك عرفته ولم اعرفه بعد، جهد تصنيف سلوك أخيها سعود، الزواج مصاهـرة توفـر للواحـد فرصـة ارتباط بعائلة جديدة، جديد سـعود رهن غيـب يعجـز ذهنـي عن تصوّره، مرتْ ثـوان عاد المحامي بعدها وحده، اطبق الباب وراءه، احتّل مقعده ثانية، قال أشبه بمن يوجّه حديثه لنفسه. هنـاك عديدون يسـيئون لقضيّتهم حتّـى إن كانت عادلة. واجهتني عيناه. اسـمع يا أسـتاذ منسـي. قالها مراعيا حدود الأدب، هززت رأسـي دلالة الإصغـاء. مـن المستحسـن لنا ولك إنهاء موضـوع الخلاف وديًا. بقيت ساكتاً. استطرد مانحاً صوته نبرة تهديد غير معلن. الأفضل لك شخصياً حسم الأمر خارج أروقة المحاكم. ابتسم بواعز صداقة مفترضة. نصيحة مـن رجـل يفهم القانون. ليس أمامي سـوى الإصغـاء. إذا لجأنا للقضاء لاسمح الله تسببتَ لنفسكَ بالسجن لمدّة لا تقل عن خمس سنوات مع الابعاد. الجزع وكذلك الفزع قيد التأجيل. لماذا. لأنّك بدون. لعلّه قرأ اسـتنكاري فـي وجهـي، تابع عن قناعـة مطلقة. صدور أي حكم قضائي بحق أي بدون يعني ابعاده خارج البلد بعد قضاء مدّة سـجنه. لا بأس أن يكون السجن مع الإبعاد ثمناً للزواج. شهر كفّه أمام وجهي معترضاً، انزعاجه واضح في صوته. لا تحرّف كلامي، الزواج لا يتسبب بالسجن إذا كان مستوفياً شروطه الشرعية والقانونية للبلد الذي يُبرم فيه. معضلتي كمـا يراهـا المحامـي إنّي تجاهلتُ أحد أهم الشـروط القانونية الواجب توفرهـا لعقـد الـزواج، موافقة ولي أمر المرأة. سـألته. هل اطلعتَ على عقد الزواج موضوع الخلاف. حدّق إليّ، نظرته محملة رثاء. اسـمع يا

أخ منسي أنتَ صحفي معروف، واضح أنّك ذكي، لكن ذكاء الواحد عندما يستغله للتحايل على القانون يقوده للسجن. رسم على فمه ابتسامة متفهّمة. الأمر المؤسف أنتَ اغتنمتَ فرصة تواجد الدكتور سعود خارج البلاد مارستَ عملية نصب، تزوجتَ أخته دون علمه. كيف له أن يسوق اتهاماته بالكيفية، تابع. ليكن بعلمك إنّ السيدة عهود لا تملك حق الدفاع عن نفسها أو عنك مادام ولي أمرها الدكتور سعود مؤهّلاً لإقامة دعوى جنائية انتَ المتهم الأوّل فيها من خلال توفر عناصر جريمة تعرفها جيّداً. يازينب، اعتدنا صلف الحياة، وطّنا حالنا على احتمال مواجهة الأسوأ دائماً، موقفي ذاك من الغرابة والصفاقة بمكان، أنا وشخص ما سبق تولّى التعريف بنفسه. الاستاذ سليمان المحامي. تواجدنا داخل غرفة اجتماعات مغلقة الباب، خالك سعود يقف خارجاً، سمع حديث محاميه الموجّه لي أم لم يسمعه، المعضلة الحقيقية لا تتمثل في عملية نصب ارتكبتها لغرض فوزي بأمّكِ عهود زوجة، المعضلة في خطاب خالكِ.اسمع يا البدون. أنا الانتهازي الطارئ، متحيّن الفرص للفوز بما لا أستحقه، لحظتها تذّكرتُ أمّي وحلمها الذي خصّتني، زواجي بكويتية، الحلم وهو يتحقق يتحوّل كابوساً، أين موقع أمّي داخل إطار صورة كائنة في مخيّلة سعود، كيف تتسنّى لي مكاشفتها باحتمال استدعاء محكمة لغرض ابطال عقد. يا منسي. لفتَ المحامي سليمان انتباهك إليه بعدما انتهج مهانة بالتقسيط، بدأ مخاطبتك استاذ منسي ثم أخ منسي لينزع عنك صفات تفضّل بها عليك أخذك مجردًا، جاريته ممتثلاً. نعم. لعلكَ توصلتَ للقرار الصّائب. إنْ شاء الله. انفرجتْ أساريره. إن شئتَ سهّلتُ لك مسألة انهاء اجراءات الطلاق في مكتب المحاماة العائد لي، حتّى نحفظ كرامتك لا حاجة لحضور السيّدة عهود. حضرني وجه عهود، نازلة الطلاق تخصّها مثلما تخصّني، كيفية تقبّلها، قلت له. امهلوني أسبوعاً للرد. عادتْ انفرجتْ

أساريره. أومأ برأسه صوب الباب. أعدك بعدم ملاحقتك قضائياً. إنفلتَ خارجاً تاركاً باب الغرفة مشرعاً، تراني قادراً أعود لقاعة المحررين أبدأ الكتابة، مرّت ثوان تناهى لأذني اثرها صوت أحمد الجار الله قادماً من ناحية عمق الممر متسائلاً باستغراب. ما الذي جاء بك عندنا يا سليمان. سمعتُ صوتَ سليمان المحامي متهللاً. أهلاً بالعم بومشعل. خفتتْ الأصوات بعدها، لتتلاشى، ساد السكون المكان، انتابتني رعشة برد مفاجئة، الأنه شتاء أواخر شهر يناير أم إنّه ردّ فعل جسدي ازاء أزمة مستعصية، عهود وأنا علاقة زواج أسابيع أولى، يحلّ سعود مزحوماً حقداً، فارق كبير بين أن نكون هو وأنا أنسباء، سعود من غير أن يمهل نفسه فرصة معرفتي شخصياً بدأ حربه عليّ، عزز مجيئه باصطحابه محاميه، أمامي خياران لا ثالث لهما، أفكّ فوراً، وإلاّ ألى ساحة القضاء، سعود لن ينفض يده، لن يكفّ عن تنغيص حياتي، ولا أظنني مع وضع قائم مؤهّلاً لخوض حرب يشنها طرف يستقوي بمواطنيته، عهود زوجتي بحكم العقد لكنها أخته أيضاً، أدريها تقف الى جانبي الآن، من يضمن عدم تحوّلها يوماً ما وهي صاحبة المزاج المتواتر غير المتوقع، ازدحام رأسي باسئلتي، العجز أو المحاصرة، انتقل نبضي لعند صدغي، أيني من هذا كله، شبكتُ ذراعي فوق السطح الزجاجي للطاولة، تسللتْ إليّ برودته، دفنت وجهي بين ذراعي. منسي. كما لو إنّي وسط الغفلة، فاجأني أحدهم يلفتُ اهتمامي إليه، هو أحمد الجار الله، انتفضتُ. نعم بو مشعل. رأيته يقف في فرجة الباب عاقداً حاجبيه دلالة القلق. ما بك. حارتْ اجابتي بي، تلعثمتُ. صداع خفيف. حاجباه انعقدا أكثر. ما الذي أراده منك المحامي سليمان.

يا زينب، من باب العلم بالشئ أُسمعكِ إحدى مقولات أميّ. لو خُليتْ قُلبتْ. لا اعرفُ منشأ هذه المقولة ولامِنْ أين استقتها، لكني أتذكرها ترددها بالفصيح على مسامعي، أو تُخاطب بها نفسها عندما

يشتدُّ ظلم ذوي القُربى يبلغ حدّاً تصعب معه مواصلة الحياة بشروطها الإنسانية الأدنى، تقولها تعني بها مهما زاد عدد الكويتيين الذين لا يبالون أو من الذين ساهموا عنوة أو عن سابق تصميم بتكريس معاناتنا جعلوها مزمنة لتبدو وكأنها مستعصية الحل، هناك كويتيون يحلّقون خارج السرب يعاملونك بصفتك مواطناً، بصرف النظر عن أوراق ثبوتية قيد قرارات رسمية. الانسان موقف تؤكده مبادرة لا تراوح عند مشارف ابداء تعاطف او مشاركة وجدانية مجانية. مساء اليوم التالي لمجيء خالكِ سعود لمبنى الجريدة إلتقاني أحدهم. نحن مكتب المحاماة المسؤول عن تولّي قضايا جريدة السياسة. أهلاً وسهلاً. بناءً على توجيهات العم بو مشعل سنكون موكلين عنكَ في القضايا المرفوعة ضدّك أمام القضاء الكويتي. من باب العلم بالشيء أيضاً، لم أشأ وقتها أنْ أُضاعف من قلق أمّكِ عهود، اخفيتُ خبر المواجهة بيني وبين أخيها سعود، ريثما يجد جديد. بعد مرور شهر تسلّمتُ إخطاراً رسمياً يحملُ ختم وزارة العدل الكويتية، يلزمني بالحضور للمحكمة في الوقت المحدد، جافاني النوم طوال الليلة السابقة لنهار مثولي أمام القاضي، تنبّهتْ عهود لما اعتراني. أنتَ مريض. مجرّد إرهاق. نازعتني نفسي لو أقول لها غداً صباحاً أخوكِ سعود وأنا عند القاضي، لو قلتُ أنا مُدّعى عليه بتهمة الزواج منكِ. آثرتُ أن لا أتسبب لها بجزع لا يُقدّم ولا يؤخّر. أردتُ معرفة النتيجة أوّلاً سلباً كانت أو إيجابا. مثلنا أمام القاضي، كنّا أربعة، سعود ومحاميه، محامي جريدة السياسة وأنا، تصفّحَ القاضي ملفاً عنده، تأكّدَ من حضور المُدّعي والمُدَعى عليه، قضى بتأجيل النظر فى القضّية مّدة أسبوع، لزوم حضور الزوجة، رسخ في دخيلتي ليس هناك ما يُرعب، تملكني ارتياح رغم نظرات تشفٍ يشوبها احتقار وجّهها سعود إلي، شغلني أمر وحيد، استبعاد عهود من معرفة ما يدور حكم استحالة. أنتَ لئيم، لماذا تحاول تهميشي. لم أهدف لتهميشكِ. كيف

تتناسى إنّها حياتي مثلما هي حياتكَ. لو حاججتها. لتواترَ جدلنا، صبرتُ عليهـا حتّـى تخففـتْ مـنْ حدّة إنفعالها. متى أمثُل أمـام القاضي. لوهلة عابرة شـاغلتني مفردتها امثُل، خيّل لي انّها افردتْ نفسـها عنّي، أجبتها. بعد أسـبوع. خلال أيام انتظارنا تبدّلتْ شـخصية عهود صارتْ أخرى، آلتْ معتكرة المزاج انفعالية تغضب للاسبب، منزوية على نفسها أغلب الأحيان، صرّحتْ مّرة شـاكية. هذا كثير. أردتُ تهدئة روعها. مواجهتنا لسـعود شـرّ لابُدّ منه يتوجّب تحلّينا بالصبر. أنا لم ارتكب جريمة حتّى ادفع ثمنها. آلمني كونها تقصر معاناتها عليها وحدها، آلمني أشدّ تهرّبها مني في الفِراش. لستُ راغبة. يأسها يتشرّب صوتها. ما ادراني ما الذي تسـفرُعنه محاكمتي. تُبدي تشـككها. ماذا لو ثبتَ بطلان عقد زواجي. حديثها كلّه بضمير الأنا كأنّ الحدث يمسّها وحدها، عهود وسط احتدام الظـرف تصنّفنـي طارئـاً على وجودها، الملحق حيث تتواجد أمّي مبعدة أمتـار، أنـا انتمـي للمـكان الملحـق، راودنـي هاجس اخلاء شـقتها لها، عـزّ علـيّ تعميـق معاناتها. موعـد مثولنا أمام القاضي صبـاح يوم اثنين، في سـاعة متأخرة من مسـاء الأحد اغتسـلتْ عهود، لبسـتْ ثوباً ابيض فضفاضاً، افترشـتْ سـجّادة، طفقتْ تصلّي، طفقتُ أراقبها صامتاً، عودة إيمانيـة أم صحـوة ظرفيـة مرهونة بأزمة طارئة، مرّ الوقت متباطئاً، عهود باقية تصلّي ريثما تردد نداء اذان الفجر من مآذن مساجد الجوار، رأيتها تنهي صلاتها، تجمعُ كفيّها نحو السقف، استعاد ذهني صورة أمّي وهي تدعـو. صبـاح يومنـا إيّاه، مع اقترابنا لبوابة مبنى المحكمة. أنتَ تمشـى أمامي. طلبها صيغة أمر، كانت ترتدي عباءة سوداء طويلة تنسدل لتغطي قدميها، إضافة لحجاب أسود يحوّط وجهها الخالي من مساحيق تجميل معتادة، وأنا أتقدّمها توصلتُ لاستنتاج مفاده، لكي يُصارإلي قبولي كويتياً يتوجّب عليّ اتقاني فن المواكبة. دخلنا القاعة المخصصة لعقد الجلسة، رأيتُ ناسـاً عديدين، سـعود ومحاميه سـليمان يحتلان مقعدين يواجهان

المنصة، محامي جريدة السياسة يجلس غير بعيد عنهما، لحظة انتباهه لقدومنا أشار لمقعدين مجاورين له. القاضي لم يحضر بعد. رصدتُ من طرف خفي عيني سعود، كان يوجّه نظرات غاضبة متوعّدة نحو أخته، في حين ابقتْ الأخيرة رأسها منكساً، همس لي محامي جريدة السياسة. اطلعتُ على جدول الجلسة قضيتنا هي الأولى. سألته إنْ كنّا مؤهلين لكسب القضية. دون أدنى شك. سمعتُ عهود تردد هامسة. إنْ شاء الله. مرّتْ دقائق بدَتْ طويلة، وصل القاضي بعدها، إعتلى منصته، عمّ الصمت المكان، عيون الجميع مشدودة للمنصة. فتح القاضي ملفّاً أمامه. تلفّظ إسم سعود بصفته المُدّعي في القضية المرفوعة ضد منسي، هبّ المحامي سليمان واقفاً. حاضر سعادة المستشار. سأله القاضي عن مسوغات بطلان عقد زواج المدعو منسي من المدعّوة عهود. علل المحامي سليمان سبب البطلان نتيجة غياب ولي أمر المدعّوة خارج البلاد. أبقى القاضي عينيه على وجه المحامي منتظراً توضيحاً مضافاً أو تبريراً. الأمر الأهم سعادة المستشار يتمثّل فى رفض ولي الأمر الدكتور سعود مبدأ زواج أخته من المُدّعى عليه. انتقل القاضي بعينيه لوجه سعود. نسمع مسوغات الدكتور سعود. أشار المحامي سليمان لسعود أنْ يقف. استجاب الأخير واقفاً، قال. ارفضُ هذا الزواج رفضاً قاطعاً. فاجأه سؤال القاضي. بأية صفة. تلجلج سعود. ازمع المحامي سليمان الرد اسكتته إشارة من يد القاضي. أعاد صياغة سؤاله. لماذا مبدأ الرفض. استعاد سعود رباطة جأشه. أمور تتصل بالمكانة الاجتماعية. اسمعُ ما يدور، أرصدُ الوجوه، ينتابني شعور غريب، أحسّ كما لو إنّ الجميع بما فيهم القاضي يتداولون شأن شخص غيري، رأيتُ القاضي يومئ برأسه لسعود دلالة تفهّمه. التفتَ ناحيتنا. نسمعُ رأي الزوجين. سارع محامي جريدة السياسة وقف، التفتَ إليّ، عرفتُ المطلوب مني وقفتُ، بادرتْ عهود وقفتْ منكسة الرأس، نقّل القاضي نظراته علينا عهود وأنا. هل

أنتما راغبان باستمرار حياتكما الزوجية. نعم. قلتها واضحة، عهود لم تنبس، حدد القاضي بصره نحوها، رفع صوته. ياعهود. اختلج جسدها خفية، رفعتْ وجهها، أَسمَعَها القاضي سؤاله. هل ترغبين باستمرار حياتكِ الزوجية الحالية. خلال ثانية أو أقلّ تبادر لي إنَّ إجابة عهود ستكون لا، حانتْ عنها التفاتة خاطفة صوب أخيها، أومأتْ برأسها دلالة الإيجاب، رأيتُ القاضي يكتبُ شيئاً، يُبعد الملف جانباً، سمعته ينطق برفض الدعوى، لهج محامي جريدة السياسة. شكراً سعادة المستشار. أزمعَ سعود يبدي اعتراضه لولا مبادرة محاميه سليمان. تعال يا دكتور. أخذه من يده اقتاده خارج القاعة. عندما تتوفّر لواحد ما أسباب فرح مفاجئ او متوقع يناوشه جزعه على حين غفلة، متخذاً صيغة سؤال حائر. الغد الآتي كيف. صافحني محامي جريدة السياسة مهنئاً، التفتَ لعهود. مبروك مدام. كنّا خارجين من مبنى المحكمة، انفلتَ محامينا مبتعداً، تقدّمتني عهود حاثّة خطوها صوب السيارة، ليس هناك مايدعوها لأن تمشي ورائي. لمحته واقفاً بعيداً إلى جانب محاميه سليمان، خلتهما يتشاوران، رآني أمشي اثر أخته، لوّح بيده متوعّداً. صدّق أو لا تصّدق. رددتها عهود ضاحكة. حتّى الآن لم استوعب فكرة إنّ القاضي حكم لصالحي بهذه السرعة. سكتتْ وهلة، حسّها الإيماني يلوّن صوتها. الله سبحانه وتعالى استجاب لدعائي. أُشاركها احتفاءها أم استغرب منحى سلوكها اللافت بعد حالة قنوط دامت أياماً. نقصد منطقة الشويخ. قالتها مقررة. تذكّرتُ مناسبة مغادرتنا منزل عمّها فرحان بعد إجراءات عقد القران. سألتها. نبتة برتقال ثانية. أطلقتْ ضحكة رائقة. نشتري خروفاً من سوق الغنم. لماذا خروف. نذبحه. عيناي تتفحصان وجهها محاولاً سبرغورها، قالتْ. نوزّع لحمه على الفقراء. قالتْ. وفاء نذر البارحة.

معضلتي مع أمّكِ يا زينب إنّها تراني شيئاً قابلاً للتشكّل بناءً على متطلبات مزاجها، ابذلُ قصارى جهدي كي استوعب هذا المزاج غير المستقر أحاول تفهّمه، أساررني كلّما ضاقتْ حدود علاقتنا بي، عهود عانتْ ظروفاً عصيبة طوال خمس سنوات زواج سابق إلى جانب صنوف قهر واستغلال اخضعها أخوها سعود لها، لكنّها تخرق معيار التفهّم، توحي لي إنّ زواجها بي يمثّل تضحية قصوى من طرفها، رغم هذا كلّه عشتُ وإيّاها لحظات ذات طابع خاص. عهود، إذا أرادتْ، آلتْ أنثى دانية. تعال. تأخذني لسرير الزوجية. هناك نذر واحد معلّق. لا أقول لها اعرف، تقول. لا تنس مناشدتي عند ضريح السيّدة زينب. تقول. أريد فتاة تشبهني أسمّيها زينب. تقول. شرط أنْ ترثَ عنكَ سعة عينيكَ وصفاء لونهما البنّي الفاتح. عهود باشتراطاتها القدرية وأنا الملحق بها. أيامنا تلك، ماعاد سعود يمثّل قلقاً حاضراً، عرفتُ منها نقلاً عن أمّها هو مشغول طوال الوقت، يسعى لقبوله مدرساً فى جامعة الكويت، مّرتْ خمسة شهور راوحتْ عهود خلالها بين أمل الحبل وإحباط جرّاء سلبية شهرية. متى احبل. رهان مع ماذا، كأنّ الزواج حبل عند الطلب. يجدر بنا أنْ نفعل شيئاً. مثل ماذا. تجاوزتُ الخامسة والثلاثين أظنني فقدتُ قدرة الحمل. هذه خيالات. لعلّ حادثة إجهاضي أعطبتْ رحمي. أنتِ متشائمة. أنتَ تكره الإنجاب. أنتِ تفهمين خطأ. ماهو الصواب. مازلنا متزوجين حديثاً. يعود ذهنها يشرد منها. اسمعها تخاطب نفسها. وجوب معرفة السبب. أخاطبني بدوري. عهود لم تتزوج إلاّ مِنْ أجل أنْ تنجب. استجابتي لتواتر قلقها شأن عدمها، عهود سلكتْ طريقها منفردة، قصدتْ عيادات أطباء مختصين، ثلاثة أسابيع انشغال انهتها وقفتْ أمامي حاملة

إضبارة طبية تحوي عشرات التقارير، قالتْ هي سليمة تماماً لا تعاني عارضاً مرضياً أو قصوراً جسدياً يعرّقل امكانية حملها، قلت لها هذا رأيي منذ البدء. لم تسمع ردّي. أنتَ السبب. لامكان لإطلاق ضحكة مفارقة، أوصيتني بضرورة مراعاة الحذر والصبر، سألتها. سبب ماذا. أحد الأطباء قال. بترتْ جملتها، حصرتْ ذهنها تتذكر. هناك حالات معروفة. بترتْ جملتها عادتْ حصرتْ ذهنها. العديد من الرجال المتزوجين يعانون نقصاً حاداً فى عدد الحيوانات المنوْية أو إنّها تولد ميتة. ترسختني قناعتي، عهود تدور ضمن حلقة مفرغة، إعادة تمثيل دراما علاقة زوجية سابقة مع تبادل الأدوار، أيام زواجها من عبد السلام كانت هي الطرف المغلوب على أمره، ظرف علاقتنا تقمّصتْ عهود دور عبد السلام المتسلّط، هناك كانت هي العاقر حسب استنتاجه، هنا أنا العقيم. خذيني لطبيبك. استغربتْ ردّي السريع. أي طبيب. ذاك الذي شخّص حالتي. ليس تشخيصاً. خُذيني لمن تشائين. معاينات جسدية وفحوص مختبرية، إكراه الجسد او اخضاعه للقيام بعمل مقيت من أجل أخذ عينات منوية، خلاصة الجهد إضبارة طبّية تفيد إنّي سليم مؤهل، عهود راضية على مضض، جنبتني انفعالها خصّت به حظّها اللئيم، قلتُ لها مّرة محاولاً تخفيف معاناتها. هناك زيجات كثيرة تأخّر فيها الحمل سنوات. أطلقتْ زفرة حرّى. أكونُ بلغتُ سن اليأس. غريب هو الحب، أكاد اجزم إنّ كيمياءه المستغلقة على الفهم لا تؤكد ذاتها إلاّمن خلال معايشة عذاباته، عهود وأنا، اشتباكنا علاقتنا، مراوحة دائمة مابين مدّ وجزر، يوم صفاء وآخر جفاء، اعتدتُ عندما يكبس هواء الشقة على صدري انزل الى الملحق حيث أمّي، فإنْ أبدتْ أمّي قلقها. أنتَ زعلان. استعنتُ بتبرير جاهز. عجزتُ عن إيجاد مادّة مُجدية لعمودي الصحفي. تبتسم مقتنعة أو غير. أعدُّ لكَ الشاي.تتوجّه لمطبخها، أتوجّه لدولابي، بعض الملفّات يحتاج إعادة تصنيف. كنّا في أواخر

شهر يونيو، رنّ جرس الهاتف ليلاً. هذه أمّي. استنتجتْ عهود، سارعتْ رفعتْ السمّاعة، طال أمد اصغائها لحديث أمّها، أوحتْ تعابير وجهها عن استنكارها إلى جانب قلقها، انهتْ مكالمتها. يجب أنْ تعرفَ. علّقتْ جملتها برهة. كُنّا ننتظر عودة اختي جود من دمشق نهاية الاسبوع. هل حدث مايستوجب تأخّرها. منذ قليل هاتفتْ جود أمّها اخبرتها إنّها لم تحضر امتحاناتها النهائية لأربع مواد أساسية جراء مرض مفاجئ ألَمَ بها، أمّها تقول عنها تكذب، عهود توافق أمّها رأيها. جود اختلقتْ حكاية المرض من أجل بقائها في سوريا سنة أخرى، مارأيكَ. لو اجبتها. انتم تعرفون بعضكم كما لا اعرف أيّا منكم. لا رأي لي. أمّي تجزم بوجود شيء خطير تخفيه جود، ما رأيكَ. بماذا. أنْ أسافر إليها. هل تسافرين رفقة أمّكِ. بامكانها السفر ليومين والعودة دون علم سعود، في حين إنّ سفر الأم يثير شكوكه. وهي تنهي إعداد حقيبة سفرها املتْ عهود قرارها. ترافقني للمطار بسيارتي، حين أعود تجيء إليّ بسيارتي، أنتَ زوجي مسؤول عنّي. تواجدنا وسط زحمة المغادرين في مطار الكويت الدولي سألتها. المدّة المحددة لغيابها. ثلاثة أيام، عساني انهي مهمتي خلال يومين. قبل دخولها قاعة الترانزيت وعدتْ تتصل بي هاتفياً تمام الساعة العاشرة ليلاً، غابتْ في الداخل، أنا الغريب على قاعة المغادرين انسللتُ خارجاً،توليتُ للمرة الأولى قيادة سيارتها، الطريق إلى منطقة النقرة سالكة، الوقت ضحى يوم صيفي، شغلني هاجس لا عهد لي به، أحسستني افتقدُ شيئاً عزيزاً خاصاً بي، منذ زواجنا لم نبتعد عنّا، عهود سفر، طارئ، الزواج ليس أمراً طارئاً، ماذا لو حلّ ظرف اقتضى سفرها أشهر، أنا منزوع حق السفر، وصولي البناية، اتخذت قراري اقتلُ فائض وقتي بالعمل على ملفّاتي، واجهتُ دولابي قبل أنْ يواجهني سؤال أمّي مضمّناً مشاركة قلقة. أنتَ حزين. غافلني عنوان كتاب محمد الماغوط، الفرح ليس مهنتي.

يـا زينـب الغائبـة أبـداً والحاضرة في الوجـدان، أُحّدثكِ عنّي، عن ذاتي التي يتصادف لها أنْ تتماهى حبّاً، أحدْثكِ عن الحب، سابقة سفر أمّكِ وضعتني وجهاً لوجه مع ذاتي عبر بُعدٍ نوعي جديد عليّ، قضيتُ نهار أوّل يوم فراق كيفما اتفق، حاولتُ إلهائي بأي شيء، انفقتُ ساعات الظهيرة رفقة ملفّاتي، قصدتُ سـوق الحراج في منطقة الشـويخ عصراً، تجّولتُ بين البسـطات، تريثتُ أمام بسـطة لبيع الكتب، استوقفني عنوان رواية بوليسية، جريمة في قطار الشرق السريع، للكاتبة الانجليزية أجاثا كرستي، راودتني نفسي، الأسلوب المشوّق لما هو بوليسي كفيل بقضاء سـاعات الليـل من غير معاناة غيـاب إحداهن، اقتنيتُ الكتاب، توجهتُ لمبنـى جريدة السياسـة، قضيتُ سـاعتين في قاعـة المحررين ومنها الى الملحق، حتّى لا أعاني شعوراً بالوحشة قررتُ المكوث هناك أبادل أمّي الحديـث ريثمـا يـزف موعـد اتصال عهود في العاشـرة ليـلاً، مع حلول الظـلام شـاغلني هاجسـي، لعلهّـا لسـبب يخصّهـا تُجـري اتصالهـا قبل العاشرة، نقضتُ قراري، هرعتُ للشقة متأبّطاً كتابي، أطبقتُ الباب عليّ، المكان سـكون شـامل، الغياب هدأة تُثقل الروح، تلفّتُ حولي، أصص أشجار الظل تحتاج تقليب تربتها،لدي فائض وقت، نبتات الشرفة أيضاً، بين آونة وأخرى اخطفُ نظرة نحو الهاتف عسـاه يرن، حوالي السـاعة التاسعة رابطت عنده، كتابي بمتناول يدي، فتحته، دفنتُ عيني فيه، وأنا أقلبُ صفحة أولى لأبدأ ثانية خلتني لم استوعب ما قرأتُ، كنت شارد الذهـن تمامـاً، وضعـتُ الكتـاب جانبـاً، عهـود تفـرض حضورها صيغة معذبة، هي الآن دمشـق، دأب ذهني يناورني يسـتذكر لحظات عشـناها هنـاك، عيـن الخضـرا والمغارة المتشـرفة، كافيتريا فندق الشـام وطاولة المقعدين، مقام السيدة زينب، رائحة نشارة الخشب فى سوق النجارين، قارئـة الطالـع الغجريـة، أكتب إسـمك يـا حبيبي، المكان وأنتَ وسـطه حضـور مـادي، المـكان وانـتَ تسـتعيده ذكرى حضور آسـر، فإن غاب

الشـريك، حنين ينازعه شـعور الفقدان، يا منسـي أنتَ أبعد ماتكون عن طور المراهقة والرومانسـيات المصاحبة. أتركُ مكاني عند الهاتف أتجه إلـى المطبـخ، فنجـان قهـوة سـادة يناسـب حالـة الانتظار، اعـود حاملاً فنجاني، الساعة بلغتْ عاشرتها وهذا الهاتف لم، نفاد الصبر دليل ماذا، القهوة التركية لا تؤخذ باردة، وأنا وسط زمن مشحون بالوساوس، عهود حددتْ موعد اتصال، أو إنّها ارتجلتْ موعد اتصال، ما ادراني إنّها تلزم نفسـها، ما أدراني انّي اشـغل بالها، لحظة لفتَ القاضي انتباهها إليه. يا عهـود. سـألها. هل ترغبين باسـتمرار حياتكِ الزوجيـة الحالية. ترددتْ، خلتها ستقول لا، لعلها في موقف قادم، لا، دائرة ما، عهود وسطها وأنا ادور حولها من أجلها، العلاقة قائد وتابع، تابعها منسي، يا منسي الساعة جـاوزتْ النصـف بعـد العاشـرة، رنّ جرس الهاتف، هفـا قلبي، خطفتُ السماعة، هذا أنا، كلانا، آسفة الخطِ الدولي كان مشغولاً، الإتصال وقد تحقق، ليتكَ معي، ليتنا، أعاود الاتصال بك غداً ليلاً العاشرة تماماً. من أيـن لمكالمـة هاتفيـة دامـت دقيقتين قدرتها على إعـادة صياغة مزاجي، عدّلـتُ وضـع جلسـتي، اسـترخيتُ، ملتُ برأسـي لظهـر المقعد، عيناي تواجهـان السـقف، صـدى صـوت عهود باق يتردد في اذني، وساوسـي كلّهـا، تعارضهـا او احتدامهـا، اخلـتْ مسـاحتها لنوع من سـكينة رائقة، الحـبّ مراتـب متفاوتـة، متى يبلغ الواحـد مرتبة الركون للقرين، علاقتنا بامتدادهـا سـنوات واصلناهـا بفـرح نـادر، كنتُ كلّمـا تأزّمنا بنـا التفتُ لداخلي اسألني إنْ كنتُ أحبّها، مفارقتها لي منذ ضحى اليوم أنا أحبّها، شـوقي يعتملني يحيلني شـفيفاً غير مؤهل لقراءة بوليسـية. لأنّي وعدتكِ أكتبهـا خبـط عشـواء زينـب، يحضرني مطلـع أغنية كويتيـة قديمة تنحو مكاشـفة حزينة، البارحة يا حبيبى ضاق صدري الناس نامت وانا نومي جفانـي، تتـردد برتمها المتباطئ فـي خلفية مخيلتي، أقول لكِ، البارحة، بعد كتابة متواصلة دامت ساعات، ضاق صدري لدرجة الاختناق غفلة،

جهد استعادة مواقف محددة عبر برزخ زمن تجاوز عقدين، ازماع احيائها من جديد، رصدها أو تمثّل تفاصيلها، فإنْ وفّتْ الاستعادة غرضها حلّ شعور مقطّر بالكمد يغالبه آخر بالفقدان، البارحة جمعتُ الأوراق حصيلة الجهد، اودعتها صندوقكِ إيّاه، ضيق الصدر يستلزم تغيير النمط، غادرت غرفة ملفّاتي، حوش مبنى مسرح الخليج فاره المساحة، الوقتُ جاوز الثانية بعد منتصف الليل، لا نأمة في الجوار، صمت السالمية مشبع رطوبة رغم اقتراب شهر أكتوبر من نهاياته، طفقتُ اذرع أرض الحوش دقائق، توجّهتُ بعدها صوب أريكة خشبية عارية مجاورة لباب الديوانية، جلستُ، لمّا يكبس صدر الواحد عليه يعاني خللاً مقيتاً في عملية التنفّس، يصبح الهواء المأخوذ شهيقاً غير كاف، غرفة شاب الخدمة كومار في الجانب المقابل عبر مساحة الحوش، لفتني انفتاح بابها فجأة، رأيتُ كومارَ يخرج منها، خلته لم يلحظ وجودي، اسرع نحو المطبخ، غاب هناك، تناهى لسمعي صوت غلاية الماء الكهربائية، ما الذي يفعله في هذه الساعة المتأخرة، مّرت برهة زمن، غادر كومار مطبخه سالكاً طريقه بالاتجاه، حاملاً صينية صغيرة تحملُ كوباً، وقف أمامي.هذا شاي. احتفائي لقاء مبادرته مابعد منتصف الليل يشوبه استغرابي، ابتسمتُ له، أخذتُ الكوب. كيف عرفت. أنتَ تحبّه. تنبّهتُ إلى إنّي بدأتُ أتنفّسُ دون ضيق، المشاركة الانسانية التي خصّني بها شريك المكان كومار كفيلة بتشتيت الهم، نهار اليوم التالي لسفر عهود مرّ اعتيادياً إلى حدٍّ ما، لم أصادف قلقاً حقيقاً، القلق نهج ارتباط يقينيّ بمكالمة الساعة العاشرة ليلاً، قبل التاسعة دخلتُ الشقّة، رابطتُ عند الهاتف، رواية جريمة فى قطار الشرق بمتناول يدي، بدأتُ اقرأ، شدّتني الحبكة البوليسية المحكمة للرواية ريثما انتشلني رنين جرس الهاتف، خطفتُ نظرة للساعة، هي العاشرة والربع، قالت عهود، أختها جود لم تتغيّبْ عن امتحاناتها النهائية كما ادّعتْ. هناك ما يدعوها

للبقاء في الشام. خير. أحدّثكَ بالتفصيل بعد عودتي للكويت. متى. بودّي أنْ أعود صباح غد لكن وضع جود يستلزم بقائي يوماً آخر، تمنّيتكَ معي هنا. هل اسألها إنْ كانت خصّتْ مقام السيدة زينب بالزيارة. ماذا عن قارئة البخت. ضحكتْ. إنتظر مكالمتي في مثل هذا الوقت غداً ليلاً. الحبكة البوليسية للرواية، الحبكة الدرامية للاختين عهود وجود، اجاثا كرستي تناور القارئ، ولا تكشف شخصية المجرم حتّى صفحة الختام. يوم ثالث لسفر عهود، بدءاً كان حدسكَ إنّ اطمئنانك على وجود الآخر هناك معلناً ازماع عودة وشيكة كفيل بتحقيق توازنكَ النفسي، مطلوب منكَ ملازمة نفسكَ، تذكيرها بين الحين والحين، ليس سوى انتظار موقوت بعودة، لمّا كانت عهود هنا، تفاصيل حياة يومية عادية، لا فعل لعامل اسمه رتم الوقت، الساعات وكذلك الأيام توالٍ تراكمي مرهون بكتابة مقال أو حضور لقاء في مقر المسرح، تواجد الآخر ماديّاً أمامكَ بمتناول عينيكَ، لا شيء يهمّ، ولا يهمّ انْ تبذل جهداً بتأكيد حّبكَ له، لا كلمة دالّة ولا نأمة، تكفيكما تفاصيل أيامكما المشتركة، جلوس حول مائدة طعام، السرير دثار واحد، مشوار المستشفى الصدري مصطحبين أمّكَ مرتين شهرياً، غياب الآخر بعيداً يعني أنْ لا شيء يهمّ سواه، هذا الفراغ الداخلي الآخذ بالاتساع إلى أين، اللهفة التى تُسارع الأنفاس، الشوق العارم والمعذّب، معاناة حضور الآخر الغائب متحققاً داخل الوجدان، يا منسي، تراكَ تكتشفكَ كما لم يسبق، تنفردُ بكَ، تقول لكَ، لوجاءت عهود لن اغفلني إنّي أُحّبها. دخلتُ الشقة حوالي الساعة التاسعة ليلاً أيضاً موطداً عزمي، استغلُ فائض الوقت بالانتهاء من كتابة مقالي الأسبوعي، اطبقتُ على الباب، فرشتُ أوراقي فوق طاولة الطعام، جهاز الهاتف قيد خطوات، أعملتُ ذهني، أفكاري تعتملُ هناك لكن مسألة تساوقها شأن ثان، لم يخطر لي إنّ تساوق الافكار وحالة الانتظار امران متضادان، اتخذتُ قراري، أشرع

بعملي الكتابي بعد مكالمة عهود، لم اشرع اكتب، عهود لم تتصل، دار حوار صامت بيني وبين الساعة، قبل العاشرة بقليل تركتُ الطاولة إلى مقعد يجاور جهاز الهاتف، الوقت رتم متباطئ يعلّ النفس، في العاشرة والربع تملكني شعور بالامتعاض، لماذا التأخير، في العاشرة والنصف وقفتُ، تلفّتُ حولي، صرتُ اذرع أرض الصالة جيئة وذهاباً، عند بلوغ الساعة الحادية عشرة قصدتُ المطبخ مُصيخاً سمعي نحو الصالة، أعددتُ كوب شاي، جاء الأخير من غير طعم، الثانية عشرة تناهبتني تساؤلاتي، ما الذي شغلها، هل استجدّ لديها ما يلهيها، لعلّها صعوبات الخط الدولي، عساها لم تتعرّض لطارئ ما، عسى اختها لم، مكالمتها البارحة أفادتْ، جود لم تتغيب عن امتحاناتها النهائية، لديها اسباب تدعوها للبقاء في الشام، احتمال وجود معضلة ملزمة لجود، احتمال انسحاب معضلتها على أختها عهود، وسط كل هذه التساؤلات ألفيتني أحمّل نفسي مسؤولية لا مبالاة مترتّبة عن سذاجة، لماذا لم أعنِ بمعرفة عنوانها هناك، رقم الهاتف على الأقل، كما يقضي الدورالمَفترض للزوج، الساعة الواحدة بعد منتصف الليل فتحتُ الباب المؤدّي للشرفة، النباتات تزدحم، نبتة البرتقال تتوسطها، جلتُ بعيني على الجوار، نوافذ الناس مطفأة عدا القليل منها، الأصوات تصل منكتمة، نزلتُ بعيني، الملحق يغرق في الظلام، أميّ تنام مبكرة، الحال معي إلي أين.
استيقظتُ ضحى اليوم التالي والألم يعصف برقبتي، غفوتُ جالساً في المقعد إيّاه، باب الشرفة باق مشرعاً، ضجيج الشارع يتسلل عبره، حانتْ عنيّ نظرة حاقدة لجهاز الهاتف، يؤلمني انّها وعدتْ تتصل حددتْ وقتاً، وبعكسه لا غضاضة من قبول أيّ عذر.حتّى أواصل يومي بشكل اعتيادي أزمعتُ استبعاد عهود بما يخصّها من واجهة مخيلتي ريثما يجدّ جديد، فكّرتُ أعود لأوراقي آملاً إنهاء مقالتي، لكنّي عدتُ صرفتُ الفكرة، الكتابة تحتاج صفاءً ذهنياً وأنا بلا، قصدتُ مبنى جريدة السياسة عصراً،

لحظة دخولي قاعة المحررين أمعن الزميل المسؤول نظره في وجهي. عيناك محتقنتان. عين المرء عنوان حالته، سألني إنْ كنتُ انهيتُ مقالتي، غاب عن بالي إنّي وعدته اسلّمه المقالة اليوم، ناورته. انهيتها لكنّي نسيتها في البيت. عقد حاجبيه مستنكراً. إعداد الصفحة الأسبوعية متوقّف على مقالتك. أعدك أجيئك بها غداً. حوالي الثامنة ليلاً دخلتُ الشقة، أوراقي باقية مكانها، عهود باقية مكانها في الشام، إنّ عنّ لها تجري مكالمة هاتفية أنا هنا، المقالة فكرة رئيسية توضّحها استطرادات فرعية، بدأتُ اكتب، ذهني طوع قلمي، بانتهائي من تسويد ورقة أولى غافلتني زفرة ارتياح، تطلعتُ للساعة، العاشرة الاّ قليلاً، يتوجب انْ لا يقلقني احتمال اتصال مَنْ، وضعتُ الورقة المكتوبة جانباً، بدأتُ أخرى، تعالى رنين جرس الهاتف، فزّ قلبي لدى سماعي صوتها. اشتقتُ لكَ، ظهر أمس قمنا برحلة طويلة دامت ساعات ذهبنا الى دير زور نزلنا في دار استراحة تشبه فندقاً صغيراً متواضعاً. هي في الشام، صوتها عندي، ما جدوى خوضها تفاصيل لا تعنيني، جاريتها. لماذا دير زور. عند عودتي تعرف. لو سألتها، متى تعودين. حاولتُ الاتصال بكَ البارحة، عدُنا لدمشق مساء اليوم، جود تُبلغك تحياتها. وجدتني اسألها. أظنها عائدة معك. لا. حفّزني فضولي. هل انهتْ جود دراستها الجامعية أم لا. انهتها لكنّها لن ترجع للكويت. نبرة صوتها تخفي ماذا. قالت. أنا عائدة غداً صباحاً. حلّق بي فرحي. هناك أيام في حياة الواحد غير قابلة للنسيان عنده مهما تقادم بها الزمن، سفرة امّكِ عهود تلك، يوم عودتها أيضاً، الأنّها أموري جديدة عليّ. وسط زحمة المستقبلين، حركة الناس حولي أجناس شتى، لغط الأصوات، تداخلها. الخطوط الجوية الكويتية تُعلن عن وصول طائرتها القادمة من. صرتُ اتطلّعُ نحو البوابة الزجاجية الخاصة بخروج أفواج القادمين، لحظة رؤيتي لها قادمة بالاتجاه تلاشتْ زحمة الناس، تلاشت الأصوات. أدري انا مجنونة. اطلقتْ ضحكة

قصيرة. أختي جود أكثر جنوناً. كنتُ أتولى قيادة سيارتها، الوقت منتصف نهار صيفي، حرارة الصيف أشدّها خارجاً، جهاز التكييف يعمل على تلطيف الجو في الداخل. خلال سنتها الجامعية الثانية تعرّفت جود على شاب سوري إسمه عبد الرحمن يدرس طبّ أسنان نشأت بين الإثنين صداقة حميمة آلتْ حباً. اسمعها، تابعت عهود رواية أحداث الشام دون اغفال تفاصيلها، هبوط طائرتها في مطار دمشق فاجأها وجود جود وعبد الرحمن باستقبالها، فاجأها أكثر طول قامة الرجل مقارنة بقامة أختها القصيرة، روحه المرحة وطيبته الظاهرة تشفعان له طول قامته، يكبرها عامين، اتفقا على الزواج، اقترح عبد الرحمن زيارة تعارف لأهله في دير زور، رفضتْ عهود اقتراحه، لولا الحاح جود. أخذتني جانباً، همست لي انّها تحتاج معرفة رأيي بعائلته، انتهينا لقرار يمثّل مَخرجاً مناسباً، تكون رحلة سياحية ليوم واحد، نسكن فندقاً، عبد الرحمن يتولّى جمعنا بأمّه وأبيه خلال دعوة غداء في مطعم. صدّق أو لا تصدّق، أبو عبد الرحمن دكتور أمراض باطنية وأمّه دكتورة أطفال، عائلة محترمة مثقفة، جود احسنتْ الاختيار، بيني وبينكَ أنا وجود اتفقنا نبقي الأمر سرّاً ولا نخبر أمّي خوفاً من زلّة لسانها أمام سعود، فإن جدّ الجدّ تمّ الزواج يحلّها حلاّل، أجمل مافي دير زور مزارع الشمّام على جانبي الطريق المؤدّي اليها، تشمّ رائحته الطيبّة وانتَ داخل السيّارة. منذ لحظة رؤيتي لعهود في المطار وأنا أتوق لاحتضانها، لكن المناخ الاخلاقي يستهجن احتضان الواحد لواحدة أو تقبيلها على مرأى من آخرين، صبّرتني ريثما صرنا داخل الشقة، أخذتها إليّ، صدرتْ عنها غمغمة خافتة لحقتها تنهيدة حارّة. منسي. صوتها يراوح مابين اللوعة والعتب، أحسستها تندسّ عندي، أحسستني أعانق فرحي، انتفض جسدها فجأة، كانتْ تنتحبْ. ماذا حدث. لم تجبْ، اقتدتها للصوفا، جلسنا متجاورين، غالبني جزعي. لماذا تبكين. سمعتها خارج توقعي. أنتَ

تحبّني. أمر غير مألوف أنْ يكون الحب مدعاة بكاء. احبكِ مُنذ رأيتك للمرة الأولى أمام مدخل صالة المسرح الدمشقي. دموعها تملأ عينيها. ذاك شيء وهذا شيء. كيف تتسنّى لي محاججتها، مالتْ عليّ دفنتْ رأسها في حضني، بلغني صوتها منكتماً. أنتَ الآن تحبّني حقيقة. من حينها اقبلنا عهود وأنا علينا، صرنا نمارس حبنا سلوكاً يومياً. سعود مشغول بنفسه. قالتها عهود ذات مساء. تابعت. لا يجد فسحة وقت لمطاردة أخبارنا أنا وجود. كنّا أوائل شهر نوفمبر، تمّ قبول سعود مدرساً في جامعة الكويت، عمله الاكاديمي المستجد يستنزف جهده كلّه.

مطلع عام 1990. بَدتْ الكويت كلّها وكأنها تستنزف جهدها، إحتدام رؤى الفرقاء من متعاطي الشأن السياسي، بلوغها مستوى الخصام أو القطيعة، الآثار المترتبة لحرب الثمان سنوات بين النظامين العراقي والايراني، الأجواء الاقليمية الملبدة، انسحاب ذلك على الداخل، محاولة اشغال الفراغ الذي خلّفه حلّ مجلس الأمة بمجلس وطني بديل حظي باقبال انتخابي محدود جراء مقاطعة شرائح شعبية واسعة، كانت الكويت كما يراها المراقب المهتم من الخارج أزمة مستعصية موقوتة بقدر ماهي مؤجّلة، حرية الرأي مرهونة بالرقيب، نشطت الديوانيات لردم جزء من هوّة الوعي، هبّت الأذرع الأمنية تعالج الموقف، مناسبة الأوّل من شهر ابريل سرتْ إشاعة مفادها، ممولون كويتيون يشترون جزيرة في المحيط الهادي غير بعيد عن الساحل الغربي للولايات المتحدة الامريكية، فهم البعض على إنّها وطن احتياطي، مما حدا ببعض آخر للتصحيح أو التوضيح، الجزيرة المشتراة تقع داخل حدود مثلث برمودا. مرّ شهر ابريل بصفته، في الاول من مايو جاءني مبارك سويد. رغم كونكَ تعمل في السياسة، ليس ما يدعوكَ لأن تنشغل بها. صوته لا يمتُّ للتحذير، احترتُ في تأويل مغزاه، سألته إنْ كان يعني انشغالاً بالهمّ السياسي أم عملي الوظيفي في جريدة السياسة. كلاهما. يا مبارك بن سويد تأتيني

عاصفة صغيرة تطالبني كيف. أوفّرُ لكَ فرصة عمل تبعدك عن دائرة خطر العمل في الميدان الصحفي. لستُ في دائرة الخطر. احتاج مساندتك لي لقاء مرتّب شهري يفوق مائة دينار جريدتك. أصغيتُ له، قال، فرصة العمر تأتي لمرة واحدة، صادفَ تاجراً ليبرالياً ذا طموحات فنيّة، لديه رغبة إحداث تحوّل نوعي على طبيعة الأعمال التلفزيونية السائدة، قررتأسيس مشروع متكامل، آلات تصوير، أجهزة إضاءة، معدات صوت عدا عن سيارتين مجهّزتين للتصوير الخارجي، استديو متنقل، التاجر الممول موجود في المانيا الآن، مبارك سويد على اتصال يومي به، جار شراء المعدّات، سيصار الى شحنها بحراً، إستأجرنا مكتب إدارة في بناية تطلّ على شارع تونس غير بعيد عن بيتك. أنا لا افهم في قضايا الانتاج التلفزيوني.أنتَ تتولى مسؤولية إدارة المكتب، لا تخذلني. هل أسلّم له. كيف أتركُ العمل في الجريدة. اطلب اعفاءك منه. أنتَ تحرجني مع الجار الله. أنا أتكفّل به. في مكتبه الفاره أصغى أحمد الجارالله لِما افضى به مبارك سويّد. بالتوفيق إنْ شاء الله. رددها راضياً. إلتفت إليّ. لا تقطع شعرة معاوية واصلنا بكتاباتك كلّما سنحتْ لك الفرصة. جاءني مبارك سويّد بشاب كردي لم يبلغ العشرين بعد إسمه عدنان كي يقوم بأعمال الخدمة والتنظيف. متى نبدأ. بعد وصول المعدّات. يوم 28 يوليو وصلتْ المعدّات ميناء الشويخ، نشطنا لاستلامها، فاجأنا أحد الموظفين سلّمنا كاميرا محمولة وبضعة أجهزة. ماذا عن الباقي. مطلوب شهادة منشأ مصدّقة هناك، تفيد بعدم تعامل الشركة المنتجة مع الكيان الصهيوني. صرفنا حالنا محبطين من مكتب موظف جمارك الشويخ، الاتصال بالشركة المنتجة والحصول على الأوراق المطلوبة يستغرق أسبوعين، سمعتُ مبارك سويد يغمغم مقهوراً. لو أفهم. كُنّا صبيحة يوم سبت ومادار في بال أيّ منّا إنّ يوم خميس اسبوعنا ذاته سيكون مفصلاً جللاً.

الآن، وسط قنوط ما بعد منتصف ليل خريفي ينذر بشتاء قارس، وسط غرفة مسرح الخليج في السالمية، تحوطه أرفف ملفّاته يجلس متربّعاً فوق سجّادة أمّه بمواجهة صندوقكِ الأسود. أبوكِ وهو يزمع الكتابة اليكِ زينب يصادفه ما يشبه الخرس، ينتاب قلمه ارتباطاً بارتباك وعيه، يستعير لازمة أمّكِ، صدّقي أو لاتصدّقي، يحفّزه واعز الكتابة قصد الافضاء، كمن يحرّكه دافع التخلّص مما يثقل كاهله، في الحين الذي يري نفسه عاجزاً عن أنْ يتقمّص ذاته، يستعيد معايشة أيام سابقة لحدث كابوسي قدر ماهو غرائبي، معضلته إنّ زمنه ذاك يحضره مضبباً يشفّ ولا يشفّ، يتراءى له وكأنّه خارجه أو على الهامش منه، لعلّ حاسة الشم وقد هيمنتْ على ما عداها ولّدتْ ما يشبه البلادة. كان طوال أيامه الخمسة الممهدة للثاني من آغسطس يشمّ رائحة شواء معدني لا عهد له به، رائحة غامضة مدوّخة ناتجة عن احتراق شيء غير مرئي يتشرّب الهواء المحيط، يهيمن على الموجودات كافّة. هناك بقيّة من حسن حظ. قالها مبارك سويد صباح يوم الأحد، شريكه الذي مازال موجوداً في المانيا تعهّد بانجاز أوراق مطلوبة لتسلّم المعدّات. سكت هنيهة ختم بثقة. مسألة وقت. صباح يوم الاثنين قصدتُ إدارة مرور العاصمة لغرض تجديد إجازة القيادة، وقفتُ أمام شباك الموظف المختص. تفحّص الموظف طلب التجديد، تفحّص وجهي، القى بالطلب في درج مكتبه. إمشِ. تحاملتُ على شعوري بالمهانة. متى أجيء لتسلّم رخصة القيادة. صدرتْ تعليمات تقضي بعدم التجديد للبدون، يضيق المكان أو يضيق الصدر، ما الذي يريدونه بالضبط، هناك من يقول حصولكَ على حق المواطنية آتٍ لا محالة، أنتَ مُدرج ضمن قوائم معدّة، وهناك من ينهركَ. إمشِ.أمشي إلى أين. استقبلتني عهود بوجه يشعّ فرحاً. لدي خبر يسرّكَ. لم أشأ تنغيصها لحظتها، كتمتُ خبري. كانت باستقبالى عند باب الشقة، أخذتني من يدي إلى الصوفا،

أجلستني. لا تتفاجأ. تناولتْ حقيبة يدها، انتزعتْ مظروفاً أنيقاً، شعار مستشفى هادي يتصدّر المظروف، أستلُّ أوراقاً، أقرأ ما يفيد بأن نتائج فحص الحمل إيجابية، كنتِ أنتِ يا زينب، هكذا تلقّى ابوكِ نبأ تشكلّكِ داخل رحم أمّكِ. أخفيتُ الأمر عنكَ ريثما تأكدتُ. عهود تحتفي، مطلوب مشاركة منسي، جهدتُ ازيّن فمي بابتسامة واسعة. مبروك حبيبتي. ألف مبروك لكَ حبيبي. كما تبادُل الأنخاب، أمّي حال معرفتها الخبر يبيتْ، حضنتْ كنّتها، همستْ لابنها. لو مُتُّ الآن أموتُ مرتاحة البال. وما انبرى أبوكِ صحح لها. راحة بال البعض تحلّ بهم بعد موتهم. رأيتها تدلل على احتفائها بعهود، إقتادتها نحو السجّادة العتيدة إيّاها، أجلستها فوقها، قرفصتْ أمامها، مدّتْ يدها لرأس عهود احتنتهُ قليلاً، رتّلتْ عدداً من قصار السوَر، نهضتْ، همّتْ عهود بالنهوض أيضاً، استمهلتها الأخرى، ارتأتْ عليها البقاء حيث هي ريثما تُبخّرها بالحرمل، وددتُ لو استجيب لفرحهما أشاركهما به حقيقةً، لولا الغم المتسيّد لداخلي، خلفة البدون بدون. صباح الثلاثاء استيقظتْ عهود مبكرة ترفل بحيوية ملفتة. اليوم موعد مراجعة خالتي للمستشفى. يريحني اهتمام المرأتين بعضهما البعض ولا اجزم باعتدال مزاج إحداهما إلى مالا نهاية. تولّتْ عهود قيادة سيارتها، جلستُ إلى جانبها، أميّ في المقعد الخلفي، السيارات زحمة أقل من المعتاد، أروقة المستشفى الصدري شبه مقفرة، الوجوه القليلة التي صادفناها تحمل انطباعات بالقلق والترقّب، إذاعات النظام العراقي تشنّ حملة إعلامية متوعّدة تجاه الكويت متهمة إيّاها انّها استغلتْ سنوات حرب العراق مع جارته إيران واصلتْ سرقة كميات نفط خام هائلة من حقل الرميلة الشمالي مستفيدة من انحدار منسوب الأرض عندها، عدا ذلك عمدت لإغراق الأسواق النفطية، بما تسبب في خفض الأسعار هادفة لضرب الاقتصاد العراقي، عدا ذلك استقدمتْ أجهزة طباعة أوراق نقد، عمدتْ

لتزييف العملة العراقية، عدا ذلك ارتضتْ لنفسها تحالفتْ مع الاستعمار والإمبريالية العالمية لضرب المنجزات الحضارية لعراق المجد، عدا ذلك. النظام إيّاه حشد قوات كبيرة بكامل أسلحتها على طول الحدود الفاصلة بين العراق والكويت، المتفائلون من قُرّاء الشأن السياسي أفادوا. لاهدف لحشد هذه القوات سوى تعزيز موقف العراق عبر مطالبته بحقل الرميلة النفطي، أو إنّها ورقة مساومة تهدف لإسقاط ديون الكويت على العراق البالغة ثلاثين مليار دولار. المتشائمون قالوا. في حال فشل جهود الوساطة بين طرفي النزاع ستبادر وحدات من الجيش العراقي لاجتياح الحدود الكويتية الشمالية من أجل الاستيلاء على الآبار النفطية هناك. أحد أقطاب المعارضة العراقية من المقيمين في لندن أجاب على سؤال وجّهته مذيعة قناة فضائية أمريكية. نظامنا القائم يعاني أزمات داخلية مستفحلة تتهدد وجوده بما يستدعيه لاشغال شعبه عنوة بحروب يفتعلها مع جيرانه، ولأنّه فشل في عدوانه على جارته إيران حلّ دور الحلقة الأضعف، جارته الصغيرة الكويت. مساء يومنا ذاك، عودة ابيكِ ماشياً من مكتب شارع تونس استقبلتني امّكِ عهود وهي بكامل زينتها، صوتها يلامس أنوثتها. أرجوكَ لا تعارض. لم اعرف ما الذي يجب أنْ لا أعارضه لكني رأيتها أنثى دانية. لن أُعارض. مالتْ عليّ ضاحكة. نحتفل بالمناسبة. مناسبتها كما أحدسها ليست سوى مظروف مستشفى هادي، في حين إنّ المناسبة الطاغية حرب وشيكة. لا تأبه لإشاعات رخيصة تتناقلها وسائل إعلام غير مسؤولة، نحضر فيلماً سينمائياً. قالتها صيغة اقتراح أضافتْ. بعد الفيلم نتناول عشاءنا في مطعم فندق شيراتون. لأنّه احتفالها أوكل أبوكِ مهمّة اختيار دار العرض لها، شمس الكويت وقتها تؤذن بغروبها. يجب أنْ تعرف، هاتفتُ عمي فرحان فاتحتهُ حول موضوع رخصة القيادة وَعَدَ بالتوسّط لدى صديقه المتنفّذ في وزارة الداخلية. صالة دار السينما شبه فارغة،

الـرواد الآخـرون لا يتجـاوز عددهم أصابع اليـد، البرنامج إعادة عرض فيلـم طـار فـوق عـش الوقواق بطولة الممثل الامريكي جاك نيكلسـون، مستشفى أمراض عقلية، النزلاء المجانين يضيقون ذرعاً بالنظم الصارمة يتمرّدون، عهود تضحكُ ملء الفم، حوالي الساعة العاشرة ليلاً أخذتني عهـود لأحـد مطاعـم فندق شـيراتون، المـكان خال عدا تواجـد الندّل. الناس يعانون حالة تشـاؤم. قالت عهود. يخيّل لهم إنّ الحرب توشـك. قالت عهود. وهي في حقيقتها حرب تصريحات واسـتعراض عضلات انّما على مَنْ. قالت عهود اطلقت ضحكة مرحة دالّة على. أبوكِ زينب يحسنُ فنّ الانصات، بعد انتهائنا من تناول الطعام. جالتْ عهود المكان بعينيهـا، أطلقـتْ زفـرة أسـيانة، كانت السـاعة جاوزتْ حادية عشـرتها. الكويت أيام زمان أجمل. حنينها يتشـرب صوتها. أتذكّر ماقبل عشـرين سنة، كان أبي يصحبنا جميعاً للعشاء والسهر خارج المنزل مرّة كلّ شهر، أيامنا تلك الناس غير، مطاعم الفنادق غير، غالب الأحيان تضطر لحجز طاولتك قبل يوم أو يومين لشدّة الزحمة، هناك فرقة موسيقية لكلّ فندق. شـفّ صوتهـا أكثـر. أتذكـر أبي وهـو يراقص أمّي أو يراقصني. سـكتتْ ثانيتيـن، تسـاءلتْ مسـتنكرة. مـا الـذي حدث لنا. ادريهـا مؤهّلة تواصل حديثهـا سـاعات. حـدث إننـا شـارفنا منتصـف الليـل. مغادرتنـا فنـدق شـيراتون، هواء الليل يتشـبّع رطوبة، سلكتْ عهود طريق الدائري الأوّل بامتداده حتى شارع الاستقلال، أثار اهتمامنا خلو الطريق من السيارات. الإقفـار مدعـاة إحسـاس بالوحشـة. أمـر غيـر عـادي. غمغمـتْ عهـود متوجّسة، هاهي بداتْ تتنبّه لما يدور. كأن الكويت خلتْ من ناسها. لا أعارضها توصيفها. أو إنّهم لاذوا ببيوتهم مبكرين. دخلنا منعطف شارع الاسـتقلال، السـكون الشـامل يعم الجوار، لا صوت سوى دوي محرّك سـيارتها. هناك شـيء غيرعادي. الخوف. لم تتريّث عند تعقيبي، زادتْ من سرعة سيارتها، اجتيازنا لجسر الدائري الثاني فاجأتنا زحمة مرورية

تقطع الشارع بالاتجاهين، لاحظتُ تواجداً أمنياً كثيفاً، سيارات شرطة النجدة تصطف على جانبي الرصيف، رجال الامن يتولون التفتيش. ما هذا. تساءلتْ عهود منزعجة، أوقفتْ سيارتها آخر الطابور، تذكرتُ وجود مبنى السفارة العراقية على يسار الطريق أمامنا، اجتهدتُ أبرر. اجراءات امنية اعتيادية. نهرتني غاضبة. أين وجه الاعتياد. تحرّك طابور السيارات وئيداً ريثما وصلنا الدور، انزلتْ عهود زجاج نافذتها، قرّب أحد رجال الأمن رأسه، أطلّ متفحصاً، قال بصوت آلي. بطاقاتكم المدنية. جفّ فمي بغتة، حساسية الوضع الأمني، منتصف الليل وأنا بدون اثبات شخصية بعد مصادرتهم رخصة القيادة، بادلتني عهود نظرة حائرة، استلّتْ بطاقتها المدنية من محفظتها، دفعتها لرجل الأمن، احتفظ الأخير بها أومأ صوبي مُبقياً آلية صوته. البطاقة المدنيّة. ما عندي. أنتَ وافد. لا. هل لديك مايثبت. في البيت. عقد حاجبيه ممتعضاً، اغفل وجودي، التفتَ لعهود. رخصة القيادة ودفتر السيارة. الموقف بالتأزّم المصاحب، شَحَبَ وجه عهود، رأيتُ خوفها يطلّ من عينيها، اضطربتْ حركة يدها وهي تسلّم لرجل الأمن طلبه، احتفظ الأخير بالاوراق في يده، استدار حول السيّارة، فتح الباب الكائن عندي، صوته باق آلياً. انزل. وأنا أهمّ أترجّل صرختْ بي عهود مفزوعة. وين بتروح. كأني المسؤول عن. أَسَمَعني رجل أمنهم أمره ثانية. انزل. تساءلتني عهود مفجوعة. تخلّيني بروحي. لا مفر من استجابة النزول، اطبق رجل الأمن باب السيارة، أشار إلى فسحة أرض قريبة. قف هناك. أشار لعهود. اركني السيارة قرب الرصيف. عهود لم تستجب تركن سيارتها، جاشتْ بها مشاعرها، تعالى نحيبها. أقف هناك، اقترب منّي رجل امن برتبة عريف. لماذا تقف هنا. بناء على أمر من أحدكم. ما الذي فعلته. من غير إثبات. تعال معي. أخذني لعند سيارة الدورية، فتح بابها. اركب. ليست معاناة الضيم وحدها، لا المهانة وحدها، لكنه الضياع في الزمن،

إزداد طـول طابـور السيارات، سيّارة عهـود باقية تعتـرض الطريق، تنبّه ضابطهـم لمـا يـدور توجّـه إليها، رأيته ينحني عندها، لعلّه وضّح شـيئاً، لعلها لم تجب بشيء، تقدّم ذاك الذي أخذ أوراق عهود دفع بها للضابط. لعلّه وضّح شـيئاً، رأيت ضابطهم يقترب من سـيارة الدورية، فتح بابها. ما علاقتك بتلك المرأة. زوجتي. هل لديكَ مايثبت. الأوراق في البيت. سـكتَ برهة. انزل. سـارعتُ نزلتُ. هل أنتَ كويتي. أنا بدون. سـكتَ برهـة، دفـع الاوراق إلـي. أشـار نحـو عهـود. خُذهـا للبيـت. المعنـى المسـتخلص إطلاق سـراح. شـكراً. احرص على حمل أوراقك الثبوتية معكَ. حاضر. لن اغفر لكَ. رددتها عهود وهي تكفكف دموعها. تركتني وحدي وسـط عشـرات الشـرطة. من أين لي بكلمات تفي غرضنا حقّه، كنتُ أتولّى قيادة سيارتها مواصلين طريقنا باتجاه النقرة، كان الوقت ما بعد منتصف ليل، فارق الزمن عن الآن عشرين سنة، الذاكرة في حالات منهـا لا تسـتجيب طواعية للطلب لحظـة الكتابة، أُصدقكِ القول زينب، يصـدف لـي أعجـز عن اسـتحضار وجه أمّـكِ، أراه يتفلّتُ يتسـرّب عبر ثقوب الذاكرة، فإنْ الححتُ جاء كياناً مراوغاً مندغم الملامح، اغضبُ منّي أو أتأسّـى لي. قيل، والعهدة على علم النفس التصالحي، لا وعي الإنسـان عامّـة يعمـل عفويـاً، يطمس تفاصيل مواقف مسـببة للألم، وما وردتْ فـي علـم النفـس إيّاه إجابة لسـؤال مفاده، مـاذا لو كانت حصيلة عمر الواحد ألماً عامّة.

وكالات الأنبـاء العالميـة تتابـع نتائـج اجتمـاع الوفديـن الكويتـي والعراقـي فـي مدينـة جـدّة، محاولة التوصّل لاتفاق ينهـي نزاع الجارين الشقيقين، إذاعاتنا العربية تنزعُ لتقديم الخبر مموهاً منقوصاً، حرصاً على حيادية إعلامية مسؤولة، بما يدفع المتابعين القلقين للبحث عن مصادر أجنبيـة لمعرفـة الحقائـق، إذاعـة مونت كارلـو الناطقـة بالعربية وكذلك إذاعة لندن، فشل المفاوضات بين الوفدين العراقي والكويتي ولا سبيل

لاتفاق ينزع فتيل الأزمة، عودة أعضاء الوفدين لبلديهما، إحدى إذاعاتنا العربيـة، هنـاك بضعة أمـور مازالت عالقة، جرى اتفاق بالعودة لمواصلة المفاوضـات فـي وقـت لا حـق، في وقت لاحق من نهـار يوم الأربعاء الأول من آغسـطس سـرتْ إشـاعة ترقى لمسـتوى الحقيقة، حال عودة الوفـد العراقـي المفـاوض لبغـداد دُعـي مجلـس قيـادة الثـورة لاجتماع عاجـل، جـرى إتخـاذ قـرار شـنّ الحـرب. تزاحمتْ جمـوع غفيرة على أسـواق الجمعيات التعاونية ومحال بيع المواد الغذائية بقصد شـراء ما يمكـن، اسـتعداداً لحـدث محتمل، تلافياً لارتبـاك غير مبرر صرّح ناطق رسمي. الكويت تمتلك مخزون غذاء يكفيها مدى ستة أشهر دون احتياج للخارج. تزامناً مع التطمين الغذائي جرى تسريب تطمين أمني. الحرب مستبعدة ولا مبرر لأخذ الإشاعات على محمل الجد، بعض الأنظمة لا تجيد سوى التهديد والبعض الآخر يحاول إذكاء نار الفتنة. ليلتنا تلك، طلبت عهود من أمّي البقاء معنا في الشقة، رابطنا نحن الثلاثة أمام شاشة التلفزيون حتّى الساعة الثانية عشرة، أمور الإعلام الكويتي بدتْ اعتيادية شـأن أيـام سـبقت، جهود الوسـاطات العربية والدوليـة قائمة وخلافات الأشـقاء مؤهلـة لأنْ تُحـلّ بالتراضي. اثر إنسـحاب أمّـي لملحقها آوتْ عهود لسريرها، لم تكن بي حاجة للنوم، ذهني حالة احتدام مبهم، شيء أشبه بالترصّد، انتظار معبأ حسّ استثارة غير مدركة، فتحتُ باب الشرفة، سمعتُ صوت حارس البناية العم عبدو يدعو ربه. اللهم احمنا واشملنا برحمتك. رأيته يذرع الساحة الكائنة أمام البناية. راودتني فكرة الخروج، المحنة إغراء مشاركة، غادرتُ الشقة، بادرتُ العم عبدو التحية. أنتَ لم تنم. أنتَ لم تنم. كأنّه اتفاق مُسبق، بعد قليل اقترب منّا جار فلسطيني كهل، لحق به كهل سـوري، ليكتمل عددنا بانضمام شـاب لبناني سَـكَنَ العمارة حديثاً. كنّا عيّنة عربية مصغرة، خطر لي لحظتها تساؤل غريب، لو دفع النظام العراقي جيوشه داخل الكويت سيواجه بمن، تواتر حديثنا

حـول مـا أُطلـق عليه توصيف الأزمـة العراقية الكويتية، بـدأ العم عبدو حديثـه مُسّبقاً بزفـرة أسـف. لولا لقمـة العيش ما بقيـتُ منتظراً وصول جيوش صدّام حسـين. بادره الشـاب اللبناني. أنتَ متشـائم عم عبدو. يا ليت. انبرى الكهل الفلسـطيني. الحرب واقعة لا محالة، صدّام حسـين لا يحشد كلّ هذه الجيوش للاشيء. اجتهد السوري. لا أظنّه غبياً لهذه الدرجة، لأنّ حربه على الكويت تعني نهاية نظامه. ضحك العم عبدو. أقترحُ عليك هاتفهُ انصحهُ بالتروي. تدخّل الكهل الفلسـطيني. للأسـف الشـديد صدّام حسـين أهوج، والانسـان العاقل لا يأمن لأهوج. ضحك الشاب البناني. قلُ لي أين هو العاقل.

كما لو إنّ شـخصاً متطفّلاً يلحّ عليّ لأمر أجهله، يتملكني شـعور بالامتعاض، لماذا الاصرار اللامبرر، وهلة خاطفة تفصل إزماع الصحو عن الصحو التام، فتحتُ عيني، الظلام أقرب لأن يكون دامساً عدا حزمة من أنوار الفجر الرمادية تتسرّب عبر شق في ستارة النافذة، دوي وحدة التكييف يتواصل رتيباً، عهود مستسلمة لنوم عميق، تنفسها المنتظم يشير لذلك، حشدتُ ذهني محاولاً تذكر الأمر الذي استدعى استيقاظي، ربما جـرس الهاتـف أو جـرس الباب أو ماذا، أصخـتُ السـمع، لا نأمة تدل، خطـر لـي إنّهـا نهايـة حلم هارب، تسـاؤلاتي وإصاختي السـمع أخذتْ لحظـات، قـررتُ اثرهـا مغـادرة السـرير بغية التأكد، اسـتعاد ذهني نتف حوار ما بعد منتصف الليل مع حارس البناية العم عبدو وبعض جيران السكن، ها نحن ازاء نهار يوم جديد لا أحد يجزم بالآتي، غادرتُ غرفة الزوجية، توجّهتُ مباشرة إلى باب الشقة، لعلّ هناك من ينتظر، فتحته، لا أحد، العتمة والسـكون يشـملان الجوار، اطبقتُ الباب، حانتْ عني نظرة لجهاز الهاتف، الأخير لا يُفصح، وقفتُ وسط الصالة متلفتاً حولي، الأشياء باقية في أماكنها، وهذا الهاجس الغامض ينتابني بدءاً من أنفي، خلتـه يشـمّ رائحـة معـدن محروق، الرائحة الغريبة إيّاهـا تعود تلحّ عليّ

لتستنفر حواسي كافة، قادتني قدماي نحو باب الشرفة، فتحته، واجهتني زحمة النبتات، لم يتشمم أنفي رائحة أوراق نبتة البرتقال، طغيان رائحة الشواء المعدني حال دونها، اقتربتُ من الحاجز الحديدي، أنوار الفجر آخذة تنتشر تدريجياً، لمحتُ رجلين يحثّان خطوهما مبتعدين صوب منعطف الطريق، مرّتْ شاحنة صغيرة أعقبتها سيارة شرطة نجدة قبل أنْ اسمع دوي محرّك طائرة مروحية، الصوت قادم من ناحية طريق الدائري الثالث، خلته يقترب، في اللحظة حدث أمر غريب، شاهدتُ مايشبه كرة نارية عند الأفق الشمالي، أعقبها مباشرة انفجار هائل ترافق مع ارتطام معدني مدو، أرهفتُ السمع، لا أثر لصوت محرّك الطائرة المروحية.

على افتراض اجتياح جيوش نظام صدام حسين لحقل الرميلة النفطي، من أين للطائرة المروحية امكانية تواجدها فوق طريق الدائري الثالث، أُرابطُ في الشرفة، اشملُ الجوار بعيني، ناس عديدون صاروا يتدفّقون للشارع، هم مثلي يجهلون مايدور، أرى البعض منهم يشير باتجاه الشمال، خيط دخان بدأ يرتفع هناك، الطائرة التي أُسقطتْ آخذة تحترق، هذا ما يتوجّب استنتاجه ولا من يجزم بالاستنتاج الأهم، إنْ كانت الطائرة المعنية تابعة لجيش غازٍ أم تبعية كويتية. ازدادتْ أعداد الناس في الشارع، تعالى لغطهم، لم ارصد وجود شخص كويتي بينهم، العوائل الكويتية الساكنة منطقة النقرة نادرة، الكويتيون يفضلون العيش داخل مناطق مقصورة عليهم، باب الملحق مايزال مقفلاً، أمّي هناك، تناهى إلي صوت رنين جرس الهاتف. لحظات أولى للمكالمة الهاتفية لم أتعرّف صاحب الصوت، لم يبدأني التحيّة، سمعته يقول مفجوعاً. الكويت راحت يا منسي. حسّ الفجيعة يصيبني بعدواه رغم عجزي عن استيعاب القصد كلّه، انتابني وهن غريب نشب في ركبتي، مالذي يحدث معي، تداعيتُ جالساً أرضاً، سماعة الهاتف عالقة بيدى، إتسع وعيي فجأة، أنا المعني، تطامى صدري، كدتُ أسمع خفقان قلبي، الكويت تخصّني، تمالكتُ صوتي، سألت الآخر. من أنتَ. نبيل الطرابلسي. المصيبة الكبرى تُشتتْ الأذهان، نبيل أحد محرري صفحات الأخبار في جريدة السياسة، سمعته يسأل. كيف حال منطقة النقرة. أغفلتُ إجابة سؤاله في حينه، كنتُ نهب قلق عات ينزع للمعرفة، سألته عمّا يحدث. الكويت منذ ساعات تتعرض لاجتياح عسكري ضارٍ، جيوش النظام العراقي اجتاحتْ الحدود، أكملتْ السيطرة على المناطق الشمالية،

دخلتْ وسط البلد، إحدى فرقها المؤللة تحاصر قصر دسمان حيث يسكن أمير البلاد، القصر يتعرّض لقصف عنيف، احتلوا مبنى وزارة الإعلام في شارع السور، فرقة أخرى حاصرتْ مطار الكويت الدولي، نبيل يسكن منطقة الشعب البحري، هاهو من نافذة في شقته يرى إحدى كتائب جيشهم تحاصر قصر الشعب سكن ولي العهد رئيس الوزراء، المعتدون يستهدفون القيادات الكويتية العليا. سماع الكلام باستيعابه. يا منسي. يُلفتُ إهتمامي. أنتَ تسكن منطقة النقرة ماذا يحدث عندكم. يا زينب، أنتِ لم تعايشي حدث الاحتلال من قريب أو بعيد، أنتِ وُلدتِ بعد تحرير الكويت بشهر ونيّف، في حين إنّ التأريخ الملتبس للاحتلال يتماهى مع التاريخ المنسي لأبيكِ بما يؤهلني لأن أوضح لكِ. سبق أنْ قرأتُ عن الاغتصاب في روايات عدّة، تابعتُ اعترافات أشخاص تعرضوا للاغتصاب لأسباب ذات طبيعة جرمية أو عبر حالات ذات طابع سياسي. ردود أفعالي تجاه قراءاتي أو متابعاتي تلك اقتصرتْ على انحياز عاطفي للضحية وشعور بالكراهية تجاه مرتكبيها، لحظة انهاء زميل السياسة نبيل مكالمته، لحظة انهياري جالساً أرضاً، ذهني حالة ضياع غير مسبوق، تملكني شعور بدا كأنّه واقعي، أنا أتعرض للاغتصاب بردّ الفعل الموازي، القهر، الحقد، معاناة الغدر، امتهان ماهو انساني، رغبة عاتية وعاجزة في الوقت نفسه بردّ الصاع، وسط هذا كله، خلاله أو بالتزامن معه شملني هامش رضا داخلي خلص بي، أنا أحبّ الكويت حقيقة، شمولية الحب تُثمر احتراماً للذات، عهود باقية مستغرقة في نومها لو أيقظتها ما الذي أقوله لها، صعوبة إبلاغ الخبر، قررتُ تجنيبها وقع المصاب التو. أصوات الشارع تتسرّب عبر باب الشرفة، منطقة النقرة مزحومة بالمقيمين العرب، غالبيتهم من الفلسطينيين، طبيعة ردود افعالهم كيف، تواجد آلاف العراقيين، جلّهم يعارضون نظامهم سياسياً، موقفهم مما يدور، مصيرهم المنتظر، الحدث الآن هل سيكون طارئاً

يدوم زمناً قصيراً ينهيه تدخّل طرف ثالث أو وساطة دولية، ماذا لو جاء غير طارئ، وإنّ قيادة النظام العراقي خططتْ لإلحاق الكويت نهائياً، كنتُ بأمس الحاجة لمعرفة ما يدور، تحرّكتُ نحو جهاز التلفزيون، الارسال لم يبدأ بعد أو لا إرسال بالمرّة، ليس سوى المذياع، ولا مذياع هنا في الشقة. رحنا بداهية يا استاذ منسي. رددها العم عبدو مفجوعة لمّا التقيته في ساحة البناية، دموعه تملأ عينيه، أشدُّ أزري أم أزره، من أين لي بكلمات تناسب الموقف، عزّ عليّ انكساره. قُل لا إله إلاّ الله عم عبدو. استجاب لا هجاً. لا إله إلاّ الله. تهدّج صوته داعياً. عساه ينتقم من الظالم. لم أتريّث أمامه، توجّهت لباب الملحق. ماذا يحدث يا منسي. استقبلتني أمّي بسؤال ملتاع مشبع حيرة، اختصرتُ ردّي. الديرة تتعرّض للغزو. أسمعتني صيحتها الملتاعة. سوّاها المجرم صدّام. تجاوزتها مسرعاً نحو دولاب ملفّاتي، أتذكرني أحتفظ بمذياع ترانسستور فوقه، نفضتُ الغبارعن المذياع، هدر صوت رجالى بلكنة عراقية. ثار الشعب الكويتي على حكامه الخونة شكّل مجلس قيادة مؤقتاً بادر طلب مساندة عراق العروبة هبّتْ وحدات من الجيش العراقي لنصرة الاشقاء. يعتملني حقدي، يقتحم أحدهم عليك بيتك يستبيحك ليقول لك جئتك استجابة لنداء استغاثة منك، أحرّك مؤشر المذياع، أصادف صوتاً كويتياً يناشدُ الأمة العربية، يُهيب بدول العالم كافّة أنْ تتدخل توقف العدوان. الحدث الأكبر يطمس معالم أحداث صغرى مصاحبة أو مواكبة، تقادم العهد على يوم أوّل احتلال، احصرُ ذهني، اجمعُ شتاته، استعيدُ فسحة زمن من نهاري ذاك، وقته المبكر تحديداً، أراني حاضناً مذياعي الصغير، أُحرّكُ مؤشره متنقّلاً بين محطات بث شتى، الضجيج والتشويش، وضوح الصوت أحياناً يتقاطع مع صفير حاد أو عصف ريح مجهولة المصدر، كنتُ أقف أمام دولاب ملفّاتي، أمّي تقفُ إلى جانبي، هي مثلي تتحرّق فضولاً لمعرفة أين نحن، أيننا مما يدور، ما الذي يجدر

بنا أنْ نتوقعه. هل أُعدُّ لكَ الشاي. حنان الأم رغم الظرف يبقى حاضراً، في اللحظة تذكّرتُ الشقة. وجوب ذهابي عهود نائمة. كلمة نائمة تتضمن مايعني، هي لم تُصدم بعد، حثثتُ خطوي خارجاً حاضناً مذياعي، لحق بي صوت أمّي. أروح معك. الملمّات تجمع الناس، تجعلهم أقرب لبعضهم، نشدان هامش اطمئنان وصدى الذات عند الآخر، دخلنا الشقة حيث العتمة جرّاء الستائر المسدلة، أصختُ سمعي صوب الباب الموارب لغرفة الزوجية، لا نأمة، عهود تواصل نومتها، خطفتُ نظرة لساعتي، قاربت السادسة صباحاً، أزحتُ جانب ستارة نافذة الصالة، الأنوار النهارية للثاني من آغسطس مغايرة عن أنوار نهارات اخرى، سمعت أمّي تُخبّر. أعدُّ الشاي. توجهتُ للشرفة حاملاً مذياعي، نشط أنفي يتشمم الجوار، رائحة المعدن المشوي بنكهة البارود، الناس حركة متواترة في الشارع، جيران البارحة يتحلّقون حول العم عبدو، السيّارات قليلة المرور، وإن مرتْ عبرتْ مسرعة، أعملتُ أصابعي بمؤشّر مذياعي. مندوب الكويت لدى الامم المتحدة يطلب عقد اجتماع عاجل لمجلس الأمن الدولي من أجل ردع المعتدي ومطالبته بسحب جيوشه إلى ماوراء الحدود فوراً، أنباء مؤكدة تفيد إنّ وحدات الجيش الكويتي على الرغم من عدم التكافؤ مازالت تبدي مقاومة شرسة للحدّ من تقدّم جيوش النظام العراقي، أنباء مؤكدة أخرى، عدد من طائرات سلاح الجو الكويتي توقع إصابات مؤثرة بالآليات المتقدّمة داخل الأراضي الكويتية، نقلاًعن مصدر رسمي عراقي، العراق لا يعتزم احتلال الكويت وسيبادر لسحب قواته حال استقرارالأوضاع، بيان لمجلس قيادة الثورة الكويتي يعلن فيه فرض منع التجوّل بدءاً من الساعة التاسعة صباحاً وحتّى إشعار آخر ويناشد المواطنين والمقيمين ضرورة ملازمة منازلهم والكفّ عن إبداء مظاهر الاحتفال بانتصار الثورة المجيدة لكي تتوفّر للميامين الشمّ فرصة القضاء على البقية الباقية لفلول

العهد المباد، الأمين العام لجامعة الدول العربية يُصدر تصريحاً يطالب فيه طرفي الخلاف العراقي والكويتي بالعودة لطاولة الحوار من أجل حل نزاع الأشقاء بالطرق الوديّة، قادة عرب عديدون يدعون لضرورة ضبط النفس ريثما يتم نزع فتيل الأزمة، تزامناً مع بيانات التهدئة والعودة لطاولة ما، دأبت الأقمار الصناعية ترصد اندفاع أعداد هائلة من الدبابات والمدافع المحمولة وناقلات الجند وحاملات صواريخ سكود العملاقة داخل الأراضي الكويتية، سالكة طريقها جنوباً باتجاه الحدود الكويتية السعودية، مجلس قيادة الثورة العراقي يبعث برقية لنظيره مجلس قيادة الثورة الكويتي يهنئه بالنصر المبين المؤزر ويتمنّى للشعب الشقيق دوام العز والازدهار. منسي. سمعتُ صوت أمّي، عبرتُ باب الشرفة داخلاً، رأيتها تمدّ يدها بكوب شاي، أخذته، أخذتُ رشفة منه. هذا الشاي مرّ. أفحمتني إجابة أمّي. المرارة ليست في الشاي. اختارُ المقعد المجاور للهاتف، أمّي تجلسُ الى جانبي، أصوات الخارج تصل عبر باب الشرفة، الناس حالة ضياع لا أحد يجزم بالآتي، يفيدني مذياعي، قيادة منظمة التحرير الفلسطينية تناشد قيادات البلدين الشقيقين التحلّي بروح المسؤولية وحلّ القضايا العالقة من خلال الحوار الأخوي البنّاء، وترتأي على أبناء الجالية الفلسطينية المقيمين في الكويت التزام الهدوء والحياد التام تجاه نزاع الأشقاء. هذه الشقة كانت سكناً لفلسطيني، حضرني وجه ناجي العلي، لو إنّه لم يُبعد عنوة، لم تقتله نيران صديقة، ماهو ردّ فعل حنظلته ازاء ما يدور، أمدّ يدى للهاتف أُجري اتصالاً، أسمعُ رنين جرس الهاتف، مبارك سويد لا يتواجد عنده، أُجري اتصالاً ثانياً، أسمعُ الرنين أيضاً، سليمان الياسين بالمثل، الباب الموارب لغرفة الزوجية يحجب الرؤية، عهود لم تستيقظ بعد، الساعة قاربتْ الثامنة، تذكرتُ مكتب شارع تونس، صبي الخدمة عدنان اعتاد يتواجد هناك قبل هذا الوقت، ما أدراني إنّه لم. اجريتُ اتصالي. نعم استاذ منسي. اقفل باب المكتب

واذهب لبيتك. حاضر. ارتفعتْ وتيرة أصوات الخارج صارت ضجيجاً ملفتاً، تحرّكتُ نحو الشرفة أطللتُ، العم عبدو وجيران البارحة يقفون حيث هم، كلُ يراقب من مكانه، تنبّهتُ لزحمة الطريق بالسيارات والمارّة، تطلعتُ نحوالمنعطف، رأيتُ مجموعة جنود مسلحين ببنادق رشاشة يسدّون جانباً من فسحة الطريق عند انعطافه إضافة لآلية مُدّرعة مزوّدة بمدفع هاون، أحد الجنود يرابط متحفزاً وراء المدفع، أربعة آخرون يتولون تفتيش السيارات المارّة والتدقيق في هويّات ركابها، الأحداث آخذة برقاب بعضها، استبد بي فضولي، رفعتُ صوتي قليلاً. ياعم عبدو. رفع العم عبدو بصره إليّ، أومأت نحو المنعطف. مَنْ هم. وصلني صوته مفارقاً. دوْل اخواتنا من جيش العراق. أتابع حركة الناس في الطريق، وجوههم انطباعات توتّر يغالبها ذهول، لا أحد يعرف ما يدورالآن، ولا يجزم بالآتي، تناهى لسمعي هدير محرك طائرة تحوّم بعيداً صاحبه انفجار أعقبه اطلاق مدافع، اضطربتْ حركة الناس، اتخذ جنود المنعطف وضع استعداد، وجّه الجندي المتأهّب فوهة مدفعه نحو السماء، خيّل لي إنّ الجنود العراقيين بغربتهم على المكان وناسه لم يستوعبوا حدثاً يعيشونه، سمعتُ صوت عهود حاملاً هامش استغراب. صباح الخير خالتي. اخلى استغرابها مكانه لذعرها. ماذا يحدث. لحقه سؤال. أين منسي. عبرتُ باب الشرفة داخلاً. ماذا يحدث. تطوّعت أمّي أجابت. سوّاها صدام حسين. عهود لم تدرك المعنى المستهدف. حدّقتْ إليّ في عيني تستفهمني. جيوش النظام العراقي احتلتْ البلد. انتفض جسد عهود، صرخت رافضة. لا يمكن. حوّطتها أمّي بذراعها. سمّي بالرحمن حبيبتي. أعولتْ عهود وهي تردد. مستحيل مستحيل. الاحتلال يا زينب حدث مهيمن داهم عزل كويت الداخل عن العالم أجمع لسبعة أشهر وثلاثة أسابيع. لكنّه بعزلها ذاك وضعها في القلب من اهتمام العالم كله، لا تزمع اوراقي هذه، وهي موجهة إليكِ تحديداً، رصد

الاحتلال بشموليته بعد مرور عشرين سنة، وتزمع رصد ما صادفنا أمّكِ عهود وأنا بالآثار المنسحبة على شكل ارتباطنا، المحن تكشف معدن الناس، الكويتيون طوال محنة الاحتلال اثبتوا أحقيّة حياتهم، عهود حالة خاصة، سماعها الخبر، رفضها تصديقه، ذراع امي تحوّط كتفها، بكتْ عهود بحرقة لم أعهدها منها، كانت أشبه بطفل صغير فقد أمّه وسط حشد غرباء، جزع يغالبه فزع، أحسستني عاجزاً أخفف عليها وطأة مصابها، تطلّعتْ أمّي إلي تناشدني، بادرتُ لاحتضان عهود، سكنتْ عند صدري لثوان، ثم انسلتْ من بين ذراعي، دخلتْ غرفة الزوجية، اطبقتْ بابها عليها، تبادلنا أمّي وأنا نظرات حائرة، ما الذي يمكن فعله، أصخنا السمع صوب الباب الموصد، لا صوت، بعد قليل غمغمت أمّي. أُعدُ لها شاياً ساخناً. سلكتْ طريقها للمطبخ، مسكينة أمّي تظن الشاي علاجاً يناسب الروح الجريحة، نازعتني نفسي اقتحم عليها وحدتها، صرفتُ فكرتي، إطباقها الباب يؤكد احتياجها خلوتها بها، خلصتُ لقراري، امهلها ريثما، آثرتُ إطلالة الشرفة، أذهلتنى زحمة الناس والسيّارات، خطفت نظرة لساعتي، جاوزتْ التاسعة، ماذا عن بيان فرض منع التجوّل بدءاً من، استجاب الجوار بصدى انفجارات بعيدة، حدستها في منطقة الشويخ، هناك منشآت وإدارات عديدة تخصّ الجيش الكويتي. عهود. تناهي لي صوت أمّي، إلتفتُ، رأيتها واقفة عند باب غرفة الزوجية حاملة كوب الشاي، أخالها ترددت برهة قبل أنْ تدفع الباب، تدخل، ثوان قليلة خرجتْ اثرها كلّ من أمّي وعهود، لم اسمع كلمة تصدر عن أي منهما، سارعتْ عهود لجهاز الهاتف حملته، توارتْ داخل الغرفة أطبقت بابها، آلمني بقاء أمّي واقفة وسط الصالة، غادرتُ الشرفة. ماذا. زوجتك مصدومة لا تُحاسب على أفعالها. من يبرر ماذا. أروح بيتي. شيّعتُ أمّي تغادر الشقة، الاحباط عدوى سريعة الانتقال، باب غرفة الزوجية مطبق على من فيه، ليس سوى المذياع، الجيوش العراقية تواصل اندفاعها

السريع داخل الأراضي الكويتية دون أنْ تواجه مقاومة حقيقية، حتّى ساعة إعداد هذه النشرة ما زال مصير أمير دولة الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح مجهولاً، شأن مصير ولي العهد رئيس الوزراء الشيخ سعد العبد الله الصباح، الولايات المتحدة الأمريكية تطلب من رعاياها المتواجدين في الكويت ملازمة أماكن اقاماتهم ريثما تتم إجراءات ترحيلهم، عشرات الآلاف من أبناء الجاليات الآسيوية العاملين في الكويت يهرعون لمقار سفارات بلدانهم لمعرفة المصير الذي ينتظرهم، مراكز الحدود الكويتية السعودية تشهد زحمة منقطعة النظير جّراء تدفق الآف الراغبين بمغادرة الأراضي الكويتية قبل فوات الأوان.

استغرق حديثها الهاتفي زهاء نصف ساعة غادرتْ بعدها عهود غرفتها حاملة جهاز الهاتف أعادته مكانه. أين امّكَ. ذهبت لبيتها. صوتها بدا متماسكاً، لعلّها استوعبتْ صدمتها، جلستْ أمامي. هذه الأزمة تنتهي اليوم أو في الغد. أدهشتني مفردتها أزمة، الكويت تتعرّض لاجتياح عسكري عاتٍ، رغم هذا وافقتها متمنياً. لعلّ وعسى. واجهتني عيناها بنظرة سابرة. الكويتيون كلّهم يؤكدون ذلك. لم أسألها من هم هؤلاء الكلهم. إن شاء الله. الأمر الوحيد المقلق هو سلامة أمير البلاد وولي عهده. شرد ذهنها وهلة. هناك من يقول إنّ الشيخ جابر الأحمد غادر الأراضي الكويتية الى المملكة العربية السعودية يرافقه الشيخ سعد العبد الله. يا ليت. فاجأني سؤالها. ماذا عنكَ. التبس عليّ فهمي. ماذا عنّي. ماهو موقفكَ الحقيقي. شملني انشداهي. ماهذا السؤال. أعني موقفكَ من دخول العراقيين للكويت. التوصيف بالتحديد والشك سكين تنشب الخاصرة، ألمي يغالب لومي. من أنا لكي. قاطعتني. هل أنتَ مع الذي يحدث أو ضدّه. كأنها لا تعرفني البتة فتسعى لاستنطاقي، أحسستنا عالمين لا يمتّان لبعضهما البعض، المصائب كماهو مفترض تجتذبُ الواحد للواحد، كظمتُ غيضي. يجب

أنْ لا توجّهي أسئلة مخالفة للمنطق. المنطق يقول. بترتْ جملتها. ماذا يقول. نّمت زاوية فمها عن شبح ابتسامة دالّة استهانة. البدون يشمتون بالكويتيين. تطامي غضبي، بذلتُ جهدي حتّى لا انفجر لاعناً. من هو صاحب هذا المنطق. نفضتْ يدها، وقفتْ. إنس الموضوع. مشتْ لغرفتها، اطبقت بابها، غضبي يحاصرني، كيف لإنسانية الواحد أنْ تُهدر بسهولة قصوى، شخصية عهود، بالنسبة لي، اكتشاف متأخّر، يتريّث ذهني عند أخيها سعود، الكلمات التي صاغتها سؤالاً وجّهته لي لاتصدر الإ عنه، اعرفُ عادتها اليومية مكالمة أمّها هاتفياً ساعات، قبل قليل اجرتْ اتصالاً مطوّلاً، ولا اجزم إنّ مكالمتها اقتصرتْ على أمّها، لعلّ وقع المصاب اجتذب أخاها إليها، أو انّها وسط شعورها بالضياع تناستْ أحقادها تجاهه لجأت لسماع رأيه، رابطة الدم هي الأقوى، عاد صوتها تردد داخل رأسي عندما سألتني لحظة مغادرتها الغرفة. أين امّكَ. كنتْ أشبه بمن تنبّه فجأة لشيء فاته، هي لم تقل. أين خالتي. بما يحيلني إلى استنتاج مرير، عهود عزلتْ نفسها عنّا عفواً أوقصداً، لا فرق. غمّ الاحتلال وغمّ موقف عهود منّي، كنتُ نهب حالة قنوط يائس انتشلني منها صوت مبارك سويّد عبر الهاتف. كيف حال منطقة النقرة. ضجيج الشارع يصلني من باب الشرفة، الإجابة الواردة للذهن. أهل النقرة لم يلتزموا بأوامر منع التجوّل. دعكَ من تفاهات عسكر الاحتلال، هم لن يجدوا من يمتثل لأوامرهم. نبرة التحدّي في صوته أعادتْ لي بعض توازني، الكويت لن تستسلم بسهولة، وحدات الجيش الكويتي رغم فارق العدد باقية تُبدي مقاومة ضارية، منطقة كيفان استعصتْ عليهم، دول العالم الحر سرعان ماتهبّ لنصرتنا. قال كلاماً آخر انهاه، هو بصدد التوجّه لمكتب شارع تونس بعد ساعة، للنظر بأمر الكاميرا التلفزيونية الموجودة هناك اتخذتُ قراري. تجدني بانتظارك. دبّت حيويتي فيّ، الخروج للشارع ضمن الظرف الداهم مبعث تحدٍ،

عاودتُ الاتصال بسليمان الياسين. أمر لا يُصدق. من منزله في منطقة صباح السالم يرصد مرور مئات الآليات العسكرية العراقية باتجاه الحدود السعودية، يبدو انهم يهدفون إلى ماهو أبعد من اجتياح الكويت، زوجته الفرنسية هاتفتْ سفارة بلدها، طلبوا منها ملازمة المنزل لحين الإعداد لعملية تسفير الرعايا الأوربيين بالتنسيق مع حكومات الدول الأخرى، سليمان الياسين مسؤول الدراما في تلفزيون الكويت، أقلقته أخبار اقتحام عسكر العدو لمبنى وزارة الاعلام، خشيته أنْ تتعرّض مكتبة التسجيلات الصوتية والمرئية وكذلك الارشيف الذي يمثّل جانباً هاماً من تاريخ الكويت لأعمال السلب والنهب، انهى حديثه مضمناً حيرته. يتوجّب علينا القيام بدور ما، لكنّه السؤال وسط الظرف كيف. المذياع بصفته وسيلة اتصال من جانب واحد، بيان صادر من مجلس قيادة الثورة هنا. نظراً لرغبة جماهير الشعب الكويتي الملحّة لمواصلة الأحتفال بنجاح ثورته المباركة وسقوط رموز العهد المباد إلى حيث لارجعة تقرر الغاء أمر منع التجوّل نهاراً على أن يسري من التاسعة ليلاً وحتّى السابعة صباحاً، كذلك نُلفتُ اهتمام مستمعينا الكرام إلى تدفق سيل برقيات المؤازرة والتأييد من المنظمات والهيئات المناهضة للرجعية والامبريالية والاستعمار حول العالم، نبدأها بقراءة نص البرقية الواردة من نقابة منتسبي وزارة الاعلام العراقية. حركتُ مؤشر المذياع، توقفتُ عند إحدى الاذاعات العربية، صياغة الأخبار باقية تدور في فلك حيادية غرائبية، ضرورة عودة الأشقاء المتنازعين لطاولة المفاوضات. فتحتْ عهود باب غرفتها، وقفتْ منصتة، تحاشيتُ مواجهة نظراتها، ما أكنّه لها لا يسرّها، الجرح الذي أحدثته في داخلي مازال ينزف، شَغلتُ نفسي بتحريك مؤشر المذياع. تأكّد نبأ وصول أمير الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح وولي عهده الشيخ سعد العبد الله الصباح إلى المملكة العربية السعودية، هما الآن بضيافة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد

بـن عبـد العزيـز. غافلنـي فمي اطلـق صيحة فرح. الحمد للـه. فاجأتني عهود ركضتْ إلي منتحبة، شـبكتْ ذراعيها حول رقبتي، تحركتْ يدي ضمّتها إلي، يتوجّب علي تفهّم أسـباب ارتباك مشـاعرها. ضجّ الشـارع باستجابة عفوية لسماع الخبر، تعالتْ أبواق السيارات مثلما مناخ احتفالي عفوي، منطقة النقرة غالبية فلسطينية، الفلسطينيون رغم الموقف المحايد سـلباً لمنظمتهم يؤكّدون انحيازهم للحق الكويتي، سـمعتُ صوت العم عبدو وجيران السـكن يسـتجيبون مرددين. الله أكبر. ترسّـختني قناعتي. الله معنا، الناس معنا، الحق أيضاً. تذكرتُ وعدي لمبارك سويّد أنْ أصل مكتب شارع تونس قبله، عهود لم تفكّ ذراعيها، وأنا من داخلي لا أريدُ الفكّ، رنّ جرس التلفون، اعتدلتْ عهود جالسة، وصلني صوت سليمان الياسـين ينضح مرارة. خبر مؤلم، نبأ استشـهاد الشـيخ فهد الأحمد أمام بوابة قصر دسـمان، كان على رأس الوحدة العسـكرية الكويتية المدافعة عن القصر، القنوط وجه للقهر، أعدتُ سماعة الهاتف لمكانها، حدّقت إليّ عهود. مَنْ المتصل. سـليمان الياسـين. ماذا أراد. لم أجد ما اجيب به. ماذا قال. وددتُ أنْ لا افجعها. تكلّم. نقل لي خبر استشهاد الشيخ فهـد الأحمـد. هبّـتْ واقفة برد فعل دفاعي. هذا كذب. دهشـتي لجمتْ لسـاني، نبرة صوتها تدينني. هذه اشـاعات يطلقونها للحطّ من معنوياتنا نحن الكويتيين. سـليمان الياسـين كويتي. هو مخدوع بالاشـاعة. ياليت. وقفتُ. إلى أين. واعدتُ مبارك سـويّد التقيه في مكتب شـارع تونس. لمـاذا المكتـب الآن. حكـم الضرورة. احتدّ صوتها. ما الذي دعاكَ لأن تستقوي عليّ، تتصرّف وكأنّي غير موجودة. اغضبُ أم اعتب. الأمر لا يُفهـم هكـذا. احتـدّ صوتها أكثر. كيف تتركني وحدي في منطقة ملغومة بالفلسـطينيين. مـن أيـن جـاءتْ بكلمـة ملغومة، أشـكُ إنّـي اعرف هذه المرأة. ماذنب الفلسـطينين. يكرهون الكويتيين. أحسـتني وسط جدل عقيم، بدءاً اسـمعتني مقولتها. البدون يشـمتون. آثرت الانسـحاب ببقية

كرامة. توجّهتُ نحو الباب. أنت تستهين بي. لن أغيب طويلاً.

أحارُ في فهم كيفية عمل ذهنها. يا زينب تعزُّ عليّ مكاشفتكِ مشاعري حيال أمّكِ خلال مواجهتنا حدث الغزو، عانيتها خليطاً من سأم الآخر، الضيق به، رغبة الانزواء بعيداً عنه، ليس كرهاً كما يرد لذهنكِ، لكنّه جهد الحفاظ على كرامة قيد الامتهان. خلّفتُ ساحة البناية وراء ظهري، المشي في اليوم الأول للاحتلال أشبه بارتياد المجهول مع سبق التوقّع، سلكتُ زقاقاً جانبيةَ متحاشياً المرور أمام ثلّة الجنود العراقيين قاصداً شارع تونس، رأيتُ الأخير مزحوماً بالسيارات والمارّة، من أين تجيء كلّ هذه الزحمة، الوجوه تحملُ انطباعات قلق يغالبه جزع، لا أحد يعرف ما الذي تتمخّض عنه أحداث عاصفة ماثلة، المبنى حيث مكتب الشركة خالٍ تماماً، تردد صدى وقع حذائي فوق الأرض الرخامية، باب المكتب مقفل، فتحته، خنستُ لثوان، مبارك سويّد لم يصل بعد، الظرف باحتمالات غامضة، مراعاة الحذر واجبة، اقفلتُ الباب عليّ، خَفَتَ الضجيج القادم من شارع تونس، صار أشبه بازيز متواتر، احسستني منقطعاً في النأي عمّا يدور خارجاً، اليوم خميس، الكويت بقاطنيها كافّة فى أتون حرب لم تخطر على بال، الجميع بحاجة لالتقاط الأنفاس، وقفة تأمل، أيامنا القادمة كيف، سمعتُ حركة مفتاح في قفل الباب، وصل مبارك سويّد. الأشقاء لم يدخروا وسعهم. سخريته تقطر مرارة. في طريقي من منطقة مشرف لهنا استوقفتني خمس نقاط سيطرة عراقية لتدقيق الهوية. من أين جئت بتسمية نقاط سيطرة. هم ابتدعوها تأكيداً لسيطرتهم على مقدرات البلد. هل تظنّهم قادرين فعلاً. إلى حين.

كنّا وراء الباب المغلق لمكتب شركته، وكان مبارك سويّد ينشغل بتفكيك الكاميرا التلفزيونية المحمولة. بعض المختصين بقراءة الشأن السياسي يؤكدون وجود أطراف اقليمية مؤثرة وأخرى عالمية سعتْ

لاستدراج النظام العراقي كي يدخل الفخ بما يوفّر لها ذريعة ادانته تمهيداً للاجهاز عليه. افهم من هذا إنّ الكويت هي الفخ. لمّا يكون حجم الفريسة أكبر من الفخ. لم افهم. ولا أنا. ادركتُ لا جدوى محاججته، صرفت ذهني لكدس أجزاء الكاميرا. ما الذي نفعله بها. نقلها من هنا. إلى أين. أغفل إجابة سؤالي مباشرة. احتمال تعرّض الأماكن غير المسكونة لعمليات نهب. سكتَ برهة. نظراً لقرب بيتكَ من هنا تحفظها عندك. جئتُ لهنا ماشياً، أنا كما تعرف لا املك رخصة قيادة. يسألون عن إثبات الشخصية، أنا كما تعرف. لاتقلق. فتحَ درجاً، تناول مظروفاً يحوي صوراً شخصية للعاملين في الشركة، استلَّ صورة لي، أخرجَ بطاقة هوية للعاملين في القطاع الأهلي، الأسم، تاريخ الميلاد، الوظيفة، إسم المؤسسة أو الشركة، ثبّتَ صورتي على زاوية البطاقة، انحنى يكتب بخط أنيق، شركة السويّد التجارية، مسؤول تسويق، تناول ختم الشركة دمغه عند الصورة. صرتَ صاحب هوية. تجنّباً للمرور بنقاط سيطرة وجّهتُ مبارك سويد لسلوك أزقة جانبية. السماح يا أم منسي. حيّا الله صديق منسي. بعد مغادرة مبارك سويّد راودتني نفسي اختبر مفعول هويتي. توجّهتُ لسيارتي، أدرتُ محركها، ترددتُ لثوان، مدى جدوى المخاطرة، بلغني رديّ من داخلي، الكويت راحت وأنا أوازن خيارات فارغة، تحرّكتُ، توجّهتُ نحو نقطة السيطرة القريبة، فوهة المدفع الهاون للآلية المدرّعة موجّهة نحو رتل السيارات قيد التفتيش، وقفتُ آخر الرتل، تداعى ذهني يستعيد رتل سيارات ماقبل ليلتين، كانت عهود تتولى القيادة، بطاقتك المدنية، انزلْ، قفْ هناك، مبنى السفارة العراقية على يسار شارع الاستقلال. تحرّك رتل السيارات، لا استقلال الآن، وهاهو جندي عراقي محروق الوجه. هويتك عيني. دفعتها له، تطلع فيها، لعلّه اكتفى بمطابقة الصورة، افتحْ صندوق السيارة. توكّل على الله. قدتُ سيارتي نحو دوار الفارابي، صادفتني نقطة سيطرة

ثانية. هويتك. صندوق السيّارة. مبارك سويّد يُحسن اصدار الهويات، عدتُ مطمئناً إلى امكانية مواصلتي قيادة سيارتي. طوال الساعات المتبقية لنهار يومنا ذاك دأبت إذاعة الجمهورية الكويتية الفتيّة على تكرار البيان الصادر عن مجلس قيادة الثورة القاضي بحظر التجوّل بدءاً من التاسعة ليلاً متوعّدة مخالفين مفترضين بتعريض أنفسهم لخطر اطلاق النار دون سابق انذار. قضيتُ ساعات ما بعد الظهيرة داخل الشقّة ملازماً المذياع في حين لازمتْ عهود جهاز الهاتف وراء باب غرفتها لتطّل بين الحين والحين مقطّبة الجبين لا تنبس بحرف. قبل مغيب الشمس استبدّ بي احساس محاصرة المكان، ما ادراني إنّها ليست مثلي، اغتنمتُ إحدى إطلالاتها، إقترحتُ. تعالي نخرج. وجّهتْ لي نظرة مستنكرة. أين نذهب. نركب السيارة نقوم بجولة استطلاع. إشتدّ غضبها. أراكَ مرتاحاً للوضع. جاء ردّ فعلي أشبه بمن يتلقّى صفعة، إهانة موجّهة عن قناعة. ديرتنا مستباحة وأنتَ تطلب القيام بنزهة. تراجعتْ وراء، دخلتْ غرفتها، اطبقتْ بابها، وعي الحالة في اللاأوان، عهود وأنا عالمان ينأى واحدهما عن واحدهما أكثر فاكثر، أتأمّلني، المحنة معدن الناس، هواء الشقة يكتم أنفاسي، غادرتُ.

أتولّى قيادة سيارتي، يناوشني ذهني يخلص لاستنتاجه، وسط الضياع العام والجزع المترتّب هناك لذّة صغيرة تعني حريّة امتلاك اللحظة قبل فواتها، معايشة الحدث بالتحامك فيه، طفتُ الشوارع المحيطة، صادفتُ عديد نقاط سيطرة. هويتك عيني. وجوه مجلودة اعتصرها الحرمان بعدما صودرت إنسانيتها لزمن مديد، عيون غائرة متوجّسة، أمعنَ أحد جنودهم تدقيق هويتي، قرأ المهنة بصوت مسموع لي. مسؤول تسويق. ماذا تبيعون. كنّا نبيع أشياء كثيرة. دايخ على سيجارة. آسف لا أدخن. عيناه تكشفان احباطه. روح عيني الله وياك. وجّهتُ سيّارتي نحو طريق الدائري الثالث، لفت انتباهي تواجد عشرات

الصبية فوق السطيحة الاسمنتية لخزان المياه الأرضي، من خلال تزاحم أجسادهم رأيت حطام طائرة مروحية، أشرتُ لأحدهم أنْ يقترب. هل هي مروحية كويتية. عراقية. رفع يده بحركة عفوية لأنفه. رائحة اللحم المحروق كريهة. اللحم البشري وقود الحروب منذ العصور السحيقة لنشأة الإنسان في اقتتاله ضدّ أبناء جلدته، فصائل الحيوانات تربأ بحيوانيتها عن إفناء جنسها. سلكتُ طريق المغرب السريع ومنه إلى الدائري الرابع صعوداً نحو منطقة الشويخ، هالتني مناظر آليات الجيش العراقي المهجورة على امتداد الجهة اليسرى للشارع، ألسنة النيران باقية تتصاعد من بعضها، في وقت لاحق عرفتُ السبب، أوامر القيادة العراقية تقضي بضرورة بلوغ الوحدات العسكرية للحدود الكويتية الجنوبية، لغرض تخندقها بمواجهة الأراضي السعودية، مراعاة السرعة القصوى، الوقت المحدد لانجاز المهمة، كثرة الآليات، تزاحمها، تقادم العهد ببعضها، حدوث أعطال طارئة، الأوامر العسكرية تنصّ، اترك آليتك المعطلة حيث هي، إركب أخرى، مسؤولو الصيانة بسبيلهم لاصلاح الأعطال في وقت لاحق، الكويتيون، استيعابهم لواقعة الغزو، ملائمة ظرف ردّ الصاع بصرف النظر عن جدواه الآنيّة، تداعى شباب من الأهالي الساكنين على جانبي الطريق، تآلفوا مجموعات صغيرة، باشروا احراق الآليات المعطوبة، أحالوها حديداً مشوياً غير قابل للاصلاح. قبل الساعة التاسعة ليلاً اقفرت الشوارع من المارّة والسيارات عدا دوريات العسكر العراقي بما يكرّس الاحساس بواقعية حدث الغزو. هاهي الكويت ترزح تحت نير احتلال عربي فريد نوعه، في حين واصلتْ إذاعة الجمهورية الكويتية الفتيّة بثّ نصوص عشرات برقيّات التهنئة والتأييد لثوار الكويت بانتفاضتهم الباسلة ضدّ الطغمة الرجعية الفاسدة عميلة الاستعمار المقبور. قصدتُ المحلق، استقبلتني أمي بوجه كامد، سألتني عمّا رأيت، أوجزتُ، أردتُ لاجابتي أنْ تجيء متخففة من

اليأس قليلاً، صدمني تعقيبها المشبع مرارة. استباحوا الكويت يا منسي. أجهشتْ باكية، أوشكتُ أجهش أيضاً، حّوطتُ كتفها. العالم من أقصاه إلى أقصاه يقف مع الحقّ الكويتي. لم تنبس. الكويت تعود حتماً مثلما كانت. نفوس الناس لن تعود مثلما كانتْ. يا زينب، هذا الحدس أو الاستنتاج الذي أفضتْ به أمّي عشيّة اليوم الأول للاحتلال صار معياراً ارصدُ عبره علاقتي بأمّك عهود، بآخرين اعرفهم، أو اضطررتُ اعرفهم، ليتحوّل في حاضر الأيام الآتية كلّها إلى ما يشبه رؤية شمولية أُصّنف بها ما يصادفني بصفتي ماذا. عشيّتنا إيّاها، لزوم تواجدي إلى جانب عهود، بلغتُ باب الشقة، بلغني صوتُ المذياع متسللاً خلل خشب الباب، ماهو وارد للذهن، عهود تتنصّتْ الأخبار، فتحتُ الباب، دخلتُ، رأيت الصالة خالية الاّ من المذياع، رأيت باب غرفتها مشرعاً، كانت مستلقية فوق سريرها، الباب المفتوح دعوة دخول. سلام. استجابتْ. الحمد لله على السلامة. لم أميّز نبرة صوتها إنْ كانت إحتفاءً أو استخفافاً، جلستُ عند طرف السرير، ملزم أنْ لا أغالي بردود أفعالي تجاه امتعاضها أو غضبها. كيف أنتِ الآن. غفلتْ إجابة سؤالي، عيناها تتفحصان وجهي بفضول يداري توقاً للمعرفة. ماذا رأيتَ في جولتك. اغتنمتُ الفرصة، أفضتُ، حدثتها عن حطام مروحيتهم، عن آلياتهم المحروقة على امتداد الطريق الدائري الرابع، عن غرائبية حال عسكرهم رغم كثافة تواجدهم في نقاط سيطراتهم، هم يعانون خوف المجهول، رأيتها تهتم بالاصغاء إلي. ماذا أيضاً. تذكّرتُ ما قاله أحد جنودهم، دايخ على سيجارة، تبدّل مزاج عهود فجأة، بدتْ مستفزة ناقمة. هل تبادلتَ الحديث مع جندي عراقي. ليس حديثاً. لعلّكَ وعدته توفّر له طلبه. مشاعري خليط من غضب محاصر تجاه الآخر واشمئزاز مترتّب عن. ضاق بي طرف السرير، ضاقت الغرفة، صوت المذياع يتردد قادماً من ناحية الصالة، قلتُ. أحتاج أسمع الأخبار. أُحرّك مؤشر المذياع، لا أكاد أعي ما

اسـمع، الاصغـاء يحتـاج حضـور ذهن موجّه، وأنا بلا، فـي الوقت ذاته عانيـت معضلـة التعامـل مع فائض زمن وحدة مفروضة، لو كان الظرف غيره قصدتُ الملحق أمّا والحال هذه، وسـط مسـاحة الصالة، أقول لي يا منسي يجدر بك الركون لقلبك، عهود تحبّك وأنتَ تحبّها، جد مبرراً لمـا يعصـف بهـا، الحدث الداهـم بحجم وطن رهن اسـتباحة، الصدمة فـوق الاحتمـال، هـو اليـوم الأوّل بالذهـول المصاحـب، يبقـى التوقّـع معقـوداً علـى عودتهـا لوعيها غداً أو بعد غد. الوقت رتم متباطئ ثقيل، أشاغلني بمؤشر المذياع، يغافلني ذهني ينصرف لغرفة الزوجية، انصتُ طويلاً، لا صوت، لا أظنها نائمة، لعلّها نهب معاناة شـبيهة، يعتمل بي داخلي. لماذا تصنّفني خارجها. الشـرفة اختراق للخارج، راودتنى فكرة الإطـلال علـى الجـوار، كانت السـاعة جـاوزت الحادية عشـرة، عبرتُ البـاب، لا مسـتني أوراق نبتـة البرتقـال، لـم أتريّث أتشـمم، وقفتُ عند الحاجز الحديدي، نوافذ المباني المحيطة مضاءة، النقرة ساهرة تواكب الحـدث، سـمعتُ غمغمـات أصـوات رجالية قادمة مـن تحت، حارس البناية العم عبدو يتخذ له مجلسـاً عند باب سـكنه المطل على سـاحة البناية برفقة جارين كهلين أحدهما فلسـطيني والآخر سـوري، لو نزلتُ لهم شاركتهم حديثهم، في التو لفت انتباهي مرور سيارة جيب عسكرية، سرعان ما استدارتْ عائدة توقفتْ مبعدة أمتار، تلاشتْ أصوات الرجال الثلاثة، انشدّت عيونهم للسيارة الجيب، ارتفع من الأخيرة صوت بلكنة عراقية. ما الذي تفعلونه. أجاب الجار الفلسطيني. لاشيء. سادت ثواني صمت، انفتح باب السيارة، ترجّل جندي ببندقية رشاش، من مكاني في الشـرفة أتابـع، الحـدث القادم كيف، اقترب الجنـدي من الرجال الثلاثة موجّهاً فوهة بندقيته. هوياتكم. تبادل الثلاثة نظراتهم بينهم، انبرى الجار السوري مشيراً ألى المبنى. هوياتنا في الداخل. حار الجندى بما سمع، رفـع صوتـه نحوالسـيارة الجيـب. هم لايحملون هوّيات سـيّدي. ترجّل

من السيارة ضابط شاب، تقدّم حاثاً خطوه. السلام عليكم. هبّ العم عبدو واقفاً، استجاب الجاران الآخران نهضا واقفين. عليكم السلام. لماذا تعصون أوامر منع التجوّل. أجابه السوري. لم نعص ايّ أوامر. هل راعى الضابط الشاب كهولة الرجال الثلاثة داري حدّة صوته وهو يستفهم. أنتَ عراقي. أنا سوري. وأنتَ. مصري. وأنتَ فلسطيني. قال الضابط. واضح إنّكم من المواطنين العرب الشرفاء. لهج العم عبدو. الحمد لله. لماذا لا تحملون هويات. أجابه السوري. نحملها حين نخرج للشارع. أنتم الآن في الشارع عدا عن مخالفتكم أمر منع التجول. قال الفلسطيني. نحن الآن عند بيوتنا. أحاط المكان باشارة يده، أضاف. هذه المساحة تعود للبناية وانتَ يا حضرة الضابط تقف الآن داخل المساحة الخاصة ببيوتنا. هل وُفّق الجار الفلسطيني لافحام ضابطهم، قال. الهدف من أمر منع التجول هو الحفاظ على حياتكم. أجابه العم عبدو. الأعمار بيد الله سبحانه.

ظهر الجمعة ثاني يوم احتلال ازدحمتْ المساجد بالمصلين بشكل لم يسبق له مثيل، تجاوبتْ مكبرات الصوت. اللهم انزل عقابك الماحق بالمعتدى الآثم وأعد أمن الكويت وأمانها وقِها من كل مكروه يا أرحم الراحمين آمين. جنود الاحتلال وقفوا مشدوهين ازاء ما يسمعون، الأوامرالصادرة إليهم لم تتعرّض بعد لموضوع المساجد، قيل. استشاط أحد كبارضباط قوّات الحرس الجمهوري غضباً أطلق رشقات رصاص من مدفع رشاش على مئذنة أحد مساجد منطقة الروضة. قيل. بعض الجنود العراقيين البسطاء ممن يقفون على نقاط السيطرة انتابهم الفزع، أسرّوا لكويتين عابرين في سياراتهم، ناشدوهم أنْ يكفوا دعاءهم، هم مجرّد جنود لا يملكون من أمرهم قراراً، ساقوهم لهنا عنوة، تتهددهم أحكام الاعدام رمياً بالرصاص إذا خالفوا أوامر قادتهم. ضحى السبت تنادى شباب من الجنسين تظاهروا في مناطق عديدة حاملين أعلاماً

كويتية، هتفوا للشرعية ونددوا بالاحتلال، تصدّتْ لهم وحداتْ عسكرية محمولة، بادرت لتفريقهم، اطلقت رصاصها الحي على جموعهم. الحال يا زينب غرائبية إن لم تكن كابوسية أعجز عن وصفها، التلفزيون الكويتي عاود البث بوجوه وبرامج عراقية، خصص وقت الارسال لقراءة نصوص برقيات تأييد ومؤازرة أو تهنئة بالثورة المنجزة، واردة من جهات يجهلها الكويتيون بصفتهم أصحاب الشأن، مساء الأحد جرت إذاعة بيان هام صادر عن مجلس قيادة الثورة الكويتي يشيد بالمواطنين والمقيمين يطالبهم بالكفّ عن الاحتفاء بنجاح الثورة والعودة لمزاولة أعمالهم ووظائفهم في مؤسسات الدولة، وبعكسه هم يتعرّضون للطرد والمساءلة، وقد أُعذر من انذر. ظرفنا ذاك ومن غير اتفاق مُسبق التزم الكويتيون والمقيمون بعصيان مدني شمل المؤسسات الحكومية والأهلية والشركات، عدا ماله علاقة مباشرة بالمتطلبات الأساسية لحياة الناس، مرافق الكهرباء والماء ومقسمات الهاتف ومحطات تزويد الوقود والمستشفيات، الكويت من أقصاها إلى أقصاها تعيش اجازة عمل مفتوحة على الزمن القادم، العم عبدو وجيران السكن واصلوا جلوسهم في ساحة البناية حتى مطلع الفجر، مثل هذه التجمعات الليلية أمام المساكن صارتْ ظاهرة عمّت مناطق الكويت بما اضطر عسكر الاحتلال لقبول الأمر الواقع. جسامة المصاب العام يا زينب تُحدثُ ما يشبه العمى الطارئ لدى الواحد فلا يلحظ مصابه الخاص، زمننا العجائبي ذاك، تنبّهتُ إلى إنّ امّك مُضربة عن الطعام بصمت، هالني شحوب وجهها وهزال جسدها. ياعهود. ماذا تريد. أنتِ تعاقبين نفسكِ لأجل ماذا. أنا لا. أنتِ لم تأكلي منذ. أكلتُ. متى. بعد مغادرتكَ البيت. كذبها من مكابرتها، حيّرني سلوكها، لجأتُ لأمّي. كيف.اعملتْ أمّي ذهنها، اختلتْ بعهود لدقائق، النساء يفهمن بعضهن، اقبلتْ عهود على الطعام، أكلتْ بشراهة، الانجاز مؤشر ارتياح. من أين لكِ قدرة

الاقناع يا أمّي. كلّ ما هناك قلتُ لعهود أنتِ تملكين حق مقاطعة الأكل شرط أن لا ترتكبي جريمة بحق جنينكِ. المحتلون لا يفهمون الدور المنوط بالاعلام العالمي، فجر يوم الثلاثاء السابع من آغسطس اعلن مجلس قيادة الثورة العراقي بدء سحب الجيوش العراقية الباسلة إلى ما وراء الحدود الدولية اثر انجازها مهامها القومية الممثلة بنصرة الشعب الكويتي، تزامن الاعلان مع بثّ شريط مصوّر لعدد من الآليات وناقلات الجند أثناء مواصلتها سيرها باتجاه ما. بعد ساعات تداعت وكالات الأنباء العالمية تكذّب خبر الانسحاب، الأقمار الصناعية باقية ترصد خندقة العسكر العراقي بمواجهة الأراضي السعودية، والشريط المصور لا يعدو كونه رصداً لآليات داخل الاراضي الصحراوية العراقية. وسط تسارع الأحداث بالفوضي التي اتسمتْ بها بدأ الكويتيون يستفيقون من هول الصدمة، طفقوا ينظّمون شؤون حياتهم بينهم رغم غياب حكومة أو سلطة مسؤولة، تعارفوا باتفاق مسبق أو من دونه على اطلاق مفهوم أزمة تجاه وضع قائم، المفهوم يعني المؤقت، ولا خيار أمامهم سوى المكابدة لحين عودة مسار حياتهم إلى ماكان عليه. قبل انصرام أسبوع احتلال أوّل ظهرتْ عشرات المنشورات، جرى تداولها سرّاً، هدفتْ لشد الأزر، واجمعتْ على ضرورة استمرار العصيان المدني العام لحين زوال الغمّة، تزامناً مع ذلك تمّ تشكيل لجان داخل الأحياء السكنية لغرض توفير المستلزمات الأساسية وتسيير شؤون الناس من غير العودة لسلطات الاحتلال باعتماد مبدأ تجاهل وجود الآخر، تزامناً أيضاً جرى تناقل أخبار تفيد بانبثاق مقاومة كويتية مسلّحة تمارس نشاطها تحت جنح الظلام معتمدة أسلوب اضرب واهرب، في الوقت ذاته تفاقمتْ أزمة العمالة الآسيوية بعدما انقطعتْ بها سبلها، عشرات الآلاف، مئاتها، افترشت الشوارع والساحات المحيطة بمقرّات سفاراتها، تنادت دول العالم لفعل شيء يخفف من المعاناة دون جدوى حقيقية مادامت

الكويت تعيش حالة انقطاع كلّي عن العالم الخارجي، الاحتلال نمط ارتجال بالفوضى المصاحبة، معاناة الاحساس بالمحاصرة في المكان لدى عامّة الناس من مواطنين ومقيمين، جهل الجميع بما سيتمخض عنه الغد، احتياجات تأمين القوت اليومي، عمّتْ ارجاء الكويت أسواق طيّارة أو طارئة اتخذتْ من أرصفة الشوارع والساحات مكاناً لها حيث يعرض الباعة سلعهم على الأرض، فيما يخصّني قضيتُ وقتي ملازماً المذياع موزّعاً بين الشقّة والملحق، ضحى يوم الخميس التاسع منه راودتني فكرة استطلاع الخارج، تمنيتُ أنْ ترافقني عهود، خلتها أحوج ما تكون لمغادرة الشقّة ولو لساعة واحدة، استمرارها وحدتها هناك أشبه بحالة حبس انفرادي، تقدّمتُ منها. تعالي نخرج. لماذا. نقوم بجولة نرى الحياة على الواقع. لأي غرض. للإطلاع. اذهب وحدكَ. الشوارع مليئة بالناس ما الذي يخيفكِ. استفزّتها كلمتي الأخيرة. لستُ خائفة. إذن. استجابتْ مشترطة. أنتَ تقود السيّارة. راقبتها صامتاً وهي تستعد، تذكرتُ صبيحة يوم حضورنا هي وأنا أمام القاضي الذي حكم لنا باستمرار زواجنا، العباءة السوداء، الحجاب المحكم والوجه الخالي من الزينة، أدرتُ محرّك سيّارتي، عهود تجلس إلى جانبي، كأنّها ترى الأشياء مّرة أولى، رصدتُ جانب وجهها، تابعتُ انعكاس ردود أفعالها، كانت نهباً لمشاعر مزيج من الجزع والرفض والاشمئزاز والكراهية. ماذا يريدون بالضبط.غمغمتْ مستنكرة عند اجتيازنا أحدى نقاط سيطراتهم. هم لايعرفون ما يريدون، تدقيقهم للهويات مجّرد محاولة اثبات وجود. تحولتْ بوجهها نحو الطريق. لا افهم. قيادة نظامهم قامرتْ بوجودهم. حيرتها تتشرّب صوتها. لماذا ديرتنا. يا زينب، تعارض وجهات نظر أساسية بين شخصين يتقاسمان السرير أشبه بوقوف موقوت ازاء مفترق طرق، أمّكِ عهود وجهة نظر محددة تقضي بأنّ الكويت مكان حكرعلى مواطنيه، وأنا وجهة نظرمركبة تبدأ باشتباك مصائرالأجناس البشرية في

الكويت المكان، اعترفُ لك إنّي افتقر لمقومات منطق قادر على حرف وجهة نظر صارمة التحديد عن مسارها، ولا املكُ حق نقض قناعة عهود بصفتها كويتية والكويتُ بلد الكويتيين، رغم هذا أتذكُر مقولة مطبوعة في صدارة المكاتبات الرسمية في ماضي الكويت ما بعد الاستقلال، الكويت بلاد العرب، الظرف الجلل، الاجتياح يقترن استباحة، الأعراف والقيم عرض الحائط، مصائر البشر فوق الرقعة المكان، الكويت بلاد العالم. ماهذا. اشمئزتْ عهود وهي تومئ تجاه تلال قمامة مكدّسة فوق الرصيف تتصاعد منها أعمدة الدخان، كنا نجتاز تقاطع شارع موسى بن نصير بشارع بيروت. مع الاحتلال اختفى عمّال النظافة. إذن. اضطرّ الناس لجمع قمامتهم في مواقع مفتوحة، أضرموا بها النار درءاً لانتشار الأوبئة. كيف إذا استمرت الأزمة أكثر. طموحاً للتخفيف عنها قدتُ سيارتي نحو شارع الخليج، لعلّ رؤيتها للبحر تُحدث فرقاً، بدأتُهُ من عند دوار البدع، فاجأتني مصادرته، وحدات جيش الاحتلال وضعتْ يدها على ساحل البحر كلّه، أقامتْ استحكامات دفاعية، سواتر رملية، أخرى من الطابوق الأسمنتي، حفرتْ لها خنادقها هناك، فوهات مدافعها العملاقة مصوّبة حيث الامتداد الأزرق اللامتناهي، لاحظتُ وجود أعداد جنود فوق أسطح البنايات المقابلة للبحر، استحكامات دفاعية أيضاً، مدافع مضادة للطائرات، مع حضور مكثّف لنقاط سيطراتهم. كيف يفكرون. يبدو إنّهم يهدفون يبقون طويلاً. حتّى متى. من أين لي بإجابة وافية، إجتهدتُ. دول العالم إلى جانب الحقّ الكويتي. الجدوى. مسألة وقت. لا أفهم. مجلس الأمن الدولي يرفض احتلال الكويت. ماذا يعني رفضه. قرار ادانة ومطالبة بسحب القوات المعتدية إلى ما وراء الحدود. القرارات الدولية حبر على ورق. لم أجد ردّاً مناسباً. أمّي تقول أعداد كبيرة من العوائل الكويتية غادرتْ للسعودية خشية وقوع عمليات اغتصاب. خطر لي أنْ اسألها، ما الذي يقوله أخوكِ سعود. ماذا تقولين

أنتِ. حدجتني غاضبة. نعود للشقّة.

يوم خميسنا إيّاه، التأم شمل قمّة عربية طارئة لغرض إيجاد سبل كفيلة بالحدّ من تداعيات الوضع، القادة المجتمعون أو ممثلوهم انقسموا فريقين، دول مجلس التعاون الخليجي إضافة لمصر وسوريا والمغرب إرتأتْ انسحاباً فورياً للقوات الغازية على أنْ يُصار لبحث أسباب الخلاف تفاوضياً بعد ذلك، الفريق الثاني دعا إلى التروي وعدم التسرّع باتخاذ قرارات انفعالية، إذ إنّ الطرف العراقي لا يتحمّل التداعيات الأخيرة وحده، الطرف الكويتي مسؤول أيضاً، الطرفان ملزمان يجلسان حول طاولة مفاوضات يحلاّن خلافاتهما تراضياً، رئيس وفد النظام العراقي أبدى استعداد حكومة بلاده للتفاوض فوراً مع مجلس قيادة الثورة الكويتي الممثل الشرعي للشعب الكويتي والمؤهّل الوحيد قانونياً لاتخاذ قرارات وابرام اتفاقيات وليكن بعلم المجتمعين إنّ الجيش العراقي عبر حدود بلده استجابة لنداء استغاثة صادرعن الشعب الكويتي الشقيق الذي وُفّق اخيراً لانتزاع حريّته من حكم العمالة والتبعية للاستعمار والامبريالية. قيل والعهدة على وكالات أنباء اجنبية تابع رئيس وفد النظام العراقي خطابه مشيراً لأعضاء الوفد الكويتي. هؤلاء الذين يزعمون تمثيل الجارة الشقيقة الكويت هم في حقيقة الأمر زمرة خارجة على القانون هاربة من وجه العدالة الكويتية. وسط انشغال العرب بقمّتهم الطارئة، خلالها أو بعدها بأيام، بدأت الولايات المتحدة الامريكية ارسال وحدات قتالية عالية التدريب إلى أراضي المملكة العربية السعودية بناءً على معاهدات مبرمة، ذريعة اتقاء خطر استفحال أطماع النظام العراقي، اجتياح أراضٍ سعودية، دول مجلس التعاون الخليجي بدأت أعمال تعبئة واستعداد، احتمال خوض حرب

وشـيكة، صدور قرار دولي ثان يلزم النظام العراقي باحترام سـيادة دولة الكويت وسحب قواته داخل أراضيه، إعلام النظام العراقي يعلن استعداد القيادة العراقية تنفيذ أي قرار دولي ذي علاقة إذا التزمت إسرائيل تنفيذ قرارات دولية صادرة بحقها منذ عام 1948 وحتّى تاريخه، وبعكسـه لا مناص من رفض سياسـة الكيل بمكيالين. أدريكِ زينب يصادفكِ مللكِ وانتِ تقرأين أوراقاً لا تكاد تخصّ زمنكِ، لكنّه تاريخ موغل عبر اللحم الحي مثلما هو حاضر في واجهة مخيلة مجايليه. رغم حجّتي هذه أعدكِ أتحاشـى الإفاضـة بمـا لا يثقل عليكِ كثيـراً. كان زمناً ولا كلّ الأزمان، اليوم بمثابة شهر، والشهر أطول من عام، كنّا كلّما أزمعنا نأوي لفرشنا لا نجزم بقناعة إننا سنبقى أحياء ريثما الغد، فإن جاء الغد واصلنا توقنا نظلّ أحياء لحين حلول ماذا. ارتباك شمولي على مستوى العالم، غالبية الدول مضطرّة للعناية بالشأن الكويتي، لدينا وافدون من مواطني مايزيد علـى مئـة وعشـرين دولة تقطّعتْ بهم السـبل داخـل الكويت، الأخطار تحـدق بهـم ولا سـبيل لمدّ يد العون. مـن جانبي كنت أعاني ارتباكاً ذا خاصية تعجيزية تتصل بأمّكِ إذ إنّي مسؤول عن ملازمتها ورعايتها في حيـن أخـذ سـلوكها ينحـو عدوانياً طارداً أكثر فأكثـر يوماً بعد يوم. بدأنا أسـبوعاً ثالثـاً من عمر الاحتـلال، إزدادت الأوضاع تعقيداً، قيادة النظام العراقـي كشـفتْ أوراقها صراحة، اعلنـتْ قرار منع تداول أوراق العُملة الكويتية متذرّعة بلا شرعيّتها، استبدلتها بأوراق عملة عراقية. كنتُ شأن أمثالـي مـن المعطليـن عن القيام بأي فعل إيجابي أو عمل يومي، أُرابط ليـلاً أمـام المذيـاع فـي صالة الشـقة حتّى ارتفـاع آذان الفجر، عهود لم تغيّر عادتها، بقيتْ ملازمة غرفة الزوجية، أنا استقي الأخبار عبر المذياع وعهود تسـتقيها عبر الهاتف. ليلتها كان ذهني مشـغولاً لدرجة التشـتت جّراء الحالة الصحيّة المتردية لأمي، الأخيرة ترفض بشـكل قاطع فكرة اصطحابي لها إلى المستشـفى الصدري بغية متابعة العلاج، أراها تذبل

أمـام عينـي واصرارهـا الـذي لا يتزحـزح. لن ادخل المستشـفى الاّ بعد انسحاب الجيش العراقي. ماذا لو إنّه لم. يفعلها طوعاً أو غصباً. احتمال تأخّرالانسـحاب. أنا صابرة. يا أمّي. كفّ الحاحك عنّي. صحتكِ آخذة تتدهور. الحمد لله على كل حال. يا أمّي. لاتتعب نفسكَ.

أزمعتُ مفاتحة عهود علّها تمدّ يد العون، تقنع أمي. توخياً لمقولة. النساء يفهمن بعضهن. دخلت الغرفة متردداً، راهنتُ أنْ لا أجدها غاضبة لسبب أجهله، رأيتها ملتمّة على جسدها بوضع جنيني، ثوبها ينحسر عن منحنى فخذيهـا، سـمعتُ نحيبـاً مكتومـاً، هفـتْ روحـي. لمـاذا البكاء حبيبتي. استوتْ جالسة، هالني احمرار عينيها، هل أبادر احضنها أم أنا الغريـب المتطفّـل عليها، سـارعتْ سـترتْ مكشـوفها. كرهتُ عيشـتي. رددتهـا وهـي تجفـف دموعهـا، تناسـيتُ ردّ فعل ثوبها، طوقـتُ كتفها، حزنـتُ لحزنهـا، عَنّ لـي آخذها لصدري. ماذا حدث. لم يتوارد لذهني إنّ سـؤالي يسـتدعي اسـتفزازها، انتفضتْ، سـحبتْ جسـدها وراء كي تتخلّـص مـن ذراعـي، واجهتنـي ممتعضـة. ضيـاع الكويـت والكويتيين وتسـألني مـاذا حـدث. لا أجـزم بوجـود سـوء فهم غير متعمّـد، واجزم بعدوانيتها تجاهي، تجاهلُ المهانة مهانة مكرّسـة، رغم هذا قلت مدارياً ألمـي. آسـف لـم أكن اقصـد. قاطعتني بامتعاضها ذاتـه. واضح إنّك لم تقصـد، أنتـم لا تعانـون ما نعانيه. سـكتت ثانيتين. وقع المصيبة يشـمل الكويتييـن دون غيرهـم. خيـلّ لي إننا، غريبان يتكلّمان لغتين مختلفتين. الكويتيون فقدوا كلّ شيء ما الذي فقدتموه أنتم. احسستني في حضرة امـرأة لا اعرفهـا واكـرهُ أنْ اعرفها، الصداقة، الحبّ، سـريرنا المشـترك، الجنين المتخلّق داخل رحمها، وأنا الغريب ذو الانتماء المنفصل بأنتم، تواجـدي عندهـا تطفّـل عليهـا، صـوت المذياع يتسـلل قادمـاً من ناحية الصالة، الكرامة ليسـت داخل غرفة الزوجية، ازماعي انسـحابي سـمعتها تفضي كمن يحدّث نفسه. ماعدتُ قادرة أعيش هنا. نشط خيالي استعاد

كلمات سبق لها قالتها نقلاً عن أمّها، أعداد كبيرة من العوائل الكويتية غادرتْ للسعودية، تراها تزمع ذلك، وإنْ أزمعتْ ما الذي سيكون عليه موقفي، أردتُ التأكد. هل تنوين السفر. عقدتْ حاجبيها مستغربة. لم آتِ على ذكرالسفر، لكنّي أكرهُ العيش هنا وسط غرباء. أنتِ اخترتِ هذه الشقة. كنتُ غبيّة. ماذا تريدين بالضبط. تسكنُ قليلاً، تمعنُ تفكيرها، يتخفف صوتها من عدوانيتها، تجيب حائرة. لا اعرف. مراوحتها في المابين، تعزّ علي حيرتها وددتُ لو أجد سبيلاً لمشاركة أوتخفيف، فاجأني استطرادها. لم أقرر بعد. صوّبتْ عينيها نحوالباب بما يؤكد رغبتها المضمرة. أُريدُ البقاء وحدي. وحدي أقفُ في الشرفة مهزوماً من داخلي بعدما اقتحمت خلوة عهود، نشدان عونها، إقناع أمّي بضرورة عيادة المستشفى الصدري، تتلقّى علاجها قبل فوات الأوان، وجدتني أخوض جدلاً عقيماً نأى بنا عهود وانا عن بعضنا أكثر، تكرّس لدي يقيني إنّها في لحظة ما قريبة تحسم أمرها، أنا ماشية، تختفي ولا تعود، هواء الليل مشبع برائحة دخان القمامة المحترقة، نوافذ المباني القريبة وكذلك البعيدة مضاءة كلّها، الناس تساهر الليل لتنام حتى ساعات النهار المتأخّرة. مادام لا أحد يزمع توجهه لعمله صباحاً، البلد باقية حالة اضراب طوعي شامل، من جانبها راهنتْ سلطات الاحتلال على تكريس وجودها ليبدو وكأنّه لا يمتّ للمؤقت بصلة، اتخذت خطوات رأتها مناسبة، حلّتْ مجلس قيادة الثورة الكويتي، اعلنتْ وسائل إعلامها إنّ الشعب الكويتي الأبي الحرّ طلبَ العودة للوطن الأم العراق، بناءً عليه لجأتْ لإلغاء دولة الكويت نهائياً، جعلتها محافظة ملحقة، اطلقتْ عليها مسمّى نداء، وليكن بعلم الولايات المتحدة الأمريكية ودول العالم كافّة إنّ عراق السؤدد مسؤول مسؤولية كاملة عن تنفيذ الاتفاقيات المبرمة مع حكام العهد المباد بما يحفظ مصالح جميع الأطراف والله من وراء القصد. سكون ليل الاحتلال معبأ بماذا، تنبّهتُ لتواجد العم عبدو

مُحاطاً بجيران السكن ينتظمون جلستهم أرضاً، اصغيتُ اسمعُ نتف حديثهم، العم عبدو يوازن قراره بين البقاء والرحيل لبلده، يمهل نفسه أسبوعين آخرين، فإن انسحب العسكر العراقي بقي وإلاّ. الجار الكهل الفلسطيني معدوم الخيارات، هو بلا مكان يرحل صوبه، بلده الأوّل إحدى قرى يافا، مدّة وجوده هنا جاوزت ثلاثين سنة، لا أهل له في دول الجوار العربي وإلاّ. أصواتهم أقرب لأن تكون هامسة لا تكاد تقلق سكون الليل، دوى صوت انفجار بعيد فجأة، أعقبته صليات مدفع رشاش، أعقبه دوي انفجار ثان، كفّ الرجال حديثهم، خنسوا منصتين، الانصات مدعاة انعاش الروح، المقاومة الكويتية وطدّتْ عزيمتها، أكّدتْ وجودها، بدأت تنفيذ عمليات نوعية مؤثرة، أتطلّع صوب الباب المغلق للملحق، أمّي تنام أو تساهر آلامها صاغرة، يفجعني هاجسي، وضعها الصحي الآخذ بالتدهور، أيامها المتبقية معدودة، ماعادتْ قادرة على التقاط أنفاسها، يتحتم اقناعها بتلقي العلاج وإلاّ. يا زينب، مكابدة الشقاء قدر الكائن البشري، وبموازاة هذه القناعة تتبدّى قناعة أخرى تدعي معيار الاحتمال، الخرق المستمر للمعيار إيّاه يضعف مقاومة الكائن، يجد نفسه وسط لحظة زمن بينيّ، ماض منقطع ومستقبل منعدم حيث لا حاضر يدعو للمواصلة، الوجود نمط معايشة فإن كفّتْ أو استحالتْ عاف الحياة، لا ازعم امتلاكي شجاعة الإقدام على وضع حد لحياتي، فكرة ثانية استحوذتني لدرجة اللامبالاة بكلّ الذي عداها، أنْ أرحل بعيداً جدّاً. اعرفُ عدداً من أمثالي وفّقوا لبلوغ بلد أوروبي ما، أمريكا، كندا، تدبّروا حالهم، حازوا لجوءاً انسانياً، انتهى بحصولهم على حق مواطنية ذاك البلد، ادريني لا املكُ وثيقة سفر تؤهلنى لمغادرة المكان هنا، لكنّ ظرف الاحتلال، الكويت وقد آلت محافظة نداء، إمكانية دخول الأراضي العراقية صعوداً إلى الشمال حيث المناطق الكرديّة، عساني أضيعُ هناك لزمن يسبق اجتيازى الحدود العراقية باتجاه

تركيا، أضيعُ فيها لزمن آخر ريثما اعبرها لبلد اوروبي، أيّاً كانت النتائج المترتبـة عـن مجازفتي المبيّتـة تبقى أقلّ كارثية من معاناتي واقع حياتي في الظرف، عهود تتربّصني بالترك، أمّي تصمّ آذانها أمام توسّـلاتي لها أنْ تخضع للعلاج، تستسيغ قتل نفسـها تحت بصري، ارتباط الإنسـان بالمكان يتعزز من خلال ارتباطه بناس المكان، اختلال هذه العلاقة حدّ اليـأس يعنـي. لا أراكـم. يرتفـع نداء آذان الفجر من مسـاجد عدّة، العم عبدو ومجالسـوه يغادرون نحو المسـجد القريب، أغادرُ الشـرفة، اطبقُ بابها، اخطفُ نظرة لسـاعتي، تراني أين سـأكون في مثل هذا الوقت من فجر غد، عهود نائمة، لابأس عليها إذا اخليتُ لها حياتها منّي، اتخاذها لقرارتهـا فـي حالـة نأيـي عنها يصير يسـيراً أكثر، المعضلـة الماثلة أُمّي، اعرفها غادرتْ فراشها الآن من أجل اداء فريضة الصلاة، اعرفها ترفض فكـرة ابتعـادي بالمطلـق، اعرفنـي آليـتُ. هـواء الفجـر مشـبع بالرطوبة والرائحـة الزنخـة لدخـان حرائق تلال القمامة، نـدرة المارّة في الجوار، أقـفُ امـام بـاب الملحق اضغـط زر الجرس، أتذكّرنـي أحتفظ بمفتاح، كيف غفلتُ الاسـتعانة به، سـمعتُ صوت أمّي متوجسـاً. اللهم اجعلهُ خيراً. الاحتلال يضمر مفاجآت لا تخطر على البال، اسـمعُ وقع نعالها تتسحّب خطواتها لاهثة. مَنْ. أنا منسي. صدرتْ عنها غمغمة ما، فتحتْ البـاب، تطلّعـتْ لوجهـي متفحّصـة. ما بك. لاشـيء. عقـدتْ حاجبيها، تفحّصتني ثانية. أنتَ لا تحسن الكذب. ما الذي أرد به، وسّعتْ فرجة الباب، دخلتُ. مابك. ولأنّي لم أردّ. يجدر بك أنْ لا تنزعج من عهود. ولأنّـي لـم. عـدا مصيبـة الاحتـلال المـرأة الحامل عادة ما تكـون حادّة المـزاج عليـك مجاراتها بالصبر وإحاطتها بالحنان ريثما. تابعتْ تسـدي نصحاً لا مكان له. اسمعي يا أمّي. اسهبتُ الكلام، وكلّما همّت تقاطعني استمهلتها. دعيني أُكمل. يا أمّي كاره لحياتي، يأسي بلغ حدّه، لا أمل، لا بصيص أمل يوحي بتغيير قادم، ما قيل لنا عن قرب نيل حق المواطنية

لا أساس، والاّ نلنا ذلك الحق منذ، الآن حالة ضياع كلّي، مَنْ يملك حق المنح ما عاد. ما الذي تريد قوله. لا مكان لي هنا. فتحتْ عينيها سعتهما، اغتنمتُ سانحة انشداهها. معجزة حصولي على جواز سفر حدثتْ لمّرة واحدة قبل خمس سنوات ولن تتكرر مّرة ثانية تحت أي ظرف. ما الذي تريد قوله. ما دام الاحتلال قائماً فرصة السفر إلى العراق ميسّرة. فجعها تلقي الخّبر. تختار بلد العدو. العراق بالنسبة لي محطة عبور. لوعتها تغالب صوتها. إلى أين. عندما بدأتُ أوضحّ لها فكرة قبول بعض الدول الأوربية للجوء الإنساني رفعتْ كفّها في وجهي طالبة منّي الكفّ عن مواصلة جهدي، ذكرتني بزوجتي، موقفها تجاه قراري، مصير علاقتي الزوجية، الطفل القادم. يا أمّي عهود انسانة غير، لا اظنكِ تجهلين ذلك، زواجي بها خطأ لا أمل بتلافيه أو اصلاحه، عهود تريدني تابعاً صاغراً مؤهّلاً يتلقّى إهاناتها، الآن وسط غمّة الاحتلال تراني طرفاً عدوّاً، تكره البقاء هنا محاطة بأعداء الكويت. دعها تذهب لبيت أهلها. لم أمنعها. يزول الاحتلال وتعود عهود. تعود بماذا. لم افهم. عهود معدن ثان. هل فكرت يا منسي بمصير الطفل القادم. أمّي لا تعرف خبر النذر الذي تقدّمتْ به عهود في مقام السيدة زينب قبل سنوات سبقت الزواج، لا تدري إنّ المحفّز الأساسي، ربّما الوحيد، لعهود كي تتزوج هو الانجاب، تعويضاً عن إجهاضها جنينها من زواج سابق، لا تفهم إنّ الطفل القادم أنتِ ملكية خالصة لعهود بناء على قناعة راسخة، وما منسي سوى أداة تحبيل مؤجّرة أو مستعارة، أوجزتُ رديّ لأمّي. مثلما تتكفّل عهود بنفسها تتكفّل بوليدها. خلصتُ مبقياً هامش ارتباط بالزمن الآتي. حتّى يجد جديد. وخزني صدري لمّا رأيتُ عيني أميّ تغرورقان، انحدرتْ دموعها فوق خديها الذابلتين، لم تسبق لي مراقبتها تبكي دون أنْ ينتفض جسدها، أو اسمع صوت نحيبها، لم ترفع كفّها تمسح، بذلتْ جهدها حتّى لا تخونها بقيّة جلدها، سألتني من غير استعطاف. وأنا.

أنـتِ مـاذا. دارتْ ردّ فعلهـا ازاء لامبـالاة مُضمـرة. كيف يكون مصيري بعـد رحيلـك. داريتُ زفرة ألم أوشـكتْ مغافلتي، اختصرتُ. كلّ واحد مسـؤول عـن مصيره. رغـم مواجهتهـا شـعورها بالتخلّي، رغـم حزنها المتكدّس في صدرها جادلتني بصبر، قالت ما معناه هي ليسـتْ زوجة استطيع فكّ علاقتي بها متي شئت، ولا أغفل إنّها واصلتْ حياتها من أجلـي، وعسـاني حيـن أضعُ قرارالمغـادرة موضع التنفيـذ، بلوغها نقطة اللاعـودة فـي جدلهـا، اسـتمحتها الصمت بإشـارة يدي. يـا أمّي. أطلق صدري ضحكة مفارقة مشوبة يأساً. لاعلاقة لبقائي هنا أو رحيلي بعيداً بمواصلتكِ لحياتكِ. أنتَ لا تفقه ما تقول. أنتِ اخترتِ الموت لنفسكِ. منسي. رغم كوني إبنكِ لا أريدُ أنْ أكون شاهد وفاتكِ. أشرتُ لصدرها المتداعـي. لـم يبـق لكِ سـوى أيـام قليلة. أنتَ ناقم علـيّ جراء رفضي متابعـة العـلاج. النقمـة توجّه للأحيـاء والرحمة للموتـى. رأيتها تضغط فكّيها قوياً، لاحظتُ اختلاج حنجرتها خلل جلدة رقبتها المتغضنة، لعلّها ابتلعـتْ غصّتهـا. متـى تسـافر. الآن. قلتها، اكدتُ. قبل اسـتيقاظ عهود. هزّت رأسـها حائرة. معنى هذا أكون مسـؤولة أمامها أبرر سـبب تركك لهـا. لـو صارحتهـا. أنا يا أمّي متروك حقيقة بكامل إرادة عهود ورحيلي بعيداً يكفيها جهداً تافهاً ويكفيني إذلالاً مضافاً. اقفلي بابكِ ولا تفتحيه لأي طـارئ. وسـط حزنهـا وصلنـي صوتها كأنّها تسـارر نفسـها. حلول عجيبة. أفلتَ فمي ضحكة خافتة نشـازاً. عجائبية حياتنا. مشـيتُ صوب فسحة وراء دولاب ملفّاتي، اذكرني احتفظ بحقيبة سفر صغيرة، أخذتها، نفضـتُ الغبـار المتراكـم عليها. ماذا تفعل. بدا لي إنّ أميّ لم تسـتوعب فكرة الحدوث بعد. اسـتعد.عيناها غامتا وراء غلالة دموعها. هكذا. لم أتريّث عند تساؤلها. أحتاجُ قطع ثياب قليلة. طفقتْ تراقبني صامتة لحين فتحتُ دولاب الملفّات، تناولتُ ملفّ طلب الجنسـية. ماذا تفعل. آخذ وثائـق ثبوتيـة. اصـدرتْ غمغمة خافتـة، قلتُ. وثائقنا التي لم تكن تعني

لهم شيئاً هنا تعني الكثير هناك. سمعتها تغمغم ثانية، تطلّعتُ إليها أستوضحها قصدها، أخالها صرفتْ ذهنها عن سؤال راودها، أطلقتْ زفرتها. أحتاج كوب شاي. استدارتْ بغية الانسحاب، جرجرتْ قدميها صوب مطبخها، ماعادت قادرة على اداء مهامها اليومية البسيطة، سمعتها تبذل جهدها تكتم نوبة سعال داهمتها قبل أن يصلني صوتها عبر الممر الموصل للمطبخ. هل تريد شاياً أخيراً. كيف لي أداري شعوري بالعرفان تجاهها، المرأة صاحبة العرض أمي، يمكننا عهود وأنا ننهي علاقتنا حسب اختيارنا أو بقرار أحدنا، علاقتنا أمي وأنا حكم ارتباط أبدي، رفعتُ صوتي كي يبلغ سمعها. أحتاجُ شاياً ثقيلاً. بدأتُ بالملف، شهادة ميلادي، شهاداتي الدراسية، عقد زواج والديّ، شهادة وفاة أبي، رسمة حنظلة الكويتي، دسستُ الأوراق في جيب الحقيبة، أعدتُ الملف لمكانه، عادتْ أميّ حاملة صينيتها الصغيرة بكوبين، انحنتْ، وضعتها فوق سجادتنا إيّاها، مدّتْ يدها للمشجب القريب، انتزعتْ عباءتها السوداء، ارتدتها، جلستْ أمام الصينية، قالتْ. حتّى أستعيدُ بعض عافيتي. قالتْ. أقوى على مواجهة زوجتك بعد رحيلك. قالتْ. تأخذني إلى المستشفى الصدري لمرة أخيرة. تطامى صدري بفرح موقوت آثرتُ الاحتفاظ به، جلستُ قبالتها، مددتُ كفّي أحتضن كوبي، رنّ جرس الباب.

من غرفة مسرح الخليج في السالمية، الوقت ليل متأخّر، اجلس فوق سجّادة أمّي مواجهاً صندوقكِ الأسود، يا زينب، التذكّر معايشة شعورية، محاولتي تمثّل تفاصيل معيّنة من أيام الاحتلال تصيبني بالغمّ، أعود لمعاناة أحاسيسي بالقوة ذاتها رغم تقادم عهدها، أكتبُ صفحة، يتملكني مللي، اقرأها، لا أراها متسقة مع سابقاتها، أمزّقها، اصبر ساعة عساني اتسقُ تجاه نفسي، اكتب نصف صفحة، أمزّقها أيضاً، أطلُّ على داخلي، أراني محبطاً لدرجة العزوف عن كلُ شيء، أتأمّلني

أكثر، اسألني إنْ كنتُ مصاباً بمرض الكآبة، يُشاع إنّ وطأة مرض الكآبة تشتدّ على المصابين به مع اشتداد العتمة الشتائية، نحن الآن أواسط شهر نوفمبر، الشتاء بمعناه الحقيقي لم يحلّ بعد، ولا أعراض سابقة تؤكّد إصابتي، يقرّ في يقيني هو الاحتلال مصحوباً بالتخلّي، يحاصرني صدري، يضيق، تصبح كميّة الهواء المأخوذة شهيقاً قاصرة، انفضني عن السجّادة، الغي فكرة الكتابة، أغادر خارجاً. حوش مبنى المسرح ذو اتساع فاره، باب غرفة صبي الخدمة كومار مطبق عليه، الباب الرئيسي مطبق بالمثل، أبادر افتحه، ومنه إلى الشارع، ارفعُ عيني نحو السماء، نجوم سماء السالمية باهتة لا تكاد تُرى، أنوار مئذنة المسجد القريب حضور مميّز، نداء آذان الفجر قيد التوقّع، أتطلّع لامتداد الشارع، البحرُ قيد ربع ساعة مشي. لا أتذكر مسافة الوقت التي قضيتها مقتعداً صخرة بمواجهة البحر المترامي، لعلّها ساعة، لعلّها أكثر، أتذكّرني لمّا سرى الخدر عبر عمودي الفقري جرّاء جلوسي الطويل هناك مما اضطرني انتصب واقفاً. أثناء خلوتي تلك شاغلتُ أحاسيس كآبتي بالنظر في عمق الظلام حيث لا اختراق، تفتحُ عينيك على سعتهما فلا تبصر سوى سواد محيط، تطبقُ جفنيك أنتَ في السواد، يبقى حضور المكان ممثلاً بصوت الموج، الماء كائن حي، الظلام كذلك. مع مرور الدقائق صرتُ ارصدُ تحوّلات اللون الأسود، في البدء آل رمادياً ضارباً للحلكة، تخفف من حلكته رويداً بات فضيّاً باهتاً، رأيت انتشار أنوار الشمس الصفراء وراء الأفق الأبعد حيث التحام السماء بالماء قبل ارتفاع قرصها الأرجواني، التمعتْ حواف الموج بالزبد الذهبي المتلألئ، غافلني صدري عبّ شهيقاً منعشاً، إلتفتُّ يساراً، طلائع أشعة الشمس تنعكس على زجاج نوافذ الأدوار العليا لمجمّع لؤلؤة المرزوق السكني. بالله عليكَ يا مبارك سويّد، كيف لكَ تحضرني عبر زمنين، أحدهما غائر في الذاكرة. صباحنا الباكر ذاك، ملحقنا ذاك، أمّي وأنا نجلس متقابلين،

كفّي تحضن كوب الشاي الساخن، جرس الباب. الله يستر. غمغمتها أميّ قلقة، أضافتْ متمنية. عساها عهود. حرّكتُ رأسي دلالة النفي، همّتْ أمّي تنهض، أشرتُ لها تبقى جالسة، نهضتُ حاملاً كوب الشاي، عندما فتحتُ الباب واجهني مبارك سويّد. صباح الخير. المكان للدهشة لا للاحتفاء، لم يمهلني فرصة ردّ تحيته. أظنني بكرتُ بالمجيء. لم يمهلني فرصة الردّ. هل تناولت إفطارك. أكتفي بالشاي. جيّد. فهمتُ قصده من خلال ترديده كلمة جيّد. افسحتُ له طريق الدخول. صباح الخير أم منسي. فاجأها دخولنا، همّت بالنهوض، خانتها قواها، تسارع لهاثها أكثر، هرعتُ إليها، ابقيتها جالسة، تملّكها خجلها أو نقمتها تجاه ضعفها. أعدُّ شاياً لصاحبكَ. طمأنتها. أنا أعدّه. المطبخ مسافة يسيرة، لحقني مبارك سويد. أمّكَ مريضة جداً. جداً. عندما رأيتها في المّرة الماضية كانت معافاة. ليس تماماً. أبقى عينيه على وجهي. كنتُ أخذتها للمستشفى الصدري قبل دخول القوات العراقية بيوم واحد. أبقى عينيه على وجهي. أمّي رئة واحدة مصابة بالتهاب مزمن تحتاج رعاية طبيّة كلّ اسبوعين. تعثرتْ كلماتي في فمي. منذ الاحتلال رفضتْ العلاج بذريعة ضرورة رحيل العسكر رهنته بعودة الشرعية الكويتية. لهج مبارك سويّد. موقف نبيل. سكت ثانيتين. لكنّه مميت. انتهيتُ من إعداد كوب شاي، دفعته له. قبل وصولكَ استطعتُ اقناعها اصحبها للمستشفى. جيّد. خلال احتسائنا شاينا واقفين في المطبخ عرفتُ من مبارك سويّد إنّه جاءني لغرض استعادة الكاميرا التلفزيونية المحمولة المؤتمنة لدي. فكرتُ ملياً ثم اتخذتُ قراري. سكتَ وهلة كمن يبحث عن كلمات مناسبة، واعز الأهمية يلامس صوته. نوع من الواجب أو المسؤولية تجاه الكويت. اصغيتُ له. حال البلد الآن والدمار الذي تتعرّض له يقتضي وجود من يتولّى توثيق ذلك من خلال عدسة الكاميرا بشكل يومي إنْ أمكن. لم أخفِ قلقي. ماذا لو تنبّه لكَ عسكر الاحتلال أثناء قيامكَ

بالتصوير. اطلقَ ضحكة خافتة. لو تنبّهوا لي صادروني مع كاميرتي. مدّ يده لامس كتفي بواعز عرفان، هدفَ لطمانتي. مثل هذه المهمة لا تؤدّى ارتجالاً، إتفق مع شابين غيورين، يتولّى أحدهما تأمين طريق خالية من نقاط السيطرة وتتحدد مسؤولية الثاني باختيار موقع تصوير آمن أيضاً، يوافقني الرأي هي مخاطرة جسيمة، لكنّها ضرورة توثيق جريمة استباحة البلد، والأجر على قدر المشقة، المقاومة نشاطات متنوعة لا تقتصر على حمل السلاح فقط. لحظات إصغائي له، احتدمتُ من داخلي، تزاحم رأسي باسئلة عديدة، أنا ومبارك سويّد صداقة ترقى إلى مستوى الاعتزاز والثقة عدا عن كونه سلّمني مسؤولية إدارة شركته، لماذا لم يسألني إنْ كنتُ مستعداً للعمل معه في مهمّة التوثيق، السبب الأساس لا يرتبط بالسرية وإلاّ ما كشف سبب استعادته كاميرته، لعله السبب الآخر، الكويتيون وحدهم مسؤولون، حراجة الظرف من حراجة السؤال، أردتُ بلوغ قصدي بشكل غير مباشر. البدون لا يشاركون في أعمال المقاومة. من قال هذا. مجرّد استنتاج. أعداد كبيرة من البدون أفراد في الجيش الكويتي وهم شأن الكويتيين يؤلّفون عصب المقاومة المسلحة. عاد اطلق ضحكته القصيرة. أحد الشابين اللذين تطوعا للعمل معي بدون من أهالي منطقة الصباحية. حلّ أوان السؤال الرئيسي. لماذا لم تستعن بي. المقاومة فعل تطوّعي إنْ شئتَ، أنتَ منذ اليوم. لم تواتني جرأة الردّ توّاً، اعتمل ذهني بالقرار الذي سبق اتخذته، الحقيبة الصغيرة ونيّة عبور الحدود باتجاه العراق، القرار محض اختيار بين أنْ أدير ظهري لناسي بصرف النظر، موثراً خلاصاً شخصياً وبين أنْ اكون فاعلاً في زمني هنا، عهود لاتمثّل من الكويتيين سوى نفسها وذاك الذي يسمم افكارها على الطرف الآخر للهاتف، ذريعتي جراء اختيار أمّي الموت بدلاً من تلقي العلاج ما عادتْ، شملتني حيويتي، هنا ناسي، بلدي يحتاجني، المصيبة معدن الرجال، لا للحقيبة الصغيرة. متى نبدأ العمل. نمّ فم مبارك سويّد

عن ابتسامة متفهّمة.عملك لن يكون ضمن فريق التصوير، تنتظرك مهمة لا تقـل خطـورة. ماهـي. مـدّ يده لكتفي لامسـها ثانيـة. توضيح المهمة يحتاج شرحاً مطولاً. أومأ نحو الغرفة. حال أمّكَ الصحيّة متردية يتوجّب علينا أخذها للمستشفى أوّلاً. تفرّع احتفائي داخل صدري، مبارك سويد رغم حساسية ظرفه اتخذ قراره يرافقنا إلى المستشفى. سيتوفر لنا وقت كاف للتشـاور حـول طبيعـة مهمتـك. لأنّها لم تغـادر ملحقها طوال أيام الاحتـلال عانـت أمّـي جزعهـا ينازعـه حقدها وهـي ترى الدمـار الذي لحق بالمنشـآت والمركبات على جانبي الطريق المؤدّي إلى المستشـفى الصدري في منطقة الشويخ. حسبي الله ونعم الوكيل. بناءً على اقتراحه تولّى مبارك سـويّد قيادة سـيارته، اجلس إلى جانبه، أمّي تحتلّ المقعد الخلفـي. اللـه سـبحانه يمهل ولا يهمـل. راقبتها من طرف خفي، رأيتها تضع وجهها لصق زجاج نافذة السـيارة، تتطلّع عبرها مأخوذة. لك يوم يا ظالـم. تُنفّس عن غضبها، لكنها في الوقت ذاته، فهمت درسها، كانت تلجم فمها إذا توقّفنا عند نقاط سيطراتهم. أعوذ برب الفلق من شرّ ما خلق. لدى البوابة الرئيسية للمستشفى اعترضتنا نقطة سيطرة أخيرة. حتّى هنا. همسـها مبارك سـويّد منزعجاً، تقدم صوبنا أحد جنودهم. هوياتكم عيني. سـحنته وكذلك نطقه للعربية، هو كردي. أمرك عيني. اسـتجاب مبارك سويّد رددها مبتسماً، أضاف. أهل محافظة النداء يحبّون الأكراد. ارتسـم انطبـاع بالقلـق علـى وجه الجندي، همس متوسّـماً. أرجو أنْ لا تقول هذا الكلام لغيري. وسّـع مبارك سـويّد إبتسـامته. حاضر. دفعنا، هـو وأنـا، هوياتنـا للجندي، احتفظ بهـا الأخير في يده، تطلّع نحو أمّي، تسـاءل متعاطفاً. الظاهر الحجيّة مريضة. هذاصحيح. الله يشـافيها. أعاد لنـا هوياتنـا دون أنْ يدققهـا، تابعنـا طريقنا، اقتربنا من مبنى المستشـفى، لفـتَ مبـارك سـويد اهتمامي. انظر. إصبعه تشـير لسـطح المبنى، رأيتُ عدداً من الجنود إلى جانب ساتر أكياس رملية يحوّط قاعدة مدفع مضاد

للطائرات بفوهة موجّهة للسماء. الحيرة مدعاة استهجان. على افتراض قيام الحرب، هم لايحمون المستشفى، هم يحتمون بها.

عدا كونها مليئة بالخوف والحيرة أيام احتلالنا تلك مشحونة بترقّب موقوت يتمخّض عن ماذا، أتذكّره صباحنا إيّاه، مبارك سويّد وأنا نسايرخطوات أمّي المتسحّبة عبرأروقة المستشفى، عدد الأطباء وكذلك طاقم التمريض قليل جدّاً مقارنة بزمن ماض قريب، غالبيتهم من الكويتيين ونفر محدود من الوافدين العرب، الأجهزة الطبية صارتْ نادرة بالمثل، قيل. سلطات الاحتلال وضعت يدها، حملتها إلى ما وراء الحدود. قيل. محافظة النداء لا تحتاج كل هذا الترف الصحّي. طبيب شاب متطوّع تعرّف على مبارك سويّد. مخرجنا المسرحي المعروف. رحّب به، تحوّل رحّب بي، تسلّم زمام أمّي، ادخلها غرفة العناية بالحالات الحرجة، جهاز الأوكسجين ومغذي الوريد، طلب من أحد الممرضين مراقبة حالتها، قال لنا مضمّناً اعتذاراً. أنتم مضطرون للأنتظار ثلاث ساعات على الأقل. أجاب مبارك سويّد مخلياً ذمّة الطبيب. بارك الله بك. جلسنا هو وأنا فوق اريكة خشبية غير بعيد عن الباب الموارب حيث توجد أمّي. اسمع يا منسي. بدأ مبارك سويّد حديثه. الممر الطويل خال من غيرنا، أبواب الغرف على الجانبين مطبقة أو مواربة، السكون يبعث إحساساً بالوحشة، الإضاءة الصفراء خافتة، في حين عمّتْ الطرف الأبعد من عمق الممر إضاءة نهارية ساطعة قادمة عبر بابه الزجاجي، سمعتُ أنيناً رجالياً صادراً عن غرفة قريبة، استطرد مبارك سويّد. كان الأمر أشبه بإشاعة ترددتْ قبل أيام. أجهل ماهو بصدده، داريتُ فضولي ريثما يفصح. هذه الإشاعة سرعان ما أكّدتها الوقائع. سكت وهلة. سلطات الاحتلال شكّلت مجموعات صغيرة تتألف من القوّات الخاصة مدعّمة برجال استخبارات تتولّى البحث عن مواطني الدول الأجنبية المتواجدين داخل الأراضي الكويتية. هدفهم. اعتقالهم

لغـرض تجميعهـم فـي أماكـن معينـة قبـل نقلهم إلـى العـراق ولا فرق عندهـم بيـن رجل وامـرأة وطفل. الإجابة بالغمـوض المصاحب، لكنّي جاريتـه. الأجانـب الذين تقطّعت بهم سـبلهم هنـا مئات الالاف. النظام العراقـي يسـتهدف مواطنـي دول محـددة يعدّها عدوّة خطـرة. التوضيح يسـتلزم إفاضـة، احتـلال الكويت شـكّل واقعة غير مسـبوقة في التاريخ الحديـث، دولـة مسـتقّلة عضـو فـي الأمـم المتحـدة تتعـرّض حين غرّة لاجتيـاح بربـري يضـرب بالأعراف والقيـم والإتفاقيـات الدولية عرض الحائـط، ليصـار إلى الغائها ككيان قائم، الحاقها عنوة بالدولة المعتدية، تنـادى المجتمـع الدولي إرتأى على النظـام العراقي عودته لوعيه، راوغ الأخيـر مدعيـاً وجـود حـق تاريخـي، لجـأت دول العالم الحر لتشـكيل تحالـف واسـع ضـمّ ما يقـارب ثلاثين دولـة بزعامة الولايـات المتحدة الأمريكيـة مـن أجـل تحرير الكويت بالقوة إذا لزم الأمر، طلائع جيوش التحالف بدأت توافدها داخل أراضي المملكة العربية السعودية، الحرب فـي حالـة نشـوبها محسـومة لصالح دول التحالف، وليـس أمام المحتل سـوى العمل على منع قيامها، مسـاومة المتحالفين على حياة مواطنيهم من جالياتهم المتواجدة في الكويت، مداهمات أماكن السكن، مصادرة فورية، اتخاذهم دروعاً بشـرية. قبل هذا وذاك. مهدّ مبارك سـويّد، تابع. هؤلاء الأجانب ضيوف الكويت تتوجّب حمايتهم، غياب الدولة لا يعني غياب مسؤوليتنا تجاههم. اصغي له، إنفتحَ الباب الزجاجي الكائن عند عمـق الممـر، دخلـتْ ثلّة عسـاكر يتقدّمهم ضابط قوّات خاصّة، سـكت مبـارك سـويّد، اسـتجابتْ الجـدران لوقـع أحذيتهم الثقيلـة. هدفهم من اقتحام المستشفى. زجرني مبارك سويد همساً. كُفّ صوتك الآن. إنقسم العسكر القادمون فريقين، بدأوا يتفقّدون الغرف على جانبي الممر باشراف ضابط قوّاتهم الخاصّة، رأيتهم يقتحمون الغرف، يغيبون داخلها حوالي دقيقـة، يغـادرون تاركين الأبواب مشـرعة، جمعهـم آخذ يقترب، همس

لـي مبـارك سـويّد. جّهـز هويّتك. اقترب أحد الجنـود منّا. هوياتكم. لم يضف كلمة عيني، ضابطهم يقف مراقباً مبعدة أمتار قليلة، سلّمنا هوياتنا لجنديهـم، أخذهـا بدوره لضابطهم، تفحّصهـا الأخير، خطا نحونا، هبّ مبـارك سـويّد واقفـاً، وقفتُ. ما الذي تفعلانـه هنا. انبريتُ للرد. الوالدة مريضـة. أشـرتُ لبـاب غرفتهـا. تخضـع للعناية. اومأ الضابـط لجنديين يقفان وراءه، سارع الجنديان غابا هناك برهة، غادرا اثرها. أفاد أحدهما. إمرأة عجوز. حدّق الضابط في عينيّ مبارك سويّد. أنتَ عسكري. ابتسم مبارك سـويّد بأدب. أنا مخرج مسـرحي. لكنّك سـارعتَ بالوقوف لدى اقترابـي منكـم. احترامـاً لجنابكم. تمهّل ضابطهم مفكـراً لثانيتين، حوّل نظراته إلي. حدّق لثانيتين اخريين، صرف ذهنه عن فكرة توجيه سؤال، اصدر أمره لجنوده. اكملوا واجبكم. اختفى الجنود وراء أبواب الغرف، سـلّم ضابطهم هوياتنا لمبارك سـويّد. نحن عسكر مأمورون. نبرة صوته الجـاف تؤكّـد التبريـر لا الاعتـذار، غادر الجناح لاحقـاً بصحبة جنوده. بعـد دقائـق وصل الطبيب الشـاب. اومـأ صوب الباب البعيد الذي غادر العسـكر عبره. ازعاج لابُدّ منه. شـكواه تتشـرّب صوته. هذه حالنا منذ يومهـم الأوّل. الحديـث مناسـبة افضاء، هم يتعرّضـون للمداهمة مرتين يوميـاً، واحـدة فـي الفتـرة الصباحية والثانية خـلال وقت غير محدد من الليـل، بعـد منتصفـه أحياناً، لايبالون بأمر إسـمه مراعاة راحة المرضى. بدءاً كانوا يتصيدون جرحى أفراد الجيش الكويتي، ثم جرحى المقاومة ممن تضطرّهم إصاباتهم البليغة للجوء إلينا. قاطعه مبارك سويّد. لكنكم مستشفى أمراض صدرية. نظراً للحالة الراهنة لا يوجد فرق بين مستشفى متخصص ومستشفى عام. حانتْ عنه نظرة باتجاه الباب الزجاجي كمن يتوقّـع عودة العسـكر. منذ أسـبوع صاروا يتصيّـدون المرضى الأجانب، قبل يومين أخذوا كهلاً كندياً يعاني التهاباً رئوياً حادّاً، رفعوا عنه الاجهزة واقتـادوه فـوق كرسـي متحـرّك، رجوت ضابطهم، هذا الرجل سـيموت

خلال ساعات، قال نحن نتولّى متابعة علاجه. كان الله بعونكم. رددها مبارك سويّد مشاركاً، اثر ابتعاد الطبيب التفت إلي. ها أنت رأيت على الطبيعة. جاريته. رأيتُ أشياء كثيرة. حال الوافدين الأجانب من مواطني دول التحالف. تلوّن صوته بواعز الأهميّة. نحن مدعوون لمساندتهم في ظرفهم العصيب. تداعى ذهني يسائلني. كيف لناس عزل يحوّطهم عسكر العدو، يتخللهم، لا يملكون من امرهم شيئاً، أنْ يبادروا لمساندة ايّ كان. احتفاظي بتساؤلي، تابع مبارك سويّد توصيفه. نحن أبناء البلد، نحفظ المناطق والأحياء والشوارع عن ظهر قلب، نعرف العدو، نستطيع مراوغته، الغالبية العظمى من الأجانب الذين يستهدفهم العدو عاشوا سنوات وجودهم هنا منعزلين على أنفسهم لا يعرفون من الكويت سوى الطرق المؤدية لمقار أعمالهم والأسواق القريبة لمناطق سكناهم، نحن لا نستطيع الدفاع عنهم إذا دوهموا، الأمر الذي يخدم وضعهم الحالي إنّ عسكر الاحتلال لم يعرف أماكن تواجدهم إذا لازموا بيوتهم اقفلوا أبوابها حفظوا حياتهم لأمد يطول أو يقصر بناء على مجريات لا أحد يجزم بها. سجن اختياري. خروجهم للشارع بهدف شراء حاجة ما أو لغرض علاج من طارئ صحّي يكشفهم لجنود نقاط السيطرة. هويتك. المواطنون ووافدون عرب عديدون ادركوا حجم الخطر المتربّص بهؤلاء الأجانب، بادروا لمدّ يد العون. تحرّى مبارك سويد اختيار كلماته. المسألة ليست بالبساطة المتصوّرة، جهد دؤوب يحتاج خبرة محفوفة بالمخاطرة، التحرّك ضمن خطّة مدروسة تحاشياً للانكشاف، مما حدا بالمقاومة الكويتية لأنْ تتصدّى للمهمة، عملتْ تزامناً مع بدء حملة عسكر الاحتلال على حصر أعداد الأجانب المستهدفين، غيّرتْ محال سكن بعضهم، الكويت رغم صغر مساحتها تضمّ الآلاف منهم، احتاجتْ المقاومة متطوعين يحسنون التحدث بالانجليزية نوعاً ما، شرط توفّر عنصر الاخلاص والاستعداد للتضحية، حضرني إسمكَ يا منسي،

ذكرته لهم. تناوبتني مشاعر خليط من الخوف والتهيّب والفرح والاحتفاء والاعتداد. تساءلتُ مشدوهاً. أنا. إلاّ اذا رفضت. لازمتُ صمتي. فإنْ قبلت ستكون مسؤولاً عن عشر عوائل أجنبية أغلبها بريطانية، مقر سكنها الآن مجمع لؤلؤة المرزوق المطل على بحر السالمية. أتقبلّ العرض أيّاً كان حجم الخطر المحدق وأعارض فكرة مجمع لؤلؤة المرزوق، وضّحتُ سبب معارضتي. ساحل البحر منطقة محظورة مقصورة على عسكر الاحتلال واستحكاماته الدفاعية، أعداد جنوده كثيرة عدا عن استعداداته الأمنية العالية. سمع مبارك سويد وجهة نظري كاملة، تصدّى لها، فنّدها مستعيناً بمنطق المقاومة، تسكن وسطهم تأمن شرّهم، مقولة محيّرة استدعتْ توضيحاً تفصيلياً، صادرالاحتلال الشريط الساحلي من أقصى شمال الكويت حتّى اقصى جنوبها في أيام تواجده الأولى، اخلى المباني المواجهة للبحر عنوة، امهل ساكنيها نصف نهار لاخلائها، اذعن الجميع باستثناءعدد محدود من قاطني لؤلؤة المرزوق، سبع وحدات سكنية يشغلها فلسطينيون أغنياء من ملاكي الشركات، رفضوا الامتثال لأمر الاخلاء، لن نترك بيوتنا، حرص القادة العراقيين ابقاء علاقة طيبة بالمسؤولين الفلسطينيين، اضطروا للتغاضي، اوكلوا مهام الاشراف على المجمع لأحد أرباب الأسرالسبع بالتنسيق مع الوحدة الأمنية المتواجدة في الجوار، المقاومة الكويتية بادرت من جانبها بدأت تنسّق مع هؤلاء الفلسطينيين، هناك تعاون يرقى حدّ التفاني، اسمعُ مبارك سويّد يتحدث، أُصدّق أو أتشكك، الموقف المعلن لقيادة منظمة التحرير الفلسطينية مراوغ لدرجة تقبّل حقيقة التخلّي، الفلسطينيون كأفراد، تواجدهم هنا، مصيرهم وشيجة ارتباطهم بالمكان، السياسة فن التعامل مع الممكن، المقاومة فعل التعامل ازاء بقائك حيّاً. مسؤوليتك تجاه العوائل الأجنبية العشرخلال هذه الأيام تتمثّل في تلبية إحتياجاتها الضرورية للغذاء والدواء. احتفظتُ لنفسي بسؤالي الحائر. من أين.

نحن بانتظاركِ في مثل هذا اليوم بعد اسبوع. رددها الطبيب الشاب على مسامع أمّي لدى مغادرتها غرفة العناية. حالتكِ الصحيّة تستدعي ذلك. حاضر يا إبني. أراحتني الاستجابة الممتنّة لأمّي، أراقبها تمشي ثابتة الخطوات، أراها استعادتْ بعض حيويتها، لحظة توقُّف السيّارة أمام باب الملحق تجاوبتْ مساجد النقرة بنداء اذان الظهر، خطفتُ نظرة للأعلى حيث الشقّة، نوافذها مغلقة بستائر مسدلة، لعلّ عهود ما تزال نائمة، التفتَ مبارك سويد لأمّي. آخذ ابنكِ معي مدّة ساعة. ابتسمت أمّي راضية. على بركة الله. إلى أين. سألته وهو يوجّه سيّارته نحو شارع الاستقلال. منطقة بيان. أزمعتُ اسأل لولا مواصلته. نقابل أحد مسؤولي المقاوّمة. تواتر خفقان قلبي، ما ادراني إنّي مؤهّل فعلاً. اخشى أنْ لا يكون الوقت ملائماً. كُلّ الأوقات تلائم المقاومة. لم يزايلني قلقي. هل يعرف بقدومي. حسمني ردّه. يعرف بقدومي. أظنّه ازمع مشاغلتي نحو ما ينتظرني سألني. كيف حال عهود هذه الأيام. نطقتُ أوّل كلمة تبادرتْ لذهني. زفت. عقد حاجبيه متأمّلاً دون أنْ يعقّب مما أحالني لموضوع ذي ارتباط شرطي. بصفتكَ جار أخيها سعود. كيف حاله الآن. زفت أكثر. الاحتلال يقرّب أصحاب القلوب المتآلفة من بعضهم، آغسطس، الحضور الطاغي للحدث، توطّدت علاقة مبارك سويد بجاره العم فرحان، صارا يلتقيان في حديقة منزل الأخير ليلاً، يقضيان جانباً من وقتهما بسماع المذياع ومحاولة قراءة ما يدور، قبل نهاية أسبوع أوّل تحوّلتْ الحديقة إلى نواة ديوانية استقطبتْ جيراناً آخرين، سعود ليس بينهم. أحاديثهما الثنائية، مبارك سويّد والعم فرحان، سمع الأوّل نتف أخبار تتصل بسعود وأخته الصغرى جود. هي خامة طيبة. رددها العم فرحان ذات خلوة، اطلق زفرة. أخوها اللئيم سعود مسؤول عن ضياعها. الضياع مفهوم مطلق يتسم بالغموض، نقلاً عن زوجة أخيه المرحوم عرف العم فرحان، جود بعد انهائها دراستها الجامعية في الشام

بـدأت تختلـق الحجـج للبقاء هنـاك، ادّعت تخلّفها عن امتحانات سـنة رابعة جراء مرض مفاجئ وعليها إعادة سنتها، بدءاً انطلت الحيلة على سعود، انشغاله بعمله الجامعي طفق ينتظر عودة جود خلال شهر يونيو الماضي، جود لم تعد، ادّعتْ تأخّر تسلّمها شهادة تخرّجها، شكّ سعود بالأمر، كلّف أحد المقيمين السوريين بتتبّع أخبار أخته هناك، موافاته بها لقاء مبلغ متفق عليه، منتصف شـهر يوليو الماضي خبّر سـعود أمّه هو بصدد السـفر للإمارات، رحلة عمل ثلاثة أيام، سـافر لدمشـق، اسـتناداً لمعلومـات موثوقـة توجّـه حال وصوله لمبنى سـكني، وقـف أمام أحد الأبواب، جود كانت في الداخل، اسـتغرقتْ رحلة سـعود أسـبوعاً عاد بعده ليواجه أمّه، هي بابنتين منحرفتين، الأولى عهود التي تزوجتْ من نكرة بدون والثانية جود عاشرتْ سورياً مجهول الأصل تقول عنه طبيب أسنان، سلّمتْ جسدها له بورقة زواج عرفي، حرص سعود على ماتبقّى من شرف العائلة، لم يغادر الشام قبل أنْ يزوّج الإثنين شرعيّاً في إحدى محاكم دمشق، ختم خبره لأمّه هازئاً. مبروك. اليوم الذي تلا عودة سعود هاتفتْ جود أمّها. هي لن تعود إلى الكويت إطلاقاً، أخوها سعود خيّرها بين إعادتها لبلدها مجللة بالفضيحة أو اتمام اجراءات زواجها بمن تريد بعد تحرير توكيل رسـمي غير قابل للنقض يفوّض حامله حقّ التصّرف بكامـل حصتهـا مـن إرث أبيهـا، لمّا اسـتنكرت أمّه تصرّفـه الظالم تجاه أختـه الصغـرى قـال، إنْ رضيـتْ الأم لابنتها ارتكاب الزنا هو لا يرضاه ولا يرضى لاجنبي ما أنْ يحتال عليهم يشاركهم حلالهم دون وجه حق، وليكـن بعلـم الأم لـو تطلّقـت إبنتهـا عادت لكنف أهلهـا حقّها بالإرث أمانـة مودعـة عنـده. هذه حال سـعود قبل الاحتلال بأيام. مبارك سـويد يواصـل حديثـه مثلمـا يواصل قيادة سـيّارته، هناك ما ينتظرني بعد قليل، رغم تهيّب مواجهة أحد مسـؤولي المقاومة ناوشـني فضولي لو اعرف عـن سـعود أكثـر. ماذا بخصوص حالـه الآن. لا تحتاج توصيفاً. جاءني

ردّه غير شاف، صمتَ برهة. وحده خالف أهل الفريج. صمتَ برهة. عمّه فرحان قال أنا شخصياً غسلتُ يدي منه. ديوانية العم فرحان، لقاء الجيران، تبادر لأذهان المجتمعين أنْ يحذوا حذو أهالي مناطق كويتية أخرى، تشكيل لجان تطوعية ينهض أعضاؤها بمسؤوليات الأحياء، جمع القمامة واحراقها وسط أماكن مكشوفة بعيدة عن المساكن، توفير الاحتياجات المعيشية الأساسية للعوائل، تفقّد أوضاع المتعففين منهم، بعضهم جراء مباغتة الحدث لا يملك ما يقيم به أوده. أحد رواد ديوانية العم فرحان أفاد. يتوجّب علينا مفاتحة جارنا الدكتور سعود حتّى لا تساوره شكوك اغفالنا له. بناءً عليه جرى تكليف مبارك سويّد بأمر المفاتحة. ليتني رفضتُ التكليف. قالها متألماً ناقماً في الوقت نفسه. لمّا بادر طرق باب المدعو، فتح الاخير بابه. نعم. صُدم مبارك سويّد بالنبرة الجافة لصوت سعود. اضطر لمداراة امتعاضه، وضّح سبب قدومه. أنتم تقومون بأعمال ارتجالية غير مدروسة العواقب. أبدى سعود وجهة نظر متجهّمة، أضاف. مخاطرات مجانية بلا عائد حقيقي. أضاف محذّراً. عساكر الاحتلال يرصدون كلّ صغيرة وكبيرة. ثمّن له مبارك سويد تحذيره، أولاه ظهره.

يا زينب، الاحتلال زمن المشي على حافّة الموت تشّبثاً بالحياة، خالكِ سعود لا يمثل الشخصيّة الكويتية حينها. الشخص الذي نحن بصدد مقابلته. قالها مبارك سويد معلّقة ونحن نترجّل من سيارته أمام المدخل الخلفي لأحد منازل منطقة بيان، وقت الظهيرة من شهر آغسطس لم ينصرم بعد، حرارة الجو مشبعة رطوبة، الطريق الفرعية ما بين المنازل بدت مقفرة، أكمل محدّثي جملته. يعرفُ مَنْ تكون. هل هدف لطمأنتي، لم أخِف حيرتي. أنا لا أعرف من يكون. أجاب مضمراً إعزازاً. القاضي صلاح الفهد. هل استوضحه عن علاقة قاضٍ ما بوافدين أجانب يتهددهم خطر مصادرة. المنزل المعني يحوّطه سور بارتفاع

القامة، له باب معدني عريض يسع عبور سيّارة، الباب مقفل، لمحتُ وجه شاب عشريني يطلّ من أعلى السور، احتياطات أمنية، رفع مبارك سويّد يده يحيي الشاب، بادر الأخير فتح فرجة في الباب المعدني. أهلاً مبارك. عبرنا فرجة الباب داخلين، أعاد الشاب اغلاق بابه. كنّا واقفين ازاء ممر معشب، أشار الشاب نحو امتداد الممر. بوفهد في الديوانية. جلسة عربية، حشيّات صوفيّة ومساند صُفّتْ عند الجدران، الديوانية خالية من عداه، كان يجلس في الزاوية يصغي لمذياع صغير أمامه، نهض لدى دخولنا، قامة متوسطة تميل للقصر، جسد يوحي بالهزال، صوت عميق القرار. حيّا الله منسى السياسة. مدّ كفّه إليّ، من غير المناسب أقول لم أعد اعمل في السياسة، شدّ على يد مبارك سويّد أيضاً، دعانا للجلوس. المثقّفون الطليعيون مؤهّلون للتعامل مع الظرف الحرج. بدأ صلاح الفهد حديثه، غالبية عسكر الاحتلال من المتواجدين على نقاط السيطرات جنود بسطاء يمكننا تجاوزهم مستعينين بالكلمة الطيّبة حيناً، بالمكر والدهاء حيناً، بالسخاء إنْ دعتْ الحاجة. عيناه عندما ينظر إليكَ مواجهة نفّاذتان، تحسهما تسبران أغوارك، بما يضطّركَ لأن تتحاشى التطلّع فيهما، مهمّتي المنتظرة لا تخلو من مخاطرة، لكني كما أفاده مبارك سويد أتمتّع بالكفاءة والجرأة ودافع القيام بعمل يخدم القضيّة، لغته بين آونة وأخرى تتخللها مفردات قانونية لها علاقة وشيجة بطبيعة وظيفته ما قبل الاحتلال، سأكون مسؤولاً عن رعاية عشر أسر أجنبية جرى تجميعهم في مبني لؤلؤة المرزوق، عددهم إذا سنحتْ الفرصة قابل للزيادة، ميّزة المجمّع السكني إيّاه إنّه يُدار حالياً من قبل فلسطينيين حلفاء موثوق بهم، أحدهم يُدعى طالب الشوّا، عضو نشط في لجنة التآخي الكويتية الفلسطينية التي تأسستْ بمبادرة الفنان التشكيلي الفلسطيني اسماعيل شموط بعد الاحتلال مباشرة، معلومات اسمعها للمّرة الأولى، التصدّي للمسؤولية وقت الأزمة مبادرات شخصيّة سرعان

ما تتخذ طابع الفعل الجماعي، توجد نقطة سيطرة عند البوابة الرئيسية للمجمع، ترديدكَ إسم طالب الشوا على مسامع جنود هناك بمثابة جواز مرور لعبورك إلى الداخل، أنتَ تؤدي مهمّة توفير مستلزمات طالب الشوا وجماعته، من جانبنا ابلغنا المعني طالب الشوا بإسمك، المعنى المستخلص، إنّ الامور تجري ضمن نسق معلوم معد سلفاً بالحبكة المطلوبة، سيكون طالب الشوا بانتظارك، يتولّى تعريفك للأسر الاجنبية، تصغي لهم، تدوّن احتياجاتهم على ورقة لكي نعمل على تلبيتها، الجنود العراقيون، في الغالب، يحتاجون أشياء ثلاثة، علب السجائر، الشاي، السكر. أكّد. السجائر خاصّة. كن سخياً معهم، تزوّد بكمية وافية من علب السجائر، ضعها في مكان تسهل ملاحظته، اهتمامهم بها يشغلهم عن البحث والتحرّي الدقيقين. سكت برهة. أنت لن تنقل موادّاً ممنوعة يجرّم عليها القانون ولا أسلحة. وقت ركوبنا السيارة أومأ مبارك سويّد نحو البيت الذي غادرناه. احفظ المكان جيداً، في المرات القادمة تأتي هنا من دوني. تتركني وحدي. لستَ وحدك. شرد بصره عبر الزجاج الأمامي لسيارته، تابع كمن يخاطب نفسه. خشبة مسرح هائلة بحجم مساحة الكويت، كلّ منّا مسؤول ان يؤدي دوره المسند إليه بالكفاءة المطلوبة. مررنا بجانب تلال قمامة يتصاعد دخانها الأسود، التقط أنفي رائحة شواط حادّة، الظاهرة الشاذّة غير مؤهلة تعمّر طويلاً، أخاله حدس ما يدور في ذهني. دول العالم الحر تقف مع الحق الكويتي، جيوش النظام العراقي ملزمة تنسحب طواعية أو حرباً. الغصّة مدعاة حيرة. دول المعسكر الاشتراكي موقف مراوغ محبط. سيبقى كذلك إلى حين، الجيوش العراقية تسليح اشتراكي، عدد الخبراء الروس داخل الأراضي العراقية بالآلاف، اشتباك العلاقات لدرجة التعقيد. الغصة مدعاة جزع. عسى أنْ لا تتسع رقعة الحرب تصير كونية ثالثة. ثقة مبارك سويّد تستوطن صوته. لو قامتْ الحرب سيخوضها النظام العراقي منفرداً.

ساعات قليلة تحّولتُ خلالها من إنسان يائس بائس إلى ثان مختلف، جدواك أنْ تكون فاعلاً ايجابياً في زمن ارتكابي، تحوّل أمّي عن عناد مآله موت وشيك، إطلالة مبارك سويّد المبكّرة، نأخذ أمّك للمستشفى الصدري. تعال معي، ترافقني، أرافقك، منزل بيان، القاضي ذو العينين السابرتين، قبل مغادرتنا له دسّ صلاح الفهد في يدي مبلغ مال. تحت الحساب. اشتر مواداً تموينية أساسية، لا بأس بالأغذية المعلّبة، لا تغفل أمر السجائر، زيارتكَ الأولى للأسر الأجنبية ستكون تفقديّة، في المرات اللاحقة تكون عارفاً طبيعة احتياجاتهم، ستجد تعاوناً غيرمحدود من جانب طالب الشوّا. لمّا كتب مبارك سويّد في هوية سلّمني إيّاها مسؤول تسويق لم يخطر على بال أيّ منّا، المصادفة بالمهمة الموكلة، عهود، انعزاليتها، وضعها النفسي المتردّي، تراها تعرف بالذي فعله سعود بجود عندما سافر للشام، سعود، هوالأخر، يحدّ دائرة اهتماماته، يقصرها على ماذا، الاحتلال عيون لا حصر، العمل الجماعي حتّى السلمي جدّاً كما يراه سعود مخاطرة مجانية، اعزل نفسك عن الجميع تسلم.

مع ارتفاع العصر تشرع الظلال العملاقة لمجمع لؤلؤة المرزوق السكني بالانعكاس على سطح البحر، لتتطاول أبعد نحو العمق كلّما مال قرص الشمس غرباً، شهر آغسطس موسوم بالرطوبة، أعبّ لصدري شهيقاً عميقاً أنا بمواجهة البحر. الهواء الساكن الساخن الرطب يحتل رئتي مضمّخاً برائحة زفرة السمك والأصداف، رغم هذا يتملكني إحساس بالصحبة، لو كان الوقت غيره، أُفرغ صدري من هواء البحر، القادمون الطارئون افرغوه من مرتاديه والساكنين جواره، الزموه يبقى متوحّداً على ذاته، لا بواخر ولا زوارق حداق، استحكاماتهم البدائية فصلته عن شاطئه، في أوقات سابقة مثل هذه يعجّ الساحل بطيور النورس والناس. إلى أين. سألني أحد جنود سيطرتهم معترضاً طريق سيّارتي، ماسورة بندقيته موجّهة صوبي. عدُ من حيث جئت هنا منطقة محظورة. المدخل الرئيسي للمجمّع المعني أمامي، ابتسمتُ للجندي صابراً. جئتُ استجابة لطلب الاستاذ طالب الشوّا. لم يتزحزح جنديهم، اقترب جندي ثان أمعن نظره في وجهي يتفحصني. قال بنبرة صوت طاردة. لايوجد أحد بهذا الاسم. حيرتي يغالبها قلقي، لعلّ القاضي صلاح الفهد ابلغني إسماً خطأ، لو كان الأمر كذلك توجّبتْ علي عودتي لمنزل بيان، الجنود المتواجدون لم يتحولوا عدوانيين بعد، حيرتي باقية تلازمني. لا أظنني أخطأتُ العنوان. حانتْ عن الجندي الأوّل نظرة تأنيب لزميله، أومأ له برأسه نحو المدخل كمن يأمره بالذهاب، امتثل الثاني، غاب داخل المبنى، اقترب جندى ثالث. ما الذي تريده من طالب الفلسطيني. ناوشني إحساس بارتياح موقوت. تلبية طلب مواد تموينيّة. موّاد تموينية. سكر، شاي، خبز، أطعمة معلبة. تذكّرتُ أضفتُ. سجائر. نشط من فوره، وجّه

أمره. افتح صندوق سيارتك. من عمق مدخل المبنى رأيته قادماً بصحبة الجندي، أربعيني طويل القامة دون امتلاء، يرتدي سروال جينز وقميصاً حريرياً قصير الكمّين، مظاهر النعمة بادية عليه، لدى اقترابه حيّاني بايماءة رأس سبقت قوله. أهلاً بائعنا النشيط. استجبتُ متقمّصاً دوري. تحت أمرك. الجندي الآخر ينحني داخل الصندوق سيّارتي يتفحّص محتويات الأكياس، اقتربَ منه طالب الشوّا.هل وجدتَ أشياء ممنوعة. تساؤله الجرئ يؤكّد سطوة مضمرة، كفّ الجندي يده، اعتدل واقفاً، تردد برهة. رأيتُ كمّية سجائر كبيرة. ابتسم طالب الشوا، قال بواعز أبوّة مفترضة. خُذ ما تحتاج لك ولرفاقك. أدهشني الرد المكابر للجندي. نحن لا نأخذ حيا الله. التفتَ إليّ طالب الشوّا، فهمتُ قصده، انحنيتُ على الصندوق، أخذتُ كيساً يحوي عشرعلب سجائر، دفعته للجندى، ارتفع صوت أحد الجنود يسأل زميلاً له. هل بقى لدينا بعض الشاي. ادركتُ القصد، لكني لم أبادر ريثما أومأ لي طالب الشوّا برأسه، تناولتُ علبة أكياس شاي، سلّمتها للجندي الواقف عندي، سارع الأخير اطبق صندوق سيّارتي. الفلسطينيون أهل كرم. تريّث ذهني عند ردّ طالب الشوّا. مع الطيبين أمثالكم. قبل أنْ يوجّهني مشيراً باتجاه عمق المدخل. أوقف سيّارتك هناك قرب حوض النافورة. سبقني حاثّاً خطوه، اقتربتُ بسيارتي لحوض النافورة، كان جافاً، لم يجد من يعني به منذ، رأيتُ طالب الشوا واقفاً عند باب مفتوح لإحدى الشقق الأرضية، يده تشير، ترجلتُ من سيّارتي، اقتربتُ، استدار داخلاً، ترددتُ ألحقَ به لولا سماعي صوته خفيضاً. تفضّل استاذ منسي. تنفّس داخلي ارتياحاً، واربتُ الباب ورائي، استقبلني مادّاً كفّه. دواعي الضرورة ألزمتني أتصرّف كأنّني لا اعرفكَ. هل أردّ. نحن لا نعرفنا قبل هذه اللحظة. سمعته. كنتُ اقرأ لكَ في جريدة السياسة أحياناً، أنتَ تهتم بالكتابات الأدبية. الموقف الظرف، لم أجد ما أعقّب به، اكتفيتُ بايماءة رأس موافقة. اهتماماتي اقتصادية بحتة. لعلّه تنبّه

لاسترساله الحديث إبتسم كمن يعتذر، مشى أمامي، لحقتُ به، دخلنا صالة فارهة بنوافذ واسعة تطلّ على البحر، تساءلتُ بيني وبيني عن الكلفة العالية لاستئجار شقّة مثل هذه، اخترتُ أقرب صوفا جلستُ، اختفى مضيفي، ارهفتُ أذني، لا نأمة تدلّ على وجود آخرين، عاد بعد ثوان حاملاً كرّاساً. من حسن حظّي زوجتي وأولادي سافروا إلى أمريكا في منتصف شهر يوليو. جلس بالجوار منّي. إختصاراً للوقت قمتُ بجولة على شقق الأجانب طلبتُ منهم تدوين احتياجاتهم، آخذك جولة تعريف سريعة تتسلّم خلالها طلباتهم. سارعتُ نهضتُ، ضحكَ، ربّتَ على الصوفا. اجلس لديّ ما اخبركَ به. عاودتُ جلوسي، فتح كرّاسه، انتزع ورقة مروّسة باسم شركة معروفة، ذيّل الورقة موقعاً عليها، سلّمها لي. احتياجات الاجانب لا تخلو من أدوية. حشدتُ حواسي اسمع. تعيد كتابة أصناف الأدوية في هذه الورقة تقصد صيدلية عائدة لشركتنا في شارع إبن خلدون، تُسلّم الورقة لشاب فلسطيني هناك، يجهّز لكَ الطلبات. لم أوفق لمداراة دهشتي. مدفوعة الثمن. ابتسم راضياً، أحاط المكان الفاره باشارة يده، قال مضمراً امتناناً. كل هذا من خير بلدك. الإحالة وسط الظرف، وخزني صدري. السكن في مكان فاره خمس نجوم يتقاطع مع فكرة إقامة جبرية مطوّقة بالموت، أنتَ ترى البحر لكنّك محروم من تجاوز باب شقتك، مئات الأجانب ممن صادفتهم فرق الصيد التابعة للنظام العراقي ضاعتْ أخبارهم، النظام إيّاه بادر ابتدع لهم مسمّى اطلقه عليهم، ضيوف العراق الأكرمون. تُكرم الضيف، تعتقله، تُصادر حريته، تُحوّله رهينة، تحشره في الخطوط الأمامية لجبهات قتالك، أو داخل مواقع عسكرية مهمّة معرّضة لخطرالقصف، الأجانب الذين تولّى طالب الشوا تعريفي بهم كانوا مشدوهين مرعوبين، يتهددهم خطر داهم متوقّع الحدوث بين اللحظة واللحظة، مع عجز مطلق عن تجنّب ذاك الداهم بالهرب منه، ستّ عوائل بريطانية، ثلاث عوائل امريكية،

وعائلة كندية، جميعهم يعانون إنقطاعاً كليّاً لم يعهدوه، حصار الجدران لتبدو لهم أوطانهم نائية أبداً كأنّها في مجرّة أخرى، الشقة الأولى عائلة إنجليزية، أربعة أفراد، لدى إقترابنا من الباب تناهى لسمعنا صوت خافت لمذياع، نشرة أخبار باللغة الانجليزية، رفع مرافقي كفّه، وقّع طرقات على الباب، خنس المذياع، مرّت ثوان بدتْ لي طويلة نسبياً، هل حرص أحدهم على التأكدّ من شخصية القادم أمعن النظر عبر العين السحريّة، فتح الباب، الزوج يقف في المقدّمة، زوجته تحتمي به، ومن ورائهما لمحتُ صبيّة قاربت العاشرة تمسك يد صبي هزيل البنية لم يبلغ خامسته، نظرات العيون مفردات لغة إيحائية كونية يسهُل إستقبالها، ترقّب خائف يحدوه أمل غامض، عسانا نوفّق لمد يد العون، الشقة الثانية إمرأة امريكية ثلاثينية بصحبة ولدين، الأوّل في الرابعة والثاني يتعلّق بصدرها، زوجها، كما عرفتُ من طالب الشوّا، يعمل خبير حفر آبار بترول، شاءت المصادفة أنْ يكون متواجداً ساعة الاجتياح في حقل الرميلة النفطي المحاذي للحدود العراقية، ضاعتْ أخباره. استكمال الجولة التعريفية، جمع قصاصات ورق حاوية طلبات، العدد الاجمالي للبشرالمتوارين وراء الجدران ثلاثون. وهو يودّعني عند سيّارتي سألني طالب الشوّا عن موعد مجيئي الثاني. بامكاني المجيء غداً صباحاً. فكر ثانيتين. حتّى لا تلفت إهتمام إخواننا الجنود تعال بعد غد عصراً. الجنود شأن يثير الاستغراب، قطع عليّ أحدهم طريق خروجي. لحظة. الاستماحة مدعاة حيرة، أبقيتُ محرّك سيارتي دائراً، رفع جنديهم صوته صوب أحد رفاقه. الشاي يا عطوان. وصل عطوان حاملاً علبة أكياس شاي منحتها لهم وقت مجييء، دفع لي بالعلبة. هذا شاي بنات. نبرة صوته تؤكّد إنزعاجه. لا نريده. أتطلّع فيه استوضحه. هذا شاي طحين. قارب ذهني مرحلة فهم القصد. تريدون شاياً خشناً يُباع بالوزن. الشاي الأصلي معروف للجميع. طمأنته. صار معلوم. الاحتلال ليس شرّاً كلّه، الخبرة بموازاة

معاناة الفجيعة، فرصة مراجعة الذات من خلال إعادة اكتشافها، الكويتيون الذين آثروا البقاء داخل الكويت رغم الأخطار المحدقة تآلفوا بينهم أكثر فأكثر، التعاون وتفضيل الآخر على النفس، تقاسم لقمة العيش، سريان مبدأ العمل التطوعي، بعض كبار السن أفادوا. تلك هي حال الكويتيين قبل إكتشاف النفط. الوافدون العرب ممن لازموا الكويت في محنتها اتبعوا المنحى إيّاه، شيء ما يشبه التماهي، الجميع في همّ الاحتلال واحد، من جانب ثان بقي الاحتلال، بعدما بذل قصارى جهده لاحكام جبروته وبطشه، معزولاً على نفسه، موجوداً وغير موجود، قام بمحاولات لا تحصى بقصد إنهاء العصيان المدني العام، أرادَ إعادة تشغيل المرافق والمؤسسات، هدفَ يُعيد الحياة لطبيعتها ما قبل الثاني من آغسطس، لكن الحياة اتخذت نهجاً يناسب إبقاءه عند الهامش، نصف مليون جندي خليط، جيش نظامي وآخر شعبي، يتخللون رقعة الكويت على صغرها، رغم هذا العدد الهائل الذي ازدحمت به الشوارع والأحياء السكنية والمدارس بعدما تحوّلتْ ثكنات، كذلك المباني العامّة والخاصة ودور الصحف، الموقف السائد لدى الكويتيين الباقين والمقيمين إنّ الاحتلال أمر طارئ، وتواجده العسكري مؤقّت، مؤهّل يُخلي غداً أو بعد غد، راهنتْ سلطات الاحتلال على بدء السنة الدراسية مع مطلع شهر سبتمبر، باشرتْ حملة إعلامية بهذا الخصوص، وعدتْ اخلاء المباني التعليمية من جنودها، يتوجّب عدم حرمان الصغار من مواصلة التعليم، لم تجد استجابة ما، العصيان العام لا يستثني الصغار، مئات آلاف البشر، مواطنو الدول الآسيوية بدأوا رحيلهم الجماعي برّاً عبر الأراضي العراقية باتجاه الحدود الأردنية، الكويت تتخفف من شغيلتها، الكثافة السكانية صارتْ أقل، المناطق الصناعية في الشويخ وصبحان والشعيبة آلت مقفرة، فيما يخصّني بات العمل الموكول لي يأخذ عليّ اهتمامي والجانب الأكبر من نهاراتي، احسستني ذاتاً متحققة خلل الفعل الطوعي، عدد الأسر القاطنة

مجّمع لؤلؤة المرزوق لم يتغيّر، مسألة انتقال الأجانب من مكان لآخر محكومة بالمصادرة، دروع بشرية. قامت بيني وبين جنود نقطة سيطرة المدخل هناك علاقة تفاهم مرهون بالمنفعة. نريد خبزاً. صار معلوم. تعدد مرات وصولي عندهم، اعتادوا أنْ لا يراعوا إصدارأمرهم.افتح صندوق سيارتك. في لقائي بمبارك سويد اطلعته على ما اعتبرته إنجازاً. وُفّقت لكسب ثقة جنود نقطة سيطرة مجمّع لؤلؤة المرزوق. لا تأمن جانب عدوّك. رددها مبارك سويد صارمة. الاطمئنان يولّد تهاوناً ازاء الحيطة، المجاراة فعل مطلوب دون التهاون بمسألة الحذر، هُم تقبّلوك عفوياً، تراهم الآن كأنّهم أصدقاء، تجدهم غدا أعداء ألدّاء، قيادة قوات الاحتلال درجتْ بين الحين والحين على إستبدال جنود نقاط السيطرات، نهجهم المعتمد، لا تترك للجنود فرصة التآلف مع المكان وكذلك ناس المكان، مادام التآلف مسلك تهاون ان لم يؤد لتعاطف أوتعاون. أخذتُ تنبيه مبارك سويّد مأخذ جد، أنْ لا آمن جانب عدوي أمر مفروغ منه، أنْ آمن جانب عهود أمر احتمالي، علاقتي المتوترة بها لأسباب اعرفها ولا اعرفها، كنتُ أتحاشى عوامل التأزيم، أحاول الابتعاد عنها قدر الإمكان، آملاً أنْ يرحل الاحتلال تعود لطبيعتها، صرتُ اقضي جُلّ وقتي خارج الشقة، الاهتمام بتوفير احتياجات العوائل العشر، لقاء القاضي صلاح الفهد للغرض إيّاه، اصطحاب أمّي للمستشفى الصدري في اليوم المحدد، يتبقّى فائض وقت خصصته لاستحداث ملف سمّيته يوميات الزمن المغفل. زمننا المغفل، محدودة هي الكلمات التي تبادلناها عهود وأنا، مساء الخير، صباح الخير، وسؤال مكرر اعتدتُ أوجهه لها. ما الذي يحتاجه البيت. تسمعني ردّها المكرر أيضاً. أنتَ تعرف. انشغالاتي تلك، كنتُ ابتعد عن البناية ساعات، لدى اقترابي في كل مرّة أسدد نظري نحو سيّارة عهود، تشكّل عندي ما يشبه الارتباط الشرطي، وجود سيّارتها يؤكد بقاءها داخل الشقة، الحبّ سكن الواحد للواحد، إذا تصدّع

عامل الاطمئنان تخلخلت السكينة، آل الحبّ قلقاً معذباً مرهوناً بماذا، حدسي، عهود تفارقني، لازمني طوال الوقت، الحدث قيد التوقّع، قيد لحظة يصعب رصدها، أنْ تضع عهود قرارها المعلّق موضع التنفيذ، تغيب. اكتمل إنقضاء شهرين إحتلاليين، عصر يوم ثاني اكتوبر انهيتُ جولة تسليم إحتياجات لؤلؤة المرزوق، سلكت طريقي عائداً، اقتربتُ من ساحة البناية، سددتُ بصري، لاوجود لسيّارة عهود.

راهنيّة الحدث تضع حدّاً لقلق التوقّع والحدس، تُفسح مكاناً لتفرّدكَ بألمكَ، أو تفرّد ألمكَ بكَ، لو إنّها قبل مفارقتها أطلّتْ على أمّي، كأنْ تعدها تتصل هاتفياً، أو تجيء بعد رحيل الاحتلال، عهود لم تفعل، لم تخلّف وراءها قصاصة ورق تقول، أنا ذاهبة، أدخلُ الشقة، حال الصالة هي هي، يواجهني باب غرفة الزوجية على غيرعادته مشرعاً، أطلُّ يسبقني أنفي، يشم بقايا عطرها، فوضى أغطية الفراش، وباب دولاب ملابسها، عهود حرصت أخذت كل شيء يخصّها. لاحول ولاقوّة الاّبالله. رددتها أمّي مقهورة، تطلّعتْ إليّ في عمق عيني. عسى الله يحفظها ويحفظ ضناها. أدهشني إنّ أمّي لم تطلب منّي معرفة مكانها الجديد والسعي لاعادتها أو الاطمئنان عليها حيث هي، تحاشياً للألم قام بيننا أمي وأنا اتفاق ضمني أنْ لا يذكر أيّ منّا إسم عهود في حضرة الآخر. قدر لابدّ منه. قالها مبارك سويد بمنحى مشاركة. عهود وصلتْ بيتهم في مشرف، أخوها سعود ساعدهاعلى نقل مستلزماتها لهناك. سكتَ وهلة. حتى لا تُفاجأ. سكتَ وهلة اخرى. هو يخطط للقائكَ. يخطط. هذا ما سمعته من العم فرحان بالحرف نقلاً عن أرملة أخيه. نازعتني نقمتي. ماذا لو ذهبتُ إليه بنفسي. نفسكَ وأنتَ حرّ بها. أزمعتُ التعقيب لكنّه رفع يده أمام وجهي. العم فرحان ينصحك بالتعقّل واتخاذ الحيطة، يقول عن إبن أخيه حقير لا يؤتمن جانبه، أنا أؤيد رأيه. العم فرحان اسدى نصحاً يقضي بمراعاتي حذري، مبارك سويد أثنى

عليه، لو كنتُ أعرف بالذي يبيّته لي سعود اتخذتُ احتياطات محددة، أمّا والحال فوضى إحتلال، أتذكرني ساررتني، هل ينفع الحذر لحظة مواجهة القدر، يا زينب، قدرنا، أمّكِ وانتِ وأنا، أنْ يكون سعود جزءاً حاضراً، رضينا أم عارضنا، في لحمتنا العائلية أو الانسانية لا فرق، حتّى الآن، وأنتِ شابة يافعة الآن، لا اعرف ما إذا سنحتْ الفرصة لسعود، اشتغلَ على إصابة شخصيتكِ بالعطب مثلما فعل عن جدارة مع شخصية أمّكِ، تبقى حصيلتي منه، سعود أصاب حياتي، منذ أنْ، وحتّى اليوم دون استثناء الغد، بعطب مدمّر يستحيل علاجه.

أنتَ. قالها مفردة جافّة دالّة على نفاد صبر يشوبه انزعاج ولم يضف لها يا البدون، المفاجأة تتجاوز حدود الانشداه، كنّا في السابع من أكتوبر احتلال، كان الوقت صباحاً مبكراً، أتطلّع ناحيته، أراه واقفاً مسنداً ظهره لباب سيارته مسافة بضعة أمتار عن باب الملحق، حضرني تساؤلي، متى وصل ليقف منتظراً لقائي، سحنته المشحونة باشمئزازه، مفردته، أنا النكرة، استبدّ بي غضبي ينازعه حقدي، هذا الانسان يعاملني بدونية لا يجيدها سواه، الاحتلال أيام سود، صباحي ذاك اكثر سواداً، راودتني فكرة أنْ اتراجع وراء، ادخل ملحقي ثانية، وحده الانسان خالف الحيوانات كافّة، اكتشف وظيفة لعضو اللسان، طوّعه للنطق اداةً لغرض التخاطب مع أبناء جنسه، تماه حيوي جدلي في الوقت ذاته ما بين التراكم الكميّ للمفردات وتشكّل الوعي الإنساني، اللغة أداة تفاهم، سعود يملك كامل حقّه يجيئني يطلبني في أمر يخصّنا نحن الإثنين، له أنْ يقول ولي أن أرد، ماذا يضيره لو بدأني سلام عليكم، استقوى عليّ في الماضي بصفته هو المواطن الكويتي وأنا بلا، الاحتلال وجود قائم، الكويت كلّها بلا، إلا يجدر بنا. نعم يا دكتور سعود. لم أشأ اشاعة نبرة السخرية خلل صوتي، راعيتُ يُتمنا هو وأنا خلل زمن حكمنا بالاستباحة، اقتربتُ إليه، عساني لا أستثيره بأنْ أبادر. صباح الخير. مرّة

أولى أرى أرنبة أنف رجل وهي تختلج، أصدر سعود غمغمة غامضة، لعلّه ضمّن شتيمة أو لعنة، فكّر وهلة، أخاله تشبّث بصبره، قال. لا نطيل الكلام. لم نتكلم بعد. افهم إذن. رددها آمرة قاطعة. إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. كأنّ مصيبة الاحتلال غير كافية وحدها لأواجه مصيبة أخرى، مجيء سعود بتوقيت بدء اليوم، عهود غائبة في مشرف لكنّها حاضرة بيننا، أيّاً كانت كراهيتي تجاه سعود لا استطيع ردّ الصاع ولا الإهانة بمثلها، هو، شئتُ أم أبيتُ، الأخ الشقيق لزوجتي، لستُ مؤهّلاً احرق الجسور، قناعتي تفيدني، سعود إنسان موتور، وقدري أن يكون نسيبي، ادريه يتعامل مع مراعاتي أنْ لا أردّ الإساءة بصفتها جبناً، ادريه يراني نكرة متهافتة وجدتْ فرصتها تطاولتْ على مكانة عائلية أصيلة، ادريه إحساسه وقد ترجّل من عليائه اقترب للحضيض حيث أنا، علّه يحقق هدفاً يسكن دخيلته، استعادة أخته لحظيرته. أتيتني تطلب الطلاق. قلتها صيغة استنكار، اختلجتْ أرنبة أنفه ثانية، أردتُ مخاطبته بالكيفية التي بدأني بها متجنّباً مسّ كرامته، أضفتُ. ابغض الحلال. قاطعني محتدّاً. أنتَ الحرام، مبدأ معاشرتك لأختي حرام، يبقى زواجكَ منها باطلاً لانتفاء موافقة وليّ أمرها الشرعي. ما جدوى تذكيري له بموقف قاضي المحكمة الشرعية الذي أكّد صحّة عقد زواج أخته بي، لا نفع من قولي أختكَ سعتْ أصرّتْ حققتْ بارادتي أو ضدّها، اختيار المفردات قبل صياغتها جملة حتّى لاتخطىء هدفها، تسيء لمن، قلتُ. أمران يمنعاننا عن الخوض في مسألة الطلاق الآن. عقد حاجبيه مستصغراً خوضي تفاصيل توحي بالنديّة. الأمر الأوّل أختكَ حامل. شدهني ردّ فعله ازاء سماعه، التفتَ جانباً، بصقَ، عبرتُ على شعوري بالمهانة. الأمر الثاني الحال الأزمة، يجدر بنا تأجيل خلافاتنا للوقت المناسب. هذه مماطلة سخيفة. عبرتُ على مهانتي. أين وجه المماطلة يا دكتور. احتد صوته. ما الذي يقوله العقل تجاه من يترك زوجته حبيسة بيتها

مـدى أشـهر لا يهتـم بهـا ولا يسـمح لهـا بزيارة أهلهـا ولا ينفق عليها. رفع يده أشـار نحو شـرفة الشـقة. من الذي يدفع الإيجارالشـهري لهذا السكن. أومأ صوب باب الملحق. من هو الساكن هنا. جفّ فمي فجأة، الفقر عار على مَنْ، أسائله، أسائلني أم أبحث عن عهود أسائلها، التقطُ أنفاسي، أتمالكُ توازني. ماذا تريد تحديداً. طلّق أختي. هكذا بالسهولة التي تنطقها. اكتب صيغة طلاقها على ورقة بخط يدك. شملتني حيرتي. منتهـى الظلـم. الظلـم ان تُبقـي أختي على ذمّتك. لماذا الآن. لأن اختي تكرهـك وتكـره نفسـها كونـكَ خدعتهـا. نتطلّـق في الوقت المناسـب. انصحكَ أنْ لا تماطل. نبرة صوت سعود تحمل تهديداً، المهانة إلى ما لا نهاية مهانة مكرّسة، سألته باستهانة غير خافية. ماذا لو ماطلتُ. تنال الجزاء الذي تستحقه. ازمعتُ أُعقب لولا استطراده متوعداً. ساعتها لن ينفعكَ ندمك. الندم يتأتّي عن ارتكاب جريمة أو اقتراف خطأ جسـيم، أو جرّاء فقدان شيء ثمين ابخسنا حقّ الاحتفاظ به، سعود مواطن معتمد فـي سـياقه، ولأنّـه كذلـك لايدرك أنْ ليـس لدى واحدنا مـا يندم عليه. غافلتني ضحكة قصيرة مشـوبة سـخرية. افعل كل الذي باسـتطاعتك أنا مسـتعد أندم. خطوتُ مبتعداً، سـمعته. أنتَ اتخذتَ قرارك. صوته ينحو إخبـاراً، كان أشـبه بمـن يخلـي سـاحة ضميره، لم ألتفـت. عوّدتني أمّي تقـرأ انفعالاتـي فـي وجهي كما صفحة مكتوبة أمام عينيها المتفحصتين، اجتيازي باب الملحق عائداً. من ذاك الذي كنت تبادله الحديث. نسيبي سـعود. هل نطقتها معبأة نذيراً، اشـتعل وجهها بامتعاض موجّه لغائب. ماذا أراد. التقطتْ أذناي دوي محرّك سيارة سعود آخذه طريقها تبتعد. أراد أنْ يسـتكتبني منطـوق طـلاق اختـه علـى ورقة أسـلّمها لـه. فغرتْ فاها اسـتنكاراً. حسـبي الله ونعم الوكيل. صوّبت عينيها إلي. والآن.لم اخف جزعي.لا أدري. لذتُ بالصمت برهة. عمّه فرحان وكذلك مبارك سـويد ينصحان بالحذر منه هو انسـان لا مبادئ له. اسـمعتني سـؤالها

ثانيـة. والآن. اسـمعتها ردّي إيّـاه. لا ادري. اسـتباحة الكويـت بصفتهـا الحدث الأكبر بدأت في الثاني من آغسـطس ذاك، المصائر الشـخصية أحـداث صغـرى، اسـتباحة ابيـكِ يا زينب بدأت في السـابع من اكتوبر. هنـاك مقولـة متداولـة، أُخـذ على حين غرّة، مفادهـا مباغتة المعني دون استعداد أوعلم مسـبق، أبوكِ أُخذ على حين قرر خالكِ سـعود أنْ يضع وعيـده موضـع تنفيـذ بمعرفة أمّكِ عهود أو بمعزلها. صباحنا الموسـوم بسـعود، دأبـتْ أمّـي تحـوّم حولـي مفزوعة. كيـف. ريثمـا واتتني فكرة مهاتفة مبارك سـويّد، رنّ جرس هاتفه مّرات عدّة قبل أنْ يصلني صوته محمّـلاً بهاجـس التوقّـع. نعم. لا وقت لتبادل تحايا، سـارعتُ أفضيتُ، أصغـى باهتمـام، خلـص لقراره. يجـب أن لا تبقى حيث أنت. لو كنتُ مسـؤولا عنّي وحدي غادرتُ المكان الآن، لكنّها أمّي، حساسـية حالتها الصحيّة. عليكَ الانتقال لسـكن يجهله سـعود. اشـركته حيّرتي. ماذا عن أمّـي. أعمـل ذهنـه. ابـق عند الهاتـف، امهلنـي دقيقتين.احبسُ أنفاسـي يتناهبنـي جزعـي، عسـاهما، مبارك سـويد والعم فرحـان بالغا في تقدير الخطـورة الناجمـة عـن المدعـو سـعود، بعـد خمـس دقائـق رنّ جرس الهاتف. اتصلتُ بسليمان الياسين، الأخير يسكن ضاحية صباح السالم، أبدى اسـتعداده لاسـتضافتكما أنتَ وأمّك، عليكما التوجّه لهناك فوراً. يـا أمّـي. أمّـي رفضت بدءاً، بامكاني المغـادرة ولها اختيار ملازمة بيتها. يـا أمّـي. لا أريـدُ أنْ اثقـل على أيّ من أصحابـكَ. يا أمّي أنتِ تُلزمينني بالبقـاء معـكِ. أنـتَ تلزمنـي على ما أكره. أتوسـلّكِ. دمعـتْ عيناها. لا حول ولا قوّة إلاّ بالله. أردفتْ متسـائلة. كم نبقى بضيافة صاحبك. لا أعرف. إنّا لله وإنّا إليه راجعون. أردفتْ تستميحني. آخذ دوائي وملف مراجعـة المستشـفى. تذكّرتْ أضافتْ. وبعـض الملابس. انفلتُ خارجاً مـن بـاب الملحـق حامـلاً حقيبة تخـصّ أمي، افتـحُ صندوق سـيّارتي، أراهُ مشـغولاً باحتياجـات قاطنـي لؤلؤة المـرزوق، في بالي إيصالها لهم

عصراً، تراني أبقى قادراً على الوفاء بالتزاماتي، أم إنّي مضطر أتوارى عن الأنظار وكفى، اطبقُ صندوق السيارة، افتح بابها الخلفي، أضعُ الحقيبة فوق المقعد، أمّي تودّع الملحق بنظرة أخيرة، افتحُ لها الباب الأمامي، ترددتْ برهة قبل أن تركب. الله سبحانه يمهل ولا يهمل. الامهال يعني منح فسحة زمن، ماذا عن فسحتنا هي وأنا، خطفتُ نظرة لشرفة الشقة، نبتة البرتقال تحتاج سقاية. أهل بلدك ضاقوا بي. البلد آخذة تضيق بي، ركبتُ وراء المقود، أدرتُ المحرّك، اردتُ طمانة أمّي. ربع ساعة ونكون في منزل سليمان الياسين. لكنّها لفتتْ انتباهي. أنظر. صوتها بنذير خطر محدق، رأيتُ سيّارة جيب عسكرية تُسرع بالاتجاه، تقف وراء سيّارتي تماماً سادّة عليّ سبيل التحرّك، ضابط قوّات خاصة يرافقه جنود أربعة، رأيتُ سيّارة سعود أيضاً، نفّذ سعود تهديده باسرع السبل المتاحة وأسهلها، لو إني غادرتُ المكان قبل دقيقة واحدة، التمنّي يولّد جزعاً لقاء ماذا، تطلّعتُ لأمي، لا خيار أمامي سوى. عودي لبيتكِ. التماسك قدرة هاربة، عصفتْ بي رجفة داخلية جديدة عليّ، سعود يسلّمني لعسكر احتلال بلده. بلغتني فجيعة أمّي تتشرب تساؤلها. وأنتَ. الرحمة يا أميّ لا وقت لسؤال منزوع الرد، أحد جنودهم بادر فتح باب السيّارة الكائن عندي. انزل. الأمر صيغة زجر، زميله الواقف عنده يوجّه فوهة بندقيته الرشاش نحو رأسي، شدهني انتحاب أمّي، ليس وقته يا أمّي، لفتني صوت الجندي. هات مفتاح السيّارة.

منذ حادثة اعتقالي تلك وحتّى اللحظة، ما أنْ اخلو لنفسي إلاّ أسائلني، كيف أغفلتُ قول كلمة وداع لأمّي، أتذكّر آخر ما قلته لها،عودي لبيتكِ، أتذكر كلمتها الأخيرة، وأنتَ، أنا لم أجب، أحاول تبرير صمتي، المفاجأة ومحاصرة جنودهم لي، لكنّ شعوري بالتقصير أو التبلّد باق يلازمني، كان بامكاني قبل ترجّلي من سيارتي منصاعاً لأوامرهم أنْ أهمس لها، راعي صحتكِ من أجلي، أنْ أعدها أعود لها،

هـذا هـو الإحسـاس الحقيقـي بالنـدم لا ذاك الـذي أشـار له سـعود في معرض توعّده، لدى ترجّلى من سيارتى وخزني أحدهم بماسورة بندقيته بين كتفي من وراء، أحسسـتُ بألم حارق ينتاب عمودي الفقري أشـبه بالصعقة الكهربائية، لم أصرخ، هو صرخ. إسرع. ماسورة بندقيته تلاحق ظهـري، تدفعنـي نحـو سـطيحة سـيارتهم الجيـب. اركـب. سـطيحتهم بمقعدين متقابلين، حشروني عند الزاوية الأقرب لقمرة السائق. شمّ أنفي رائحة عرق حامضة. رأيتُ أمّي تمشي محنيّة الظهر باتجاه باب الملحق، رأيتُ أحدهم يركب وراء مقود سيارتي، الأخيرة مصادرة أيضاً، ماذا عن حقيبة أمّي فوق مقعدها الخلفي، لا ادري ما الذي حفّز احد جنودهم، قرب فمه لأذني، همس. لا تخف. أضاف. تعود لهنا خلال ساعة. هل آخذ همسه على محمل الجد، لعلّه قالها من باب خبرات اعتقال مشابهة، مصادرة خاطفة يعقبها اطلاق سراح سريع، تمنيتُّ لو انّه همسها لأمّي، تذكرتُ، هم لم يكبّلوا يدي، شـاغلني سـؤال، ما الذي قاله لهم سـعود عنـي، اخلـى السـؤال مكانه لثان، تـراه وقّت لكلّ هذا قبل مواجهته لي، خطـر لـي اسـأل. أين تذهبون بي. تبـادل جنودهم نظراتهم بينهم، تطوّع أحدهم. الضابط يعرف. عقّب آخر مسبقاً بزفرة تسليم. نحن جنود ننفّذ الأوامر. فاجأني رأسي آل فارغاً من أي سؤال ذي صلة، وجدتني وسط حالـة سـلام شـفيف، هنـا، الآن، الحـدث القائـم، ارتـكاب الجريمة أو الشروع بها عامل خوف، أنا لم، لم تدم رحلة سيّارتهم الجيب طويلاً، دقائـق قليلـة توقّفـت بعدهـا فـي السـاحة الواسـعة لمخفـر النقـرة، فتح ضابطهـم بـاب القمـرة الأماميـة، ترجّـل حاثّاً خطـوه باتجـاه بوابة مبنى المخفر في حين بقينا أنا والجنود داخل السـيّارة، لعلّهم يرتأون أخذي لمكان آخر، معروف عنهم إنّهم حّولوا منشـأة مشـاتل منطقة العارضية بعدمـا كانـت موقـع زراعـة تجريبيـاً إلـى معتقـل مجهّـز بـأدوات انتزاع اعترافـات، علـى افتـراض أخـذي لهنـاك، اخضاعـي للاسـتجواب عبـر

التعذيب ما الذي سأعترف به، جنودهم حالة انتظار روتيني، ابذل جهدي محـاولاً طـرد أفـكاري الملاحقـة لبعضهـا، أنا حتّـى الآن اجهل فحوى التهمـة التـي دبّرهـا سـعود لـي، رصـدتُ اقترابـه راكبـاً سيارته، ظرف الاحتلال بما يستوفيه، من أين لأيّ إمكانات شخصية تؤهّله لاداء مهمة مثل هذه، أوقف سعود سيارته غير بعيد عنّا، ترجّل، توجّه صوب مدخل المخفر، غاب هناك، لحظة وصول سـيارتي يقودها جندي منهم، ركنها جانبـاً، ترجّـل مقترباً، تطلّـع فـي مسـتغرباً قبل أنْ يوجّه سـؤاله للجنود المحيطيـن بـي. لمـاذا تبقونـه هنـا. ننتظر أمـر الضابط. الجنـود يعرفون بعضهم بالحد المطلوب لتعاملهم، أنا النكرة الطارئة وسطهم، لو حدث أمر خارج الحسبان الآن، إطلاق نار من سيارة مارّة كما حدث لمخفر الجابرية قبل يومين، لو حدث، ألزم ما على الأنسـان حياته، يداي غير مقيدّتين، ساعتها تواتيني فرصتي، انسلّ أو اركض، أتوارى بعيداً، وليمتْ سعود بحقده. توالتْ دقائق أولى، لا إطلاق نار من سيّارة مارّة، لاشيء سوى انتظار لمجهول يتوجّب عليّ الاستعداد لمواجهته. جاء المجهول باسرع مما أتصور، اقترب عسكري رتبة عريف قادماً من ناحية المخفر، نطـق كلمـة واحـدة. السـجين. صوت جاف آمر في الوقت ذاته، سـارع الجنود ترجّلوا من السـيّارة، صرخ بي عريفهم. إنزل. لدى ترجّلي عاد صـرخ محتـداً. ارفـع يديك. رفعـتُ ذراعيّ، احتدّ صوتـه أكثر. ارفعهما أعلـى. اسـتجبتُ صاغـراً دون أنْ افهـم القصد، فاجأتني ماسـورة بندقية أحدهـم لكزتنـي فـي ظهـري، سَرَتْ موجة ألـم عبر عمـودي الفقري، ماسورته تدفعني بقوة عاتية توجّهني صوب بوابة المخفر، حثثتُ خطوي كي ابعد ظهري عن الماسورة، لاحقتني الأخيرة بلكزات سريعة متوالية، الألـم بمـا لايطـاق، ذراعاي مرفوعتـان أعلى، وجدتنـي اركض مهرولاً محـاذراً الوقـوع أرضـاً، بّوابـة المخفـر آخـذة تقتـرب، تنبّهـتُ إلـى إنّ عساكرهم، عريفهم من ضمنهم، يسايرونني يهرولون مثلي، زمني ذاك يا

زينب لا يعدو كونه استعادة شعورية، أخلو بي، ارتحل خلل ذاكرتي، ارصد مفاصل محددة من تاريخي مراعياً تراتباً مشروطاً وغير مشروط احياناً. هنا أنا تحوطني أرفف ملفاتي، مبنى مسرح الخليج السالمية، الساعة جاوزت الواحدة من إحدى ليالي أواخر شهر نوفمبر، الشاب السريلانكي كومار باشرني بكوب شاي قبل إيوائه لفراشه، السكون المطنب عدا رأسي المزحوم بكلام ازمع مباشرتكِ به، اجلس فوق سجادة أمي، صندوقكِ الأسود يواجهني، الأوراق المسوّدة درجتْ فعلاً تراكمياً صار يقلقني، لمّا بدأت أكتب لم يدر ببالي انّي سأنجز هذا الكم، ولا يمكنني الجزم الآن متى وأين تحضرني لحظة الاكتفاء افضاءً. بصرف النظر عن حياة تعيشينها، بصرفه عن ناس تعايشينهم ولا ازعم معرفتي من هم، بصرفه كلّه لديكِ أب لم تصادفكِ فرصة رؤيته ولو لمّرة واحدة، لا ادري ما الذي قاله الآخرون توصيفاً لي، ما كتبته وسأكتبه يمثّل عندي أوراق اعتمادي لديك، وعسى، قرأتُ يوماً كلمات مفادها. لا يستطيع الكتابة عن الألم بالشكل المقنع إلاّ من كان الألم في نفسه. لستُ كاتب سرديات محترفاً حتّى ادّعي ميزة ما، لكنّي آليتني مراعاة الأمانة منذ البدء، وعسى. صبيحة سابع أكتوبر احتلال، الساحة الأمامية لمخفر منطقة النقرة، ارفع ذراعيّ أعلاهما، أُراكض عساكرهم أو هم يركضون بي، وقتها كنتُ أحسّني مشغولاً تماماً باداء فعل الركض محاذراً تعثّر قدمي وسقوطي على الأرض الأسفلتية، باستعادتي مشهدي إيّاه آخذ موقع المتفرّج، أراني من مسافة وهمية مضمرة اركض وهم يحوطونني راكضين باسلحة مصوّبة، اراهم يولون ظهورهم متوجهين صوب بوابة المخفر، اسمع وقع أحذيتهم الثقيلة، ولا اسمع لهاثهم، لهاثي الداخلي، هنا الآن، يشغل حواسي أكثر، الذكرى كما عرض شريط تلفزيوني خبري، ما الذي حدا بعسكر احتلالهم لأنْ ينهجوا مسلكاً غرائبياً، لماذا أمروني أرفع ذراعيّ وأنا المصادر عندهم، ما

الداعـي لهرولتهـم بـي، هـل هم يؤدّون فعلاً درجـوا عليه تجاه أيّة حالة اعتقال، أم إنّها مرحلة ترهيب تمهيدية تحسّـباً لاسـتجواب يطمح ينتزع اعترافـات. سـبقتْ لـي قـراءة روايـة 1984 لجـورج أورويـل، أجواؤها الكابوسية ذات الارتباط بالطبيعة الشمولية للنظام البوليسي لا تكاد تمت لنمط واجهته يومها، رجال أجهزة النظام القمعي لجورج أورويل أذكياء غامضـون، أوهكـذا يبـدون، تنعـدم سـماتهم وملامحهـم الشـخصية، يتشـاركون سـمة واحـدة تتمثّـل فـي بطـش النظـام، اختيـاراً أو اعتباطاً، يوحون لك إنّهم مهيمنون آليون في الوقت نفسه، عسكر الاحتلال خليط عشـوائي متفـاوت متنافـر أغلب الأحيان ينضـوى كلّه تحت مقولة نحن ننفّـذ الأوامـر، المعنـى الـوارد للذهن، لابُدّ لنا، معنـى ثان، عذراً، معنى ثالـث، لـو كنّـا أصحاب القـرار لما، لكنّ المحصلـة النهائية لاعزاء ولا رثاء. أتذكّرني لاهثاً مشدوهاً عنّي عنهم، تباغتني ضحكة لقيط، هم حتّى بعـد اجتيـاز جحفلنا المزري أو الغرائبـي لبوابة المخفر داخلين واصلوا تراكضهم بي وسـط الممر الطويل بين المكاتب، زحمة المكان بآخرين منهم، أبواب المكاتب مفتوحة، الجدران الحجرية تتجاوب بصدى وقع أقدامهم، ماسورة البندقية باقية تواصل انغراسها المتواتر في ظهري، إلى أين، الألـم الحاد الناشب عمودي الفقري يضاعف انشداهي عنّي، رأيتُ أحدهـم يقـفُ عنـد قضبـان باب غرفة الحجز المؤقـت، بادر فتح الباب لحظة اقترابنا منه، أحسستُ بماسورة البندقية تدفعني بالاتجاه، اندفعتُ داخلاً، ماسورة البندقية لم تلحق بي، لم تواتني فكرة أتنفّس صعدائي، أطبق ذاك الأحدهم بابه، اعمل مفتاحه في قفله، وحدي داخل الحجز، انصـرف جنودهـم لشـأنهم. وراء القضبـان، المـكان برائحـة غبـار قديم تتشرّب روائح نتنة صادرة عن دورة مياه قريبة، غرفة الحجز مربعة طول ضلعها ثلاثة أمتار، ولأنّي اشـغلها وحدي بدتْ كبيرة فارغة، الأصوات تصلني أشبه بغمغمات خافتة، زمن احتلال نظام عراقي في مبنى مخفر

كويتي، اجهل ماذا سيحدث، أعجز عن تحديد الوقت الذي ساقضيه هنا، الغرفة عارية من كل شيء، لو بقيتُ حتّى الليل نمتُ فوق الأرض الاسمنتية، حال أمّي وهي تشهد عملية اعتقالي، اعتصرني ألمي، أمّي لا ذنب لها لكي تنوء بحمل قهرها، يا سعود، يا أخت سعود عهود، من الرابح في معركة قوامها الغدر، لماذا الغدر، منطوق الطلاق على ورقة بخط اليد، سلّمها تسلم، أنتَ الذي قررت، ما الذي قررته أنا، سعود حقير لا يؤمن جانبه، سليمان الياسين ينتظر وصولنا أمّي وأنا، لا علم لمبارك سويد بما حدث، أنا المنقطع هنا، انقطاع أخباري يدفعه للبحث، بحثه ينتهي عند أمّي. أخذوه. لابُدّ من اعلام منزل بيان بالحادثة، لو اخضعوني لاستجواب يصاحبه تعذيب، لا أحد يجزم بالذي قاله سعود لهم، على افتراض إنّه لمّح لعلاقتي بالمقاومة الكويتية، تعترف أو تموت تحت التعذيب، العائلات الأجنبية القاطنة مجمّع لؤلؤة المرزوق، الاعتراف يعني مسارعة مصادرتهم تحوّلهم إلى دروع بشرية، يعني القاء القبض على مبارك سويد، يعني محاصرة منزل بيان، تعال يا صلاح الفهد، كشف مُفصّل بالعلاقات بدءاً من أعلى هرم المقاومة أو من قاعدته، قبول فكرة التعاون مع المقاومة الكويتية ازاء تقبّل فكرة الاستشهاد، الاعتراف لا يقود إلى خلاص مرتقب لكنّه يؤكد تهمة الضلوع، عدا عن كونه يتهدد حياة آخرين طيبين، عدا كونه يمسخ إنسانية الواحد، أنتَ لستَ مؤهّلاً للتضحية، أنتَ تخون المبدأ، يا أمّي كوني قويّة، الاحتلال أمد لن يدوم أبداً، يا عهود بصرف النظر، يا سعود إن كان منطوق الطلاق بخط اليد يجنبّكَ مشقّة ارتكاب معصية الغدر إلى الجحيم بأختكَ. ساعة بقاء داخل غرفة الحجز، ربّما أكثر قليلاً، جاء الجندي حامل المفاتيح يصحبه آخر يحملُ قيداً. مُدّ يديكَ من هنا. أشار حامل القيد لفسحة بين القضبان، حلقتا القيد معدّتان للاطباق، مددتُ يدي الإثنتين، اطبق قيده على المعصمين، تراجع خطوتين، أشار

لزميله. افتح الباب. وجّه صوته لي. الضابط يطلب مثولكَ عنده. تبادر لذهني، هم بصدد اخضاعي لطقس هرولة ثانية، لم يحدث، اليافطة التي كُتبتْ في العهد الكويتي، ضابط المخفر، باقية مثبّتة على جانب باب موارب لأحد المكاتب، تقدّم الجندي المرافق لي نقر بظاهر كفّه، سمعت استجابة آمرة. ادخل. وسّع الجندي فتحة الباب، دفعني أمامه، بوغتُّ برؤية سعود جالساً على مقعد قريب من المكتب، رأيتُ ضابطاً خمسينياً رتبة عقيد يجلس وراء مكتبه، أدّى الجندي تحيّة باصطفاق حذائه، أومأ له الضابط أنْ ينسحب، اصطفق الحذاء ثانية، انسحب الجندي، اطبق الباب وراءه. أنتَ منسي. سألني العقيد، صوته أقرب لمنحى حيادي.نعم. أشار نحو سعود. تعرف هذا الرجل. انتابني استغراب هيمنتُ عليه سريعاً، احتفظت بضغينتي لي. نسيبي شقيق زوجتي. حدّق في وجهي كمن يحاول النفاذ لدخيلة محدّثه. هل بينكما عداء سابق. لعلّ قلقي بدأ يزايلني، سعود هوالذي شاء الاحتكام للعدو، حرصتُ على اختيار مفرداتي. أنا لا أكنّ للدكتور سعود سوى الاحترام. من طرف عيني لمحتُ جانب وجه سعود، خلته احتقن بغضبه، وجّهتُ تركيزي لعقيدهم، شدهني تعقيبه وهو ينقّل بصره بين وجهينا أنا وسعود. نحن لا نظلم أحداً. لو حاججته. لكنكم استبحتم بلداً، عاد حدد نظره إلي. يبدو من كلامك إنّك تجهل ما قاله لنا عنك. تماماً. بيّتُ نيّتي أوضح السبب الحقيقي وراء محاولة سعود للايقاع بي، تطلّع عقيدهم في صفحة سجل مفتوح أمامه. أنتَ صحفي في جريدة تُدعى السياسة. تركتُ العمل الصحفي منذ أوائل العام، عملي الحالي مسؤول تسويق لدى إحدى الشركات. انفرج فمه عن ابتسامة هازئة أو ماكرة لم استطع تصنيفها. هذا واضح من محتويات صندوق سيّارتك. تواتر وجيب قلبي، شعرتُ بحديد القيد يضيق على معصمي، ذلك هو سبب جلبهم سيارتي لهنا، استبعد معرفة سعود بأمر العوائل الأجنبية القاطنة في، وفي الوقت

ذاتـه أجهـل مـا قاله لهم عنّـي، تناول عقيدهم بطاقة مدنية موضوعة إلى جانب السجل، لوّح بها لسعود. هذه هويتكَ. نعم. أشار عقيدهم لطرف البطاقة المدنية. وهذا رقم هاتفكَ. نعم. عاد عقيدهم دقق في السـجل. عنوان سكنكَ مُثبت هنا. نعم. تستطيع الانصراف لشأنكَ. وددت أسأل. أنا. تابع ضابطهم حديثه لسعود. عندما نحتاجكَ نطلبكَ. نهض سعود. حاضر. انسحب متحاشياً النظر إليّ. عاملني عقيدهم بمنحى غير متوقّع لديّ البتّة. اجلس. أشـار للمقعد الذي شـغله سـعود، داريتُ انشـداهي، استجبتُ، كنتُ في دخيلتي وطّدتُ نفسي على مواجهة استجواب قاس مهيـن، ابقيتنـي رهـن توقّعـي. مـاذا تقـول. نبـرة صوته تهـدف أو هكذا حدسـتُ، لتشـجيع الآخـر كـي يُفضي، اتخذتُ قراري، مكاشـفة تتسـم بصدق غير ضار. لا اعرف نوع التهمة التي ورّطني بها نسـيبي سـعود. لذتُ بصمتي ثانيتين. لكنّي واثق إنّه بّيت للانتقام منّي، هددني صراحة قبل مجيئه إليكم. أومأ عقيدهم برأسه دلالة رغبته يسمع في حين انشغل يتفحصّ السجل المفتوح أمامه، تملّكني هاجس هو لا يصغي، ولا مفرّ مـن امتثالـي. سـاومني علـى أنْ أُطلّـق أختـه. طلب منـكَ كتابة منطوق الطـلاق. التبـس فهمي ازاء وقع المعلومة، دهشـتي عقدتْ لسـاني، هل استعان سعود بهم لتحقيق رغبته ولا شيء غير هذا، إنْ كان الأمر كذلك لماذا مصادرتي بسيارتي، القائي في غرفة الحجز، وضع القيد في يدي، هم أذنوا لسعود ينصرف، ابقوني بحوزتهم، هناك شيء غامض. نسيبك سعود كان واضحاً وصادقاً. أيني مما يدور، اللعبة واللاعب، سعود وُفّق يوهمهم كيف. قبل سـاعة من الآن خضع نسـيبك سـعود لاسـتجواب ضابط الاستخبارات. حدّق في عيني. ولأننا كما وضّحتُ سابقاً لا نريد أنْ نظلم أحداً. ترك جملته مفتوحة وهلة. طلب ضابط الاستخبارات من صاحب البلاغ سعود كتابة إفادته بخط يده. إصبعه تشير لصفحة السجل عنـده. هنـا. للحظـة عابـرة خيّل لي إنّ عقيدهم حبس زفرة كادت تفلت

منه، ضغط على زر جرس قريب، أطلّ أحد الجنود. نعم سيّدي. اغلق الباب ولا تسمح لأيّ كان بالدخول. اثر اطباق الباب مال عقيدهم بجسده إلى الأمام مدنياً رأسه، راعى تخفيض صوته. أنا متعاطف معكَ. أنّى لي مقدرة التمييز بين الصدق والمناورة الذكية توسّلاً بالصدق، عدّل وضع السجل المفتوح أمامه، قرّبه إلي، بما يتيح لي امكانية رؤية صفحته المكتوبة بخط يد سعود. اقرأ نص تبليغ نسيبك.

يا زينب، أكذبُ لو ادّعيت حفظي لنص التبليغ الذي تطوّع خالكِ سعود قدّمه عن سوء خاطر للإخوة الألداء، أدّعي إنّي أتذكر فحواه، الشك يرقى لحدود اليقين، زوج اختي المدعو، له نشاط مريب يعاقب عليه القانون، متغيّب عن بيته طوال الوقت، نصحتهُ زوجته بملازمة مكانه والعودة لرشده دون جدوى، مما اضطرها للهرب من منزلها لاجئة عندي، ولأنّها انسانة متعلّمة ماجستير أدب انجليزي، تدركُ العواقب الوخيمة المترتبة عن النشاطات المشبوهة لزوجها طلبت منّي الذهاب للقائه بغية الضغط عليه لكي يسلّمني منطوق طلاقها بخط اليد حتّى تكون في الأمان إذا ما أُلقي القبض عليه بالجرم المشهود ولا تُحاسب كشريكة له بصفتها زوجته. انهى خالكِ سعود بلاغه بما معناه إنّي رفضتُ الانصياع لمنطق العقل مثلما رفضتُ كتابة المنطوق إيّاه، وعندما خبّرني إنّه مضطر، حرصاً على سلامة اخته، للاستعانة بالسلطات صرختُ به، إلى الجحيم بكَ وبالسلطات التي تنوي اللجوء إليها. القراءة السريعة، الصفحة المذيلة بتوقيعه واصفاً مكانته، استاذ جامعي. ظرف القيد والتواجد داخل غرفة مخفر كويتي في حضرة ضابط احتلال رتبة عقيد ناوشتني أسئلتي، صيغة بلاغ سعود تؤكّد اضطراره لارتكاب فعلته، نافياً عن نفسه، باسلوب ذكي، صفة شخص مخبر متعاون طواعية، المنحى الذي سلكه ضابط استخبارات، لم أره بعد، بأنْ استكتب المخبر المضطر في السجل الخاص بالمخفر، سؤال اخير، ماهو هدف عقيدهم

من وراء اطلاعي على ما كتبه أحدهم. أنتَ منسي. رددها عقيدهم كأنها صفة وليست إسماً يخصّني، أضاف. وأنتَ ذكي للدرجة الكافية. أنا القيد، الحالة، جهل القادم، لا أوان لكي الهج بكلمة إمتنان، وجدتني احني رأسي، أحدّق بمساحة أرض ضيّقة أمامي، سمعته يواصل أشبه بمن يهدف لمكاشفة في غير أوانها. الدولة آلة جبّارة شاملة تهيمن على المكان والإنسان من أقصى شمال زاخو عند الحدود الفاصلة مع تركيا وحتى حدود السعودية، هذه الآلة الجبّارة تدور بفعل ملايين القطع المؤلّفة لها، هو على سبيل المثال لا يعدو كونه صامولاً صغيراً تنتظم حركته بانتظام الحركة الكليّة، الأمر الذي يتوجّب علي فهمه تلميحاً إنّ إتساق حركة الصامول بانتظامه لأوامر صادرة أو لوائح موضوعة لا يعني قناعته الشخصّية بما يؤدّيه، حركة التاريخ تفيد عكس ذلك، الشيء الجدير بالذكر أنا منسي صحفي والعقيد في مطلع شبابه كتب مجموعة مقالات صحفية ذات صلة بتاريخ بلده نشرها في مجلات بغداد، كان ذلك قبل عشرين سنة تقريباً، لعلّه إذا استقرت الحال أو أحال نفسه على التقاعد يُعيد نشرها ضمن كتاب، غرضه من استطراده هذا إننا، هو وأنا، نجهدُ بإعمال أذهاننا كتابة، بما يعني وجود أرضية مشتركة تجمعنا إلينا. أعرفني أتمتعُ بقدرة معقولة على تصنيف المعلومات، إعادة إدراجها ضمن سياق واضح من خلال خبرة مزمنة بعمل الملفّات، مئات الملفّات لمواضيع شتّى، استطيع الإلمام بالشاردة والواردة، اصدقكِ القول، كلام عقيدهم الموجّه لي، أنا المقيّد في حضرته، أطاح أرضاً بخبراتي سالفة الذكر، ما الذي أفهمه. يا أخ منسي انتَ إنسان صادق مستقيم. قالها مساررة صديق لصديق، أو هكذا وصلتني. اصغيتُ أكثر، أنتَ نمط لا.يكذب لكنّه لا يصرّح بالحقيقة كاملة. واجهني نظرة متفحّصة. أظنّكَ تفهمني. أجبته مراعياً حدود مسكنتي. لا. ابتسمَ ملازماً صبره. دعني أوضح لكَ. ذكّرني بسؤال وجهه لي أثناء تواجد

سعود، هل بينكما عداء سابق، أسمعني إجابتي في حينه، لا أكنّ للمعني سوى الاحترام، الاستثناء المدرج فيما يخصّني تُحيل سامعها إلى إنّ ما تبعها خصّ المعني باحتقار موقوت. هل فهمتني. تقريباً. أنتَ عنيد. قالها دون ضغينة، تابع واجداً عذراً. لوكان خاضعاً لذات الظرف الذي أعيشه الآن لتسلّك مثلي. أفاض. على افتراض وجّه أحدهم له سؤاله، هل بينه وبين ضابط الاستخبارات عداء سابق، جاءت إجابته مطابقة، فيما يخصّه لايكن للمعني سوى الاحترام، الاستخبارات والمنصب مهنة الموثوق بهم جدّاً، ليس مهماً أنْ تفكر بشكل إنساني، البديل، اخلاص أعمى وتفان متناه، ولا مكان لما يُسمّى بالقيم، رتبة ضابط الاستخبارات رائد، وهي من حيث التراتبية العسكرية أدنى من رتبة العقيد، لكنّه لا يتوانى عن اصدار أوامره، المؤلم اصداره الأوامر بتعال وعنجهية هادفاً لاذلال الآخر للاسبب يقبله العقل. انفرج فمه بابتسامة دالّة على ماذا، سألني كمن يفحمني. إلاّ إذا كان نسيبك إنساناً نقياً حقيقة. قيدي يحز معصمي، عيناي على مساحة الارض الاسمنتية بين قدميّ، الباب باق مغلقاً علينا، داريت مشاعري تجاه ثالث غائب. النقاء صفة الأنبياء. اصدَر ضحكة خافتة. مازلتُ عند رأيي أنتَ ذكي. سكتَ برهة. حتّى لا يكون الذكاء مدعاة بلاء. ترك قولته مفتوحة. كلام أخير. كلامه الأخير جاء استرسالاً أيضاً، ضابط الاستخبارات الرائد خير الله هو المسؤول الأوّل عن المخبرين، سعود مشروع مُخبر إنْ لم أوظّف ذكائي باتجاه يقترحه، سيأتي ذكره لا حقاً، جلسة إستماع الرائد خير الله لإفادة سعود تمّت بحضورالعقيد، متابعته الإفادة التي أخذت سياق إستجواب، فهم العقيد إنّي غير كويتي، اثر انتهائه من إفادة سعود وردتْ مكالمة هاتفية هامّة ألزمتْ الرائد خيرالله بالتوجّه فوراً لقيادة الاستخبارات، قبل مغادرته أمر رائد الاستخبارات خير الله العقيد أنْ يتولّى مهامه نيابة، يواجه المشتبه به المدعو منسي بنسيبه المدعو سعود، لغرض التأكّد من صحة إخبارية

الأخير أو كيديّتها، فإنْ كانت كيديّة يبادر العقيد لحجز الإثنين، المخبر والمشتبه به، ريثما يعود صاحب الشأن يتولّى زمام التحقيق، وإنْ بدتْ هذه الإفادة سليمة لا باس من صرف المخبر بنيّة استدعائه عند الحاجة. إفادة نسيبك سعود ليستْ كيدية في ظاهرها. ظرفية المخفر والقيد، كيف لواحد مثلي يفتقرُ لخبرة الاعتقال والتحقيق أنْ يفكّر بشكل سليم، يُمّيز الصدق، يفصله عن الاستدراج قصد الإيقاع، إسمه كماعرفته لاحقاً فاروق، عقيد ركن سلاح مشاة، يتولّى وظيفة رئيس مخفر، في وقت لاحق عرفتُ، النظام العراقي جيش جّرار فيه مئات ضباط عقداء، إلاّ إنّ أصحاب السطوة النافذة قلّة يؤكدها سياق ولاءات تتصل بالانتماء العائلي، يليه العشائري، يليه الحزبي، الكفاءة القتالية أوالمهنيّة تحصيل حاصل، ضباط رتب كُثر مسؤولون عن تنفيذ أوامر تصدر، سواء إتسقت تلك الأوامر مع قناعاتهم أو عارضتها لدرجة القطيعة، العقيد ركن مشاة فاروق لم يباسطني الحديث بالتفصيل مارّ التدوين، لكنّي أوردته جهداً شخصياً يهدف لمعرفة السبب الكامن وراء. أنا متعاطف معكَ. تلاه إيضاح. أفراد فئة البدون يتلقّون من جانب استخباراتنا معاملة شاذّة، الشذوذ يتأتى عن قناعة مفادها أنتم تنتمون بشكل وبآخر للمعارضة العراقية المقيمة خارج بلدها والتي لا تدّخر جهدها تسيء لسمعة النظام، بمعنى انتم عملاء ناكرون لمواطنيتكم العراقية حتى يثبت العكس، الاثبات يمر عبر جلسات انتزاع معلومات تبدأ بانتزاع أظافر الواحد. أزمعتُ توضيح وجهة نظري. البدون حالة كويتية خاصة. إلاّ إذا كنتَ قادراً على اثبات انتمائك السابق. أنا مولود هنا. أنا لا اعرفك لكنّي اشفق عليك.

مقدّمات العقيد مشاة فاروق تقود باتجاه استنتاجات، تبليغ نسيبي سعود ينصّ بالحرف، للمدعو منسي نشاط مريب. تحظى قولته بنسبة تأكيد عالية من خلال محتويات صندوق سيّارتي، اوشكتُ أقول، إن

كان على السيارة بما فيها خذوها برسم المصادرة أو وضع اليد. تابع العقيد توضيحاته. عشرة أكياس كبيرة تحوي احتياجات أسريّة كُتبتْ عليها أرقام، تُفيد بازماع تسليمها لمن يحتاجها. ادعائي إنّي مسؤول تسويق باطل، مهنتي صحفي، الرائد خيرالله حين يتصدّى لاستجوابي سوف يصرّ على معرفة الأشخاص أو اصحاب العلاقة من هم، أين أماكن اقامتهم، الاستجواب إذا انتقل لمعتقل المشاتل يأخذ منحى أُشفق عليك من مواجهته. أسمعُ العقيد أحسّ بالقيد يضغط معصميّ أشدّ، أتذكر مجمع لؤلؤة المرزوق، قدرتي أنْ أصمد أمام تعذيبهم، كيف يتأتّى لواحد مثلي احتماله لِما لم يختبره، صندوق سيارتي بأكياس تحوي علب حليب اطفال، وأصناف أدوية، مثل هذه السلع لا تنضوي ضمن نطاق الممنوع قانوناً، لكنّها مؤهّلة لاثارة غريزة خيرالله الاستخباراتية، إلى أين، السؤال يستوجب ردّاً، والردّ يولد اسئلة، اصغي لعقيدهم يكيل استنتاجاته، محيط دائرة الشبهة يضيق، يسدّ منافذ الخلاص، يقول لي، في حالتي الراهنة وحدي المسؤول عن نسيبي سعود، أنْ أمهّد الطريق للرائد خيرالله يأخذ إفادة الأوّل على محمل الجد، يوثّق علاقته به، يحيله مخبراً برضاه أو إلزاماً، لو كنتُ امتلك جرأة مقاطعة محدّثي قلت. أنتَ توغل بعيداً مع تصوّراتكَ. لعلمك. رددها العقيد، تابع. وقت الرائد خيرالله لم يمهله كي يرى محتويات صندوق سيّارتك، الجنود الذين تحت أُمرتي تولوا تفتيش سيّارتك، هم بانتظار إشارة منّي، لديهم استعداد تقاسم ما في الأكياس خلال ثوان. قرّب رأسه إلي. العراقيون ليسوا سيئين كلّهم. تشتت انتباهي، بدتْ لي مساررته وكأنّها خارج سياقنا، أضاف. الأغلبية الصامتة التي لا حول لها ولا صوت غير راضية عن إحتلال بلدكم. الإحالة والتوصيف، ماهي جذواي من سماع تصريح لا يمتُّ لمعضلتي بصلة. لعلمك، أمامك خياران لا ثالث لهما.

الخيار الأوّل لعقيد مشاتهم، انتفاء قصد الكيديّة من إفادة نسيبي سعود، غيابي المتكرر عن البيت، أخته التي هي زوجتي، كثرة شكاواها له، ومن ثمّ تركها المنزل للجوء عنده، اضطرّ لمحاولة حماية أخته من خطر مسؤولية واردة، في الوقت ذاته سيكون تبريري إنّي مسؤول مبيعات مع وجود الأكياس المرقمة سيقودني إلى معتقل المشاتل. خياره الثاني يشبه الأوّل إلى حدّ ما، انتفاء قصد الكيدية من إفادة سعود، هو يجهل الخلاف الذي استفحل بيننا أنا وزوجتي في الأيام الأخيرة جرّاء كوني غير كويتي بلا عمل أو وظيفة تؤمن لي مصدر دخل يفي احتياجاتها، هذا الخلاف الحاد اضطرني للتغيّب عن المنزل، فاختارتْ اللجوء لأخيها، وجدتْ آذاناً صاغية. المرأة وانفعالها الشديد، لعلها تقوّلتْ أشياء ولّدت لدى أخيها شكوكاً أجهل مصدرها، بناءً جاءني يطلب طلاق أخته، الورطة التي وجدتُ نفسي فيها، ومن أجل أنْ أبدد الشكوك الدائرة حولي جملة وتفصيلاً ولأنّي غير كويتي اتخذتُ قرار التطوّع في الجيش الشعبي بدءاً من اليوم. ما رأيكَ. سؤال محدد واجهني العقيد به، اشتبكَ عليّ ذهني، عجز عن التفكير، الاقتراح أمر لم يسبق، قال. الجيش الشعبي لا يحتاج واحداً مشكوك الولاء مثلك. ما الذي أردّ به، آلاف العراقيين اضطروا للالتحاق بالجيش الشعبي وتواروا عن الأنظار عند أقرب فرصة سنحت لهم. باق تتناهبني حيرتي ينازعها جزعي. أنا متعاطف معك.انفرج فمه بابتسامة غامضة. لا من أجلك لشخصك فقط، لكنّها نكاية بالرائد خير الله أيضاً، أعود اذكّرك العراقيون ليسوا سيئين كلّهم. حدّق إليّ في عمق عيني. أنتَ لن تخسر شيئاً، أنتَ تكسب حياتك.

يـا زينـب، أتقـدم إليكِ باقتراح غريب، اعزلي نفسـكِ عمّا حولكِ، اطبقـي جفينـكِ، احصـري ذهنكِ عليكِ، حاولـي أن تتقمّصي دوري أنا منسـي رهن اعتقال في زمن احتلال، اخبارية نسـيب تؤكدّ شـبهة تعاون أو انتمـاء لمقاومـة كويتيـة مـع انتفـاء قصـد الكيدية، مخفر نقـرة، عقيد ركن مشـاة ينصحني تعاطفاً ربّما، نكاية برائد اسـتخبارات ربّما، يقترح علـيّ أن التحـق متطوّعـاً، جيـش شـعبي لنظام عراقي، رفضـي إذا اتخذ صفـة اعتـذار مـؤدب ياخذني نحو المتاهـة، ولو اتصلَ الأمر بي وحدي ليكُن، لكنّ احتمال انهياري تحت التعذيب، ذكر أسـماء أناس خالصي النوايـا لا يكنّـون أيّـاً من الدوافع التي يتحلّى بها خالكِ، خياران لاغير، ذاك مـا قالـه العقيـد، تُراكِ وانتِ تتقمصين دوري قادرة على التميز بين خيـار يحتمـل الخطـأ وثان يحتمل الصواب، الخبرة أنْ نعيشـها حسـياً، أقـولُ لـكِ لاصـواب ولا ثواب، إذ إنّ مسـألة المفاضلة بحد ذاتها دنس يسـتعصي تطهّر الواحد منه، أنا بدون ومازلت، جهدي المحدود وقتها المتمثّل بتلبية احتياجات معاشـية انسـانية لمجموعة أسـر أجنبية متوارية عن أعين سـلطات احتلال جاء بناء على حافز شـخصي يهدف لتحقيق ذاتي بصفتي فعلاً مشاركاً، المعنى المستهدف، لا فضل لي على الكويت شأن من أُعتقل وعذّب أو استشهد دفاعاً عن قضية أو ضاع في الأسر. كذلك ازعم أنْ لا فضل للكويت عليّ، إلاّ إذا انبرى أحدهم، خالكِ أو نسـخة عنه، صنّف وجودي المهمّش فوق أرضها فضلاً يلزمني الإقرار بـه، أسـوق كلامـي هـذا قاصـداً اخلص لنتيجـة مفادها، الشـعور الكريه بالدنـس لـم ينلنـي جرّاء اقتـراف خيانة وطن واقعي تحـدّه خارطة، ولا خيانـة قضيـة سـامية لدى الغير. الوطـن كما أراه ماهيّة كامنة في جينات الكائن، والقضية تكون سـامية إذا سـعتْ لتحقيق خير كلّي غير مقصور علـى فـرد أو جماعـة بعينهـا. الدنـس الـذي نالني نوع شـائه من عطب أصاب الذات، مثلما يقف شـخص ما عند مفترق عمر، يتخذ قراره أنْ

يواصل طريقه من دونه، لعلّي اقترفتُ ذلك لأنيّ أين.

نعيدك للحجز لحين عودة رائد الاستخبارات خيرالله. مسألة البتّ بمصيري رهن إرادة الأخير، لم أنبس، نهضتُ، عساه يستدعي أحد جنوده يصطحبني مخفوراً لعند غرفة الحجز، تريّث عقيد مشاتهم فاروق لثوان. أحسنتَ الاختيار. هل أحسنته فعلاً، أم إنّها نكايته بالرائد الذي يمارس عليه أصناف استعلاء تُشعره بالدونية. عندما تتوفر لخيرالله فرصة قراءة إفادتك يحيلك عليّ. الإحالة تبادل مسؤولية أو تداول بشر. بعدما يُحيلك عليّ أحيلكَ على ضابط صديق من قيادات الجيش الشعبي. حديد القيد يحزّ لي معصمي أنا الموعود بماذا. الرائد خيرالله سيعود لهنا خلال ساعات. ضغط زر جرس، دخل جنديهم، دوى صوت اصطفاق حذاءعسكري. خذه للحجز. أمركَ سيّدي. أمري لمن، رائدهم خير الله لم يأتِ طوال يومنا إيّاه، سابع اكتوبر، لم يأتِ ثامنه ولا تاسعه، ولا، ولا تجرأت أسال أحد جنودهم المارين أمام قضبان غرفة الحجز. متى يجيء الرائد خير الله. ألفة جنود المخفر لوجهي أو اعتيادهم وجودي وراء قضبان غرفة الحجز أثناء ترددهم على دورة المياه، ضحى اليوم الخامس عنّ لأحدهم يسألني سبب اعتقالي، لعلّه تعاطف المسحوقين تجاه بعضهم، لعلّه الفضول، آثرتُ الإجابة. لا اعرف. حمل وجهه انطباعاً يشي عدم تصديقه، رغم ذلك استجمعتُ جرأتي سألته ما إذا كان العقيد فاروق متواجداً في مكتبه، حدجني نظرة مستنكرة. نقلوه لموقع ثان. سواء مادت الأرض بي أو لم، أحسستني كمن يعاني انكشافاً مباغتاً، العقيد فاروق تصنيف نمط تعاطفه، نكايته التي يكنّها لرائد الاستخبارات، أنا الآن كيف، تطوّع الجندي خبّر. حلّ مكان العقيد فاروق ملازم أوّل أمن خلفان. لوّن صوته بالأهمية. هو شديد جدّاً. أزمع يبتعد، رجوته. سؤال واحد. حدّق فيّ. ماذا عن رائد الاستخبارات خيرالله. عقد حاجبيه امتعاضاً. لماذا تسأل. رجوته. هل جاء إلى المخفر

خلال الأيام الأخيرة. أسئلتك عجيبة. صمت برهة. لا. صمت برهة، حذّرني. لا توجّه مثل هذه الأسئلة مّرة ثانية. حثّ خطوه مبتعداً. الناس أيام الاحتلال لا ينامون ليلاً عكس الحال داخل المخفر حيث تنشط الحركة منذ ساعات الفجر الأولى، لغط الجنود، ازدحام مدخل المخفر بهم، وقع أحذيتهم العسكرية فوق الأرض الحجرية، صراخ رؤسائهم عليهم، بدءاً من التاسعة ليلاً تخفتُ الأصوات كافة، تنكتم، يصدفُ أنْ تسمع جندياً يهمس محذراً محدّثه، خفّض صوتك الضابط نائم، بانكتام الأصوات ليلاً تنشط الروائح، الأنف قابلية نشاز، استعداد مستفز، روائح حامضة مترتبة عن عرق بشري متخمّر، روائح نتنة مكثفة عابرة خلل الباب المخلوع لدورة المياه القريبة، الجدران المبنية من طابوق اسمنتي تؤكد حضورها ليلاً عبر رائحة زمن كويتي غابر، حتّى القضبان الحديدية العازلة لها رائحة صدأ نفاذة خاصة بها، امتزاج الروائح بعضها البعض، منتصف ليلة أولى اعتقال، أو بعد المنتصف بقليل اجتاحني غثيان حاد قلب أحشائي رغم كوني فارغ المعدة، غثياني جاء مصحوباً دوار رأس، لا أوان لفقدان وعي أخرق، زحفتُ نحو قضبان الباب، رائحة الصدأ اخذتني إليها، عزلتني عن روائح آخرى، الصباح آت آت، بقيتُ مقعياً أرضاً مطبقاً كفّي على القضبان ووجهي مسافة شمّ، مع انبلاج الفجر كان العريف عبود أوّل قاصدي دورة المياه، أثار منظر جلوسي متشبثاً بالقضبان فضوله، توقّف أمامي. لماذا تجلس هكذا. إذا كان شكل الجلوس مدعاة استجواب، افلتُ كفّي، زحفتُ متراجعاً وراءً دون أنْ انبس، تفحّصني برهة، أخاله تذكّر شيئاً ما، هز رأسه لنفسه بدلالة يعرفها هو، تابع خطوه نحو مقصده، منظري متشبثاً بالقضبان وقد أثار فضول العريف عبود أحالني لفضول موغل في الذكرى لمّا رأيت أمكِ تطبق كفّيها على مشبك معدن مقام السيدة زينب تناشد أو تنذر إنْ حملتْ وجاء الحمل بنتاً أسمتها أنتِ، كفّاها باطباقهما على مشبك المعدن كانتا

طريتين، والذكرى المستعادة كفّ عملاقة عاتية القوة تطبق على الأضلاع تحاصر الصدر تعتصره، إمكانية التنفّس أين، منفذ هواء يا الله. مغادرة العريـف دورة الميـاه، وقد شـمّر عن كمّي قميصـه، ذراعاه تقطران ماءً، الوضـوء اسـتعداداً لاداء فريضـة صلاة الفجر، عـاد وقف أمام القضبان. أنـتَ بُـتّ ليلتـك دون فـراش. التوجّه للصلاة يبعـثُ على صفاء روحي موقـوت، اكتفيـتُ حرّكـتُ رأسـي موافقاً، تابع العريـف عبود. ومن غير أكل أيضـاً. أومـأت برأسـي نحـو البـاب المخلوع لدورة الميـاه. أحتاج الذهاب لهناك. لمّا سلّمني العريف عبود دثاراً عسكرياً. لا توجد وسائد. تنبّهوا خصّوني بوجبتي طعام، خبز أسمر صلب مع كوب شاي مطبوخ يقدمونـه فـي الصبـاح الباكر، وطاسـة عـدس إلى جانب الخبز الأسـمر الصلـب مسـاءً. لفـت إهتمامـي وجـود صبي لم يتجاوز عمره الخامسـة عشرة، تدلّ ملامحه وكذلك لكنته على إنّه كردي، يتولّى توفير السجائر وعلب الثقاب لرجال المخفر، يشتريها من أسواق الأرصفة. فجر يومي السـادس تريّث العريف عبود أمام القضبان قبل دخوله دورة المياه. إنْ كنتَ تملك نقوداً تستطيع شراء سجائر استعانة بالصبي شير. عصر يومي ذاك. يا شير. اقترب الصبي شير من القضبان، نقّدته ما يلزم. أريد ثلاث علب سـجائر سـومر. إحتفظتُ بعلب السـجائر حتّى فجر اليوم التالي، دفعتهـا للعريـف عبود. هـذا كثير. رددها ممتناً، وهو يزمع الابتعاد تذكّر إلتفـتَ. تسـتطيع أنْ تدخّـن مـا دام لا أحـد يـراك. العـرض والأريحيّـة المضمرة. أنا لا أُدخّن. انفرج فمه عن ابتسامة أسيانة. يلعنها دنيا. رددها خافتة، انصرف ليعود بعد دقيقة، مدّ يده من خلال قضبان الباب حاملة تفاحـة خضـراء كبيـرة الحجم. خُـذ. خفق قلبي لمنظـر التفاحة، تحلُب ريقي لدى احتضاني لها. يتوجّب أكلها في الغفلة. اقبلتُ على التفاحة، الطعـم والرائحـة المنعشـة، لـم استسـلم لفعل الجوع، آثـرتُ الاحتفاظ بنصفها لوقت لاحق، عصر اليوم ذاته دفعتُ للصبي شير خمسة دنانير.

مـاذا أشـتري لـكَ. أريـدُ منكَ الذهاب لبيـتٍ قريب. لـم يمهلني فرصة اكمـال جملتـي، أعـاد نقـودي. هـذا ممنـوع. بعد سـاعة ظهر شـير أمام القضبان، تلفّت حوله يتأكّد من خلو الجوار. ما الذي تريده. طمأنة أمّي إنّـي حـيّ وعودتـي إليهـا قريبة. أين تسـكن أمّك. مددتُ يـدي بالدنانير الخمسة. من غير فلوس. رددها مبتعداً، غاب زهاء ساعة. باب ملحقكم مقفل. أمّي في الداخل، لو إنّك طرقتَ الباب. فكرّ الصبي شـير برهة، اتخذ قراره. إذا كنت تحتاج شراء شيء أنا تحت أمرك. ابتعد ولم يظهر في الجوار ثانية، ضحى اليوم العاشر اقترب العريف عبود، سارّرني من وراء القضبان. كُن مسـتعداً للتحقيق. شـملني اسـتغرابي. العقيد فاروق انهى تحقيقه معي يوم وصولي هنا. ابتسم متفهّما. ضابط الاستخبارات الرائد خيرالله يصل خلال ساعة. بدتْ لي أيامي العشرة في غرفة حجز مخفر النقرة كأنّها ردح زمن طويل أحالني جزءاً من المكان، أنا والخارج علاقـة انفصـام، الملحـق حيـث أميّ ليـس بعيداً، المسـافة الفاصلة ربع ساعة مشي، رغم القرب أجهل ما الذي حدث لها، كيف تقضي وقتها، ماذا قالت لمبارك سويّد إذا كان الأخير بعد انقطاع أخباري جاء للملحق. أين منسي. الكويتيون لا يرتادون مخافرهم أيام الاحتلال لأي سبب كان مادامت مأهولة بعسكر نظام عراقي، الكويتيون طفقوا يسيّرون شؤونهم بمعزل عن سـلطات الاحتلال، سـعود حالة غير، ملازمتي مكاني وراء القضبان، قبل موعد ارتفاع اذان الظهر بقليل شـاغلتني أذناي، خُيّل لي إنّي سمعتُ صوتَ سعود يخاطب أحدهم. جئتُ استجابة لطلب ضابط المخفر. نبرة صوته تدلّ على اسـتغراب يشـوبه انزعاج، سـمعتُ صوت العريـف عبـود أشـبه بمن ينهـر محدّثه. نعرف. قرّبـتُ وجهي للقضبان، حاولتُ تلصص النظر بغية التأكد، لم تسـنح لي الرؤية في البدء، مرّتْ ثـوان، اقتـربَ اثرها سـعود ماشـياً بخطوات غير منتظمـة، العريف عبود يدفعه أمامه، سـعود يحاول التوضيح. لسـتُ متهماً. هذا شـأنك. طلبني

الضابط لغرض ادلاء شهادة. نحنُ ننفّذ أمر الضابط. مع وصول الإثنين التقط أنفي رائحة بخور، عينا سعود عبرتا وجهي لمحاً دون أنْ تتريّثا عنده، هيأتي المزرية حينها، لحيتي التي نبتت واستطالتْ، هو لم يتعرّفني، شملني إحساس ارتياح. وصل الجندي حامل مفاتيح باب غرفة الحجز مهرولاً، بادر فتح الباب. ادخل. وجهها العريف عبود لسعود آمرة، حرن الأخير في مكانه. هناك سوء فهم. نفد صبر العريف عبود، مدّ كفّه لكتف سعود، دفعه نحو الداخل، تعثرتْ قدما سعود، بذل جهده لاستعادة توازنه، سارع حامل المفاتيح أغلق الباب، تلاقتْ نظراتنا، العريف عبود وأنا، ظننته سيقول شيئاً، لم يفعل، طوال أيام الحجز كنتُ وحيداً، وصول سعود جعلنا إثنين، لحظات أولى انتابني شعور بالانزعاج، مشاركة المكان والكيفية التي سيكون عليها ردّ فعل الآخر حال معرفته إنّ الشخص الموجود معه أنا، هذا الشعور نازعه ثان يمثل ارتياحاً لقيطاً، الرجل الذي أوقع بي ظلماً يدفع ثمن فعلته من خلال مصادفة غير محسوبة. رائحة البخور القادمة لتوّها تخالط روائح مستوطنة تنتج مناخ مفارقة درامية، لمّا جاء سعود للمرّة الأولى عاملوه بشكل لائق مقارنة، لم يراكضوه رافعاً ذراعيه بفوهة ماسورة بندقية رشاش تلكز ظهره، لم يكبّلوا يديه، استقبلوه في غرفة ضابط المخفر، أجلسوه هناك، استكتبوه إفادته، زوج اختي المدعو، أتذكّر كلمات قالها له العقيد مشاة فاروق، تستطيع الانصراف لشأنك عندما نحتاجك نطلبك، ماذا حدا بهم لكي يُعامل عكس المتوقّع، هل جدّ جديد أحال ثقتهم بافادة سعود للشك، العريف عبود لا يتسلّك اجتهاداً شخصياً، لابُدّ من وجود أمر صادر، يبقى احتمال وحيد، الرئيس الجديد للمخفر ملازم أول أمن خلفان والشدّة التي يعتمدها في تسيير أموره، صحّة الاحتمال أو عدمها، نحن نعيش زمن احتلال أهوج بامتياز، كلّ المكان لمضاعفات طارئة مثلما هي مجهولة، تواجدنا، سعود وأنا، وراء

القضبان، دقائقنا الأولى، تناهبني دافعان، اكشف له عن شخصيتي، كأن أقول له ساخراً، حيّا الله النسيب، أواجه عينيه المشدوهتين بالشماتة المطلوبة، الدافع الثاني يكفيني ما نالني من اشمئزازه الملازم لإحساسه بالتعالي وهو يحدجُ مسخاً نكرة، بعد انصرام دقائق أولى تغلّب الدافع الثاني، صرفتُ النظر، تواجدنا هنا، الوقتُ كفيل بالكشف عن مضاعفات واردة، لففتُ الدثار العسكري كما حشيّة، قصدتُ الركن، جلستُ ضامّاً ركبتي لصدري مسنداً ظهري للجدار، في حين لازم سعود وقوفه أمام القضبان، يرجو الجنود المتجهين لدورة المياه أن يخبروا ضابط المخفر عن سوء فهم جاء به لهنا، شاكسه أحد الجنود قال. ضابط المخفر خرج ولم يعد. غاضتْ دماء سعود من وجهه، طفق يذرع أرض غرفة الحجز، المحاصرة والجزع المرافق، سمعته يبسمل، يقرأ، قُل أعوذ ُبربّ الناس، أنهاها بدأ ثانية، قُل أعوذ ُبربّ الفلق، وقتك العصيب تتذكر خالقك، كيف لضمير واحد يتوارى حيث لا أثر، اللهم إنّي أعوذ ُ بك من شر سعود وأخته عهود. عساكِ لا تتحاملي علي زينب، في لقائنا الأخير قبل أمد ليس بالبعيد لخّص لي مبارك سويّد أخبار خالكِ سعود الأخيرة قال، باع أملاك العائلة، ابتنى مجمّعات سكنية خمس نجوم، وهو ينهي افضاءه غفلتُ اسأله إنْ كان سعود بنى مسجداً يحملُ ازاء بابه لوحاً رخامياً يؤكد عراقة من.

سبع ساعات، أقل أو أكثر، قضاها سعود في غرفة حجز مخفر النقرة برفقة نسيب لم يتعّرف عليه، كان يقفُ لصق الباب القضبان متطلعاً عبره، يبقى هناك زهاء نصف ساعة يراوح خلالها ثقل جسده بين ساقيه، أراقبه من وراء ظهره، أسمع غمغماته الغاضبة ولا أميّز مخارج حروفه، يرهقه وقوفه، يبتعد عن القضبان، يذرع الأرض محدودة المساحة دون أنْ يولي اهتماماً لشريك المكان، عدا لفتة سريعة خصّني بها لمّا حلّ موعد طاسة العدس الخاصة بي، نظرته نمّت عن استغراب يشوبه

اشـمئزاز، لابأس له يشـمئز براحته، الوقت القادم يحسـم أموراً يجهلها كلانـا، مـع غيـاب الشـمس وبـدء حلول الليـل يخيّم سـكون ثقيل على المكان، أمنيتي أنْ لا يشاركني سعود المبيت، احتمال التعرّف يعني ردّ فعل غير محتمل، لحظة ارتفاع اذان العشـاء من مسـجد قريب وانشـغال فـم سـعود بالتكبيـر علـى مجهـول تناهى لسـمعي وقع أحذية عسـكرية قادمـة، العريـف عبـود يرافقه جندي المفاتيح. نذهـب لمكتب الضابط. ردد سعود.الحمد لله. أدار الجندي مفتاحه في القفل، تنمّل معصماي، هـم بسـبيلهم لتكبيلـي، فوجئـت أنْ لا، تقدّمنا سـعود حاثّاً خطوه، قرّب العريف عبود فمه لأذني. رائد الاسـتخبارات خير الله بانتظاركم. سـبقنا سعود لباب مكتب ضابط المخفر، أراد الدخول، زجره صوت العريف عبود. انتظر. تقدّم، نقر الباب، بلغنا صوت آمر. ادخل. سـارع العريف عبـود دخـل، دوى اصطفـاق حذاء ثقيل، مثولنا، سـعود وأنا، أمام الرائد خير الله، عرفته من ضخامة جسـده، جلسـته المائلة فوق مقعد مكتب ضابط المخفر، إلى يمينه وقف ضابط ملازم شاب، ليس سوى خلفان، الصـورة المنقولـة عنـه شـديد جدّاً، رأيتـه خانعاً جدّاً، رأيتُ السـجل ذا الإفادات مفتوحاً فوق سـطح المكتب، نشـط سـعود، انفرجت أسـاريره لحظـة شـاهد الرائـد خيرالله، القى التحيّة، لـم يحبطه تجاهل الضابطين ردّ تحيته، تقدّم خطوتين، قال موجّهاً حديثه للرائد خير الله بواعز سابق معرفة. جنودك، على ما يبدو، فهموا طلب استدعائكَ لي خطأً. انشغل الرائد خيرالله عن الرد بتفحّص وجهي، نظراته لا تحمل شعوراً عدائياً متوقعـاً، لكنّهـا تهدف لسـبر أغـوار الآخر، أطلق سـعود ضحكة مفارقة خافتـة تابـع إخبـاره. وصلـت لهنـا ظهـراً، اسـتقبلوني بشـكل غيرلائق، سـاقوني للحجز.عينـا رائـد اسـتخباراتهم تواصـلان سـبري، هم سـعود بالجلـوس علـى المقعـد المجـاور للمكتب، زجره الرائـد خيرالله. ماذا تفعل. ردّ سـعود مخذولاً. أردتُ الجلوس. اصبع يد الرائد تشـير وراء،

قال معتمداً صيغته الزاجرة. قف هناك. كتفا سعود، كما بدا لي، تهدّلتا، تراجع منكّساً رأسه، اصبع الرائد عادتْ أشارت للمقعد إيّاه، قال متخففاً من إنزعاجه. اجلس يا منسي. هل انتفض سعود في وقفته، بعد سبع ساعات، أكثر أو أقلّ من تواجد مشترك وراء قضبان غرفة حجز مخفر ضلع مربع ثلاثة أمتار اكتشفني سعود، دفن الرائد خير الله عينيه في السجل المفتوح فوق سطح المكتب لثوان، رفع بعدها رأسه، وجّه حديثه لسعود. أنت قبل عشرة أيام من تاريخه وبحضور ضابط المخفر السابق العقيد مشاة فاروق أفدتَ كتابة، زوج أختك المدعو منسي له نشاط مريب. سكتَ برهة. وظيفتنا تتمثّل بتلقي الاخباريات، لكنّ تلقينا لها لايعني عدم تأكدنا من صحتها. خطف نظرة لملازم أمن خلفان كمن يستمزج رأيه، استجاب خلفان. هذا صحيح سيّدي. عاد الرائد خيرالله صوّب عينيه لوجه سعود. مطلوب منكَ تحديد نوعية النشاط المريب للمدعو منسي. اختلجتْ عضلات وجه سعود، حدّق إليّ في عينيّ علّه يتأكد من كوني المدعو فعلاً، أعمل ذهنه لثانيتين. غيابه المتكرر عن بيته. استدركَ هادفاً الابقاء على خط رجعة. هذا ما لاحظته زوجته التي هي أختي. نهره الرائد خير الله. لاتحمّل مسؤولية البلاغ لامرأة غائبة. انطعن وجه سعود بدمه، لم ينطق. أنتَ منذ ساعة الظهيرة وحتّى الآن متغيّب عن البيت. قالها الرائد خير الله لسعود مضمراً تهكماً، تابع متسائلاً. هل يبادر أحد من أهلك إلى أقرب مخفر يُدلي ببلاغ مفاده، رجلنا المدعو سعود له نشاط مريب. انكمشتْ قامة سعود. النشاط المريب الذي أوحى به بلاغك ضدّ المدعو منسي يعنى ممارسته عملاً تخريبياً، يعنى وجود علاقة بجماعات تخريبية. حدّق لسعود في عمق عينيه. وجوب استناد التبليغ لوقائع موجودة على الأرض، نريد أسماء وعناوين حتّى نتخذ اجراءات رادعة. انكمشت قامة سعود أكثر، خوفه وانشداهه يهيمنان عليه، فاجأه الرائد خيرالله. ماذا قُلت. أجاب سعود

مناشـداً. قال إنّه إنسـان مسـالم لا شـأن له بكل الذي يدور، وقته موزّع بين البيت والمسـجد. الرائد خير الله لا يريد معرفة كيفية قضائه وقته، يريد معرفة طبيعة النشـاطات المريبة لزوج اخته، مدعّمة بقائمة أسـماء وعناويـن أصحـاب العلاقـة. عـاد سـعود أكّـد جهلـه بكل الـذي يتصل بمنسـي، هو لم يره منذ أشـهر عديدة باسـتثناء لقاء ما قبل عشـرة أيام، أصـر الرائـد خير الله. أنتَ تتسـترعلى زوج اختـك. لا والله. نخضعك للاستجواب نضطرك تعترف. كيف أعترف بما لا اعرف. وشيتَ بنسيبك ثـم تراجعـت خوفـاً مـن بطـش جماعتـه الارهابية بك. لا واللـه. انفعل الرائـد خيراللـه، أشـار باصبعه لصفحة السـجل. لماذا جئتنـا لهنا ادليتَ بافادتك هذه ضدّه. اخرسّ سعود، التفت الرائد خيرالله للملازم خلفان أشـركه حديثـه. منـذ لحظة التبليغ حدسـتُ وجود دوافـع كيديّة، كلّفتُ رئيس المخفر السابق أنْ يواجه المبلِغ بالمبلَغ عنه، لكي يكشف كيدية البـلاغ مـن عدمها، لكنّ جهـد زميلنا ذاك جانب الصواب. صّوب عينيه نحـو سـعود. بلاغـك يفصـح عن دوافع كيدية هدفتْ للاضرار بنسـيبكَ لأسـباب شـخصية بحتة، في حين حاول نسـيبك أنْ ينفي تهمة الكيدية عنك وفنّد تهمة انتمائه للمخربين عندما أبدى رغبة صريحة بالتطوّع في جيشـنا الشـعبي. نزل الخبر الأخير على سـعود نزول الصاعقة، اختضّ جسـده، وجّـه لـي نظـرات دالّـة على ماذا، شـاغلني صـوتُ الرائد خير اللـه، يسـألني عـن تحصيلـي العلمي إن وُجد. بكالوريـوس أدب ونقد. شاع ارتياح الرائد خيرالله في وجهه، المعنى المستخلص استطيع، بعد دورة عسكرية تدريبية قصيرة، تولّي مهام ضابط احتياط رتبة ملازم ثان. اللقاء إيّاه، مفارقاته أو مأسـاويّته، هل أقول. ماد الكرسـي الجالس عليه بي. أدار الرائد خير الله رأسه لملازم أمنه خلفان، إصبعه تشير نحوي، يتوجّب تعويضه أيام احتجازه هنا، تأخذه الآن إلى قيادة الجيش الشعبي، توصيهـم بـه خيراً. لهج الملازم خلفان. حاضر سـيّدي.عاد إلتفتَ إلي.

تذهب معه. وجدتني أهبّ واقفاً مغمغماً خارج إرادتي. حاضر سيدي. لحظتها تجرأ خالكِ سعود تساءل متمنياً إنْ كانوا يسمحون له يذهب لبيته. نهره الرائد خيرالله. تبقى في الحجز، لزوم استجواب. خرجتُ مصحوباً بالملازم خلفان وإثنين من عساكره، عتمة الليل تعّم الساحة الأمامية للمخفر، أخذتُ لصدري شهيقاً عميقاً خالياً من خليط روائح اعتدتها طوال أيامي العشرة، مجهول مصيرك يا منسي، وهو يحثّني امضي قدماً وراء فكرته قال العقيد مشاة فاروق، آلاف العراقيين اضطروا للتطوّع في الجيش الشعبي، تواروا عن الأنظار عند أقرب فرصة سنحتْ لهم، متى تسنح لي فرصة التواري، ملازم خلفان يوجّه خطواتنا نحو سيّارة جيب روسية الصنع، السيارات المتواجدة في الجوار قليلة، راحتْ عيناي تبحثان، تعرّفتُ على سيارة سعود، جلتُ بصري أبعد، لا وجود لسيّارتي، العقيد مشاة فاروق، كما يبدو، لم يكتف باطلاق يد جنوده لمصادرة المحتويات المثيرة للشبهة داخل صندوق السيّارة. اركب. أشار الملازم خلفان للباب الأمامي الأيمن، عالجتُ الباب، احسسته من معدن ثقيل، الروس لا يبخلون بحديدهم على معدّاتهم، ركب ملازم خلفان وراء المقود، قفز الجنديان للقمرة الخلفية. بسم الله الرحمن الرحيم. عسكر الاحتلال لا يغفلون عن ذكر الله، ألحّتْ عليّ صورة أميّ، الملحق مسافة دقائق بالسيارة الجيب، لعلّ موقف رائد استخباراتهم خيرالله المشيد بي يؤهّلني لأن اقنع الملازم، ضجّ صوت محرّك الجيب، دبّتْ عجلاتها بسبيلها لسلوك شارع بيروت. بيتي قريب من هنا. فات الملازم خلفان معنى كلامي، انشغال ذهنه بما يخصّه عدا عن صخب المحرك، رفع صوته يسأل. ماذا قلت. رفعتُ صوتي أيضاً. بيتي مسافة دقيقتين من هنا. الظلام داخل القمرة الأمامية للسيارة الجيب لم يسمح لي برصد الانطباع الذي علا وجهه. نذهب لهناك، لن استغرق سوى ثوان قليلة أُطمئنُ والدتي العجوز واستبدلُ

ثيابي المتسخة بأخرى نظيفة. الظلام داخل القمرة لم، لم أتردد اكمل إفضائي. نتوجّه بعدها لقيادة الجيش الشعبي مباشرة. الظلام لا يحجب جفاف الصوت ولا هاجس الاستنكار، سمعتُ الملازم أمن خلفان. غير ممكن. الأوامر الصادرة إليه واضحة محددة ولا مجال لمخالفتها، تابعتْ السيارة الروسيّة سيّرها، غادرتْ شارع بيروت، دخلتْ طريق المغرب السريع، علا دوي محركها أكثر، الملازم أمن خلفان، وهو يضغط دواسة الوقود أصدر غمغمة استطاعت اذناي التقاط خاتمتها. أبو الدنيا. تذكّرتُ عريف المخفر، العراقيون لا يجدون ما يصبّون جام نقمتهم عليه، انزويتُ داخلي، وددتُ أظلّ محتفظاً بفضولي تجاه المكان الذي يأخذوني إليه، لكنّه القلق وهذا الإحساس تجاه المجهول، سألتُ مرافقي عن موقع قيادة الجيش الشعبي، هل استغرب الآخر سؤالي، افلتَ زفرة دالّة على ماذا، قال. مبان كبيرة تقع عند دوار تسمّونه دوار العظام. وصفهُ لم يوف غرضه، في حين عاجلني سؤاله. لماذا العظام. يقع أمام مدخل مستشفى العظام. هل لديكم مستشفى يختص بمعالجة العظام وحدها. ربّما. السيارة الروسية تبذل قصارى جهدها، في نهارات الاحتلال بدتْ الطرق السريعة عريضة فوق المطلوب مترامية مثل صحار اسفلتية. في لياليه، مع ازدياد حلكة الظلام جرّاء اهمال صيانة مصابيح الإنارة وندرة السيّارات العابرة، تتحوّل تلك الطرقات إلى امتدادات موحشة، تبدو وكأنّها تتربّص ساليكها، تباغتهم على حين غرّة.

يعنُّ لي يا زينب أنْ أتساءل، هل يحقُّ لنا التعامل مع الكتابة الموجّهة دون إلتفات لنوعيتها بصفتها رسائل تؤدّي غرضاً محدداً، في مطلع إحدى قصائده، لمّا كان نزيل إحدى مستشفيات روما، يقول بدر شاكر السيّاب. من مرضي، ومن سريري الابيضِ . أنا أقول. من معقلي في مبنى مسرح الخليج، السالمية، من فوق سجادتي، الشيء الوحيد الذي ورّثتني إيّاه أمّي أتابع تسويد أوراقي إليكِ. في زيارة ليلية تفقدية،

شاي أو قهوة، أطال الشاب السريلانكي كومار تحديقه لصندوقكِ الأسود، عربيته هجينة ركيكة، أبدى ملاحظة مفادها، الصندوق يوشك، سألني متى انهي رسالتي، لأنّي لا اعرف أجبته. لا أدري. شرد ذهنه برهة، عاد سأل. كم عمرها. قلت. في مثل سنّك تقريباً. إبتسم. لابُّد أنْ تكون حلوة. اظنّها كذلك. شرد ذهنه برهة اخرى، قال. الكويت بلد صغير، لماذا لا أبذل جهدي بالوصول إليكِ. اشركته حيرتي. هذا إذا كانت زينب داخل الكويت. الكويت في طابع بريدي ملصق على مظروف رسالة مسجّلة بعلم الوصول يعاد لعنوان باعثه مختوماً، الشخص المرسل إليه غير متوفّر. الكويت في سعود لمّا تولّى فاستولى، صار عائلة قائمة بذاتها على ذاتها، باع وابتنى، أم انّها في العم فرحان وقد آل باركنسون نزيل دارالرعاية الاجتماعية. تواتر الأحداث بالكيفية، وصلنا. قالها الملازم أمن خلفان مسبّقاً لها بزفرة ارتياح، السيارة الجيب تتريّث ازاء نقطة سيطرة تعترض البوابة الرئيسية لمنشأة دار الرعاية الاجتماعية، غرائبية الاحتلال العربي، أحال المدارس معسكرات، منشأة المشاتل الخاصة بالزراعة التجريبية إلى معتقل ومركز استجواب، داخلوه حساب مفقودين، هنا مركز قيادة الجيش الشعبي، أنا الداخل إليه محروساً بملازم أمن وجنديين، مأخوذاً تطوعاً، من لا مناص ولا خلاص. توصية رائد الاستخبارات خير الله أتت أُكلها من فورها، لدى انتهاء عملية التسليم والاستلام وانصراف ملازم خلفان لشأنه وضعوا بين يدي أوراقاً رسمية تحتاج قلماً بقصد ملء خانات البيانات، أخذوني لغرفة خالية الاّ من كرسي خشبي وطاولة مستديرة. اكتب. قالوها صيغة طلب، اطبقوا الباب عليّ، الأوراق رهن الكتابة تحتاج حشد ذهن، الأسم الرباعي للشخص المتقدم لطلب التطوّع، الاسم الثلاثي لأم المعني، أقارب درجة أولى، أسماء ثلاثية، أقارب درجة ثانية، ثالثة إن أمكن، كشف تفصيلي بأسماء المعارف والأصدقاء، العمر، الديانة،

التحصيل الدراسي، الانتماء الحزبي أو الميول السياسية، الحالة الصحية، دوافع التطوع، تعهد خطي يؤكد صحة المعلومات المدرجة. أعزّيني أساررني، الموقع الذي أنا فيه مساحة مترامية، تعجّ بمئات جنود شعبي، يُفترض بي إنّي واحد منهم، أتخللهم، أضيع وسطهم، أغتنم سانحتي أقرب وقت أتسلل، مستشفى العظام غرباً، أو أتجه شمالاً نحو مقبرة صليبيخات اختفي هناك، ومن ثمّ. حوالي منتصف الليل نادوني بالاسم، أركبوني ناقلة جنود رفقة آخرين، انطلقتْ بنا الناقلة شمالاً، منطقة الجهراء إلى اليسار، شمالاً أيضاً، العبدلي وحتّى المطلاع نقطة عبور حدود ملغاة، شمالاً أيضاً، توقّفتْ ناقلتنا بعد ساعات داخل معسكر تدريب، منطقة الشعيبة العراقية. حيّاالله الميامين الأشاوس. أنا ميمون أشوس برسم التدريب وسط مئات مثلي، لفت اهتمامي وجود نسبة غالبة من كبار السن، رجال تجاوزوا الستين، بعضهم بلغ السبعين، نظام شمولي مهيمن، أدور بعيني على الجوار، معسكر مترام تحيطه أسلاك شائكة، تعززه حراسة مشددة مدار الساعة، أدور بعيني، شبرات طويلة واطئة السقف متقابلة مسقوفة صفيحاً مطليّاً بلون الرمل لزوم التمويه، هناك شبرة واحدة عالية السقف في الطرف الجنوبي للمعسكر تتقدمها طريق عريضة تمتد نحو عمق الصحراء، حظيرة طائرات قتالية مع الممر المخصص للاقلاع والهبوط، المعسكر عامة يعبق برائحة زمن غابر، الأبواب القديمة، أشجار الأثل العملاقة الهرمة، بعد أيام تواجد خبّرني أحدهم. خلال احتلال الإنجليز للعراق أيام الحرب العالمية الأولى اختاروا هذا المكان أقاموا لهم قاعدة رئيسية أولى، الثانية تقع في منطقة الحبانية غرب بغداد. ساعة وصولنا ساقونا لسقيفة مستحدثة أصغر حجماً، سلّمونا جراياتنا من الملابس والأحذية والخوذ، مع تنبيه عريف التسليم ان الأحذية والخوذ المعدنية عهدة لاغير، بما يعني إشتراط إعادتها بعد إنتهاء فترة التدريب، سقيفة التسليم إيّاها حولوا جزأها

الخلفي ورشة لتدريب المجندين على تفكيك قطع البنادق وإعادة تركيبها لغرض التنظيف والتزييت واصلاح الأعطال الطارئة أثناء القتال، أجهلُ طبيعة مشاعر آخرين مرّوا أوعانوا خبرة الانخراط وسط قوم من أصول شتّى، أكراد لا يحسنون التحدّث بالعربية، بدو، فلاحون كهول بأكف خشنة أقرب للمشوّهة جرّاء عقود عمل في فلاحة الأرض، شباب من عراق الوسط تتشرّبهم أحاسيسهم بتميزهم، لازمني هاجس مهيمن لاينـي يؤكـد لـي، أنـا الحاضـر هنا لسـتُ أنا الذي كنته، نفـي الذات أو إنكارهـا بمحاولـة لتجـاوز مهانـة داخليـة مفادهـا، صـرتُ تافهـاً عميلاً طواعيـة، غصبـاً سـيان، لمّـا في حضرة عقيد مشـاة فـاروق تخللني أمل الهـرب، التـواري فـي أقـرب فرصـة، لمّا معسـكر الشـعيبة ذاك تناهبني يأسـي، حاصرني قنوطي، تناءى أمل الهرب مثلما تناءت عهود دمشـق، دمشق بالنسبة لي رحلة أولى أخيرة، وما توارد لذهني إنّ عبوري مركز العبدلي الحدودي إلى معسـكر شـعيبة عراقية مروراً بجبل سـنام الأجرد رحلـة ثانيـة، اتجاوزنـي أقول رحلّة تأهيل متطوّع إجباري جيش شـعبي فاقـد اهليتـه الانسـانية. فجـر اليـوم الثاني لشـعيبتهم ايقظونـا بصرخات مفزعة آمرة شـاتمة في الوقت نفسـه، مطلوب منك ارتداء الثياب خلال دقيقتين، ساقونا إلى ساحة رملية، أوقفونا صفوفاً منتظمة، استعداد، يمين يسـار، اسـتعداد، هرولة محسـوبة الخطوات مدّة نصف ساعة، استعداد، انبطاح، زحف مسـافة خمسـين متراً، نهوض، اسـتعداد، ركض جماعي متوسط السرعة نصف ساعة، استعداد، وجبة الإفطار نوعية غرفة حجز مخفر نقرة، وقت لاحق، استعداد. أيّها الأبطال الشمّ أبناء بلدنا العظيم، تنصّ أدبيات الحزب القائد. سـاعتان من عصر كلّ يوم خُصصتا لتلقي دروس آيديولوجية أوّلية. صرخاتهم الآمرة الناهرة استيقظت فجر اليوم الثالـث بمفاصـل مفككـة ينشـبها ألم حاد لم تسـبق لـي معاناته، الجهد العضلي المكثّف المفاجئ، قال لي أحد زملاء عنبر النوم. يومان ثلاثة

يخفّ الألم بعدها تدريجياً يزول. التدريب الصباحي، أغالب الألم، أتغلبّ عليه بعد لأي، رجال كهول عديدون خارت بهم ركبهم تداعوا أرضاً وسط سخرية عريف التدريب وشتائمه المقذعة، كهل كردي سارّرني شكواه. آنا ما يعرف ليش تدريب، آخر شي يسلّمونك بندقية خردة ماكو طلقات، يكلّفونك مهمّة حراسة. ثلاثة أسابيع يا زينب، ولا أُبالغ حين أقول لم يكف ذهني يحاول اسقاطها من حساب العمر، قرأتُ رواية للكاتب الانجليزي جورج اورويل، كتبها عام 1948، اختار لها عنواناً رقمياً، غيّر رقم العام الى 1984، ضمّنها تصوّره لما سيكون عليه نظام الحكم بعد مرور 36 سنه من زمن الكتابة. جهاز سلطوي مركزي مهيمن على حياة الناس في كل شيء، أنماط رقابة على مدار الساعة، استعانة باجهزة رصد تراقب الفرد حتّى داخل غرفة نومه، ولا تستثني أحلامه، محو الذات لتبدو وكأنّها جماعية، الانسان آلة من لحم ودم، منزوعة الإرادة وقابلية إعمال الذهن، والويل لحالات شاذّة ازمعت التفكير بشكل مستقل. ازعم إنّي أعدتُ قراءة رواية اورويل تلك عمليّاً خلال أسابيع عشتها في معسكر الشعيبة هناك، جهد جسدى مضن لدرجة التداعي إرهاقاً في الفترات الصباحية، وآخر ذهني يهدف لغسيل المخ مع الفترات المسائية، اعتماد مبدأ الشك بالافراد المحيطين، احتمالات وجود مخبر يستدرج لسانك، تفصح عن مكنونات مآلها الندم، الأكراد هم الأكثر عرضة، شيعة الجنوب أيضاً، ادّعي إنّ أباكِ حفظ لسانه لسبب وحيد، يقينيّة مسألة وقت يكون بعدها خارج القطيع، مساء اليوم الحادي والعشرين فوجئت باستدعائي، لزوم مثول عند آمرالمعسكر، مثلتُ. أنتَ موصى بكَ. أنا حالة استعداد. استطرد العميد آمر المعسكر مشيراً لكرسي أمام مكتبه. اجلس. العسكرية طاعة عمياء، جلستُ منتصب الظهر، كلّي آذان صاغية. التوصية من طرف السيّد الرائد خير الله. عيناه تدققان وجهي. للسيد الرائد خيرالله دالّة علينا.

تريّث ذهني عند كلمة دالّة إنْ كانت بديلاً محسّناً للسطوة. يقول أنتَ جامعي بما يلزم منحك رتبة ملازم ثان. تراني أيني من هذا كلّه، سمعته. نحتاج صورة مصدّقة عن شهادتكَ الجامعية نضمّها لملفك. حضرني دولاب ملفاتي، حضرتني أميّ، عصرني ألمي، تنبهتُ لمحدثي يحدّق فيّ منتظراً ردّي. شهادتي ليست معي. لسبب لا أراه وجيهاً أجهدَ السيد العميد آمر معسكر شعبيتهم نفسه يوضّح. الجهة التي وضعتْ اللوائح المنظّمة لتولّي الرتب العسكرية لم تترك ثغرة تسمح باختراقها أو تجاوزها وإلاّ تعرّض أحدهم لمساءلة اجرائية. هل أقول له. أنا غير معني ولن أكون. بما إننا نكنّ للسيّد الرائد خيرالله إعزازاً كبيراً نلجأ لحلّ مؤقّت نتمنّى أنْ يحوز موافقته بعد تفهّمه لسطوة اللوائح على الجميع. الحل المؤقّت يقضي بمنحي رتبة نائب ضابط ريثما استوفي ملفي أنال رتبة ملازم ثان. إضافة لتزويدي بكتاب رسمي موجّه لقيادة الجيش الشعبي في محافظة النداء يشيد بانضباطي خلال فترة التدريب، مع رجاء إبلاغ الرائد خيرالله تحياتهم الحارّة وحرصهم الجمّ على تنفيذ طلباته. مقابلتي للسيد العميد استغرقت عشر دقائق، أمر أحد رجاله بعدها بتسليمي زي نائب ضابط تمييزاً لي عن أفراد متطوعين إضافة لمسدس برونيك، خلال مراسم التسليم تفحّصتُ مشط المسدس، كان خالياً من الطلقات، سألت عريف العهدة. هو من غير عتاد. جهة انتسابك مسؤولة عن تقرير مسألة العتاد. جهة الانتساب قيادة جيش شعبي دوار عظام محافظة نداء، تذكرتُ كلمات المجنّد الكردي الكهل بخصوص منح سلاح بلاعتاد، الثقة مكان آخر، حمّلوني بدلتين انيقتين باشارة دالّة مثبتة فوق الكتف، حذاءً جديداً، حزاماً عريضاً وحمالة مسدس، أنا منسي بن من، نائب ضابط مؤهّل ضابط ملازم ثان، وجّهوني لمبيت ليلتي الأخيرة في إحدى غرف سكن الضباط، صباح اليوم التالي تعرّفتُ على نائب ضابط أخر اسمه مجيد من أهالي منطقة الفضل في بغداد،

فهمتُ إنّه سيكون رفيق رحلتي باتجاه محافظة النداء، يُفترض بنا، هو وأنا، أنْ نحتلّ القمرة الأمامية لسيارة جيب روسية أيضاً، يرافقنا جنود أربعة يشغلون القمرة الخلفية، اثر تسلّمه مفتاح تشغيل محرّك السيّارة همس لي مجيد مدارياً قلقه أو خجله. قبل أخذهم له للتطوع صادف له أخذ بضع ساعات تدريب قيادة سيّارة، لمّا سألوه ما إذا كان يُحسن قيادة السيارة تسرّع أجاب بنعم، واقع الحال هو غير مؤهّل تماماً. قلتُ له. لا تشغل بالك. مقود سيارتهم الروسيّة يحتاج قوة عضلية مضاعفة مقارنة بسيارتي اليابانية الصغيرة، دوي محركها يكاد يصمّ الآذان، لكنّه، بالنسبة لي، يطربني، فارق الآن عن أيام مضتْ، طريق العودة للكويت سالك، ها أنا أقارب أمل الخلاص، لست مخفوراً ولا منصاعاً لأوامر غيري، مع توفّر إمكانية اصداري أوامري لجنود أربعة يجلسون ورائي، ولا اجزم إنْ كانت بنادقهم الرشاشة منزوعة العتاد شأن مسدسي أم لا. الوقتُ صباح مبكر، السماء النوفمبرية زرقاء توشّيها نتف سحب بيضاء، أحراش أشجار الأثل على جانبي الطريق، راع يسوقُ قطيع أغنام يصاحبه كلب نشط الحركة، مهابة جبل سنام آخذة تؤكد حضورها، بعد ربع ساعة نصل مركز سفوان الذي تحوّل من مركز حدودي لنقطة سيطرة، صادفتنا ناقلات جنود آيبة. سألني مجيد. من أين. أجبته. ندائي المولد والنشأة. مجيد ودود، أو هكذا أراد أنْ يبدو، هو لم ير محافظة النداء سابقاً، لكنّه سمع ما مفاده، أراض صحراوية جرداء تماماً غنيّة بالنفط، فيها من خيرات وفرة النفط ما يفيض على حاجة أهلها، قلتُ له. هذا صحيح. سألني إنْ كنتُ امتلكُ سيّارة خاصّة. أملكُ واحدة صغيرة. رقّ صوته. لو توفّر لنا وقت هل أتولى تدريبه على السياقة لبضع ساعات حتّى يحسنها. لكَ ذلك. أطلق زفرة ارتياح. أنتَ انسان شهم. مرتْ لحظات صمت ساد دوي محرك السيّارة خلالها، عاد مجيد سألني إنْ كنتُ متزوّجاً. بلى. سكت وهلة. يقولون لكلّ بيت في محافظة النداء

أكثر من سيّارة. بدءاً تشتتَ ذهني قليلاً ريثما وجّه مجيد سؤالاً مباشراً. زوجتك كما أظن تمتلك سيارة خاصة بها. لم يؤلمني غياب عهود وقتها. سيارتها أجمل وأغلى. استجاب مجيد، قال بمشاركة أقرب للمسارة. الله سبحانه وتعالى مفضّل عليكم. ما الذي أردُّ به، أدار مجيد وجهه نحو جانب الطريق، التقطتْ اذناي صدى زفرة أسيفة، اعقبتها غمغمة حزينة. يلعن الدنيا. صارتْ أحراش الأثل وراءنا، على يمين الطريق بانتْ لعيني مزارع لنبات البرسيم، مساحات أرض منبسطة داكنة الخضرة بدتْ أشبه بطفح مغاير يؤكد وجوده فوق جلد الصحراء بأرضها الرمليّة الممتدة إلى ما وراء الأفق. أسالني لماذا لم أنتبه لمعالم الطريق خلال رحلة الذهاب، ألأني كنتُ وسط حالة ذهول أخذتني منّي، تراني أمتلكُ ثقة بالنفس تمنحني قدرة الفصل بيني أنا منسي الذي كنتُ أعرفه ومنسي آخر يرتدي زيّاً خاكياً يخص نظاماً عسكرياً عراقياً يتحكّم بعجلة قيادة سيّارة جيب روسية. اقتربنا لبعض الأبنية. قالها مجيد مشيراً بذراعه إلى أمام. سفوان. للمكان المسكون وسط الصحراء ألفة طارئة تبعثُ شعوراً باطمئنان قاصر، المدخل عبارة عن كابينة حراسة مهجورة، بيوت صغيرة على الجانبين، طفل حافي القدمين يقود حماراً محملاً بربطات برسيم عملاقة الحجم تخفي جسده ولا يبان منه سوى رأسه والأجزاء السفلى لقوائمه، مررنا أمام مبنى بواجهة زجاجية. دار استراحة سفوان، تريثنا عند نقطة سيطرة، ثّلة جنود مرهقين سرعان ما نصبوا ظهورهم أدّوا تحيتهم. مع اقترابنا لمباني مركز العبدلي واجهتنا لوحة كبيرة تحملُ صورة السيد الرئيس القائد، انتصبتْ عندها لوحة اصغر حجماً كُتب عليها عبدليّة صدّام، اللوحتان لم تكونا سبباً بالانقباض الذي بدأ يعتورني، لكنّه النشاط المفاجئ لأنفي، هاهي رائحة الحديد المشوي تعود تتخلل أنفاسي كما لو إنّها نذير شؤم موقوت، تجاوزنا منشآت مركز العبدلي الفارهة مقارنة بجارتها القريبة سفوان، وهاهي

الطريق المسفلتة العريضة تمتد واثقة من نفسها باتجاه المطلاع، أتلفّتُ الجهات علّني أرى آلية محترقة أو أي جسم معدني مشتعل يؤكد سبب نشاط أنفي، نار شعلات غاز حقل نفط الروضتين ماتزال بعيدة، مسيرة نصف ساعة على الأقل، ولو افترضنا حَمل الهواء لدخان تلك الشعلات، رائحة الغاز المحترق أمر ثان لا علاقة له بالرائحة المتخللة صدري، أتذكّر النشاط النشاز لأنفي قبل نازلة الاحتلال، حدث ما جلل بسبيلي لمواجهته، البعض يمتلك حاسّة سادسة، أنا امتلكُ حاسّة شمّ باعثة على ماذا. متى نصل مقصدنا. سرعة سيارتنا محدودة، نحتاج حوالي ساعتين. خطف مجيد نظرة لساعة معصمه. لن نصل قبل العاشرة والنصف. توارتْ الشمس فجأة، توشّحتْ الأرجاء بلون فضي، كما لو إنّه الفجر العالي، تطلعتُ إلى السماء، سحب رماديّة آخذه تتراكم، تلتحم ببعضها، المطر نادر السقوط في النصف الأول لشهر نوفمبر، أضيء الجوار بالتماعة برق، أعقبه دوي رعد قادم من صوب الكويت.

يا زينب، الكتابة عن الغمّ تغمّ، التذكر زمن نفسي منذور لذاته، ها أنا نهب حالة قنوط ينازعها إحباط بما يجعل مواصلة الكتابة مهمّة عسيرة تعافها الروح، رغم هذا أُجالدني، أُمهّد، أقول، حياتنا عبر امتدادها لا تعدو كونها مشاهد درامية فجّة غير متآلفة، يحكمها نشاز قوامه الصدفة، ولا رابط بين أجزائها المنتهكة سوى نحن، كنتُ أواصل توجيه عجلة قيادة السيارة الجيب الروسية، النائب ضابط مجيد الجالس عندي يلازم صمته محدّقاً في البعيد، الجنود الأربعة المرافقون لنا يخنسون داخل القمرة الخلفية، قصف الرعد باق يتواتر بعيداً حيث مدينة الكويت، في حين انجزتْ الغيوم الرمادية التحامها بها، غطّتْ آفاق السماء كافّة. نهارنا ذاك، حوالي الساعة العاشرة حاذينا مقبرة الصليبخات يميناً، نشط أنفي يشمّ الرائحة إيّاها. رأيتُ عمود دخان يتصاعد نحو السماء، يكوّن سحابة داكنة على شاكلة قمع نبات فطر عملاق، هيأتها ميّزتها عن

الغيوم المتزاحمة فوقها، هو دوار العظام أو جواره، في وقت سابق رأيتُ مثل هذا، أفادني مبارك سويد، تنتج سحابة الفطر عن تفجير سيّارة نقل مقفلة محملة بقناني غاز الطبخ ملغّمة مادّة سي فور بقدرة انفجار هائلة، المقاومة الكويتية تخصص تفخيخ، تفجير استعانة بالريموت كونترول، أصبع مجيد تشير. ما هذا. أظنّه ناتج عمل انتحاري. شحب وجهه. قالوا لنا الأمن مستتب. أو إنّه دخان حادث حريق. دخان الحريق مختلف. لم تواتني فرصة الردّ، تكشّف المشهد أمامنا عن صفّ جنود، مئات، ربمّا آلاف، ينتظمون طوقاً متراصّاً يعزلُ مساحة واسعة تشملُ دوار العظام والأراضي الفضاء المحيطة به، يسدّون منافذ الشوارع المؤدية للدوار، غمغم مجيد مضمّناً توقّعاً جزعاً. حدث أمر خطير. أبطأتُ سرعة السيّارة لدى الاقتراب من طوق الجنود، رفع أحدهم يده يأمرنا بالتوقّف، انصعتُ أوقفتُ السيّارة، حثّ ذاك الجندي خطوه، تطلّع في وجهينا مجيد وأنا، تنبّه لرتبتنا العسكرية، بادر أدّى التحيّة. آسف سيدي ممنوع مرور السيّارات من هنا حتّى إشعار آخر. وجدتني أُمارسُ رتبتي. ممنوع مرور السيّارات المدنية لا العسكرية. كلّ السيّارات سيدي. نحن في مأمورية. نمّتْ نظرات الجندي عن حيرته. انتظر قليلاً سيدي. استدار مهرولاً، اخترقَ الطوق، غاب داخله لثوان، عاد يرافقه رئيس عرفاء، سارع الأخير أدّى تحيّته. حرصاً على سلامتكم سيدي منعنا. قاطعتهُ مشيراً بامتداد ذراعي نحو مباني منشأة الرعاية الاجتماعية بصفتها قيادة الجيش الشعبي. ذاك هو مقصدنا، طبيعة مهمتنا لا تحتمل احتجازنا هنا ساعات. أُسقط في يد رئيس العرفاء. الأمر لكم سيّدي. هرول نحو جنود الطريق، أمرهم أنْ يفسحوا طريقاً لمرورنا، أشار لنا بالتقدّم، وقتها تكشّف دوار العظام عن طوق جنود أصغر يحوّط رقعة أرض ترتفع من وسطها ألسنة نيران باعثة دخاناً أسود كثيفاً، حال اجتيازسيارتنا للفسحة المستحدثة عاد الجنود احكموا اصطفافهم. لعلّها غرائبية الحدث او

كابوسيته لـدى مرافقـي مجيـد بصفته جديداً على المـكان، لعلّه فضوله ينازعه قلقه، إلتفتَ إلي. لحظة أخ منسي. طلب يعني التوقف، انصعتُ له، اقترب رئيس العرفاء مستطلعاً، وجّه مجيد سؤاله مومئاً صوب ألسنة النيران. ماذا حدث. الذي عرفته سيدّي. سيّارة باص مقفلة يقودها أحد المخربيـن توقّفـتْ عند حشـد كبير من الجنـود ينتظرون وصول ناقلات تقلّهـم، قيـل إنّ ذاك المخـرّب ترجّـل من سـيّارته، تبـادل حديثاً خاطفاً مع أحد الجنود، ثمّ ركض مبتعداً قبل انفجار سـيارته. هل ألقيتم عليه القبض. لا، الفوضى المترتبة وكثرة الاشـلاء المتطايرة. غصّ فمه ببقيّة كلماته. فاجأته دموعه، مسح عينيه بباطن كفّه. اعذرني سيّدي. الانفجار والزخم الهائل المصاحب، شـاغلني سـؤالي، لماذا لم اسـمع صداه وأنا داخل السـيّارة، الفضول مدعاة مشـاركة. متى كان التفجير. قبل سـاعة سيّدي. ذراع رئيس العرفاء تشير بالاتجاه. حتّى الآن مازال أفراد الوحدة الطبيّة يجمعون الأشلاء يحاولون تحديد شخصيات القتلى. أزمع مجيد توجيه سؤال ما لكنّه احتفظ به.

وسـط الطـوق الواسـع للعسـكر، عمـود الدخـان يتصاعـد وراءنا، على اليسـار منّا، مرأى النظر منشـأة دار الرعاية الاجتماعية، سـماء دوار العظام تزدحم باللون الرمادي أكثر، الطرف الآخر لطوق الجنود يتراصّ، شدهتنا صيحات جنود الصف الماثل أمامنا بعدما استداروا فجأة مولين ظهورهـم إلينـا. قفـوا مكانكـم وإلاّ اطلقنـا النار. صيحات آمـرة متوترة مشـحونة خوفـاً، المقصـودون بالصـراخ كانـوا خارج الطـوق، الحدث، مفاجأته لنا، عدوى الإحسـاس بالخوف، دخان إنفجار سـيارة مقفلة ما زال يتصاعد، أوقفتُ السيارة، التريّث حال ملزمة ريثما ينجلي الموقف ما وراء الطوق، هدأت صيحات الجنود قبل أنْ يرفع واحد منهم صوته سائلاً. ما الذي تحملونه في صندوقكم. انبرى جندي آخر مجتهداً. ربّما شحنة متفجرات. ساد صمت مشحون بالترقب أعقبه تساؤل صادر عن

رجل كويتي. خير يا جماعة. صفّ الجنود يحجب رؤيتي لصاحب الصوت، لكنّي ميّزته، ليس سوى مبارك سويّد، تدفقتْ دمائي لرأسي، ما الذي جاء به في هذا الظرف، هوّمتُ أو أوشكتُ، الأشياء المحيطة بي ماعادت ثابتة في أماكنها، تناهى لسمعي صوت كويتي ثان يهدف لأنْ يوضّح للمجموع المستنفر. هذا تابوت يا اخوانّا. تسارع وجيب قلبي، هو سليمان الياسين، كيف للاثنين مبارك سويد وسليمان الياسين أنْ يتواجدا هنا معاً والتابوت لمن. أذهبُ لأرى. قلتها لمرافقي مجيد صيغة قرار، فتحتُ باب الروسيّة، استمهلني سؤاله الحامل قلقه. إلى أين. حضرني ردّي وأنا أشير لما وراء طوق الجنود. أخواني هناك. اسمعه لا يداري ذهوله. أخوانك. اكتفيتُ بايماءة رأس، ترجّلتُ، ترجّل مجيد. الدقائق القليلة التي تلتْ شكلتْ لنفسها كياناً نوعياً قائماً لذاته، كأنْ لاعلاقة له بزمن ماض أو آخر آت، كنّا مجيد وأنا نحثّ خطونا نحو طوق الجنود، سبقنا رئيس العرفاء إيّاه مهرولاً بالإتجاه، أراه يشق طريقه خلل زحمة جنوده، أسمعهُ يطلق سؤالاً مستنكراً. ماذا يحدث. يجيبه جنود عديدون في وقت واحد مما يُحيل أصواتهم لغطاً مبهماً، استطعت تمييز تعبير، هذه السيّارة، أصلُ عند صفّ الجنود المولين ظهورهم، أتردد بالنفاذ من وسطهم، ما الذي ستكون عليه ردود افعال سليمان الياسين ومبارك سويّد لدى رؤيتهما لي بالزي العسكري العائد لجيش الاحتلال. طريق. رددها مجيد آمرة، تباعد الجنود قليلاً محدثين فجوة تكفي لمرورنا، ولا مناص من، خطوتُ يرافقني مجيد، المشهد المتكشف أمامي، شاحنة صغيرة تحملُ على سطيحتها تابوتاً دون غطاء بما يُظهر لفيفة الكفن الأبيض، رأيتُ كّلاً من مبارك سويّد وسليمان الياسين يقفان إلى جانب الشاحنة شاهرين أذرعهما أعلى، الجنود يشكّلون طوقاً مبعدة عشرة أمتار، فوّهات بنادقهم الرشاشة موجّهة كلّها صوب الإثنين، الموتُ في اللحظة ولا العار، ذاك ما تمنيته، مبارك سويّد

تنبّه لوجودي أوّلاً، عيناه اتسعتا باستغرابه قبل أنْ تنمّا عن إحتقار لا حدود له، ذراعاه مازالتا مرفوعتين، بحركة هيّنة من رأسه لفتَ اهتمام سليمان الياسين لوجودي، واجهتني عينا الأخير بكم الاستغراب ذاته، سمعته ينطق إسمي كمن يرى شبحاً، أنا هنا الآن، هما هنا الآن، ذراعان مرفوعتان، خطوتُ، لاحقني صوتُ رئيس العرفاء راجياً. حاذرْ سيّدي. اقتربتُ، هل انفرج فم مبارك سويّد عن ابتسامة استهجان أواشمئزاز وهو يشملُ هيأتي العسكرية بنظرته، ينطق كلمته بصوت خفيض. مبروك الرتبة. الحال الراهنة، الموقف المشتبك لدرجة الانصياع صمتاً، تطلّعتُ لوجه سليمان الياسين، نظرة استغرابه آلت زجاجية لا دلالة لها سوى إنّي ماذا، أيني من هذا كلّه، ذهني يعجز عن استيعاب أصوات آخرين، زحمة الجنود، رئيس عرفائهم، وكذلك مرافقي مجيد، وسط انشداهي سمعت أحد الجنود رافعاً صوته متسائلاً. ما ادراكم إنّ التابوتَ تابوت فعلاً وإنّه لايحوي شحنة ديناميت معدّة لتنفجر. سرتْ همهمات قلق وسط حشدهم، تراجع بعضهم خطوات احترازية، سمعتُ صوتاً جهورياً دالاً على سطوة صاحبه. طريق. أحدث الجنود فسحة محددة تسمح باختراق أحدهم، خيمّ الصمت على الجميع، الشخص الذي وصل لتوّه ضابط قوات خاصّة رتبة نقيب، هرع إليه رئيس العرفاء، لحق به مجيد، أدّيا تحيّتهما. ما هذه الجمهرة. تصدّى رئيس العرفاء للرد. الجنود يجزمون بوجود شحنة مُعدّة للتفجير داخل ذلك التابوت. شملنا النقيب، مبارك سويد وسليمان وأنا إضافة لتابوت السطيحة بنظرة متفحّصة. من هم الجنود الذين يجزمون بوجود متفجّرات داخل التابوت. سكت الجميع، وجد مجيد فرصته لأنْ يتدخّل. صاحبا هذه الشاحنة هُما أخوا النائب ضابط الواقف عندهما سيّدي. حدّق فيه النقيب. هل تعرفه شخصياً. وصلنا أنا وهو لتوّنا قادمين من دورة في معسكر الشعيبة. تذكر أضاف. سيّدي. تذكر أضاف. اسمه منسي سيّدي وهو من أهالي محافظة النداء

هنا. رفع نقيب قوّات خاصة صوته. تعال اخ منسـي. العسـكرية طاعة، قدماي سـبقتا تفكيري اسـرعتا بالاتجاه، أدّتا التحيّة. أمرك سـيّدي. أومأ النقيب صوب مبارك سـويّد وسـليمان الياسـين. هل هما أخواك فعلاً. نعم سـيّدي. وما دار في خلدي أنّهما غير، وما سـألتني، ماذا لو طلب النقيب الاطلاع على هويّاتهما، سـمعته يسـأل. ماذا في داخل التابوت. لـم أتـردد إجابتي. جثمان سـيّدي. من هو الموحـوم. مادتْ أرضي بي. لا أعـرف سـيدي. اسـتدركتُ. لـم تسـنح لـي فرصة سـؤالهما سـيّدي. اسـتدركتُ. تفاجأتُ بوجودهما هنا. هل أنتَ كويتي. أحسسـته رغم لا عقلانية الموقف لامس جرحاً قديماً جديداً. أنا ندائي سـيّدي. انفرجتْ زاوية فمه بابتسامة رضا محدود أو مفارقة مضمّنة. إذا لم تمانع. اشتراطه يعنـي اسـتماحته، ابقـى جملته مفتوحـة، تابع. نريد نفي الشـك باليقين. ابقـى جملتـه مفتوحـة، تابع. اطلب من أخويك إزاحة الكفن عن جثمان المرحوم. الإجابة الجاهزة. أمرك سيّدي.

زينب، لو إنّكِ صادفتِ الموقف إيّاه، أدريه حكم استحالة، لكنّي من هدأة ليل السالمية زمن الكتابة الآن اسألكِ ضَعي نفسكِ مكاني ومنْ ثمّ اعملي ذهنكِ ماذا سيكون عليه تصرّفكِ إزاء فوضى حالة قدرية خارج توقّعاتكِ. أنا منسي بن من، سيّان، منسي كاتب عمود في جريدة السياسة، أشبه بمدير شركة انتاج فني أو مسؤول تسويق ماذا، مع هذا كلّه أنا زوج عهود نسيب سعود، بعيداً عن عشرة أيام مخفر نقرة، بعيداً عن ثلاثة أسابيع تدريب شعبية عراقية، أبوكِ الذي كان يتحين أيّما سانحة لكي يفرّ من جيش شعبي قهري، يرتدي حلّة نائب ضابط احتلال، أمرك سيّدي، يواجه أعزّ صديقين إلى قلبه أو عقله، هما كويتيان، وهو أمرك سيّدي، طوق الجنود، سطيحة الشاحنة الصغيرة، تابوت بدون غطاء، طرف الكفن الأبيض بادٍ للعيان، الجنود يجزمون إنّها متفجرّات، عسكر الاحتلال لا يأمن جانب من، مبارك سويّد وسليمان الياسين يقفان شاهرين أذرعهما أعلاها، عشرات فوهات بنادق كلاشنكوف روسيّة موجّهة لصدريهما، عيونهما تطفح بالإحتقار لي، لعلّهما يلعنان زمن الصحبة، لعل أباكِ، وسط راهنيّته، يحذو احتلاليين تضيق بهم الكويت، يلعن دنيا، الأمر الصادر من السيّد نقيب قوّات خاصة. اطلب من أخويك. ولا خلاص الاّ بكشف جثّة المرحوم. أمرك سيّدي. استدرتُ حاثاً خطواتي التي آلتْ عسكرية نحو الإثنين، لا ادري علام اخترتُ مبارك سويّد، ربّما لأنّه جُهد التكليف بمسؤولية إعاشة عشر عوائل لؤلؤة مَنْ، وقفتُ أمامه، عيناه في عيني، احتقاره شأن اشمئزازه، اجزمُ إنّه سمع كلمات نقيب قوّات خاصّتهم، وإنّ المطلوب هو، مبارك سويّد ابقى عينيه عمق عيني كمن يسأل بنعم، أُلمُّ شتات

كلماتي، ولا تلتمّ، لم أجد سوى كلمة. الكفن. أحسسته يحدجني نظرة شامتة، قال. لو تسمح لي أنزل يدي. الصوتُ هو، بينما نبرة الاستهانة المشبعة امتهاناً، أكاد لا أعرفه، لم يطرأ لي أستأذن نقيبهم، أومأتُ له موافقاً، أرخى ذراعيه، سليمان الياسين لم. تريد منّي إزاحة الكفن عن الجثمان. أومأت له موافقاً. ما دامت رغبتك. الصوت هو، بينما نبرة اللامبالاة المشبعة تخلّياً، أكاد لا أعرفه، إقتربَ للتابوت، بدأ يفكُّ عقدة الكفن عند الرأس. أخالني أسمع طنين الصمت المخيّم على الجميع، أصوات أخرى تتواتر خارج الطوق بَدتْ وكأنّها قادمة من مكان ناءٍ، عيون الجميع مصوّبة على مبارك سويّد، كفّ عن فكّ عقدة الكفن فجأة، قال. تعال ساعَدني. الصوت هو، بينما نبرة السخرية مشبعة ماذا، سمعتُ سليمان الياسين يردد إسم مبارك صيغة تحذير، في حين بقي مبارك سويّد يتطلّع فيّ ينتظر مبادرتي أو رفضي، خطفتُ نظرة للسيد نقيب قوّات، رأيت حاجبيه معقودين استنكاراً أو توقّعاً لحدث ما، رأيته يومىء برأسه لي أنْ أفعل، اقتربتُ للتابوت، اتسعَ طوق الجنود، تراجع الجميع خطوات، وحده مجيد لازم مكانه، مبارك سويّد أبعد يديه عن عقدة الكفن، أكاد أجزم إنّه غمغم. أنتَ أحقّ. بدأتْ سماء دوار العظام تنثُّ حبّات مطر ناعم، أنفي يشمّ الرائحة المستوفزة إيّاها مكثّفة أكثر، أمدّ يدي لقماش الكفن، أكملُ ما بدأهُ مبارك سويد، أزيح القماش عن رأس الجثمان، أرى وجه أمّي.

يا زينب، لا أحد معصوم من الإنهيار إنفعالاً حتّى وإنْ كان لابساً زيّ نائب ضابط جيش احتلال شعبي. الذي حدث معي، مفاجأة مواجهة أمّي لي في ظرف خارج الحساب الاعتيادي أو غير الاعتيادي لزمن معاش، أنا منسي بدون أم، أمام عيني وجه غادرته الدماء، أحالته أبيض شاحباً خالياً من تجاعيده، الأنّه الموت المطمئن، فمها، كما خُيل لي، مزموم على بقايا إبتسامة ما، هل أرادتْ مكاشفتي، واصل حياتكَ أنا

بخير، تساؤلاتي أو استنتاجاتي هذه وردتْ ذهني بعد أيام من واقعة إزاحة الكفن، ما حدث لحظة الكشف إنّي صرختُ متفاجئاً مفجوعاً، أميّ، ثمّ ارتميتُ فوق تابوتها منتحباً، كذب من قال، الرجال لا يبكون علناً، ما تلا ذلك أكتبه عجالة، ساد الصمتُ الطوق، كنتُ أسمعُ صوت نحيبي لا غير، اظنّه مبارك سويّد ردد. لا حول ولا قوّة إلاّ بالله. سليمان الياسين لم ينبس، الكلّ في البدء، لازم مكانه، عدا رفيق سيّارة الجيب مجيد، أسرع إلي، حوّطتْ ذراعه كتفي. قُل لا إله إلاّ الله. فاجأني اقتراب السيد نقيب قوّات، لامس رأسي بأصابع يده. البقيّة بحياتك. فوهات البنادق ما عادت مُشهرة، سليمان الياسين أرخى ذراعيه، رئيس العرفاء انتظر ابتعاد النقيب، اقترب، سحبَ يدي إليه، شدّ على كفّي. البقيّة بحياتك. جنود الطوق انتظموا صفّاً طويلاً، بدايته عندي. شدّ حيلك سيّدي. الموتُ حق. رحم الله المتوفّاة وأسكنها فسيح جنّاته. مجيد لم يرفع ذراعه عن كتفي، بعد لأي انفضّ الجمع، بقيت الشاحنة الصغيرة وسط أرض فراغ، مرارة الفقدان باقية تتكاثف داخل الصدر، نثيث مطر نوفمبر باق يبلل الأشياء، يبلل وجه أميّ أيضاً. هل ستذهبون بجثمان المرحومة لمقبرة النجف. وجّه مجيد سؤاله لأي من الاثنين، مبارك سويّد أو سليمان الياسين. أجابه الأخير مشيراً. نحن ندفن موتانا في مقبرة صليبيخات، هناك. سكتَ مجيد مفكراً برهة، وجهّ كلامه لأيّ من الاثنين. لابدُّ له أنْ يحضر مراسم دفن المرحومة والدته. كنتُ وسط انتحابي، أغلبُ الظن إن أيّاً من الاثنين أومأ برأسه دلالة الموافقة، رفع مجيد ذراعه المحوّطة لكتفي، شدّ على يدي قوياً. إذهب مع اخويك. عاد أكّد. اذهب الآن. الكلمة الفعل الأمر إذهب تُضمر استطراداً مفاده. ولا تعدُ. جلس سليمان الياسين وراء مقود الشاحنة الصغيرة، فتح مبارك سويّد بابها الثاني، راودتني فكرة إرتقاء السطحية إلى جانب تابوت أميّ، بلغني صوت مبارك سويد. تعال هنا. ركبَ، أفسحَ مكاناً لجلوسي،

طوال طريقنا نحو المقبرة لازمنا ثلاثتنا صمتنا، السماء أوقفتْ نثيثها رغم ازدياد زحمة غيومها، لون فضي منطفي يعم المّوجودات المبللة، بدلاَمن أنْ أُرافق أمي إلى المستشفي الصدري. يا أمي، وأنتِ على سطيحة الشاحنة الصغيرة، عهود لم تألُ جهدها ابدتْ قصارى إمتنانها إستعانة بأخيها سعود. تواجهنا البوّابة العملاقة لمقبرة صليبيخات، فضاء ما وراء البوابة يترامى بعيداً تتخلله أشجار أثل ما زالت أوراقها الوبرية تتشبّث بحبيبات المطر. الموتى، وحدهم، ينعمون بالسلام الأبدي، هنا في هذا المكان يتساوى الكويتي بالغير، ولا يحتاج الأخير وثائق ثبوتية أو جواز سفر يؤمن عبوره نحو البرزخ، اجتزنا البوّابة، توقّف سليمان الياسين بالسيارة وسط ساحة صغيرة مسفلتة، الهدوء والصمت، ولا صوت سوىِ دويِ محرّك شاحنتنا الصغيرة، تطلّع مبارك سويّد للجوار، قال محبطاً. لا وجود للعاملين بدفن الموتى. بادره سليمان الياسين متخذاً قراره. نحن نتولّى. أزمع يتحرّك بالشاحنة صوب قبور محفورة حديثاً عند الطرف الأقرب لسقيفة المعزّين لحظة ظهور شاب مصري صعيدي من مبنى صغير إلى يسار البوّابة. السلام عليكم. رددها الشاب سارع أضاف. تقبّل الله سبحانه وتعالى فقيدكم بفسيح جنّاته. وحدك. سأله مبارك سويّد. أجاب. الحمد لله. حانتْ عنه نظرة للتابوت فوق السطيحة. الجثمان لرجل أم لا إمرأة. لم ينتظر ردّاً استطرد. إنْ كانت امرأة أوطفلة يتوجّب عليكم إحضار إمرأة لاداء مهمّة الغسيل. الجثمان لامرأة عجوز. قال سليمان الياسين، تابع. احتطنا للأمر قبل مجيئناهنا، انهينا عملية الغسيل في مسجد العثمان. تدخلّ مبارك سويّد. وصلّينا على الجنازة أيضاً. أسمعهم يتحدّثون عن جثمان أمّي، أسمعهم وأنا في الغياب، كأن لاعلاقة لي بما دار سابقاً، أو بالذي يدور الآن، شيء ما فائض حاجة أنا، لولا مصادفة التفجير ودوار العظام لما، سمعتُ الشاب الصعيدي. على بركة الله. سمعته يستطرد وهو يشير نحو القبور المعدّة

للدفـن. نذهـب لهناك. إهتز بدن الشـاحنة الصغيرة لدى ارتقائه السـريع لسطيحتها. عند انزال جثمانها من سطيحة الشاحنة بادر سليمان الياسين أعاد ربط طرف الكفن ما وراء الرأس. أمّي. أُعاتبها بمرارة علّها تسمع. لماذا التخلّي في الأبعد عن احتمالات التصديق أو قبول التعايش، تراكِ اخترتِ السبيل الأسهل، تواريت عمداً، هكذا وإلى الأبد، أم إنّكِ فارقتِ تعباً، زهداً بحياة على الهامش، لتحلّ طامّة الاحتلال تحكم عقدة الحبل، أسـألكِ بخصـوص الفـارق النوعـي بيـن اختيار الموت مرضـاً واختياره انتحاراً، أنا الحي المتبقّي الذي لاخيار أمامه غير أنْ يواصل الحياة عند الهامـش أو فيـه. لا إلـه إلاّ اللـه. أُسـايرهم بقدميـن متعثرتيـن، الحـذاء العسـكري الثقيـل ورؤيـاي المضببـة، هو دفق الدمـوع لا يزمع التوقّف، توقّف موكبنا عند أوّل القبور الفاغرة، سَجّوا جثمانكِ ازاء حافته، هبط الشاب الصعيدي داخل القبر، وسّد الأرض التي آلتْ طينية جرّاء نثيث المطر، أومأ سـليمان الياسـين برأسـه للحفرة الفاغرة قال موجهاً حديثه لـي. انـزل لكـي تسـتقبل جثمان المرحومـة أمّك. أضاف كلمتين سـبق لمبارك سـويّد أسـمعني إيّاهما وهو يوليني مسـؤولية إماطة الكفن عن وجهـكِ. أنـتَ أحـقّ. أسـتجيبُ، أنزلُ محـاذراً، قاع القبـر أرض رخوة، الحذاء العسكري يدكّ يخلف آثاراً برائحة الغدر، استميحك العذر أميّ، مـا كان فـي بالـي أُدنّـس مقامـكِ الأخيـر، أشـار مبارك سـويّد للشـاب الصعيدي أنّ يخرج من حفرة القبر، نزلَ وقفَ إلى جانبي. لكِ الرحمة والغفـران. تلقينـا، مبـارك سـويّد وأنا، جثمانكِ، أحسسـته خفيف الوزن لدرجـة الدهشـة، أتذكرنـي فارقتـكِ يوم سـابع أكتوبر، هل يهزلُ جسـد الانسـان، يفقدُ جُلّ وزنه خلال شـهر ويومين، سـماء مقبرة صليبيخات، ربّما سماء الكويت كلّها، باقية مُدلهمة بسحب رماديّة دانية، التمع البرق، تبعه قصف رعد عنيف تجاوبت الأرجاء البعيدة بصداه، توارى جثمانكِ، كنّا أوشكنا ننهي ردم حفرة القبر عندما هطل المطر غزيراً، أبدى الشاب

الصعيدي ملاحظة مفادها، تساقط المطر خلال ساعة الدفن يؤكّد كرامة المتوفي، يَجلدُ المطر سقيفة المعزين يُحدثُ صوتاً معدنياً متواتراً، وقفنا هناك مبللين تماماً، فاجأني سليمان الياسين فتح ذراعيه. البقية بحياتك يا منسي. أخذني لصدره، الزي العسكري لم يقف حائلاً، مبارك سويّد شرّع ذراعيه أيضاً، الشاب الصعيدي انتظر دوره، شد على يدي، أخذه سليمان الياسين جانباً، أظنّه منحه ما تيسّر. بقينا واقفين تحت السقيفة منتظرين توقّف المطر، قبل مغادرته مهّد الشاب الصعيدي لاشباع فضوله. خطف نظرة للزي العسكري الذي ارتديه. لا مؤاخذة. رددها منحى استماحة. واضح انكم كوايته، بس الأخ الضابط. قاطعه مبارك سويّد على طريقته. زي ما ربّنا عاوز. إنفرج فم الشاب الصعيدي عن ابتسامة حائرة يغالبها شعور بالاحراج. سلام عليكو. انفلتَ بعدها مهرولاً تحت وابل المطر. سادتْ لحظات صمت بيننا نحن الثلاثة، انهاها سليمان الياسين. يقول لنا الفلكي العجيري إذا أمطرت سماء الكويت في شهر نوفمبر أكرمتنا الصحراء بالفقع. إلتفت إليه مبارك سويّد. متى قالها العجيري. أظنّه قالها أو يتوجّب عليه قولها، وإلاّ من أين سمعتها. عقد مبارك سويّد حاجبيه محدّقاً في وجهه، خلته بصدد إطلاق كلمة نابية، لكنّه لم، لعلّها مناسبة المقبرة والدفن، تداعى ذهني يستحضر لقاءات ثنائية أوثلاثية، مناكفات الأصدقاء بعضهم البعض، هنا أنا، هما هنّا، أحسستُ ببدلتي العسكرية آخذة تضيق عليّ، تكتمُ أنفاسي، قدماي تعانيان ثقلاً بحجم الضمير الممتهن، بدأتُ بالحذاء، تخلّصتُ منه، تنفّستْ قدماي صعداءهما، انشغلتُ أفكّ أزرار القميص، وصلني صوت مبارك سويّد. ماذا تفعل. وصلني صوت سليمان الياسين يؤنّب الآخر. لاتتدخّل. تخفف المطر من شدّته، تحوّل رذاذاً ناعماً، لم تراودني فكرة استشارة إيّ من الإثنين مبارك سويّد أو سليمان الياسين، كنّا ما نزال واقفين تحت سقيفة المعزّين، تلفتُّ الجهات، المقبرة

المتراميـة مقفـرة باسـتثناء الشـاب الصعيـدي الذي اختفـى داخل غرفته الكائنة عند البوّابة، غادرتُ السقيفة سالكاً ممراً ضيقاً بين القبور، حاضناً مُقتنياتـي العسـكريّة، البدلـة، البيرية، الحذاء، الحزام بما فيه المسـدس، الشـتاء ببرده القارس لم يحلّ بعد، لكنّ الرياح الهيّنة غبّ المطر تبعثُ القشـعريرة فـي جسـدي العاري إلاّ من ثيابـي الداخليّة، حاذرتُ انزلاق قدميّ الحافيتين فوق الأرض الطينية، هاجسي الأوّل والأخير أن اتخلّص مـن آثـار نائـب ضابـط جيـش احتـلال شـعبي، عانيـتُ وقتهـا هاجـس الارتكاب، كنتُ كمن يهدف للتخلّص من أداة الجريمة، عيناي تترصّدان المساحة الأقرب إليّ بحثاً عن حفرة لا تطالها الأعين أدفن فيها متعلقات تُثقل روحي، مبارك سـويّد وسـليمان الياسـين نهضا بأعباء دفن أميّ، أنا مسـؤول أدفـن صفـة أُلحقتْ بـي غصباً. تتبعّتُ مجرى رفيعـاً لبقايا مياه الأمطار، قادني لقبر قديم هبطت به أرضه، أحدث حفرة مناسبة، بدأتُ بالحـذاء، دفعتـه نحـو عمـق الحفـرة، الثياب بعده، حلّ دور المسـدس، خضّني صوت مبارك سـويّد ممتعضاً. ماذا تفعل. إلتفتُّ، رأيتُ الإثنين واقفين خلفي، كيف لم أتنبّه لملاحقتهما لي، قلتُ مشيراً بالحديد الباقي بين يدي. أدفنه. أبدى سليمان الياسين استغرابه. تدفن سلاحك. أردتُ التوضيح. أحاول التخلص من كلّ الذي يمتّ لهم بصلة. نهرني مبارك سـويّد. هـذا المسـدس صناعـة ألمانية لا تمتُّ لهـم. إجابته المفارقة لم تردعني عن محاججته. هو قطعة حديد من غير طلقات. لدى المقاومة وفر طلقات. لأنّه لا مناص سـلّمتُ المسـدس لمبارك سـويّد، انحنيتُ، أعملـتُ أصابـع يدي فـي الأرض الطينية، دفنتُ فوهة الحفرة، خطر لي إنّ أحدهمـا، مـن بـاب النكايـة بـي، يبادر يقول، الفاتحة، مشـينا صوب شـاحنتنا الصغيرة، ركـب سـليمان الياسـين وراء المقود، حشـرني مبارك سويّد في الوسط وهو يبدي وجهة نظره لسليمان الياسين. إذا اصطحبناه معنا بملابسه الداخليّة لفتنا إلينا اهتمام جنود نقاط السيطرة. لن نصطحبه

معنا بملابسه الداخليّة. كيف نعالج ذلك. طوّل بالك. عصف بي جزعي، أنا الطارئ عليهما، تجشّما مشقّة جثمان أميّ وهاهما يتجشّمان مشقّتي، مشى سليمان الياسين بالشاحنة تجاه البوابة، توقّف بها قيد أمتار من باب غرفة الصعيدي، ابقى محرّكها دائراً، فتح بابه، ترجّل، حثّ خطوه نحو باب غرفة الصعيدي، غاب برهة، عاد حاملاً ثوباً صعيدياً. يا زينب، مرّة ثالثة، ربّما رابعة، استعيرُ مقولة أمّكِ عهود. صدّقي أو لا تصدّقي، أبوكِ، رغم مرور عشرين سنة على واقعة مقبرة صليبيخات مازال يحتفظ بالثوب الصعيدي إيّاه، أتذكّر تفاصيلي لحظتها. سلّمني سليمان الياسين الثوب. خذُ إلبس. التفتَ لمبارك سويّد. مددتُ يدي لصاحبنا الصعيدي بخمسة دنانير ثمناً لثوبه، رفض تسلّمها. ما يصحش يابيه، كلّنا إخوات، ربنا ينتقم من المجرم. سادت لحظة صمت، قال مبارك سويد. يجب أنْ لا نسلك الطريق التي تمرّ بدوارالعظام. سلكنا طريقاً فرعية تخترق المقبرة، غادرناها من بوابتها الغربية، بدا الجوار خالياً من العسكر، تفحّص مبارك سويّد المسدس، وَزَنَهُ وسط كفّه، ابدى رضاه. سلاح محترم. إنبرى سليمان الياسين. القاضي صلاح الفهد غاوي مسدسات. سارع مبارك سويد دفع المسدس لي. أنتَ تقدمهُ لصلاح الفهد. إرتبكتُ من داخلي، عساهما لا يأخذاني للمعني لابساً ثوباً صعيدياً فضفاضاً ذا فتحة صدر عريضة من غير أزرار، نازعتني حيّرتي تجاه المسدس، ماذا لو صادفتنا نقاط السيطرة، هل ادركَ مبارك سويّد ما جال في رأسي. لا مبرر للخوف، ضع المسدس تحت المقعد. واصلنا سيرنا ريثما بلغنا طريق الدائري الخامس، عادتْ سماء الكويت امطرت غزيراً، جنود نقاط السيطرات آثروا الاحتماء عند مداخل خيمهم، باقترابنا لهم يرفع سليمان الياسين صوته. حيّا الله النشامى. يشير له أحد الجنود أن يتابع سيره، أجلس بينهما، ماسحتا الزجاج الأمامي تتواتران حركتهما، صوتُ محرّك شاحنتنا الصغيرة لا ينافس دوي محرّك الجيب الروسيّة، إنقلاب الحال

مـن إلـى، بعـد غياب شـهر عـن أميّ هي ميّتـة، ينقبض صـدري، مقبرة صليبيخات أبعد ما يكون الآن، أميّ هناك، الذكرى تتناءى، مرارة الفقدان كيف، قال مبارك سـويّد. عسـكر الاحتلال يعرف بيته لا يمكننا أخذه إليه، أغلب الظن إن جماعته العسـكر بدأوا يفتقدونه، سـيجنّدون اسـتخباراتهم للبحث، يعممون إسـمه على مراكزهم ونقاط سـيطراتهم. المعنـي بضميرالغائـب أنـا. بيتي في منطقة صباح السـالم، المكان آمن. أعرف مكاناً أكثر أماناً. أشار مبارك سويّد لامتداد الطريق. خُذنا لمنطقة السالمية. السالمية مزحومة بعساكرهم. أنامسؤول عنه.

للذاكرة نهجها الانتقائي المزاجي في الوقت ذاته، تراها في بعض الأحيان تعمل على هواها دون الرجوع لإرادة صاحبها، تُصنّف الحوادث التـي يمـرّ بهـا الفرد، لتبعثها حيّة مُرفقة مشـاعر تليق بها، تجهد باختزال تفاصيـل ماهـو مريـر، تُفقدهُ مع مرور الأيام ألوانه، هادفة لمواراته داخل أغوارهـا السـحيقة، والعكـس تجـاه ماهو جميل، بعـد مرورعقدين على اشغالي بيتاً مهجوراً اختاره مبارك سويّد في منطقة السـالمية أستعيدُ أيام ذاك البيـت، تحضرنـي شـفيفة ناصعـة الألوان متخمـة تفاصيل يهفو لها القلب، يومنا ذاك، بقيتْ سماء الكويت مزحومة سُحباً رماديّة منخفضة في حين كفّ المطر، أجلس محاصراً بين مبارك سويّد وسليمان الياسين، ثوبي الصعيدي يتهدّل عند الكتفين، كمّاه الواسـعان، طفق مبارك سـويد يوجّه سليمان الياسين يدلّه على الطريق الواجب سلوكها، دخلنا منطقة السـالمية عبر شـارع جانبي للدائري الرابع، انعطفنا يميناً، سـرنا محاذاة شـارع الاسـتقلال، ريثمـا بلغنـا حيّاً هادئاً بدا مقفراً. هنـا. اطلقها مبارك سـويّد، توقّفتْ شـاحنتنا ازاء بوّابة حديدية تعترض سوراً بارتفاع مترين. ترجّل مبارك سويّد، عالج قفل البوّابة الحديدية، سمعت صرير مفاصلها وهو يدفعُ بابها جانباً مُحدثاً فسـحة تكفي مرور الشـاحنة، دخلنا، أطبق مبارك سـويّد بوّابته، وجدتني وسـط حديقة داخلية واسـعة. هذا البيت

يعود لأحد أبناء عمومتي. قال مبارك سويّد. تابع. يُدعى مبارك أيضاً، يتواجد الآن لاجئاً هو وعائلته في دبي. تطلّعتُ حولي، حديقة المنزل بنخلتين سامقتين وارفتي السعف زرعتا على الجانبين، تتوسطهما شجرة يوكالبتوس معمرّة مغسولة الأوراق بعد المطر، شجيرات أخرى يابسة، أو آخذة طريقها لليباس جراء طول الاهمال. هذا بيتك لحين زوال الاحتلال. منحني صوت مبارك سويّد الواثق أملاً كنتُ أحتاجه، أسرعَ عالج باب المنيوم يؤدّي لداخل المنزل، اختفى دقيقة، عاد حاملاً مقعدين بلاستيكيين. إجلسْ. استجبتُ لأحد المقعدين، كنتُ احتاج راحة مفترضة، بادر احتلّ الثاني، وجّه حديثه لسليمان الياسين كمن يُخلي طرفه. هناك مقعد ثالث داخل المنزل. تناهى لأسماعنا نداء اذان العصر، كنّا ثلاثتنا جالسين وسط حديقة البيت، فروع شجرة اليوكالبتس تشتبك بسعف النخلتين فوقنا، تتخللها أشعة الشمس اثر انقشاع الغيوم، الرياح طريّة بلسعة برودة منعشة، رويتُ لهما باختصار ممكن خبرة أسابيعي الأخيرة، مصادرتي من ساحة البناية تحت أنظار أميّ وحضور سعود، مصادفتي له في مكتب الضابط عقيد ركن مشاة فاروق، إطلاع الأخير لي على إفادة سعود، اقتراحه أن أتطوّع أنضمّ للجيش الشعبي نكاية برائد استخبارات. قاطعني مبارك سويّد ضاحكاً. أو نكاية بسعود الذي احتجزوه أسبوعين كاملين، قبل أنْ يشتري اطلاق سراحه لقاء خمسة آلاف دينار إضافة لاختفاء سيارته من ساحة المخفر. حدّثتهما عن ترحيلي إلى دار الرعاية الاجتماعية حيث قيادة الجيش الشعبي، ترحيلي من ثمّ لمعسكر تدريب شعبية عراقية، ثلاثة أسابيع انتهت بلقاء منح رتبة نائب ضابط، وها أنا اليوم. لا نقول نحن اسأنا الظن بك. سليمان الياسين يتحدّث بضميرالجمع. عودة ليوم سابع اكتوبر، بناءً على مكالمة منه، أومأ نحو مبارك سويّد. لازمتُ بيتي انتظاراً لمجيئكما أنتَ والمرحومة والدتك، طال انتظاري، تجاوز ساعتين، بادرتُ هاتفه،

أقلقني رد فعله. هل سبقنا سعود نفّذ وعيده. إنتظر مكالمة منّي خلال نصف ساعة. سباق مع الوقت. انبرى مبارك سويّد تسلّم زمام روي حدثٍ، لعب فيه الهاتف دوراً أساسياً، أجرى إتصالاً بصديق فلسطيني يشغل شقّة من مبنى يواجه الملحق، سأله إن كان رأى أو عرف، الأخير رأى الجيب العسكرية، رأى جنود الاحتلال وهم يأخذون المدعو لجهة مجهولة، الأمور بالوضوح اللازم لاتخاذ اجراءات احترازية، عاد مبارك سويّد هاتف سليمان الياسين، مطلوب منك اخلاء سكنك فوراً، ابحث لنفسك عن مكان لا يستدل عليه منسي، هاتف القاضي صلاح الفهد، حدث ما لم يكن بالحسبان، الرجاء تغيير السكن فوراً، كذلك مجمّع لؤلؤة المرزوق السكني، الصديق طالب الشوا، العوائل الأجنبية العشر، جرتْ المخاطرة بنقلهم لمبنى آخر وراء شارع البلاجات. أنا انتقلت للسكن مع نسيبي في منطقة بيان. قالها مبارك سويّد وما خطر لي أن أعقّب حول ركون الواحد لنسيبه، خشيتهم حينه، اخضاعي من قبل أجهزة استخبارات الاحتلال لاستجواب يقترن بانتزاع قسري للمعلومات، التعذيب، مشارفة الموت، احتمال الانهيار، ذكر أسماء وعناوين، ولامجال للتردد ازاء خطر محدق. أنت نفذت بجلدك. أفادها سليمان الياسين لدى نهوضه، شرّع ذراعيه لعناقي. مطلوب منّي أن أنفذ عبر الحدود إلى السعودية غداً صباحاً. هو الوداع إذن. ذراعاه تنشدّان عليّ بثوبي الصعيدي، تطوّع مبارك سويّد وضّح. زوجة سليمان الفرنسية وابنتاه عبرن الحدود منذ ثلاثة أسابيع، وصلن فرنسا. المعنى المضمّن. سليمان يزمع الالتحاق بهن، مطلوب منه إعداد وتقديم برامج تخدم القضية الكويتية في إذاعة مونت كارلو الناطقة بالعربية. لحظة ركوبهما شاحنتهما نبّهني سليمان الياسين. مسدسك. مدّ يده بالمعدن، تذكّر مبارك سويّد وعَدَ يعود قبل حلول الليل. وحدي وسط المكان، باقَ زهاء ساعتين عن هيمنة الليل، البارحة معسكر تدريب جيش، الليلة هناً

حـيّ مقفـر منطقـة السـالمية. بـدءاً من يـوم احتلال أوّل دأبـتْ الكويت تتخفف من ناسـها، مواصلة البقاء وسـط نصف مليون عسـكري يتطلّب قدرة تأقلم غير عاديّة، غالبية كويتية غادرتْ، اليد العاملة الأجنبية رحلتْ باتجـاه بلدانهـا بعـد معانـاة طويلـة شـاقة، المقيمون العـرب وقد فقدوا مصادر رزقهم إضطرّوا بالمثل عدا قلّة لم تجد مكاناً تلجأ إليه، أو إنّها اتخذت قرارها ربطت مصيرها بمصير كويتيين مرابطين. البلد آخذة تفرغ أكثر فأكثر والغلبة العديدة في هذه الحالة للبدلة الخاكي. أُجري عملية حسابية للزمن، أوغل بذاكرتي بعيداً، ما قبل مائة يوم احتلال، تتبدى لي صور شفيفة بالوان رائقة، هنا الكويت. هذا الحي، أيامه تلك، كان يزخر حياةً في السـاعة السـابقة لمغيب الشـمس، الشـوارع مزحومة سـيّارات ومارّة، الناس شتّى، تداخل الأصوات واللهجات وكذلك اللغات الشتّى آلت شتاتاً في بقاع الأرض، النخلتان السامقتان وشجرة اليوكالبتس، بقيّة النباتـات ميّتـة أو بسـبيلها لأنْ تفعـل، النبـات يدفـع ثمن العـدوان على طريقتـه، أواجـه مبنـى المنـزل، كبيـر لدرجـة ملفتـة، قديـم لدرجة بعث الحنيـن لعقـد السـتينات، يتألـف مـن طابقين وغرفة فوق السـطح، لدي وقت كاف يسبق عودة مبارك سويد، أخطو نحوالباب الألمنيوم، أتجاوزه داخـلاً، انغمـر بالعتمـة النهارية، ماذا عن الليل، هل يُسـمح لي اسـتعين بالأنـوار الكهربائيـة أم إنّ الاجـراءات الاحترازيـة تقتضي إظلاماً كاملاً، مشيتُ عبر دهليز طويل بعرض يزيد على مترين، ينفتح يميناً على صالة استقبال مترامية ذات نوافذ تكشف الحديقة الداخلية، على اليسار حمّام ضيوف، غرفة استقبال أخرى، غرفة مبيت، ثمّ مطبخ فاره المساحة عند نهايـة الممـر، يحضرنـي ملحـق النقرة، ممـره الضيق الكائـن بين غرفته الوحيـده ومطبخـه، تحضرنـي أمـيّ، أكاد أشـم طبيخها. هـي الآن أين، الحزن منحى نوعي يضغط الأضلاع يسـدّ طريق التنفّس، هل أستسـلم انخرط منتحباً أو معوّلاً عالياً، أحسسـتُ ثقل المعدن في يدي، دخلتُ

المطبخ، الأخير مزوّد بدواليب على طول الجدران، فتحت باب أحدها، رأيته مزحوماً بأوانٍ للطبخ، مددتُ يدي بالمسدس، اخفيته وراءها، كمن ألقى حملاً أثقل كاهله، غادرت المطبخ، ارتقيتُ السلّم المؤدّي للطابق العلـوي. صالة جلوس فارهة بشـرفة تطـلّ على الحديقة، مطبخ تجهيز، أربـع غـرف نـوم، إضافة لجناح نوم منفصل، مسـاحات شاسـعة، أرض رخاميـة يعلوهـا الغبـار، لازمنـي شـعور اغتـراب تجاه المـكان، لو كان الصيف اخترتُ لاقامتي فسـحة من الحديقة، صعدت للسـطح، طالعني بـاب غرفـة متوحّـدة، فتحتـه، سـرير حديـدي ونافذة تطلّ علـى الطريق الخلفيـة، ناوشـني إحسـاس بالألفـة، هنـا ملحـق معلّق، تناهى لسـمعي صوت محرّك آلية عسكرية مارّة، اقتربتُ لساترالسطح، أطللتُ، تكشّف لعيني امتداد شـارع الاسـتقلال، الآلية العسـكرية تواصل طريقها جنوباً، مبنـى مستشـفى هـادي في الجهة المقابلة، حـددتُ موقع البيت، تفصله عن الطريق السريعة طريق جانبيه يليها حرش أشجار صفصاف شوكية، عدتُ إلتفتُّ لداخلي، كيف أتدبّر مسـألة بقائي هنا لأيام أو أسـابيع، لا أحـد يجـزم بعددهـا، مُلزم أختفي هنا لحين رحيل عسـكر الاحتلال، لو جاءنـي مبـارك سـويّد بـدولاب ملفّاتـي شـغلتُ وقتي، قـراءة محتويات الملفّات، إعادة تصنيفها بناءً على متغيّرات مستجدة، لو وفّر لي صحفاً ومجلات، لا بأس لو حصلتُ على مذياع، وليس أمامي غير أنْ أُكيّفني أجدُ ما أشـغلني به، أعود أتفحّص مفردات محل إقامتي، هناك امكانية إيلاء بعض وقتي لرعاية النباتات التي تزمع الموت، نبتة البرتقال، شرفة شقة الزوجية لا تجد من يوليها رعايته، النباتات الأخرى الكائنة عندها، النباتـات الداخليـة أيضـاً، عهـود بعدما راحتْ وضعتنـي وجهاً لوجه مع أخيها سعود، صيغة طلاق بخط اليد وإلاّ، أميّ راحتْ صليبيخات، حال نائـب ضابـط مجيـد، أنا مـن منطقة الفضل بغداد، أنا لـم أر بغداد، هي دمشـق وحدها، مجيد انسـان ودود، عسـاه لا يُجرّم يُسـاءل عن اختفاء

نائب ضابط كان بمعيته. هنا أنا، سطح المنزل مكان مثالي لمراقبة ما يدور في شارع الاستقلال والشوارع الجانبية القريبة، بإمكاني رصد السيارات التي تقترب من المكان، أوان عودة مبارك سويّد رهن الغيب، مال قرص الشمس غرباً، غاب وراء مبنى مستشفى هادي، الحركة أمام مدخل المستشفى شبه معدومة، الناس خلال ظرف الاحتلال لا يجدون فسحة وقت يصابون بعوارض صحية، مرض أميّ أمر مختلف مزمن ضارب في العمق من بدنها الواهن، حتّى الآن لم أعرف تفاصيل أيامها الأخيرة السابقة لازماع صليبيخات، حلّ الظلام مبكراً، هبتّ رياح باردة، فتحة صدر الثوب الصعيدي بلا أزرار، توجّهتُ نحو فوهة السلّم متحسساً مواقع قدمي، الظرف القائم، موجبات الاختفاء، استعانتي بالإنارة مجازفة مجّانية. يا زينب، يتكاثّف الحزن داخل الصدر، يصبح ذا ثقلٍ نوعي، دواعيه كثيرة، فقداني أميٍّ أحدها، فقداني أمّكِ أحدها، غدرها بي أو تحالفها مع خالكِ سعود، كلٍّ ينهج بما يمليه عليه ضميره، يتكاثّف الحزن معززاً بالانقطاع، يسهو الانسان عن احتياجات يومية إعتيادية، حوالي الساعة التاسعة ليلاً عاد مبارك سويّد، كنتُ أُجالد شعوري بالبرد، أذرع الممر المرصوف للحديقة، الأذنُ أداة استشعار، سمعتُ صوت محرك سيارة آخذة تقترب ما وراء السور، توقّفتْ عند البوّابة الحديدية، لم أعنِ أتأكد مَنْ القادم، فتحتُ البوّابة، دبّت سيارته داخلة، مع انشغالي باقفال البوابة إلتقط أنفي رائحة طبيخ، لحظتها فقط قرصني إحساس حاد بالجوع، تذكّرتُ إنّي منذ غادرت معسكر تدريب شعبية عراقية لم أتناول طعاماً. قال مبارك سويّد من باب العلم بالشيء. أُم العيال طبختْ لنا مرَبّيَن. تردد صدى لنا في داخلي، هو الاحتفاء، هي المشاركة. من باب العلم بالشيء كذلك سأبيت ليلتي هنا. مواساة المفجوع بفقدان عزيز أنْ تشُدَّ على يديه أو تأخذه لصدرك، أحسن الله عزاءك، مواساة المفجوع بالفقد أنْ تكون معه، تُلازمه وقته العصيب

ابّانه، تُقاسمه حزنه، أو تُشاغله عن الاغراق فيه. تواجد مبارك سويّد معي ليلة أولى، حقق لدي لستُ وحدي، ليس محض عرفان لآخر، كان شيئاً مغايراً، أحسستني أبداً، خطوة خطوة رحلة تماهٍ جديدة بشخصية منسي القديمة. تأخّرتُ عليك لأسباب. تجاوز تعداد أسبابه واصل مبارك سويّد حديثه بما يشبه أسلوب التداعي، القاضي صلاح الفهد يُبلغني تحياته وتعازيه، طلبَ من المعني احضار صورة شخصية لي، ضرورة تزويدي ببطاقة مدنية كويتيّة تحمل إسم محمد علي أحمد عبدالله، عنوان السكن جزيرة فيلكا، توجّه المعني من فوره لشارع تونس، يعرفُ وجود صور شخصية لي في درج مكتبي هناك، عاد بعدها للقاضي صلاح الفهد، سلّمه الصورة، تصلني بطاقتي المدنية ظرف يومين، عينا صلاح الفهد إلتمعتا استثارة عندما عرف بالمسدس البرونيك. تذكّرتُ دولاب المطبخ حيث أخفيت المسدس. متى أسلّمه له. في حينه. رغم كثرة مشاغله وجد مبارك سويّد فسحة وقت هاتف العم فرحان، منسي الآن في الأمان وليمت سعود بغيضه، فرحان يبلغني تحياته الحارّة، يشاطرني احزاني، كلّ من عليها فان. طبخة المرَبْيَن أوّلاً، حلّ أوان استبدال الثوب الصعيدي بملابس قدّمها لي، جلستنا تحت أغصان اليوكالبتس بين النخلتين، الحديث منحى افضاء. السابع أكتوبر الماضي، يوم مصادرتي من ساحة البناية، انشغال مبارك سويّد بمسألة تغيير سكنه كما قضت ضرورات الحيطة، بعد استقراره في بيت نسيبه، هاتف العم فرحان ليلاً، أخبره الأخير نقلاً عن أرملة أخيه أم سعود، سعود تباهى أمامها هي وعهود بما فعله، أمّه أبدتْ استنكارها. هذا حرام. حاججها. حُطْ حيلهم بينهم. قناعته الراسخة إنّ البدون صنف احتلاليين، خلايا نائمة سابقة لمجيء العسكر، إحداث الفرقة بينهم صنفُ عملٍ وطني يُحمد عليه، الأيام القادمة كفيلة تُثبتُ ذلك.

داخل غرفة السطح، حشيّتان متجاورتان، الوقت منتصف الليل،

كان مبارك سويّد مستلقياً فوق حشيّته شابكاً كفّيه تحت رأسه. أمّكَ. رددها مضمّنة إعزازاً، هفتْ روحي لأن اسمع. رحمها الله. منذ وصوله بالمَرَبْيَن تحاشى ذكر أمّي إلاّ اللحظة، ملتُ بجسدي نحوه قصد إصغاء أفضل، أبقى عينيه مفتوحتين على السقف. إنسانة ذات إرادة بطولية. صادفني أمر خارج إرادتي، انكمشتُ في التو من داخلي، الأنني لستُ، وصلني صوته. إختارتْ موتها. سكتَ ثانيتين. وقّتْ له. المقاومة مخاطرة جسيمة، لكنها مع ذلك تنتهج إجراءات احترازية ملزمة تؤكّد طبيعتها السريّة حفاظاً على سلامة افرادها أوّلاً، على كيانها العام أوّلاً، أنا في الغياب، أميّ المريضة تحتاج من يباشرها، يوفّر لها احتياجات أساسية، يصبّرها على مصاب أخذ الإبن وانتفاء آثاره، عدا عن ضرورة مراجعة المستشفى الصدري مّرة أسبوعياً، الإثنان المتوافران سليمان الياسين ومبارك سويّد مضطرّان يتجنّبان الاقتراب من الملحق، درءاً لخطر وارد، احتمال ترصّد عناصر استخبارات احتلال لمكان إقامة المدعو. كلّفتُ الصديق الفلسطيني الساكن في بناية مقابلة للملحق، ارتأريتُ عليه رعاية شؤون أمّك ريثما تنجلي الأمور. أميّ دارتْ فجيعتها، تقبّلتْ الأمر الواقع، دأبتْ تستقبل الصديق الفلسطيني بين اليوم والثاني. ما الذي تحتاجينه يا حاجّة. سلامتك يا وليدي. وإذا ألحّ رددتْ. الحال ولله الحمد مستورة. وإذا ألحّ أكثر. عساك تعرف شيئاً عن منسي. انشغل بالي بها، أوصيتُ الصديق إيّاه أنْ ينبهها لضرورة مراجعة المستشفى الصدري وسيكون مسؤولاً يأخذها لهناك ثم يعيدها بعد تلقي العلاج، قالت له هي ماعادت تحتاج علاجاً. عيناه على حالهما تحدّقان للسقف، سكت برهة، غافلته خلالها زفرة حرّى. انشغال البال صار قلقاً مرهقاً، أم منسي بصرف النظر عن الذي حدث لمنسي أمانة في عنق مبارك سويّد، يعرفها ترفض مراجعة المستشفى لغرض في نفسها، استشار القاضي صلاح الفهد بالأمر، ارتأى الأخير عليه أنْ يسعى

للقائها، يبذل جهداً شخصياً قصد اقناعها، لأسباب احترازية أيضاً تدبّر الصديق الفلسطيني مسألة لقاء مبارك سويّد بأم منسي في بيته. يا خالتي أم منسي ابنكِ شاب صلب، أيّا كانت ظروفه التي يمرُّ بها، مآلها الانفراج. هل عرفتم شيئاً عنه. خرس مبارك سويّد، لم يكن يمتلك ردّاً، ولا يملك جرأة ارتكاب الكذب. اغرورقتْ عيناها دون ان تنخرط باكية. رآها مبارك سويّد تذوي. المستشفى الصدري يا خالتي. عندما يحين الوقت. حياتكِ مهددة يا خالتي. لو عاد منسي. يعود. لو عادت الكويت. تعود، لمّا يعودان. لقائي بها في مثل هذا اليوم من الأسبوع الماضي، غادرتها قانطاً، لم تكن يائسة تماماً، أحسستها سبق لها اتخذتْ قرارها ولا مجال لثنيها عنه، لا أُخفي عليك. تهدّج صوته. أكبرتُ فيها إرادتها. لا يخفي على منسي إنّه وهو يودّع أم الأخير قبّل رأسها، وعدها يلتقيها بعد أسبوع، إجابتها جاءتْ مشروطة. إذا شاء المولى. لغرض اطمئنانه الشخصي أبقى مبارك سويّد على اتصاله الهاتفي اليومي بصديقه الفلسطيني. كيف حال أم منسي. لا جديد. كيف حالها. طلبتْ قماشاً أبيض، أصرّتْ تدفع ثمنه. باب ملحقكم عادة ما يكون مغلقاً من داخل، عادة ما يبادر صديقي الفلسطيني ذاك يطرق الباب، ينتظر مجيء أمّك كي تفتح له، مساء أمس مع مغيب الشمس توجّه لهناك، رأى الباب مواربا، تريّث أمامه، طرقه، انتظر دقيقة، عاود الطرق، انتظر، لم يتلق استجابة، حدس أمراً، دفع الباب، دخل، رآها مستلقية فوق سجّادتها وسط الغرفة، لافّة جسدها، رأسها أيضاً، بالقماش الأبيض، رحمها الله. الحزن رفيق درب مَنْ. يعايشونه لدرجة الاعتياد، فإنْ ضحك واحدهم. اللهم اجعله خيراً. الحزن شأن البشر، أصنافه شتّى، منه المقيم ومنه العابر، ازعمُ يا زينب إنّي اختبرتُ الحزن شتّاه، أو اختبرني لذاتي، ليلتي تلك، غرفة سطح بيت أحد أبناء عمومة مبارك سويّد، هي الليلة الأولى لأمّي في صليبيخات، حزني وأنا اسمع تفاصيلها مرّ بما يشبه أدوار

استحالة متواترة، صار نبيلاً، صرتُ قويّاً به، ضحى اليوم الثالث كنتُ داخل غرفة السطح مستلقياً فوق حشيّتي عندما تناهى لسمعي دوي محرّك سيارة آت من ناحية حديقة المنزل أعقبه صوت اطباق البوّابة الحديدية للسور، لا أحد سوى مبارك سويّد، نشطتُ، توجّهتُ نحو فوهة السلم، رأيته هناك، لم يبادرني التحية. تنام ولا تتنبّه لما يدور تحت. شاكسته. وحدك تدور تحت. لم يبتسم. لستُ وحدي. تطلّعتُ فيه مستفهماً. جئتُ برفقة القاضي صلاح الفهد. دهشتي يغالبها احتفائي. أين هو الآن. في الحديقة. هبطنا السلّم سويّة. توقّف عند باب المطبخ. أعدُّ لنا شاياً. أنا أعده، جاء لزيارتك أنتَ، ولا تنس المسدس الذي وعدناه به. دخل المطبخ، دخلتُ وراءه. لم يدار انزعاجه. قلتُ لك إذهب إليه من غير اللائق نتركه وحده. آخذ له مسدسه من الدولاب. تحت أغصان شجرة اليوكالبتس المشتبكة بسعف النخلتين، المقاعد البلاستيكية، رأيته جالساً هناك، تُنبّهتُ لوجود حقيبة صغيرة بين قدميه، مهابة شخصية القاضي لها تأثيرها على الواحد يا زينب، لقاءاتي السابقة بصلاح الفهد كانت سريعة اتسمتْ بطابع تعامل رسمي، دون الاقتراب من الشخصية لحد الانكشاف لها أو عليها، لقاء ضحى يومي ذاك شأن ثان، أعترف لكِ، رغم سعادتي بقدومه خصيصاً إلاّ إن إرتباكي الداخلي لم يزايلني طوال ساعة تواجدنا معاً، بدءاً غادرتُ الباب الالمنيوم متوجّهاً، معدن المسدس يُثقل جيبي، ما الذي أقوله عندما أقدّمه له، لمّا رآني هبَّ واقفاً فاتحاً ذراعيه، خلته سيقول. أحسن الله عزاءك. قال. الحمد لله على سلامتك. يضمّني أو أضمّه أحسست بهزال جسده. ظرفكَ العصيب أكّد بطولتك. من أين تجيئني بطولتي، كلّ الذي بدر عنّي إني انسقتُ وراء الأحداث مبيّتاً نيّة الهرب مع سنوح الفرصة، أردتُ اختصار موقفي المحرج. لديّ شيء يخصّك. سلّمته المسدس، أطلّتْ من عينيه فرحة طفل وهو يحضن المعدن، يتفحّصه. ثمين.

صدرتْ عنه مجرّدة. أضاف. لقاء هديتك. أبقى جملته مفتوحة، عاود جلوسه، أشار للمقعد المجاور، امتثلتُ، مدّ يده للحقيبة، إستلّ مذياع ترانسستور. يساعدكَ على احتمال إقامتكَ الجبرية، بامكانك سماع إذاعة بو الفهود، صوت المقاومة الكويتية. إنتابني فرح يغالبه ذهول، ما كنتُ اعرف بوجود إذاعة خاصّة بالمقاومة. حتّى لا يذهب خيالك بعيداً لا علاقة بين الإسم ولقب عائلتي. توشّى صوته باعتداد مضمر نحو غائب. سمّيناها كذلك تيمّناً بالشهيد الشيخ فهد الأحمد، تستطيع التقاطها على الموجة القصيرة ضمن الحيّز الضيّق الفاصل بين إذاعة صوت اميركا وإذاعة موسكو. اصغيتُ له. لدى سماعك لها سوف تميّز صوت مذيعنا الكويتي الفلسطيني أحمد عبد العال، مبارك العدواني يتولّى إعداد بعض برامجنا، نستقي أخبارنا المحلية المهمة من تقارير غانم النجار. أومأ برأسه ناحية مبنى المنزل حيث يتوارى مبارك سويّد هناك. مخرجنا المعتمد مبارك سويّد. سكتَ وهلة. أنتَ كاتب جيّد، تستطيع إعداد برامج تناسب الظرف. لا ادري إنْ كنتُ قادراً أم لا، لكني سأحاول. جئتك بما يحفّز لك ذهنك. مدّ يده لحقيبته ثانية استل كتاباً، كفاحي، ذهلتُ ازاء عنوان الكتاب، لماذا هتلر بالذات، صدام حسين لا يملّ قراءته، هو أو هتلر، كلاهما دكتاتور، لعلّك حين تقرأ السيرة الذاتية للمعلم تستطيع الكتابة عن تلميذه. لا ادري إنْ كنتُ قادراً أم. قطع عليّ استرسالي دفع لي الحقيبة بكاملها. ستجد فيها ما يشحذ مخيلتك. أطللتُ داخل الحقيبة، مجموعة روايات لكتّاب من أمريكا اللاتينية، غلبتني دهشتي. أنتَ تقرأ روايات. أطلق ضحكة خافتة. القضاة ليسوا منزهين عن قراءة كتب خارج تخصصاتهم القانونية. أشار للحقيبة. لديكَ روايات تلامس حياة طغاة. لحظة مغادرتهما هو ومبارك سويد. شيء أخير. رددها صلاح الفهد، ناولني مغلّفاً صغيراً. بطاقتك المدنيّة. لا أتذكّر إنْ كنت أجبت بكلمة شكراً، أتذكّرني لمّا انتابتني رعشة داخلية

جديدة علي، بذلتُ جهدي أشاغلني عنها ريثما ابتعدتْ بهما سيارتهما، اطبقتُ بوّابة السور، أسندتُ ظهري إليها، وجدتني أشبه بمن يلتقط أنفاسه، تطلّعتُ للمظروف الصغير، كيف له يحدث ردّ فعل كهذا، بادرتُ فضضته، صورتي تتصدّر بطاقتي المدنيّة، لم استنكر إسمي المنتحل محمد علي أحمد عبد الله، سبق خبّرني مبارك سويد، درءاً لاحتمال تعميم إسمي على مراكزالاحتلال ونقاط سيطراتهم، شُدهتُ وأنا اقرأ تفاصيل معلومات مدرجة تحت الإسم، كويتي، مواليد جزيرة فيلكا، عام 1955، رغم كوني ركبتُ الطائرة حتّى دمشق، الاّ إنّ فرصة جزيرة فيلكا لم، رغم هذا وجدتني أحبّها مسقط رأس مُعطى، أتأمّلني أحسّني شفيفاً بفيض إحتفاء داخلي، هنا أنا، طوال خمس وثلاثين سنة عمر الواحد في كنف دولة مستقلة ذات كيان معترف به، بقيتُ محروماً من أيّة وثيقة انتماء رسمية، مع مصادرة الدولة كلّها، مع غياب سلطتها، يولد كيان ثان من رحم الكارثة، المقاومة الكويتية، الظرف بالتعقيد المرافق، قبول العمل كما المبايعة قصد الاستشهاد، وسط هذه الفوضى العارمة والمنظمة تحت أرض لدرجة الذهول، تُخصص المقاومة فسحة محبّة، ترعى ناسها دون النظر للوائح معتمدة أو قوانين مُنظمة، رجل القانون صلاح الفهد سمّاني كويتياً. دبّتْ حيوّيتي فيّ، شملتُ المكان بنظرة متفحصة متأنيّة، أنا حسبة صاحب بيت، قمتُ بجولة داخل المنزل، فتحتُ نوافذ الصالة، إقامتي هنا مرهونة بحدث الاحتلال، ما أدراني إنّي لن أطيل المكوث، تشمم أنفي رائحة الغبار المتراكم، مسألة التنظيف تحتاج مستلزمات ومزاجاً، سيكون لي ذلك، غادرتُ مبنى المنزل إلى حديقته، المقاعد البلاستيكية في أماكنها، أنا واحد، عسى مبارك سويّد يجيئني بشريك سكن، قمتُ بجولة تفقّد للنباتات الآيلة، عصر اليوم أبدأ عملية رعايتها، لدي فائض وقت، تذكرتُ اقتراح صلاح الفهد، إعداد برامج اذاعية مقاومة، حالما يصفو ذهني أقدم، أتطلّع صوب بوابة

السور، أنشدّ إليها بفعل تحدّ، افتحها قليلاً، استطيع رؤية الطرق المحيطة من فوق سطح المنزل، المشاهدة هنا أكثر حميمية، أرى الطريق خالية، أخطو خارجاً، أبقي على البوّابة مواربة، لو صادفتني دورية عسكرية، هويتك عيني، دفعتُ لهم بطاقتي المدنية، أمشي حتّى المنعطف، ارسل بصري بعيداً، لا أحد، لا مبرر للابتعاد أكثر، اقفل عائداً، يجدر بي اشغالي بما هو مجد، اقرأ مثلاً، استمع للمذياع مثلاً. استجابة لحيوية محفّزة خصصتُ ساعات العصر لرعاية أشجار الحديقة، خلّصتها من أغصانها الجافة، مّهدتُ تربتها، سقيتها، عساها تنشط ثانية، ما قبل غروب الشمس اتخذتُ لي مقعداً عند ساتر السور بمواجهة مبنى مستشفى هادي، بدأت قراءة صفحات أولى من كتاب هتلر، عند حلول الليل تذكرتُ المذياع، حضنته، حرّكتُ مؤشره بأناة، الموجة القصيرة عصيّة على التعامل في ظرف احتلال عربي، بعد جهد طويل سمعتُ ما يفيد إنّها إذاعة صوت أمريكا، حبستُ أنفاسي، حسبتني أوشكت، بلغني صوتُ ثانٍ، هنا إذاعة موسكو، فارق الاذاعتين عن بعضهما لا يكاد يُحسّ، أين هي إذاعة بو الفهود، أُبقي مؤشر الراديو ضمن مسافات أقرب للوهمية، إحداهما تخفتْ لتنبري الثانية تعلو، تخفت، تعلو، أسمعُ عصف ريح يعقبه صرير، فجأة التقطُ صوت أحمد عبدالعال. هنا الكويت صوت المقاومة. احبسُ أنفاسي، استنفرُ أُذني. في خبرعاجل. يعلو الصفير، يضيع صوت أحمد عبدالعال، ابذل جهدي اسمع، ولاجدوى، اشفقُ على نفسي، أضع المذياع جانباً، هنا أنا، غرفة السطح. خلال الدقيقة التي سبقتْ استسلامي للنوم بدرتْ عن يدي حركة عفوية، تحسستْ جيب صداري، بطاقتي المدنية تستكين هناك، صباح اليوم التالي ابدى مبارك سويّد إعجابه بالجهد المبذول في حديقة المنزل. تقديراً لموهبتك في الفلاحة آتيكَ ببذور خضار تزرعها. اغتنمتُ فرصة حضوره بصفته المخرج المعتمد لإذاعة المقاومة شكوتُ له مشقّة

السماع. يصعبُ التقاط البثّ الإذاعي على الموجة القصيرة من مكان قريب لموقع الارسال. لم أفهم. محطّة البثّ في منطقة بيان، بمعنى إنّها لا تبعد عن هنا سوى مئات الأمتار، سماع بثّ الموجة القصيرة يتوضّح أكثر فأكثر كلما باعدت عنها، تسمعها بشيء من الوضوح في منطقة الفحيحيل جنوباً أو منطقة الجهراء شمالاً، مع وضوح تام في البلدان البعيدة. شكراً على المعلومة. صرفتُ ذهني عن توقي لسماع صوت أحمد عبد العال، ولم اصرفه عن فكرة إعداد حلقة برنامج يلقى قبول القائمين على الاذاعة المسموعة بعيداً جدّاً، لعلّه حَدَسَ ما قمتُ به بعد مغادرتهما هو وصلاح الفهد أمس نبّهني مبارك سويّد. للعلم لا غير. اسبغ منحى التحذير على صوته. تزويدك ببطاقة مدنيّة لا يعني حريّة تحركَكَ خارج هذا المنزل. لم أتساءل. إذن. وجهكَ معروف لدى عدد من عساكرهم، لسنا مستعدين لحدث غير محسوب. لازمتُ اصغائي. هدف بطاقتكَ المدنيّة تأمينك داخل البيت في حالة مداهمتهم له. تخفف من نبرة تحذيره. بإمكانكَ الاستعانة بالأضواء الكهربائية ليلاً. شكراً. خلال اليومين اللاحقين انجزتُ قراءة كتاب هتلر بكفاحه وسعيه الدؤوب جدّاً أوتطلعاته التوسعية بما وضع العالم كلّه في خضم حرب كونية راح ضحيتها عشرات ملايين البشر، صرتُ ازاء تطلّعات صدّام حسين وحلمه أنْ يكون قائد أمّة، وجه المقارنة منحى مفارقة، بدأت كتابة حلقة أولى من برنامج اذاعي عنوانه شفير الهاوية، متعة التحقق حصيلة ورق مكتوب دفعته لمبارك سويّد. هذا أوّل الغيث. كظمَ دهشته أمام كمّ الورق، اقتعدَ كرسياً تحت اشتباك أفرع اليوكالبتس بسعف النخلتين، طفقَ يقرأ، حبستُ أنفاسي انتظاراً لسماع رأيه. جميل. قالها محايدة. واصل. يُناسب إذاعة عاملة في ظروف اعتيادية. عقد حاجبيه. المدّة المتوقّعة لبرنامجك لا تقل عن نصف ساعة. إطراء أم ماذا. سمعته. إذاعة المقاومة تبثّ على ثلاث فترات يومياً، مدّة الفترة الواحدة

لا تتجاوزعشر دقائق. سارع ذهني أجرى عمليّة حسابية. المدّة المعتمدة للبث الإذاعي اليومي حدود نصف ساعة، أنا الذي انفق من جهده أقصاه لتحرير حلقة نموذجية تطمح لحلقات لاحقة. اذاعتنا تعمل وسط ظرف استثنائي عالي الخطورة، عدوّنا لا يعدم وسائل رصد مصدر الذبذبات الإذاعية، تحديد مركز الارسال، مداهمته، التحديد لا يتمّ إلاّ في حالة مواصلة البثّ. شتّ بي ذهني قبل أنْ أوجّه سؤالي. المطلوب. مطلوب برامج تحريضيّة أوإخبارية، أو سمّها ما شئت، مع اشتراط تحديد مدّة البرنامج دقيقة واحدة، واذا كانت المدّة أقلّ أفضل. توصّلتُ لاستنتاجي. لا يتجاوز صفحة واحدة. عليك نور. تملّكني إحساس بالتخفف من جهد منتظر، برنامج صفحة واحدة يستوجب ساعة صفاء ذهن واحدة أو أقلّ، لكنني، مع ازماعي العمل، اكتشفتُ العكس، عرض الفكرة مكثّفة دون الإخلال بها يستلزم تركيز ذهن استثنائياً، التحدّي يمثّل حافزاً ذا طبيعة خاصّة، وحدي، المنزل، الحديقة، السطح، وجود مستشفى هادي مواجهتي عبر الشارع، إحدى حلقات برنامجي الإذاعي دارتْ حول معاناة المرضى جراء نقل التجهيزات الطبيّة إلى ما وراء عبدليّة صدّام، بعد أسبوع من تسليمي أوّل ثلاث حلقات إذاعية لمبارك سويّد أفادني الأخير. إذاعة الكويت التي تبثُّ من المملكة العربية السعودية وكذلك إذاعة مونت كارلو الناطقة بالعربية، أعادتا بثّ حلقاتي إيّاها نقلاً عن إذاعة المقاومة. تملكني إحساس. أنا مجدٍ، في الوقت ذاته داخلني فرح هادىء، كنتُ أترقّبُ نمو الخضروات الورقية التي زوّدني مبارك سويّد ببذورها، مربّعات بمساحة متر مربع، آخذة تكتسي براعم خضراء يانعة، الفجل، الرشاد، الكرفس، الريحان وأخيراً النعناع، مع منتصف شهر ديسمبر بدأتُ أضيفُ الرشاد لوجبات الطعام، قبل حلول رأس السنة الميلادية حل دور الكرفس وكذلك الريحان والفجل، وحده النعناع أخّر موعد قطافه. غرفة السطح، مطلع ينايرعام 1991 زارتني أميّ

ليلاً، الأحلام، في حالات منها، وجه آخر موازٍ للحياة المعاشة، كانت تأخذني من يدي وسط زحام سوق الحمام، الوقتُ داخل الحلم ضحى، الشمس باردة والهواء منعش، لغط الأصوات يحوّطنا. اليوم أشتري لك حمامة. لماذا الحمام يا أميّ. أحبّ الحمام. لا مكان لمعيشة الحمام في الملحق. إنس الملحق. كيف. خُذْ الحمامة، احتفظ بها ساعة ثم اطلقها. اطلقها. راقبها عن بُعد. بالله عليكِ يا أميّ. لكنّ أمي لا تسمع مناشدتي لها، أنا إبن العاشرة في الحلم، لكنّي مع نفسي إبن الخامسة والثلاثين، عدتُ ناشدتها. يكفيني وجود عهود يا أميّ. عهود ليست من صنف الحمام، هناك طيور لا تصلح للإيواء. أُزمع التعقيب لولا متابعة أميّ حديثها. الحياة يا منسي لا تظلّ قسراً على. لا أسمع بقيّة جملتها، تعالتْ أصوات الناس حولنا، رافقها دوي انفجار، اصحو محبطاً مراوحاً ما بيني في سوق حمام وهنا غرفة سطح. اسمعُ صدى اطلاق نار كثيف، ذاك ما يعقبْ الانفجارات عادة، جنود الاحتلال يحتمون من أشباح لا يرونها، لو إنّ الانفجار لم، لأكملتْ أميّ جملتها، يشدّني حنيني لأيامي معها، كفّي التي كانتْ رهن يدها في المنام باقية تتنمّل ملمس يدها الضاغطة، أحاول اجراء حسبة غياب، آخر مشاهدة وهي حيّة صبيحة سابع أكتوبر، كشف الكفن عن وجهها ثامن نوفمبر، الزمن بانسحابه وراء أو أمام، المشاعر طريّة ما تزال، والسؤال العالق، إن لم تكن عهود صنف حمام، صنف ماذا.

مرّ يومان، سرتْ إشاعة، قيادة النظام العراقي وافقت تسحب جيوشها ماوراء حدود سابقة باشتراط جلوس حول مائدة مفاوضات، عمّ الفرح صفوف عساكرهم، اطلقوا آلاف عيارات ناريّة في الهواء إبتهاجاً، القيادة ذاتها سارعت نفت الإشاعة، نسبتها للجبناء عملاء الإمبريالية والاستعمار، أم المعارك قادمة، نحن مستعدون لخوض غمارها ضامنين الفوز المبين، انكفأ الجنود محبطين، ساد الصمت ليلتها، المقاومة الكويتية أخذت حزن الجنود بنظر الاعتبار، بعد أيام قليلة، سابع عشر يناير، منتصف الليل، بدأت الحرب الجويّة، ازدحمت السماء بمئات الطائرات، هدير محركاتها يشنّف آذان المتبقين من الكويتيين والوافدين، يسدّ نوافذ الأمل على الجنود العراقيين، يوجّهون فوهات مدافعهم المضادّة نحو الأعلى، سماء الكويت تتحوّل إلى كرنفال، دانات المدافع، لدى انطلاقها صعوداً، تكتسي لون الجمر، يبهت بريقها رويداً، ينطفي دون أنْ يطال أبدان الطائرات المحومّة عالياً. ليلة أولى حرب جويّة خُصصتْ لدكّ بغداد، اشتعلت سماء بغداد بالدفاعات واحترقت مرافقها ومعسكراتها وجسورها جراء قصفها قنابل موجّهة بالليزر، خطوط المواجهة على الحدود مع المملكة العربية السعودية تولتها قنابل بنزين عملاقة، أجهزة إعلام النظام العراقي واصلت تغنيها بانتصاراتها الهائلة واحصائها لأعداد الطائرات المدمّرة، قيادة طيران الدول المتحالفة لا تفيد بفقدان أيّ من طائراتها، إذاعة بو الفهود تنشط أكثر، تضاعف فترات بثّها، أجهزة رصد احتلال مشغولة بما يخصّها، قياداتها أخلتْ مواقعها إلى أين، الكويتيون المرابطون، الوافدون المؤازرون، روح معنوية عالية، الحرب قامتْ، ها نحن أمام حالة عدّ تنازلي، غرفة السطح حالة إظلام ليلي، الكويت كلّها

إظلام ليلي، عسكر الاحتلال بادر فجّر محّطات توليد الطاقة الكهربائية، الموت، بافتراض مواجهته لأي سبب، أمر مقبول، كنتُ انعمُ بسلام نفسي لـم اعهـده من قبـل، أنا، حديقة المنزل، مسـطّحاتها الصغيرة الخضراء، النبتات القديمة التي لم يُطبق عليها الموت تماماً، عادتْ انتعشت، سرى نسغ الحياة في جذورها، صعد لسيقانها، إخضرّت، إلحاح مبارك سويّد. إلينـا المزيـد مـن برامـج إذاعيـة، رجلنا أحمد عبد العـال وقع في هوى برامجك اللمّاحة. لم افهم ما المراد بكلمة لمّاحة، فهمتُ إنّهم يطلبون مزيـد برامـج تُـذاع ولا اسـمعها، الـذي فهمته أكثر، أنا مُجـد ، مائة يوم عزلـة، اسـمح لي أُسـمّيها رائقـة رغم زحمتها بالعمـل الكتابيّ وازدحام السـماء، مـا بعد منتصف شـهر يناير، بطائرات الـدول المتحالفة، وعلى الأرض كان الجنـود يعانـون عجـزاً عن ادراك ما سـينتهي إليه مصيرهم، عصر أحد الأيام أبلغني مبارك سويّد خبراً مفجعاً. لأنهم حدسوا اقتراب هزيمتهم أقدم قادة استخبارات النظام العراقي على تصفية أفراد المقاومة المعتقلين لديهم، اخلوا منشأة المشاتل، عبروا الحدود. عند بدء الحرب البريّة في الحادي والعشرين فبراير تبادل ليل الكويت ونهارها أدوارهما الفلكيّة، قوّات الاحتلال فجّرت ما يقارب تسعمائة بئر نفطية منتجة في عموم حقول البترول الكويتية، ألسنة النيران باتجاه السماء، تضيء عموم أرض الكويت ليلاً، في حين تنحجب الشمس نهاراً مخلّفة ما يشبه عتمة مسائية جرّاء التحام السحب الدخانية، حجبها منافذ النور.

تصعـب علـيّ يـا زينب اسـتعادة أيامـي القليلة التي سـبقت تحرير الكويـت بدفـق المشـاعر المصاحبـة، كانـت خليطاً متضاربـاً من الفرح باقتراب الوعد ينازعه خوف إقدام عسـكر النظام العراقي على ارتكاب حماقة كبرى، استخدامه سلاحه الكيمياوي مثلاً، قضيتُ جُلّ وقتي فوق سـطح المنزل ملازماً مذياعي، إعلام العالـم أجمع يؤكد اندحار جيوش النظـام العراقـي في الخطوط الأمامية، وأجهزة إعلامه تتغنّى بانتصاراتها

الباهرة، ظهر اليوم الخامس والعشرين منه وصل مبارك سويد. كلّ سنة وأنت طيّب. رفعتُ حاجبيّ دهشة، الظرف العام مازال بالتعقيد والخطورة، استوضحته. خير. العيد الوطني الكويتي يصادف اليوم. لم أشأ أجادل، بعضنا يمتلك قدرة تفاؤلية يُحسد عليها، ليلتنا تلك، بدأت قطعات جيش النظام العراقي انسحابها المباغت غير المنظّم، مخلّفة وراءها آليات ومعدّات بالمئات. ليل الكويت مُضاء بفعل حرائق آبار النفط، لكنّ السحب الدخانية الكثيفة المتدنّية حجبتْ رؤية طياري الدول المتحالفة بما يقلل من خسائر متوقّعة، صباح يوم السادس والعشرين أُعلن تحرير كامل التراب الكويتي رسمّياً، خرج الناس كافّة للشوارع باحتفال عفوي، إعلام النظام العراقي يفيد باخلاء محافظة النداء لأسباب تكتيكية حتّى إشعار آخر. رفعنا عنكَ حظر التجوّل. رددها مبارك سويّد في أذني وهو يأخذني لصدره، قبل ان يصحبني جولة في سيّارته، الكويت حرّة تحت سماء ملبّدة بدخان الحرائق، سألني إن كنتُ ارغب بتفقّد ملحقي، فزّ قلبي، تذكّرتُ أميّ، لا مكان للحزن اليوم، تذكرتُ شجرة برتقال شرفة الشقّة، هل غادرتْ عهود بيت مشرف إلى الشارع احتفاءً، أعرفها أشهر حمل أخيرة، لم يراودني فضول رؤية بطنها المنتفخة، تملّكني حنين لمقابلة عم فرحان، احتفظتُ بحنيني لي. أجبتُ مبارك سويّد على عرضه. أعود للملحق بعدما انهي متعلقاتي في بيت إبن عّمك. تذكّر سألني، هل مازلتُ احتفظ بنسخة البرنامج الاذاعي الأول الذي أستقيت مادّته من كتاب كفاحي لهتلر. لماذا تسأل. ساعات بثّ إذاعة بو الفهود غير محدودة لدينا فائض وقت كاف. زحمة الشوارع بالناس المحتفلين، أعادني مبارك سويّد لمنزل إبن عمّه، النهار قارب انتصافه. اجتازُ البّوابة الحديدية، ينتابني إحساس ثقيل بالوحدة، أنا أين، أنا من، ما الذي يتمخّض عنه الظرف، الكويت عادتْ للكويتيين، سعود لن يوفّرني بعدما دفع ثمن تصدّيه لي، أدريه لن يدخّر وسعه، هل أحتمي

بمبارك سويّد أم الجأ للقاضي صلاح الفهد، عهود قاربتْ الولادة، مصير الطفل القادم، ليتني أفهم سبب تحالف عهود وسعود، لا استطيع اعتماد مقولة، الإنسان كائن سيء فطرة إلاّ إذا صادف من يقوّمه سلوكياً، عهود غيرها عن أخرى عرفتها أيام دمشق، أميّ لمّا زارتني في المنام. عهود ليست من صنف الحمام. لم افهم المعنى المستهدف، لم تواتني فرصة تذكيرها. إلحاحكِ عليّ أنْ أتزوجها، زواجك من كويتية، القهر والقنوط، الغدر والتخليّ، انتهاك إنسانية الواحد ولا أدنى إحساس بتأنيب ضمير، لعلّه من المناسب لكِ أميّ إنّكِ فارقتِ في الوقت الضائع، فلا تعانين شعور الارتكاب المرّ، إيلاء الحبّ لمن لا يستحق ولا يدرك إنّه لا يستحق، سلوك عهود ليس موكولاً بسعود وحده، أتذكّر كلماتها في اليوم الأوّل لحدث الاحتلال. البدون والفلسطينيون فرحون بما آلت إليه حال الكويتيين، الشماتة وجه فرح، من أين لعهود بمثل هذا الاستنتاج، من أين لنا عهود وأنا نعود إلى سابق عهد ما. أقفُ وسط حديقة منزل، أرى الخضار الورقية كابية آخذة طريقها للذبول، فعل السخام المترتّب عن حرائق آبار، أتطلّع نحو الباب الألمنيوم لمبنى المنزل، الوقتُ منتصف نهار يوم تحرير، الظلام حالك في الداخل ولا من إنارة كهربائية. ملحق النقرة، على ضيق المساحة، آثار وروائح لزمن كنته بصحبة أمي، يشرد ذهني، ما الذي يبقيني هنا، الأشياء التي تخصّني قليلة، ثوب صعيدي، مذياع صغير، كتب، أضع كلّ ذلك داخل كيس بلاستيكي، أتنبّهُ استلُّ ورقة، اكتب عبارة، أنا إلى الملحق، أثبّتها عند زاوية باب المنيوم. يا زينب، وعدتكِ أكثر من مرّة أنْ لا اسهب، يغافلني هاجس غامض، أجدني استرسلُ سهواً، هناك لحظات تبدو عابرة في عمر الواحد شأن غيرها، لكنّ فعل استعادتها ذكرى يمنحها زخماً غير متوقّع بما يجعلها تؤكّد حضورها لذاتها، كانت الساعة شارفت الثانية ظهراً عندما واربتُ البوّابة الحديدية لسور منزل إبن عم مبارك سويّد،

خلّفتها ورائي، شارع الاستقلال مسافة أمتار، مبنى مستشفى هادي أمامي، رأيتُ علم الكويت معلقاً على واجهة المستشفى، زحمة السيّارات وكذلك المارّة، الناس يحتفلون عفوياً، أصوات أبواق السيارات تنافس الهتافات، عديدون يرفعون صور أميرالبلاد وولي عهده، لفت إهتمامي انّ البعض يحمل صوراً للشهيد فهد الأحمد، بعض آخر يحمل أعلام دول عربية ناصرت القضية الكويتية، لمحتُ العلم الامريكي أيضاً، أشقّ طريقي وسط الزحمة، الكيس البلاستيكي الحاوي متعلقاتي يثقل ذراعي، الطريق الدائري الرابع بالمتناول، إنْ اجتزتُ المسافة إليه صار شارع تونس قريباً، يمكنني بلوغ الملحق خلال نصف ساعة، الجحافل البشرية تتدافع موجاتٍ موجات، يخالسني شعوري إنّ الكويت لم تتخفف من ناسها كما ترسّختني قناعتي لأيام خلت، الغلبة الكويتية، رجال شباب وكهول، نساء وأطفال، وجوه طافحة سعادة، وحناجر مدوية هتافات، لمّا ثبّتُ قصاصة الورق عند زاوية باب ألمنيوم،أنا إلى الملحق، كنتُ قانطاً أعاني حالة إحباط، وحدي مسوّراً باليأس والشعور بالعزلة، تواجدي وسط الزحمة البشرية فعل سحر، الواحد والمجموع، بدأتْ مشاعر الفرح والحماس تتسرّب إليّ، صرتُ، دون قرار متخذ، كويتياً، شاركتُ الهتاف. الآن، زمن كتابة هذه الاوراق، غرفة من مقر مسرح الخليج في السالمية، بعد مرور عشرين سنة، أتفحّصني، أتمثّل ما خالجني، أبررني، الكويت أوّلاً وأخيراً انتماء يزكّي نفسه أو ينفيها إذا صادف محكّاً حقيقياً. أنْ أُكلّفَ بمسؤولية عشر عوائل أجنبية، أنْ أُصادَر وراء قضبان غرفة حجز مخفر نقرة عشرة أيام، أنْ أتدرب ثلاثة أسابيع جيش شعبي عراقي، أنْ أدفن زيي العسكري يوم دفن أمي في مقبرة صليبيخات، أنْ أتوفّر لكتابة برامج ذات طابع برقي تذاع من، ليوغر خالكِ سعود صدره بحقد مزيد، أستثني صدر أمّك على افتراض انّكِ رضعتِ. حوالي الساعة الثالثة عصراً وصلتُ منطقة النقرة من

مدخل شارع تونس، سوق الرصيف ما زالت، المتسوّقون ندرة، لا وجود لمظاهر احتفالية، حشد السيارات والجماهير يملأ طريق الدائري الرابع، أذناي تتعثّران بسماع هتافات متواترة قادمة من هناك. يسقط الخونة، الفلسطينيون عملاء. أسألني أو لا أسألني، الخيانة فعل لمس اليد، مَنْ يدين مَنْ، قبل سنوات كان ناجي العلي هنا، قبل أشهر كان طالب الشوا، مبارك سويّد كلّف شابّاً فلسطينياً يرعى أمي أيامها الأخيرة، هل أتذكّر ما قالته عهود بخصوص سكنها وسط الأعداء، غالبية فلسطينيي النقرة وغير النقرة شدّوا رحالهم إلى الأين بعدما حرموا مصادر عيشهم زمن الاحتلال، المتخلّفون نسبة ضئيلة، أُدقق وجوه المتسوّقين، لا أرى أيّاً من المنعوتين، النسبة الضئيلة توارتْ وراء أبواب بيوتها بانتظار ماذا. أحثّ خطوي باتجاه شارع موسى بن نصير، لا وجود لأسواق رصيف، لا وجود للمارّة، أكاد أكون وحيد المكان، شيء من الرهبة، شيء من التوقّع، تراني جانبتُ الصواب عندما اتخذتُ قرار مغادرة بيت إبن عمّ مبارك سويّد دون علم الأخير، أحثّ خطوي، أصوات أبواق السيارات تصل من بعيد، الاحتفال بالتحرير موقع ناء، بدأ الخدر يسري في يدي الحاملة لكيسي، خيّل لي إنّ وزنه زاد عن سابق، حضنته لصدري متطلّعاً نحو امتداد الطريق، دقائق معدودة، أصل بعدها مدخل الطريق الجانبية، البناية ذات الملحق وراء المنعطف مباشرة، وراء المنعطف مباشرة فاجأني وجود نقطة سيطرة، وقفتُ مشدوهاً وهلة، مائة يوم منزل إبن عم مبارك سويّد لم أصادف شعورالمباغتة، الآن وقد تحررتْ الكويت عن بكرة أبيها، رأيتُ أربعة شباب بلباس مدني، أذرعهم اليمنى تحمل شارات خضراء خُطّتْ حرفين متجاورين م. ك. أنا حاضن الكيس وجهاً لوجوه الأربعة، عيونهم تطالعني نظرات فضول يشوبها استنكار، بلغني صوت أحدهم. هويتك. لمستُ نبرة ضغينة، هو لا يعرفني، تداعى ذهني سريعاً، البطاقة المدنية

التـي سـلمّني إيّاهـا صـلاح الفهد تتواجد داخل جيـب الصدار. حاضر. رددتها مستسـلمة، أحنيتُ ظهري، وضعتُ كيسـي أرضاً، صرخ بي ثان منهم. ما الذي يحويه الكيس. عُدتُ حملته، دفعته نحوه، غضبي يشحن صوتي. خذهُ انظر ما فيه. تراجع الأخير خطوتين بفعل المفاجأة، صرخ بي. إحذر. بادلته صرخته. أحذر ماذا. تبادلوا نظرات حائرة مستفزّة في الوقت ذاته، تمالكتني، سـألتهم متخففاً من غضبي. هل تريدون الكيس أم الهوية. انبرى أحدهم. الهوية. إستدرك. أوّلاً. حبستُ زفرة أوشكت تصدر عنّي، دفعتُ له بطاقتي المدنيّة، تفحّصها، انفرجتْ أساريره. حيّا الله أهل فيلكا. قال ثان معتذراً. حقّك علينا. تدخّل ثالث. منطقة النقرة، كمـا تعـرف، مليئـة بالفلسـطينيين. وددتُ اسـأله، مـا سـبب عدائـك للفلسـطينيين، آثـرتُ أنْ لا، سـمعتُ رابعهـم يقـول. سـماح يـا الأخو. أومـأتُ لهـم برأسـي دلالـة رضا، الملحـق قيد خطـوات، خطفتُ نظرة لشرفة شقّة الزوجية، النبتات الكائنة هناك بما فيها نبتة البرتقال متيبّسة، أهل بلدك ضاقوا بي. فتحتُ باب الملحق، نشطت أذني بفعل لا إرادي، توقّع صدى صوت أمي متسـائلة، منسـي، أسـتجاب قلبي واتر خفقانه، راحتْ، لو توفّرتْ لي فرصة ذهاب لمقبرة صليبيخات كيفية اسـتدلالي قبرها، لماذا لم يطرأ لي اتركُ علامة فارقة. عبرتُ الباب داخلاً، العتمة تتكاثف لدرجة الظلمة، لمحتُ ما يوحي إنّه سجّادتها، هنا مكان نومتها الأخيرة ملتفّة، نشط أنفي تشمم، أشهر الغياب لم تمح رائحتها، الرطوبة الشتوية باقية عالقة في جو المكان، دولاب ملفّاتي مثلما هو، لا تحبّ فوضـى الأشـياء، خنسـتُ صوب الخـارج، ليس من أصـوات دالّة على وجـود حيـاة. هنـا الملحـق، طوال مـا يزيد على عقديـن ظلّتْ ضوضاء الشارع، صيحات الأطفال، عراك النسوة أحياناً، النقرة خليّة حياة عملاقة لا تهـدأ خـلال سـاعات النهـار أو الليـل، الكويـت كلّها تضجّ احتفالاً بالتحريـر، النقـرة قانطـة علـى مـن فيهـا. لـم يتركنـي مبارك سـويّد نهباً

لخيالاتي القاتمة، قبل مغيب الشمس الغائبة بفعل بشري سمعتُ صوت محرّك سيارة تتوقّف عند الباب. أنتَ مطفوق. قالها مضمنة امتعاضاً، لم افهم مغزى تعبيره، تجاوزتُ جهلي، سألته. لماذا. مَنْ أوصلك لهنا. جئتُ ماشياً. ماسبب تعجّلك. ماسبب بقائي هناك. مازلتُ عند رأيي أنتَ مطفوق. أزمعتُ أسأله المعنى استطردَ. جئتك باحتياجات تعينك على المعيشة هنا. حقيبة منتفخة بعلب أطعمة معلّبة، أكياس شاي، مصباح إنارة بطارية. قناني مياه شرب. إذا احتجت شيئاً. ترك جملته مفتوحة، آثرتُ أن لا اخبره عن نقطة السيطرة الكويتية، بديلاً عن ذاك سألته. متى خلتْ النقرة من سكانها. تطلّع إلي مستغرباً صيغتي، قال. لم تخلُ. سكتَ برهة. تحاشياً لردود أفعال بعض الكويتيين. تحرّى اختيار كلماته. ممن لا يتحلّون بروح المسؤولية، استعنّا بالأخوة الفلسطينيين أعضاء لجنة التآخي إرتأينا عليهم تبليغ مواطنيهم ضرورة ملازمة منازلهم لثلاثة أيام ريثما يتم ضبط الشارع. علقتْ في ذهني ضبط الشارع، فهمتُ منه إنّ قيادة المقاومة فوجئت بظهور مئات شباب متحمّسين، شكلوا، ببادرة غير مسؤولة، نقاط سيطرات طيّارة، اسوة أو ردّ اعتبار عن نقاط سيطرات عسكر احتلال، عادتْ الكويت حرّة لكنّ الحياة لم تعد لطبيعتها المعتادة سريعاً، الدمار الذي خلّفه الاحتلال من الجسامة بما يستدعي جهوداً جبّارة لإعادة الاعمار، تنادتْ الدول المتحالفة تمدّ يد العون. البدء باطفاء آبار البترول المشتعلة، نزع عشرات آلاف الألغام الأرضية المزروعة في طول الكويت وعرضها، إصلاح محطّات توليد الطاقة الكهربائية وتكرير المياه، ترميم أو إعادة بناء المنشآت العامة، الكويت ورشة بناء عملاقة تحت سماء ملبّدة بالسحب الدخانية رماديّة اللون، فإن حدث أمطرتْ جاءت قطرات المطر سوداء، الكويتيون الذين اضطرّهم ظرف الاحتلال للمغادرة أخذوا يتوافدون، زحمة غير مسبوقة،الآلاف منهم يصلون يومياً، مرافق الدولة واجهزتها

بدأت تعمل جزئياً بمنحى يهدف لتلافي نقص الامكانات. أنا والملحق، في اليوم التالي لتواجدي هناك عرفتُ بخلو المبنى من ساكنيه كافّة، عوائل فلسطينية وأخرى سورية ولبنانية وأسرتان من مصر، جميعهم غادروا الكويت خلال الأسبوع الأول للحرب الجوية. ضحى عاشر مارس زارني شاب كويتي دمث عرّف بنفسه. أنا إبن صاحب البناية. أهلاً وسهلاً. رددتها محرجاً، تبادر لذهني، مبلغ محدد بدل إيجار شهري، لكنّه وضّح. بنايتنا قديمة كفاية، قرر والدي هدمها وإعادة بنائها، أنتَ الساكن الوحيد. خلاصة لقائي بالشاب الدمث. لأنّي الساكن الأخيرأعفاني أبوه من دفع الإيجار لأشهر ستة قادمة، يبدأ بعدها عملية الإزالة. شكرته هو ووالده، وعدته أكون عند حسن الظن. أيامي من شهر مارس ذاك، شغلني هاجس الجنين، ما كنتُ أعرف وقتها إنّ الطفل القادم أنتِ. كنتُ أحدس، عهود وَلَدتْ أو أوشكتْ، فترة الحمل استنزفت حسابها، أحقاد خالتكِ سعود وأمكِ، المشاعر العدوانية التي يكنانها، احتمالات الإهانة، الصدّ، الطرد. صرفتُ ذهني عن فكرة الذهاب لبيت مشرف، لمرّة واحدة اقدمتُ اجريتُ اتصالاً هاتفياً. بلغني صوتُ أمكِ. السلام عليكم. شملني استغرابي. لم أعتد نمط استجابة إسلامياً، رغم هذا جاريتها. عليكم السلام. تعرّفتْ صوتي، سمعتُ غمغمتها. لعنة. قطعتُ الاتصال من فورها، مخلّفة مرارة الإحساس بالمهانة، حريّ بي أنْ لا أتصل، حالتي القائمة، القلق شأن شخصي، ولاسبيل أمامي سوى مبارك سويّد، رجوته أنْ يتقصّى، فاجأني ردّه. سبق له كلّف زوجته بالتقصّي، التمعتْ عيناه، تابع. عهود لم تضع وليدها بعد، ربّما تفعل ذلك خلال اليومين القادمين. احتضن قلقي، تراودني أمنيتي، لعلّ مشاعرالأمومة ما بعد الولادة تُحدث تغييراً نوعياً على سلوك عهود، الطفل كيان جديد منسوب لي مثلما هو منسوب لها، مبدأ المشاركة في مثل حالتنا قسري، لا بُدّ من وجود حدّ أدنى للتفاهم، ولم

يطرأ على بالي احتمال مواجهة سعود. حين أراد الأخير لقائي في السابع من اكتوبر احتلال جاء لعند الملحق دون أنْ يعلن عن وصوله، وقف هناك متحيّناً لحظة مغادرتي. طلاق بخط اليد وإلاّ. في الخامس عشر من مارس تحرير فعلها ثانية شبيهة بسابقتها. كانت الساعة التاسعة صباحاً، افتحُ باب الملحق تصدمني رؤيته واقفاً مبعدة أمتار، حالة انتظار، منذ متى. لوهلة أولى تملكني قلقي، احتمال تعرّض عهود لمكروه لدى مخاضها طفلنا وإلاّ ما جشّم نفسه عناء المجيء، خطوتُ صوبه. صباح الخير. اعتكر مزاجه أكثر، حدجني نظرة استصغار. جئتُ لغرض واحد. راودتني نفسي أوليه ظهري، أعود لملحقي، سمعته يضيف بنبرة احتقار. تعرفه تماماً. أتمالكني أنْ لا أردّ بالمثل. لا اعرفُ غرضك. عقد حاجبيه مستنكراً، ضغط فكيّه مدارياً افلات شتيمة. طلّق أختي. ها أنا اسمع طلب سابع اكتوبر احتلال ثانية، أتذكر نتائج مترتبة بدءاً من سيارة جيب روسيّة، سعود انسان غير مؤتمن الجانب، يجدر بي أنْ لا أقع في الفخ إيّاه، قلتُ له. حاضر. حدّق في وجهي مراوحاً بين الشك واليقين، اختصر ردّه. الآن. محاصرة مُذلة في الزمن الغُفل، أتوسّل أسبابي. حتّى يكون الطلاق رسمياً نمثُل أنا وأختك عهود أمام القاضي. يواصل تحدّيقه، أواصل دفعي بأسبابي. انهاء العلاقة الزوجية لا يقتصر على موقف الزوج وحده، عدا عن عدم جواز تطليق الزوجة الحامل. قاطعني محتدّاً. تكتب صيغة الطلاق الآن. الاحتمال معيار. اسمع يا سعود. قاطعني مصححاً. دكتور سعود. الاحتمال معيار. اسمع يا أنتَ، أنا لم أحلم بالزواج من أختك، لم أرغب، هي التي أرادتْ، أصرّتْ، خططتْ، نفّذت. فاجأني وجهه حمل انطباعاً بالارتياح. سواء جئتَ تطلب طلاق أختك أو لم تفعل، أنا قررتُ تطليقها. انفرج فمه عن ابتسامة تحدٍّ. اكتب صيغة الطلاق الآن. احتدّ صوتي أكثر. سأفعل أمام القاضي. أنتَ تماطل. أنا بدون يلزمني ضمان حق أبوّتي للطفل

وحـقّ رؤيتـي له بشـكل منتظـم. أنتَ مازلت تماطـل. صرخت به. هذه ليسـت مماطلـة. نفـض يـده. أنتَ حـر. أولاني ظهره. تحمّل مسـؤولية قرارك. قالها كمن يخلي ساحة ضميره، وقوفي هناك حائراً بي، بدا لي وكأنّ ذهني فرغ من كلّ شيء عدا معضلتي سعود، انشداه ازاء مجهول داهم يترصّدني، نسـيتُ السـبب الذي دفعني لمغادرة الملحق، إلى أين كنت انتوي الذهاب، حالة ضياع جديدة علي. كيف لذهن يصاب بعطالة مفاجئـة تشـبه فقـدان ذاكـرة محـدد، أصبُّ جام حقدي تجـاه غائب، أو اكتفي بالنكوص داخلي، كان حريّاً بي أنْ لا اظهر غضبي أمامه، سعود يبحث عن ذريعة تبرر له انتقامه، ادريه يخطط للغدر بي، تراه متى يفعل، أعود أجوس داخل ذهني، اللهاث جراء جهد عضلي حالة قابلة للتعامل معها، اللهاث الداخلي حالة كريهة ذات طابع استفزازي، محاصرة تكتم الـروح، قائمـة علـى تحـدٍ أجوف مترتّب عن يقين بالعجز، اسـمعُ طنيناً داخـل أذنـيّ، رافقه ألم بدأ بأسـنان الفك العلـوي، كيف، اخنسُ للألـم، أتابعـهُ آخـذاً يتكاثـف، لعلّـه ردّ الفعل النفسـي يتحـوّل عضوياً، تتصاعد وتيـرة الألـم، يصعـد للصدغين، الأرضُ توشـك تميد تحـت قدمي، أنا أجهلنـي، أجهـل مـا ينتابني، جسـدي كيـان غريب على فهمـي، خيارى الملـحّ الملحـق، أتمالـك خطواتـي، ادخـل، اطُبـق الباب، سـجّادة أمّي مفروشـة أمامـي، طنيـن الأذنيـن ونبـض الصدغيـن، كذلك الصـداع أو الـدوار، ذلـك كلّـه بامكانـي إحالته إلى ارتفاع ضغـط دم مفاجئ أعقب مواجهة انفعالية حادّة جاءت خارج الحسـبان، الألم الناشـب بالأسـنان من أين، جسدي مسترخ فوق سجّادة أمي، وجهي نحو السقف، احرصُ على انتظام عملية تنفسي، مسؤولٌ استعيد توازني، أنا وحيد، أنا متورّط، الكويت عادتْ، مؤهّلة تتعافى سريعاً أو وئيداً، ناسي الذين أعرفهم باتوا مهمومين بشأن إعادة ضبط رتم حياتهم إلى ما كانت عليه قبل الاحتلال، سعود لا همّ له إلاّي.

يا زينب، يصعب عليّ أنقل إليكِ مشاعري المحتدمة وقتها بالأمانة المطلوبة، ليس تهاوناً، لكنّه عجز الاستعادة، استعينُ بمثل دارج. كنُ نسيباً لا إبن عم. القصد توسيع شبكة الارتباط بآخرين من خارج علاقات أرحام قائمة، النسيب أخ مستجد، أبوكِ كما شاءت له مقاديره بلا أخ شقيق أو غير شقيق، بلا إبن عم قريب أو بعيد، حتّى إذا ما وقع في الحب وقع ببراثن نسيب لا يتردد عن افتراس أهل رحمه، يومي ذاك كنتُ في الخامسة والثلاثين، عهدي بي لا أشكو خلل ضغط دم، كيف لعلّة معينة تهاجم بغتة، أصغي لداخلي، يخفّ طنين الأذنين بعد نصف ساعة، حالة الدوار تبدأ تلاشيها، نبض الصدغين كذلك، وحده ألم الأسنان ظل يفرض حضوره، الكويت حرّة، الكويتيون أحرار، سعود حرّ يفعل ما يمليه عليه ضميره، سليمان الياسين يتواجد في فرنسا، هل الجأ لمبارك سويّد، دخيلك حياتي مهددة، أم أتوجّه من فوري للقاضي صلاح الفهد، عساك تجد لي حلاً نسيبي يتهددني، أصمتُ برهة أتاملني، لم ارتكب جرماً يعادل عقاباً، الاّ إذا كان زواجي من عهود، ولا اعتراض لدي أطلّقها استجابة لاشمئزازها، ما عدتُ أحلم بحياة زوجية، يكفيني اقتراف الخطأ مرّة، حريّ بمثلي أن لا يتزوج بالمرّة، أظنني قضيتُ ساعتين ساكناً فوق سجّادة أميّ، قبل أنْ اسمع طرقاً على الباب، خنستُ ساكن الأنفاس، لا أتوقعُ مجيء مبارك سويّد، ولو كان هو عرفته من توقيعه لطرقاته، القادم نفر غيره، توالى الطرق ثانية، بقيتُ خانساً، تناهى لأذني لغط أصوات رجالية. غير موجود هنا. ميّزتُ صوت سعود. سيعود حتماً. ياله من رجل عملي، يَعِد، يسارع ينفّذ، لو اعرف هويّات مرافقيه، انصتُ صوب الباب، حفيف خطوات ذاهبة، لماذا لم اسمع صوت محرّك سيارة خلال مجيئهم، أو عند انصرافهم، يسود الصمت، لا نأمة في الجوار، النقرة لم تعُد لسابق ضجيجها وزحمة أصوات ناسها، يفرغ ذهني برهة قبل اتخاذه منحى جديداً، افترضني لدى

بـدء طرقهـم البـاب بادرتُ إليه حاملاً ورقـة وقلماً، ما الصيغة المقترحة لمنطـوق الطـلاق، لا مانـع عنـدي اكتبهـا لكم، هاكـم خذوها، الموقف المتصوّر. الارتياح وارد، سحبتُ لصدري شهيقاً عميقاً، علاقتي الزوجية عـبء يثقـل حياتـي، خير لي ولعهود ننهي، رغم قناعتي هذه لم يزايلني الألـم الناشـب بأسـناني، اعتدلتُ جالسـاً، تذكّرت مكتب شـارع تونس، كنـتُ بصـدد التوجّـه لتفقّده لـولا الظهور غير المتوقّع لسـعود، انتظرتُ نصف ساعة إضافية، لا أحد، اتخذتُ قرار المغادرة، وإنْ ظهر لي سعود كتبـتُ لـه مـا يريد، فتحتُ الباب، رأيتُ شـاباً كويتيـاً يحثّ خطوه قادماً نحوي، تنبّهت لظهور ثانٍ من عند زاوية المبنى. السـلام عليكم. صوته مؤدّب حيادي. عليكم السلام. وجدتهما أمامي يسدّان عليّ ماذا. شملني انشـداهي. خير. تسـاءلتهما، انبرى أحدهما. أنتَ منسـي. أنا منسـي. اثر تلفظـي إسـمي سـمعتُ أحدهمـا يفيـد بالنبـرة الحياديـة المؤدّبـة. نحن أمن دولة. شُـدهتُ أكثر، غمغمت بصوت خفيض. أهلاً وسـهلاً. بادر أحدهما دس ذراعه تحت إبطي. تعال معنا. سارع الثاني لأبطي الآخر، رغم كابوسـية الموقف وجدتني أسـأل. أين سـعود. من هو سعود. مشيا بـي صـوب سـيارة صغيرة سـوداء اللـون واقفة وراء المنعطـف. أظنكم مخطئين. لاردّ. هناك سـوء فهم. لا ردّ. عند اقترابنا للسـيارة فُتح بابها الأمامي، ترجّل شاب ثالث سارع فتح بابها الخلفي. اركب. قالها الأوّل. حاذر رأسك. قالها الثاني. أنا لم ارتكب ما.لامبرر لخوفك. قالها الأول. مجرد إجراءات روتينية. قالها الثاني. اجلسُ في المقعد الخلفي وسـط إثنين، ثالثهم تولّى قيادة السيارة منطلقاً بها تجاه شارع المغرب السريع، إلـى أيـن يذهبـون بي، حبسـتُ سـؤالي لدقائق ثمّ صرحـتُ به، ردّ علي الرجل الذي يتولّى القيادة. سـتعرف بعد قليل. الأجابة وعدمها سـيان، ماذا لو تساءلت، لِمَ لمَ يأتِ سعود معكم، استبعدتُ السؤال، ما أدراني عن تبعات مترتّبة، أنا في حضرة أمن دولة، ثلاثتهم بالزي وطني، سـن

شباب، أيّ منهم لم يبلغ الثلاثين، سلوكهم، مقارنة بعسكر احتلال، لبق، وجوههم حليقة، بدوا لي موفوري الصحة مقارنة ب. أنا اعرفك. رددها الشاب الجالس إلى يميني. أنتَ أحد كتّاب جريدة السياسة. هل يقرأ رجال أمن دولة ما يُكتب في الصحافة قصد الاطلاع أم لأغراض تصنيف ملفّات. تحرّك الرجل الجالس إلى يساري استلّ قطعة قماش سوداء من جيبه، وجّه سؤاله لقائد السيارة. أُعصّب عينيه. فعل تعصيب العينين يقع عليّ، اختصر قائد السيارة ردّه. بعدين. قليل من المعرفة بالحدث القادم خير من جهله كلّه. ينتظرني اطباق جفنين جبري، حريّ بي اغتنم وقتي المتاح الآن افتح عيني سعتهما على مناظر محيطة، اختزنها عندي. لمّا صادرني عسكر احتلال عانيتُ الإحساس بالفجيعة وألم يحزّ القلب ازاء فجيعة أمي بي، مصادرتي الثانية منتصف نهار شهر مارس لم أعانِ إحساس الفجيعة بمعناه، عانيت ما يعنيه ظلم ذوي القربى. الاعتقال زمن الاحتلال، بصرف النظر أنْ يكون المتسبب سعود، أجده مبرراً، كنتُ أمارسُ نشاطاً يمتّ للمقاومة الكويتية بصلة، كنتُ ذا صلة. هربي وقتها يمثّل خلاصي، الاعتقال بعد تحرير الكويت، أجدهُ ماذا، أجدُ خلاصي كيف. بلغتْ بنا السيارة الصغيرة السوداء المنعطف الصاعد إلى الطريق الدائري السادس، سلكته باتجاه غرب، أدقق الجوار، نادي الفروسية أو ما تبقى منه على اليسار، تبان لعيني الشاشة البيضاء العملاقة لسينما السيارات، يلتفت الرجل الذي يتولى القيادة إلى رجل العصّابة السوداء. الآن. سمعتُ الآخر يهمس منحى اعتذار. تنفيذ تعليمات. احنيتُ له رأسي، حوّط وجهي ما فوق أرنبة الأنف بقماشته، عقدها من وراء، بينما أخذ الجالس على يميني يدي اليسرى، لامستني برودة المعدن، أطبقَ حلقة القيد. يدكَ الثانية. سلّمته يدي اليمنى، اكمل اقفال قيده، سمعته. نفكّه بعد وصولنا. لو سألته. وصولنا أين. صار الحدس سيّد الحواس، نشط ذهني محاولاً رسم خارطة لخط سيرنا، مالتْ بنا

السيارة يميناً، سلكتْ طريقاً جانبية، اجزم إننا دخلنا منطقة جنوب السرّة، بما يؤكد عدم تجاوزنا مبنى سينما السيارات. عصّابة العينين ظلام دامس كامل، لامس وجهي هواء بارد. الشاب الجالس إلى يميني انزل زجاج نافذة السيارة عنده.

الآن، وأنا أحرر هذه الأوراق، أعود القهقرى لأوراق سابقة صادفني فيها حلم شاركتني إيّاه أمّك عهود قبل تحققك أنتِ داخل سياقه، ليل حالك السواد، طريق مجهولة لي، أتولّى قيادة دراجة هوائية، أمّك راكبة ورائي، ذراعاها تطوّقان وسطي. متى نصل. لأنّي لا أعرف اجبتها. قريباً. وعندما سألتها إنْ كان الركوب اتعبها قالت. اتعبني الصمت. لستُ بصدد مراجعة تحوّلات الحلم، لكنّي أستعيد مفصلاً محدداً لم أجد له تفسيراً حينه، أعني به ترديد عهود لإسم سعود من غير مناسبة تقتضيها آليات الحلم، مع حضور سينما السيارات على الجانب الأيسر للطريق الليلية التي كنّا نسلكها، سيّارتهم السوداء تدخل جنوب السرّة، سينما السيارات على اليسار، قبل ساعات منه تواجد سعود أمام باب الملحق. طلّق اختي. الوضع المترتّب بعدها. السلام عليكم. نحن أمن دولة. بعد كمّ ورق كبير مكتوب أعودُ لذات الحلم، افهمُ آليات كانت مستغلقة عليّ، بعد زهاء عشرين سنة من اعتقالي عند باب ملحق سكنته ابقى عاجزاً عن فهم آليات عمل جهاز أمني عريق، أنا المخطوف. لا مبرر لخوفك، مجرّد اجراءات روتينية. الروتين أن لا أعرف إلى أين، وهو في الوقت نفسه تعصيب عينين وتكبيل يدين، اختفي، هكذا، فجأة ولا من يدري، توقّفتْ بنا السيارة لثوان، أخالنا تريّثنا عند بوابة دخول منشأة ما، القى قائدها تحيّته على أحدهم. جئنا بمتهم جديد. تحرّكتْ السيّارة، مشتْ برهة، توقّفتْ، تولّى الرجل الجالس يميني توجيهي خلال ترجلّي. حاذر رأسك. أنا وسط اللون الأسود، قادني من عند المرفق، مشينا خطوات. أمامنا سلّم من ثلاث درجات. قدماي تبذلان جهدهما تتحسسان،

اسمعُ لغط أصوات بشريّة. يميناً. خطوات أخرى. هنا. بلغني صوت أحدهم متسائلاً باستخفاف. ضيف جديد. سمعتُ استجابة مرافقي. نعم سيّدي. فكّوا عصّابة العينين، رؤيتي في البدء كانت مضببة يشوبها إصفرار باهت، وجدتني أواجه مكتب مسؤول باللباس المدني، تفحصّني برهة، فتح درج مكتبه، أخذ ورقة مكتوبة، مرر عينيه على سطورها، رفع بصره إلي. هل تحمل إثبات شخصيّة. في البيت. عاد تطلّع لورقته. أنتَ بدون. أنا من مستحقي الجنسيّة إسمي مُدرج ضمن كشوف فئة. قاطعني محتدّاً قليلاً. أسألك بخصوص وضعك الحالي. بدون. لدينا اخبارية تفيد بانضمامك للجيش الشعبي العراقي وقت الاحتلال. باغتني شعور الفخ، تساءلتني حائراً حاقداً في الوقت نفسه. كيف تسنّى لسعود بهذه السرعة. سمعتُ مسؤولهم. ما قولك. كلماتي تكاد تتفارر مني. هناك مسألة كيديّة، أنا متزوج من كويتيّة، أخوها أصرّ. قاطعني ممتعضاً. لم أسالك عن وضعك الاجتماعي. اخو زوجتي اضطّرني. اسكتني باشارة من يده. لا شأن لنا هنا بالدوافع والأسباب، احتفظ بدفاعاتك لحين مثولك أمام القضاء. لكنّ. نهرني. من غير لكن. لوّح بالورقة. لديّ اخبارية تفيد بانضمامك للجيش الشعبي العراقي، نعم أم لا. كان مجرّد تدريب. فوجئت به يرد غاضباً. شكراً. أومأ برأسه للرجل المرافق لي، إقتادني الأخير، سرنا عبر ممر بين مكاتب ينتهي بباب قضبان حديديّة، يقف عنده رجل أمن. لحظة. رددها مرافقي، أعمل مفتاحه بقيدي، حرر معصمي، في حين بادر رجل الأمن فتح الباب القضبان. ادخل. رأيتني وسط سقيفة تشبه قفصاً عملاقاً مربّع الشكل، يحوّطه شبك معدني يعلوه سقف صفيح. ثوان أولى، بدأت عيناي تعتادان عتمة المكان، رأيته مزحوماً رجالاً، لعلّ العدد جاوز المئتين، قارب ثلاثمائة، لا وجه اعرفه، سحنات شتّى، ميّزتُ لهجات البعض، جنود عراقيون تخلّفوا بعد انسحاب قوّات نظامهم، فلسطينيون اجهلُ أسباب تواجدهم، عرب

من جنسيات مختلفة، عشرات بدون، تهمة تخابر مع العدو أو التحاق بالجيش الشعبي، التهم على تنوعها تنضوي تحت مسمىً أمن دولة، هل يحق لي قولي، لست وحدي. بقيتُ واقفاً ازاء الشبك غير بعيد عن الباب زهاء ساعة نهباً لمشاعر خليط، إحساس مقيم بالظلم الواقع عليّ، أين وجه التقصير، إسترعى انتباهي صوت أحد رجال الأمن. منسي. رأيته يتأبّط دثاراً بلون الخاكي. فراشك. تأبّطتُ من جانبي دثاري، فكّرتُ بالاستعانة عن الوقوف بالجلوس فوق الدثار، أدقّقُ المكان متفحّصاً بعد رسوخ يقين المبيت هنا، الواقفون عشرات، اختاروا فسحة الأرض القريبة للشبك، مجاورة خارج القفص، رقعة الأرض المتبقية شغلتها صفوف متراصّة من الدثر، تزداد زحمة التراصّ في الوسط، كيف للواحد فرصة خلوته بنفسه، هناك في الزاوية الأبعد عن الباب قاطع معدني بارتفاع متر يحجز مساحة صغيرة سرعان ما عرفتها، دورة مياه، فرشتُ دثاري عند الشبك، جلستُ مسنداً ظهري إليه، باق هنا بإرادة من، توقّف أحدهم أمامي، لم ارفع عيني عن قدميه في البدء تحاشياً لما لا أدري ماذا، ريثما قال. أنا اعرفك. مرّة ثانية اسمعها خلال نهار غير عادي، الأولى كانت داخل سيارة أمن دولة توجّهتْ بي لهنا، الصوت ينمّ عن فضول عفوي، صعّدتُ نظرتي لوجهه، رجل ثلاثيني، لحية قصيرة، أنا لا أعرفك، قلتها صامتاً، لمستُ وِدّاً مضمراً في عينيه، استطرد منحى اشتراط. إنْ لم اخطئ أنتَ المنسي بن أبيه. وجه الصحفي هويّة تعريف، ليس ما يدعوني ابدو سلبياً، أومأتُ برأسي دلالة الإيجاب، فأجاني محدّثي اقعى قبالتي. أنتَ كاتب معروف. لزمتُ صمتي. لماذا اعتقلوك. لزمتُ صمتي. عسى أنْ لا تكون تهمتك ثابتة. لزمتُ صمتي، شابَ أساهُ صوته. التهمة الموجّهة لي ثابتة. سكتَ ثانيتين. أيام الاحتلال جنّدوني في الجيش الشعبي ألزموني أقف في نقطة سيطرة لمدّة شهر قبل أنْ أجد فرصتي أهرب واختبئ لحين التحرير. سكتَ ثانيتين. أحد الذين رأوني

واقفاً مع جنود نقطة السيطرة خبّر أمن الدولة. غافلته زفرته. أنا بدون. حـدّق إلـيّ فـي عمـق عيني. أنتَ كاتب كويتي معـروف ما الذي دفعهم لاعتقالك. أنا مثلك. فغر فمه دهشة. بدون. سمعته يردد آسفاً. لاحول ولا قـوّة إلاّ باللـه. أردتُ التخفيـف عنـه. اقتادونـي لهنـا نتيجـة إخبارية كيديّة. شدهني ردّه السريع. حسد. أكّد. يحسدون البدون على نجاحه. لم أجد تعقيباً يناسب استنتاجه. هبّ واقفاً. تعال معي. إلى أين. يجب أنْ لا تنـام قـرب الشبك. حرنـتُ حيث أنا. مـا الذي يمنع. هذا الموقع جزء من الصحراء، أنْ تنام لصق الشبك تكون عرضة للدغ العقارب أو الأفاعي الصغيرة التي تنشط ليلاً قادمة من النواحي الرملية المكشوفة.

لم تسألني عن إسمي. ابتسمتُ له. ما اسمك. عبد السلام. غارتْ إبتسـامتي. حضرتنـي عهـود أيام دمشـق، حديثها المسـتفيض بخصوص طليقها. عقد حاجبيه. ما بك. عسـى أن لا تكون مهندسـاً أيضاً. أطلق ضحكـة مفارقـة. من أين. تحصيله الدراسـي لم يتعـد المرحلة الثانوية، لديـه حـسّ الفنـان، بـرع في الخط العربي، بعد كدح دام عشـر سـنوات وفّق يسـتقل بمشـروعه الصغير، استأجر دكاناً في منطقة الفروانية، زاول مهنة خط اللوحات الإعلانية. استأجرتُ الدكان مطلّع شهر فبراير العام الماضي. سـتة أشـهر اعقبها الاحتلال ثمّ تواترت الأحداث، كنّا نجلس القرفصاء فوق دثارينا المتقاربين في العمق من القفص العملاق. يضطر الواحـد لمراعـاة ثبـات جسـده أثنـاء نومه حتى لا يحتك بجسـد جاره. إبتسـم. اطمئن سـتعتاد النوم مثل اصطفاف الحرف في الخط الكوفي، مسـتقيم لا يميل نحو اليمين أو اليسـار قيد شـعرة. لديهم سـجون كثيرة لماذا هذا القفص. السـجون الكويتية شـأن مرافق الدولة عامّة تعرّضت للنهـب والتدمير أيـام الاحتـلال، تحتاج إعادة تأهيـل. تريّث ذهني عند تعبير إعادة تأهيل، نفوس البشر تحتاج إعادة تأهيل أكثر. اضطروا لإقامة هذا الموقع على عجل. ماذا لو تضاعف العدد. يقيمون قفصاً ثانياً. لو

كان الظرف غيره ضحكنا، حوالي الساعة السادسة تسلّمنا وجبة العشاء، بضع قطع خضار مقليّة إضافة لرغيفي خبز، لو إنّ مبارك سويّد يعرف أمر اعتقالي، ادريه يذهب لهناك غداً أو بعد غد، ينقر الباب معلناً وصوله، يتوقّعني أبادر افتح، لا افعل، يخالني غادرت لقضاء حاجة، ينتظرعودتي، ينتظر، ينتظر، خرج ولم يعدُ. قال عبد السلام. الموجودون هنا. لا ادري لماذا لم يوصّف بالمعتقلين. ممنوعون عن الاتصال بأي انسان في الخارج نهائياً. لا أظنّه حدس ما كان يدور في ذهني. لو افترضنا إنّ أخاً أو قريباً لك شهد عملية اعتقالك عرف بتواجدك في عهدة أمن دولة. لامس صوته قرار حزنه. لا يُسمح لآخرين من الخارج بالزيارة مطلقاً. أتقبّل الحال لو كنا مانزال تحت احتلال، أمّا والكويت طامحة لان تُعيد النظر إيجاباً بقضايا الحريّة والديمقراطية وحقوق الانسان، الموقف الرسمي تجاه دول العالم الحر وقد تداعتْ لنصرة الكويت، تحالف كوني لم يسبق. أنتَ كاتب صحفي متمرّس. لم أفهم قصد عبد السلام للوهلة الأولى. يجدر بك أنْ تعرف. أعرف ماذا. الكويت، منذ اليوم الأوّل للتحرير، خاضعة لقانون الأحكام العرفية. إحاطة الموقع بالشبك من جوانبه الأربعة منح الريح حرية المرور عبره، رغم هذا نشط أنفي طفق يشمّ روائح الأجساد المحيطة بي، مع حلول منتصف الليل هدأت أصوات الهمس المتبادل بين المتراصّين، استسلم معظمهم للنوم، لحظتها عاودني ألم الأسنان بشكل حاد، لم أجد له مبرراً، تداعى ذهني يتذكّر تفاصيل غير مترابطة لرواية صغيرة مترجمة عن الفرنسية على ما أظن، قرأتها لمّا كنت طالب سنة أولى في المعهد العالي للفنون المسرحية، عنوان الرواية ظلام في النهار، إسم مؤلفها آرثر كستلر، أشارتْ مقدمتها إلى إنّ الأخير كان ماركسياً متحمّساً، تحوّل عن موقفه من ثمّ، صار معادياً شديد المراس للشيوعية، لا أتريّث عند أسباب تحوّلات المؤلّف، لأستعيد الأيام الأخيرة

للشخصية الرئيسية، راوي القصة في سجنه الإنفرادي ينتظر مواجهة مصيره، الإعدام، لا أتريّث عند مسوغات أو قرائن، أتذكر البطل راوي الحدث قابعاً في زنزانته، وقته المتبقّي عن موعد موته محدود بالساعات وهو مشغول لدرجة الانشداه بألم أسنانه، عُرف مُتبع قبل تنفيذ حكم الإعدام يسألون المحكوم عن طلب أخيرأو أمنية يجري تحقيقها له، ولا أتذكر إن كان المعني طلب عرضه على طبيب أسنان أم لا، موقف مفارق أنْ يفعل أو لا يفعل، المفارق أكثر ما الذي حفّز ذهني لاستعادةِ مثل هذه. من بين ما سارني به عبد السلام، المحاكم التي نحن بصدد المثول أمامها عرفية، المعنى المستهدف، أحكامها نهائية قطعية لا تقبل الردّ ولا الإستئناف، المعنى المضمّن، التعاون مع العدو، عند مستوى معين تحدده المحكمة، يرقى لمستوى الخيانة، التخابر أيضاً، العقوبة في حالات منها تصل إلى الإعدام، الحال مرهونة بمدى الضرر الذي أصاب الوطن أو لحق بمواطنين، عبد السلام عرف ينام، اعتياده رتم المكان جرّاء تواجده فيه منذ عشرة أيام، أنا لم اعتد بعد، عدا عن الألم الناشب بأسناني.

يازينب، الزمن مسار حساب تراكمي تنتظمه وحدات قياس معلومة، في حين إنّ العمر نوع من عدٍّ تنازلي تصادفه وحدات قياس نوعية خاصّة به لذاته. شهران مرّا عليّ وأنا داخل القفص الكبير وسط مئات وجوه مهضومة جزعة، أحسستنى أشيخ لعشرين سنة قادمة، ليست مسألة ضمور عضلي أو هزال جسدي مترتّب عن، لكنّها شيخوخة المشاعر مع نشاط ذهني محموم داخل دائرة مفرغة، المصير المنتظر، إئتلاف الظروف بعضها البعض، انقطاع أخباري عن الخارج، لا أحد يعرف بالذي يحدث لي لكي يبادر، للحظات متفاوتة كنتُ أفكر بالطفل، تراها عهود ولدتْ، وإنْ فعلتْ ماهو جنس الوليد، الإسم الممنوح، تراها عهود تتذكرني بصفتي أب الطفل، باتصال هاتفي أخير. السلام عليكم.

عليكم السلام. اللعنة. أقفلت الخط، أجزم إنّ علاقتنا الزوجية سكّة سد. لا اعتراض على الطلاق لو كان هناك خلاص من أمن دولة، لمرّات قليلة حضر سعود ذهني، هو يعرف ما أنا فيه، هل يزلّ لسانه، ينكشف لأمه، يزلّ لسان أمه تنكشف للعم فرحان ومنه لمبارك سويّد. لمرّة واحدة تساءلتُ. هل بامكان سعود ينام ليلاً مرتاح الضمير، سارعتُ استبعدت السؤال، سعود فاقد ضمير، راودني الأمل أن يكون القاضي صلاح الفهد أحد أعضاء المحكمة التي تحاكم أمثالي، هو يعرفني شخصياً، ولأنّه كذلك سينصفني حتماً، بعد شهر من وجودي عرفت، القضاء العرفي درجة محكمة كليّة بحضور ضبّاط قانونيين، صلاح الفهد مستشار محكمة استئناف، مات الأمل، مات ثانية عندما عرفتُ، المحاكمات تتم على عجل، هل أنتَ متعاون، بثبوت الحالة يصدر الحكم، ولا وجود لمرافعات محامين، الاّ في حالات نادرة جدّاً تحوي عوامل شكّ تستدعي المحكمة لانتداب محام. ألم الأسنان ظلّ يعاودني ليلياً اثر استلقائي على الدثار الخاكي طوال الشهرين، قبل أنْ يزايلني فجأة ولا يترك أثراً، حدث هذا بعد سماعي منطوق الحكم الصادر بحقّي. السقيفة القفص، زحمة شبه ثابتة، يقلّ العدد صباح كلّ يوم بنسبة ضئيلة، يجري تعويضها في وقت لاحق، قبل تسلّمنا وجبة العشاء يتلو أحد رجال الأمن أسماء الأشخاص الذين حلّ دورهم للمثول أمام المحكمة صباح اليوم التالي، عند الساعة السابعة صباحاً يجري حشد أولئك الرجال داخل سيارة باص عسكرية مقفلة معدّة لنقل السجناء إلى مجمع محاكم منطقة حولي حيث القضاء العرفي، قلّة نادرة من أبناء جاليات عربية يصادفها إطلاق سراح لانتفاء التهمة، البدون ممن تثبت براءتهم يُحكم عليهم بالإبعاد عن البلد بصفتهم مقيمين بصورة غير مشروعة، ينقلون لمركز تجميع في منطقة جليب الشيوخ كان ما قبل حدث الاحتلال منشأة تعليمية تُدعى مدرسة طلحة، لم تتخلّ عن

تسميتها السابقة صارت سجن طلحة، بعد تعزيزها على وجه السرعة بالقضبان الحديدية والأقفال الكفيلة، الذين تُصادفهم أحكام سجن يعادون للسقيفة وقتياً، ريثما تتم إعادة تأهيل أي من السجون السابقة، ذات مساء، بعد مرور شهر من تواجدي هناك، ورد إسم عبد السلام ضمن قائمة المطلوبين للمثول أمام المحكمة العرفية صباح اليوم التالي، شحب وجه عبد السلام لدى سماعه إسمه. إذا أعادوني ظهراً مكتوب لي أعيش. رددها بصوت راعش هامس في الوقت نفسه، المحكومون بالإعدام يرحّلون نحو جهة مجهولة، اجتهدالبعض قال. لعلّها قصر نايف، مبنى محافظة العاصمة، لعلّها مخفر الدسمة، لعلّها أين. ليلتنا تلك لم ينم عبد السلام، لم أنم، حاولتُ صرف ذهنه عن مجريات تنتظره، رويتُ له أحداث يومي الأوّل في مسرح الخليج، كيفية اكتسابي اسمي الفني اللاصق بي، عرّجت به على مغارة عين الخضرا، سطيحة المذبح، إطلالتها على الأفرع العليا لأشجار الحور العملاقة، صفير قطار المصايف، لفائف الدخان الأبيض الضارب للرمادي، الصاعدة منه باتجاه سماء خريفية. أنتَ محظوظ فعلاً. قالها كمن يغبط محدّثه، غافلته زفرة حرّى. مُنذ وُلدتُ لم تسنح لي فرصة السفر خارج الكويت. حدّثته عن قارئة البخت الغجرية، سوق الحميدية، المسجد الأموي، المطعم الكائن في محيطه بتخته الشرقي، رغم اسهابي اغفلتُ ذكر عهود نهائياً. مرّتْ ساعات الليل متباطئة بالنسبة لي، لاهفة مشحونة بالجزع لديه، لاشيء يعُدل خوف الموت إعداماً، صباحاً، قبل تصفيدهم يديه تمهيداً لأخذه للباص المقفلة بادرني عبد السلام بحركة غير متوقعة عندي حضنني قويّاً، وأنا استجيبُ احضنه خالجني إحساسي إنّ جسده يكاد يتقصّف تحت ذراعي، ثيابه كما يبدو أخفتْ هزال جسده، همس بصوت راعش يلامس الانتحاب. ادعُ لي.

نحـنُ عـبء ثقيل تجهدُ الكويت لخلاصها منه، قناعتي الشـخصّية يا زينب، حياة واحدنا عبء عليه، ارتباطاته العائلية مسـؤوليات مترتّبة، علاقـات الصداقـة فـي جانـب منها. قبـل ردح القفص السـقيفة لم أكن أعرف عبد السـلام الخطاط، اشـتراكنا المكان هناك ولّد هامش صداقة غير مخطط لها، لمّا اخلو بنفسي أحاججني، ناقص هموم، عبد السلام حتّـى يومـي هـذا ظـلّ نزيل ذاكرتي بطعم المـرارة المقطّرة، مغادرته في البـاص المقفلـة، أنـا حالـة انتظار يحزّ القلب، تـراه يعود في الباص إيّاه ظهراً، عاد عبد السلام ظهراً، رأيته عبر فتحات الشبك يترجّل، يقترب، اقتـربَ منـه أحد رجال الأمن، فـكّ قيد معصميه، فتح الباب الحديدي، دخـل، عينـاه لـم تفصحا شـيئاً محدداً، كانتا فارغتيـن، بادرته.الحمد لله على السلامة. قال. سجن عشر سنوات. سكت برهة. مع الإبعاد. ازمعتُ أعقّب. كلّ شيء يهون مادام لا إعدام. سمعته يغمغم مضيّعاً. إبعاد إلى أيـن. أزمعـتُ اعتـب. تشـغل فكـرك بأين تحلُّ بعد عشـرة أعوام. قلتُ. هناك منظمات وهيئات عالـمية تعني بشـؤون المسـتضعفين بشريّاً، مسألة حرمان الوطن لا تمثّل نهاية حياة. حدّق إليّ في عيني.هل تعتقد ذلك. ابتسمتُ له في عينيه، طمأنته. حالة إسمها اللجوء الإنساني، العديد من الـدول الأوروبيـة تقبـل اللجـوء. حاججني. هذا إذا وفّـق الواحد لبلوغ بلدانهم. حاججته بدوري. وجود منظمات دفاع حقوق إنسـان، صليب أحمر دولي. تحرّيتُ مفرداتي. إمكانية الاستعانة بهم. شردت عيناه في العمـق مـن عيني، سـألني إن كنتُ واثقـاً مما أقول، أومأتُ موافقاً. أنتَ تقلق تجاه أمر يحلّ بعد سـنوات، ما أدراكَ إنّ حال البلد، حال العالم برمته باقية كما هي. سـحب لصدره شـهيقاً عميقاً، عسـاهُ استعاد توازنه،

قال بنبرة حزن مغايرة. في طريق عودتنا لهنا خبّرنا أحد رجال الأمن إنّهم ينتوون نقل الذين صدرتْ بحقّهم أحكام إلى السجن المركزي. بقي أشهر، أعادوا له محاكمته، خفّضوا مدّة سجنه إلى سبع سنوات، قضى خمساً، اعفوه من المدّة المتبقّية، حسن سيرة وسلوك، نقل إلى سجن طلحة لغرض إبعاده، قضى سبع سنوات مترقّباً كيفيّة الإبعاد، نُقل من ثمّ لمقبرة صليبيخات بعدما قضى بسكتة دماغية.

الغرفة المخصصة لي في مبنى مسرح الخليج الآن، جلوسي متربّعاً فوق سجّادة أمي، بدءاً من أيام أولى كتابة أدركتُ إنّي أُلاحق مفاصل محددة لسيرتي الشخصية، مواصلة رصد السيرة أشبه بالخضوع لعلاج نفسي طوعي، مزيّة مضمرة بأن يتخفف الواحد من رواسب سابقة تستوطن دخيلته، الغرفة والسجادة والجلسة، بعد شوط سرد هائل الصفحات أحسني بدلاً من معالجتي نفسيّاً أكرّسني معتلاً بي، صرتُ على نقيض أيام سابقة أبحثُ عن ما يشغلني خارجي، الكتابة وأنا أشارف الانتهاء منها آلتْ جهداً قسرياً مملاً، أتمنّى زينب أن لاتصيبك عدوى هذا الملل، تصرفين رغبة مواصلة القراءة، أعود أتجاوزني مراهناً على عامل الفضول أقول، عندما اقعى ناجي العلي أمام باب الملحق، استعان بقصاصة ورق، رسمني بصفتي حنظلة الكويتي، عَنيَ بنقل الخطوط المتوازية المتقاطعة لصفوف الطابوق الجيري الذي بُني به جدار الملحق، لم تتبادر لذهني حينه فكرة القفص، اثر مغادرة عبد السلام قفصنا العملاق متوجّهاً للمركزي صادفني في داخلي فراغ موحش، سرعان ما تعبأ جزعاً تجاه مجهول قادم، الحكم المنتظر لقضاء عرفي، ساعات الليل، تحديداً، امتداد مفتوح، القلق بالأرق المصاحب، آل الاستغراق نوماً حلماً يستعصي نيله، فإن تحقق جاء مزحوماً كوابيس كافكا، أجواء رواية المحاكمة على وجه الخصوص، أفزّ لاهثاً مبتلاً عرقاً، العنُ الساعة التي قرأت، مساء اليوم الستين لبقائي هناك وقف

أحد رجال الأمن وراء الشبك حاملاً ورقة قرأ منها أسماء الأشخاص المطلوبين للمثول أمام القضاء صباح اليوم التالي، التقطتْ أذناي إسم منسي، كان الأخير في القائمة. لم أرتعب، شملني وعيي، هم تذكّروني، وهم يملكون حق تقرير مصيري، لا يد لي بما ستؤول إليه حالي، فيما يخصّني أردتُ أن أكون مجدياً إيجابياً خلال زمني، ليس اختياراً، لكنّه أنا، فيما يخصّهم لهم الأمر كلّه من قبلُ ومن بعد، ليلة قفص أخيرة آويت لدثاري حوالي الساعة العاشرة، أخذني نوم عميق جديد علي، خال من الأحلام أيّاً كان نوعها، الركون لليأس تسليم به. اليوم الفصل، استيقظتُ قبل الخامسة صباحاً، وجدتُ الرجال الذين سيحاكمون معي سبقوني بالاستعداد، لم تسنح لأيّ منّا فرصة تناول وجبة إفطار، لم يتبادر لذهن أيّ منّا أنْ يسأل، لكنّ أحد رجال الأمن تطوّع صرّح. تأكلون هناك. أحد رجال القائمة تساءل هامساً بمرارة. نأكل ماذا. تصادف أنْ يكون عدد المتهمين تسعة أنا عاشرهم، صفّدوا لنا أيدينا، اقتادونا إلى الباص الخاكية المقفلة إلاّ من نافذتين صغيرتين متقابلتين في أعلى الجانبين معززتين قضباناً حديدية، بينما فُصلتْ كابينة السائق عن جسد السيارة بشبك حديد. توزّعنا جالسين فوق مقاعد معدنية، يحرسنا ستة رجال أمن بماسورات بنادق حديثة موجّهة. وصولنا مبنى مجمع محاكم حولّي المطّل على شارع بيروت، أخذونا لقاعة أُقيم في أحد جوانبها قفص حديدي كبير مفتوح السقف، مزوّد بعدد كاف من الكراسي، ادخلونا القفص، اطبقوا بابه علينا، وقفوا عندنا مترقبين مجيء القضاة، أدرتُ عيني في المكان، قاعة فارهة، مصاطب خشبية طولية تحتلّ نصف المساحة، يتوسطها ممر بعرض مترين، من مشاهداتي لأفلام سينمائية خمّنت إنّها مصاطب مخصصة لجلوس الجمهور. في الواجهة منصّة مرتفعة مثل خشبة مسرح، تنتظمها طاولة عريضة، خلفها ثلاثة مقاعد جلدية وثيرة، مقعد رابع، من النوع ذاته، وضع عند الطرف

الأيسر للطاولة، مبعدة يسيرة منها مكتب صغير بمقعد مناسب، وقتها كان المكان خالياً إلاّ منّا ومن رجال الأمن المرافقين لنا، باقتراب الساعة للتاسعة دخل أحد رجال الأمن من باب جانبي على يمين المنصّة، صاحَ عالياً. محكمة. اتخذ َ وضع الاستعداد، شدّ رجال الأمن قاماتهم، وقف المتهمون، دخل ثلاثة قضاة من الباب الجانبي للمنصّة إياه، دخل باثرهم ضابط رتبة عالية، احتلّ القضاة مقاعدهم وراء الطاولة الكبيرة، جلس ضابط الرتبة على المقعد الرابع، وصل أحد الكتبة حاملاً كدس ملفّات، وضعها أمام قاضي الوسط، توجّه إلى حيث المكتب الصغير، جلس في حالة انتظار، ارخى رجال الأمن قاماتهم، عاود المتهمون جلوسهم، لأنّ إسمي من حيث ترتيب قائمة المتهمين ورد في ذيلها جرت محاكمة التسعة المرافقين لي قبلي، أربعة من أبناء الجالية الفلسطينية، إثنان نالا حكم براءة لانتفاء الأدلّة، الثالث ثلاث سنوات سجن مع الإبعاد، تهمة عقد صفقات تجارية مع جيش الاحتلال، رابعهم ناشط سياسي عضو في جبهة التحرير العربية الموالية للنظام العراقي، ثبوت جريمة التخابر والتعاون مع العدو مما تسبب باعتقال كويتيين، حكم مؤبّد. شاب مصري نال ما يشبه البراءة، عدم النطق بالحكم لعدم كفاية الأدلّة، دون إغفال مسألة الإبعاد، أربعة بدون، نال إثنان ما يشبه البراءة أيضاً، عدم النطق بالحكم مرفقاً إبعاداً عن البلاد جرّاء مخالفة قانون الإقامة، ثالثهم وكذلك رابعهم انخراط في الجيش الشعبي، عشر سنوات مع الإبعاد، طوال الوقت الذي استغرقته جلسة المحاكمة بقيت مقاعد الجمهور خالية إلاّ من رجل واحد بالزي الوطني دخل لدى بدء الانعقاد، جلس على إحدى مصاطب الصف الأمامي، سرعان ما فهمتُ إنّه محامٍ قيد انتظار انتدابه من طرف هيئة المحكمة للدفاع عن أي من المتهمين إذا دعتْ الضرورة. سارت اجراءات المحاكمة ضمن نسق واحد، يبدأ قاضي الوسط بتلاوة إسم المتهم، يستجيب الأخير يهبُّ واقفاً. نعم

سيّدي. يبادر أحد رجال الأمن يفتح باب القفص. تعال. يتولّى رجلا أمن اقتياد المتهم لكي يقف مواجهاً المنصّة، أحدهما يقف إلى يمينه والثاني يساره، يقلّب القاضي أوراق ملف بين يديه قبل أنْ يشرع يوجّه أسئلة محددة دقيقة تقتضي الإجابة بنعم أو لا، استجواب المتهم الواحد يستغرق ما بين عشر دقائق وربع ساعة، يتلقّى المتهم بعدها سؤالاً أخيراً. إنْ كان لديه ما يقوله بخصوص قضيّته، غالباً ما يجيء ردّ السؤال الأخير، أنا برئ، أو لا خيار أمامي وقتها سوى، وقتها يكتب قاضي الوسط ذاته بضع كلمات على ورقة عنده، يُريها لقاضي اليمين وقاضي اليسار، تُدفع الورقة، بعدها، للضابط الرتبة، يمعن نظره فيها، تعاد لقاضي الوسط ثانية، يحدّق الأخير لوجه المتهم، يتلو عليه الحكم الصادر بحقّه، الرجال الذين نالوا حكم براءة اندفعوا عفوياً هتفوا. عاشت العدالة. المحكومون تلقّوا نطقهم باحتفاء داخلي يفيد.الحمد لله لم ينلني حكم إعدام. رجلا الأمن وقد بقيا واقفين يحرسان المتهم خلال سماع أقواله وتلقيه منطوق الحكم عليه، يتوليّان إعادته للقفص. حلّ دوري، وقفتُ أمام القضاة، وجوههم لا تفصح عن إنفعالات محددة، كانت محايدة تماماً، محاكمة كافكا أمر مختلف، هناك روح عدائية تواجه بها الشخصية المعنيّة منذ اللحظات الأولى وحتّى ساعة تنفيذ الحكم، عند كافكا جهل مطلق بالذي يدور، سبقه جهل آخر بالأسباب الباعثة. حدّق إلي قاضي الوسط في وجهي بعدما انتهى من تصفّح أوراق ملفّي، قال من باب العلم بالشيء. أنتَ متزوج من كويتية. أردف بنبرة تُحيل للإدانة. أنتَ كويتي إلى حدّ ما. لم افهم القصد من، واجهني سؤاله. كيف سوّلتْ لكَ نفسكَ أنْ تنخرط في الجيش الشعبي المحتل لوطن زوجتك. ابقى عينيه على وجهي منتظراً ردّي. أخ زوجتي هو الذي اضطرّني. دهشته تعادل استنكاره. تعني إنّ نسيبك هو الذي طلب منك. لم يطلب. ارتفع حاجباه استغراباً. وضّح قصدك للمحكمة.

في شـهر اكتوبر احتلال قصدني لسـكني طلب تطليق أخته كتابة، ولمّا رفضّت قدّم لسلطات الاحتلال إخبارية تفيد إنّي شخص خطر. لم يرفع عينيه عنـي، أومـأ برأسـه دلالة الاصغاء. جـاء العسـكر واعتقلوني، في المخفر خيّرني ضابطهم بين السجن أو التطوّع. قاطعني مستنتجاً. لهذا السـبب تطوّعـت. أحسسـتني أقـع فـي فخ محكم، تفـاررت كلماتي من واجهة مخيلتي، رثيت حالي. على افتراض تصديقنا روايتك بخصوص كيدية نسيبك كيف نغفل حقيقة التحاقك بجيش عدو. تفاررت كلماتي أكثر، رسخ في يقيني إنّه يشكك بصدقيّة روايتي. حاصرتني كلماته أكثر. لو كان نسـيبك إنسـاناً سـيئاً كما تدّعي وشـى بكَ عند المحتل فهل تردّ له الصاع ترتكب جريمة تعاون مع العدو. الاتهام طابع إدانة دامغة، لعلّه لامس جرحاً نازفاً في داخلي، ناشـدته متوسـلاً. ليس هكذا يا سـيّدي. إذن. سـؤاله الموجـز جّـداً القاني وسـط خضم خبـرة أكرهها. كل الذي حـدث. لـذتُ بالصمـت ثانيتين، عيـون الجميع مشـدودة إلى. أخذوني لمعسـكر تدريـب وراء الحـدود مـدّة ثلاثة أسـابيع، تمكنّـتُ من الهرب صبيحـة يـوم عودتـي للكويـت، سـاعدني بعـض الاخـوة أحدهم قاض بمنصـب مستشـار، أخفونـي عندهـم ريثمـا تحـررت الكويـت. سـادت لحظات صمت، تمنيت لو إنّهم سـألوني عن إسـم القاضي الذي، لكنّ القضـاة الثلاثـة تبادلـوا نظراتهـم بينهـم، خلـص قاضي الوسـط لسـؤاله الأخيـر. هـل لديـكَ مـا تضيفـه لأقوالك. تشـجعتُ. لو انّكـم تحققتم. قاطعني زاجراً. أنتَ لا توجّه إجراءات المحكمة. أدركتُ جسـامة زلل لساني. آسف سيّدي. كيف لوهلة زمن قصير لا تتجاوز ثلاث دقائق أنْ تكـون معـادلاً مختـزلاً للعمر كلّه، أقف أمام منصّـة القضاة مقيد اليدين محروسـاً برجلـي أمـن منتظراً تلقّـي منطوقهم، الحـال القائمة إجراءات محـددة، كنـتُ شـاهداً على محاكمة تسـعة رجال قبلي، أسـئلة واضحة تقتضـي إجابـات بالاثبـات أو النفي، يعقبها سـؤال ختامي يخصّ أقوالاً

أخيـرة للمتهـم، المـدّة الفاصلـة بين سـماع أقوال أخيـرة وتلاوة منطوق الحكم لا تتجاوز دقيقة واحدة تقتضيها كتابة بضع كلمات واطلاع باقي الأعضاء عليها بما فيهم الضابط الرتبة. لا وجه لمقارنة وضعي بأوضاع متهمين سبقوني، أقفُ حابساً أنفاسي أتطلّع لقاضي الوسط، رأيته يشرع بالكتابة، أظنّه خطّ كلمتين أو ثلاثاً، توقّف بعدها، رفع وجهه، حدّق في وجهـي، نظرتـه لا تحتمـل حسّـاً عدائياً، رفع عينيه عـن وجهي، التفتَ، همس لقاضي اليمين، اومأ الأخير برأسه موافقاً، التفت لقاضي اليسار، الهمـس بالزمـن الذي اسـتغرقه، هفتْ روحي، تسـارع لهاثـي الداخلي، ضاق فضاء المكان بي، عساهم أنْ لايجمعوا على اصدار حكم بالمؤبّد، اسـتبعد الاعدام أو لا أجزم، عاد قاضي الوسـط بعينيه لوجهي، تسـاءل بنبرة صوت محايدة. أنتَ أحد كتّاب جريدة السياسـة. اسـتغلق فهمي، مدى تأثير إجابتي على صياغة الحكم، ما ادراني إنّ كلمة نعم لن تكرّس أكثر أو العكس، لو أجبتُ، تركتُ العمل في جريدة السياسة منذ ما قبل الاحتـلال، حسـمتُ تـرددي. نعم. مـرّ زمن خلته طويـلاً، انكبّ قاضي الوسـط علـى ورقتـه يكتـب، القاضيـان العضـوان يتابعان، قـرّب قاضي اليمين رأسـه، همس، اصغى قاضي الوسـط برهة، ثمّ انهى كتابته، مرر الورقـة للضابـط الرتبـة، اطال المعني تحديقه فـي الورقة، عقد حاجبيه، خيّـل لـي إنّـه امتعـض، نهض عن مقعده حاملاً الورقـة، مرّة أولى يترك مكانه، اقترب لعند قاضي الوسـط، انحنى، همس، بادله قاضي الوسـط همسـه قبل تسـلّمه الورقة، عاد الضابط لمقعده مُبقياً حاجبيه معقودين، تقاربتْ رؤوس القضاة الثلاثة، خلتهم يزمعون إعادة كتابة الورقه الحكم درءاً لاحتجاج أو عدم رضا، شملني شعور باليأس يدعمه قنوط، تسليم ازاء الآتي، هذا أنا ولا مفر من تقبّل المصير، اعتدل القضاة الثلاثة في جلستهم، الورقة الحكم هي هي، بدأ قاضي الوسط تلاوة حكمه. تشتت ذهني بادئ التلاوة، غاب عنه الإلمام بتوطئة مغايرة لاحكام من سبقوني،

فهمتُ ما مفاده. لأنّ المدعو متزوج من كويتية، ولأنّ الظروف المصاحبة لارتكاب جريمة التطوّع في جيش شعبي، ارتأتْ المحكمة معاملة حالته بعين الرأفة. ما ذكرته آنفاً لايمثّل نَصّ المنطوق حرفيّاً، لكنها محاولة الإلمام بالديباجة، الكلمات التي ميّزتها لترسخ في الذاكرة، السجن خمس سنوات مع النفاذ. ولا ادري إنْ كانت الرأفة اختصت بعدد السنوات، أو لكونها نصّت على النفاذ بدلاً من الإبعاد عن البلد، ولامكان لاحتجاج يفيد، هذا ظلم، في طريق عودتنا داخل باصنا الخاكي المقفلة ساررتُ شاباً فلسطينياً من بين الذين نالوا حكم براءة. رجاء مهاتفة مبارك سويّد، منسي بسبيله للسجن المركزي. وهم يعيدوننا للقفص السقيفة قالوا لنا. كونوا مستعدّين تُنقلون غداً صباحاً إلى السجن المركزي. قضيتُ ليلتي الأخيرة هناك محاولاً إعادة تنظيم محتويات ذهني، أدريكِ تستغربين صياغتي مفرداتي زينب، مادام الذهن لا يشبه ملفّاً يضمّ كمّاً من وثائق يُعاد تنظيمها أبجدياً، ولا رفوف مكتبة اتسمت فوضى بما يقتضي تصنيف محتوياتها، لكنّها مفارقة منحى التفكير عند الناس البدون إحالة على سبب معلوم، حياتهم في مجملها مفارقة مؤبّدة. أفكر، امعنُ التفكير، أموري بدءاً من يومي إيّاه واضحة، خمس سنوات مركزي، كيفيّة قضائي لها مرهونة بطبيعة مكان اجهله، سبق لي خبرت اعتقال غرفة حجز مخفر نقرة عشرة أيام، أيامي تلك رغم محدوديتها كانت طويلة مرهقة، الخمس سنوات حال مغايرة، توطين النفس على إنّ السجن وطن، لا أظنهم لدى اجتيازى بوابة سجنهم يبادرون يسألون. هويتك. البطاقة المدنية الكويتيّة التي سلّمها لي القاضي صلاح الفهد في بيت السالمية زمن احتلال صارتْ منزوعة الفعل مع التحرير، عدا إستفادة وحيدة تجاه سيطرة كويتية طيّارة ظهر يوم تحرير أوّل. حيّا الله أهل فيلكا، الشخصية المنتحلة محمد علي أحمد عبد الله يعاقب عليها القانون، الشاب المهذّب إبن مالك العقار جاءني قبل

مجيء سعود بأيام، أنا الساكن الوحيد، والده قرر هدم العقار، أعفاني من دفع الايجار لمدّة ستة أشهر، عامل الوقت، المهلة الممنوحة آخذة تتآكل، إن لم يبادر شخص من طرفي ينقل متعلّقاتي، دولاب ملفّاتي على وجه الخصوص، سجّادة أميّ أهميّة أكثر، إلى مكان ثان، يأتمن نفسه عليها لسنوات خمس قادمات، وبعكسه يحار مالك العقار بمخلّفات عائدة لشخص لا أثر له، ولا خيار أمامه سوى التخلّص منها. أحدسكِ تستغربين منحى انشغالات ذهني، أخالك تستنكرين اغفالي واعز أبوّتي تجاه مولود هو أنتِ، لعلّك تعتبين. تخصّ ملفاتك وسجّادة أمك باولوية اهتماماتك ولا تتكلف عناء التفكير بكيان إنساني يحمل إسمك. إسمي منسي بن من. أملِك اتخذت قرارها، صنّفتني بحكم المنسي، لابدأ بالضد من إرادتي مسار مواجهة خالكِ. لقائي الأخير مع مبارك سويّد فهمتُ منه. عهود توشك، مؤهلة تضع وليدها قريباً. استنتج إنّها ولدتكِ بعد إعتقال أمن دولة بأيام، ظرف الاحتلال والاستيلاء على الأجهزة والمعدّات العائدة للمستشفيات الكويتية، الأخيرة لم تستعد إمكانياتها كاملة تزامناً مع التحرير مباشرة، أمّكِ اعرفها متعسّرة النفس والسلوك، ما أدراني إنّها لم تتعسّر ولادتها، تموت خلال الطلق، أو يولد الجنين ميتاً، أفكاري هذه تناهبتني خلال زمن السقيفة القفص، انقطاع كلّي عن الخارج، أنا وحدي، لا وجود لمن يمتّ بصلة فيسأل، الإنسانة المفرتضة شريكة حياة تخلّتْ، ثم تسببتْ، خالكِ سعود استنزف جهده لمّا كنتُ مطلق السراح. طلّق أختي. وسط الظرف راودني سؤال. هل تتيسر له فرصة ملاحقتي داخل السجن المركزي. المنطوق بخط اليد. الأبوّة التزام مسؤول. مِن أين لواحد مثلي فاقد مسؤوليته تجاه نفسه أو حياته، محكوم بناءً على ماذا، أنْ يصرف اهتمامه نحو مَنْ. اخلاء الذهن اعتراف بالعجز إنْ لم يكن صنف هرب إلى أمام. المؤمنُ لا يُلدغ من جُحر مرتين. أنا حالة شاذة، لو إني بعدما لُدغت من جحر سعود اكتوبر

احتلال، ختمتُ الدرس، سلمته بخط اليد في مارس تحرير لمّا كانت أمن دولة ولا قفص سقيفة، ولا مثول أمام، تذرّعي بمحاولة حفظ حق أبوّة أو حق رؤية وليد لا يعدو قبض ريح، لتتحول أمّلكِ عهود لعنة طاردتني فوق الاحتمال. كان الوقتُ ضحى يوم اثنين، اقترب أحد رجال أمن السجن المركزي من الزنزانة، تفحّص وجوه السجناء من وراء قضبان بابها. أيّكم يُدعى منسي. انتابتني مشاعر خليط، خوف، جزع، توقّع، ولأنّه لا وقت للتردد. أنا. أشار رجل الأمن لآخر في طرف العنبر، اقترب الأخير، وضع مفتاحه في قفل الباب. تعال. خاطبني الأول. إلى أين. لم يجب من فوره، اصطحبني الرجلان بعد تصّفيد يدي، أخذاني خارج العنبر لقاعة مزوّدة بكابينات صغيرة المساحة، يفصلها زجاج عازل معزز بالأسلاك. عندك مقابلة. قالها أحد الرجلين، دفعني داخل أقرب كابينة، أطبق الباب، احتلّ واجهة مخيّلتي سؤال لاهف، مَنْ الذي يقابلني. شهر ونيفّ على تواجد الزنزانة وما عنّ لأحدهم أنْ، أتفحّص المكان، مساحة متر مربع واحد، مقعد خشبي لا ظهر له، بمواجهة عارض خشبي يعلوه جهاز هاتف، يقابله من الجانب الآخر وراء الزجاج العازل جهاز هاتف ومقعد شبيه، الكابينات الباقية خالية، وحدي، عاد رجل الأمن فتح الباب، نبّه بصوت جاف. مدّة الزيارة عشر دقائق فقط. لا ادري إنْ كانت الدقائق العشر بدأت حال دخولي الكابينة، أو ستبدأ مع وصول الزائر، تبادر لذهني سؤال هزّ كياني، ماذا لو كان سعود هو القادم، لا مفرّ لكَ من تطليق أختي، أطلتُ التحديق عبر الامتداد المقابل للقاعة، هناك باب وحيد في طرفها الأبعد، لا بدُّ للزائر القادم أنْ يدخل منه، لحظتها خلصتُ لقراري، إن كان سعود سارعتُ للباب عندي، قلتُ لرجل الأمن المرافق، أعدني للزنزانة، فكّرتُ برهة موازناً قراري، ما ادراني، في حالة رفضي مقابلته، لن يعمل على مضاعفة مدّة محكوميتي، فكّرتُ برهة أخرى موازناً استنتاجي،

يموت سعود في غيضه، لم يبق لدي ما احرص عليه، مرّت ثوان بدت طويلة ثقيلة، فتح الباب البعيد، وقف أحد رجال الأمن في فرجته مفسحاً طريق المرور لمن، أتطلّع، يصادفني احتفاء داخلي طاغ، عيناي تحضنان قامة مبارك سويّد يخطو مقترباً.

يا زينب، البنت ابّان طفولتها تتعلّق بأبيها أكثر من أمّها، لعلّه نمط إعجاب يجسّد صورة الرجل المثالي، وأنا إتفحّصني تجاهك أجدني مرتبة ملتبسة، عدا عن كوني اجهل كيفيّة تنشئة أمّكِ لكِ، صورتي المنقولة من طرفها، أو عبر أطراف أخرى ساهمت ببناء شخصيّتكِ، أنا منسي إسماً، في الوقت ذاته أجزم إنّي منسي حقيقة، يبقى السؤال المحيّر إنْ كان نهج التنسية يعود بمردود إيجابي ازاء تشكّل حياتك أم بات علامة استفهام كبيرة تتصدّر واجهة مخيلتكِ تسبب لكِ معاناة أجهلُ آثارها، هناك من يقول. فكّ ارتباط أبناء المرأة الكويتية بابيهم غير الكويتي بعد طلاق بائن يساعد على دمجهم في جسم المجتمع هنا، وإلاّ رجحتْ كفّة انتمائهم لوطن الأب. حالكِ مستثناة مادمتِ لستِ هنا، وأنا الأب بدون وطن. هذه التوطئة تُحيلني إلى ما عانيته طوال خمسة وثلاثين يوماً زنزانة سجن مركزي سبقتْ زيارة مبارك سويّد لي. في سياق قراءات سابقة صادفني مفهوم عدمية، المعنى العابر للذهن لاشيء، لم أعنِ أدقق ما وراء اللاشيء، سياق قراءات لاحقة عرفتُ إنّ العدمية نهج فلَسفي، مدرسة فكريّة لها منظّروها وأتباعها، بما جعلها تتبوأ فسحة إهتمام، رغم هذا لم أعنِ أتعمّق كي افهم، السبب بسيط، لم اهتم، لحين معايشة ماهو مركزي، أَنْ تكون شيئاً ضمن مجموع، يراه الآخر، متجانساً، التجانس تساوٍ بين مكوّنات القطيع، العدالة أخذتْ مجراها، القانون قال كلمته، مُدد المحكوميات بمضاهاة الجرائم المرتكبة، التزام صارم باللوائح المنظّمة، أنتَ داخل زنزانة، السجون حول دول عالم أوّل متمدّن متشابهة، السينما الأمريكية بأفلام لا حصر

لها اظهرتْ هندسة بناء السجن من داخل أو خارج، العنبر الذي أعادوا تأهيلـه علـى عجل بعد تدمير احتلال يشـكّل مبنـى طولياً عملاقاً يتألف من طابقين، يضمّ الطابق الواحد حوالي ثلاثين زنزانة، تنتظم في صفّين متقابليـن يفصلهمـا ممـر يتجـاوز عرضه ثلاثة أمتار، الزنازين مسـاحات متقاربة، صُممت واحدتها لكي تسـع سـبعة أسـرّة حديدية ثُبّتت أرجلها بـالأرض الكونكريتيّـة، لأسـباب تخـصّ عسـكر الاحتلال جـرى اقتلاع الأسـرّة مـن جذورهـا، نُقلـتْ إلى مـا وراء الحدود، عمليّـة إعادة تأهيل العنابر بعد التحرير بالسرعة التي رافقتها، لم يجر الالتفات لوضع أسرّة، صار النوم أرضاً، مسطّح المساحة مع توافد نزلاء أكثر يسعُ أعداداً أكبر، شـارفتْ الثلاثيـن للزنزانـة الواحـدة، دون اغفـال وجـود دورة ميـاه في الداخـل. يـوم وصولـي سـلّموني الفراش العهـدة، صنّفونـي أحد نزلاء زنزانة رقم 7، إقتادوني لها، زحمتها بسـجناء سـبقوني لهناك، وجدتني ملزمـاً افتـرش مسـاحة الأرض الأقـرب لدورة الميـاه. الأخيرة لا تعدو كونها سـاتراً معدنياً بارتفاع متر واحد مفتوح السـقف. من بين حواسـيّ الخمس، حاسّـة الشـمّ هي الأقوى، ابذلُ جهدي أتآلف، أعجز، ينتابني غثيان يصحبه دوار، يعقبهما ماذا، سـاعة أولى، سـاعة ثانية، راقبَ أحد رفـاق الزنزانـة معاناتـي قـال مضمناً سـخرية مُنضبطة. أنـتَ إبن عز كما يبدو. لو إنّ الظرف غيره أجبته أنا إبن ملحق نقرة، لكنهّا عدائية الأنف ترقـى لمسـتوى خيانـة، غربـة المـكان والوجوه المحيطة، الكرامة شـأن يتوجّب تجاوزه، لا مفرّ من محاولة تأقّلم. لأنّي نزيل السجن المركزي خالجني أمل لقاء رفيق القفص السـقيفة عبد السـلام الخطاط، لن نعدم لغة مشتركة نستعين بها على الركود الخانق لزمن المحكومية، أمل لقاء المعنـي لـم يعمّـر طويـلاً، هـو نزيـل زنزانة تقع فـي عنبر ثـان، اللوائح المنظّمة تمنع، وتسـمح لو كان أحدنا خارج أسـوار السـجن باسـتصدار إذن زيـارة، للضـرورة أحـكام تشـمل الجميع، الاحتـلال وحجم الدمار

الذي خلّفه، التحرير أشهر أولى، محاولات إعادة التأهيل جارية، معظم العنابر ما زالت قيد الترميم، إدارة السجن مضطرة تُبقي السجناء داخل الزنازين لحين. عصر أحد الأيام مرّ ضابط رتبة ملازم أوّل على الزنازين، سلّم لكل زنزانة ورقة مطبوعة، لزوم الاطلاع، أشبه بخطاب موجّه لمن يشملهم الأمر، اجتهد سجين من بين أوائل النزلاء استنتج. كتاب صادر عن مسؤول كبير. الكِبر يعني الأهمية القصوى. سعينا الحثيث لتحسين ظروف معيشتكم، توفير أسباب الراحة الممكنة، إعادة النظر بمسألة وجبات الأكل، في القريب العاجل إن شاء الله نَفْرِد قاعة لتناول الطعام خاصّة بكلّ عنبر، قريب عاجل أيضاً توفير ساحة تريّض تحوي ملعب كرة، قريب عاجل ثالث الانتهاء من بناء عنابر جديدة تحوي أسرة نوم، تمهيداً للقضاء على ظاهرة الازدحام المُربك. للعلم والإحاطة، غداً صباحاً يستقبل سجننا وفداً رفيعاً من اللجنة العليا لحقوق الإنسان العالمية لغرض الاطلاع على أوضاع السجناء، مطلوب تنظيف الزنازين والظهور بمظهرحضاري لائق يرضي الضمير ويردّ كيد أعداء الكويت بخصوص إساءة معاملة السجناء. المشمولون تداولوا أمرهم، تنظيف أرضية الزنزانة مقدور عليها، تلميع قضبانها ممكن، المظهر الحضاري يقتضي نظافة أجسام تعلوها ثياب توحي بالنظافة، تحقيق ذلك محاولة بائسة، دورة مياة الزنزانة مرحاض أرضي ضمن فسحة قرفصة الشخص، إلى جانب صنبور ماء وحيد، اقترح أحدهم. نبلل خرقة قماش نمسح بها أجسادنا. عقّب ثان. نظافة الوجوه أهم. تدخّل ثالث. الأكثر أهمية أن نبدو راضين سعداء ولا يغيب عنّا ملاقاة الزوّار بالابتسام. حفاظاً على وظائف الجسم الحيويّة أنتَ مُطالب تأكل، الجراية المقررة ثلاث وجبات يومياً، الإفطار صباحاً بيضة ورغيف خبز، تُستبدل البيضة احياناً بشريحة جبن مثلثة أو فول، الغداء رز يُضاف له حساء خضار يسمّيه السجناء تيمّناً مرق هواء لأنّه خالٍ من اللحم، العشاء حساء العدس مع

خبز، يُستعاض عن العدس في بعض الأيام بالمعكرونيا، ماء الشرب من صنبور دورة المياه، ثار أحد السجناء مرّة، صرخ عالياً محتجّاً على نوعية الطعام، عوقب بالاحتجاز مدّة اسبوع، زنزانة انفرادية، أجهلُ موقع الزنازين الانفرادية ونوع العقاب المصاحب، لو كان أمري عائداً لي سجنتُ نفسي انفرادياً في ملحق النقرة، دولاب ملفّاتي لا يجد من يتفقّده، الوقت حالة ركود ثقيل، اليوم الواحد يعادل ردحاً مقارنة بالزمن خارج السجن، بعد اسبوع من ملازمتي موقعي المجاور لساتر المرحاض تدجّن أنفي، بدأ يتقبّل الروائح المنبعثة. رتم الحضور، أنتَ رقم، أنتَ شيء ضمن كَمّ، أنتَ منسي تماماً، ما ادراك إنّك باقٍ حيّاً حتّى انقضاء سنوات محكوميتك، ما ادراك تُعاد محاكمتك لسبب عائد لسعود وينالك المؤبّد، ربمّا أبعد من المؤبد، مقيم هنا، خَرَجَ ولم يعُد. الطعام ثلاث وجبات، الزمن وجبة مستديمة تواصل مضغها بمرارة، أيام الملحق مقارنة بأيام بيت السالمية، غرفة السطح، مستشفى هادي قيد الرؤية، الخضار الورقية، النبتات الآيلة للموت عادتْ حيّة بعدما أوليتها عنايتك، الذكرى مدعاة ألم غير مجدٍ، خيرُ لك أن لا تصيب روحك بالمرض، عليكَ اخلاء ذهنك من أيّما فكرة ذات ارتباط، حري بك أنْ تكون ذا رأس فارغة من كلّ الذي يمتّ لماضيك بصلة، أنتَ منسي، أنتَ شيء، وإنْ أردتَ توصيفاً أدق أنتَ لاشيء، مجاراة مدركة لحالة انعدام قيمة، الحضور الجسدي شأن غيابه، بلا ثقل نوعي، العدميّة كما قرأت عنها نظرية فلسفية محررة ورقياً، أنْ تعيشها معاناة التماهي بما لا علاقة له بالورق، عدميتكَ تلك يسّرتْ لكَ قبولك يأسك، أنا هنا، الداخل هو الخارج، ولا من مكان خارج تصبو إليه، لا الآن القائم، ولا الآن القادم، ما دام الزمن حالة آنية محضة، المستقبل اكذوبة لا تحتمل الاثبات في السياق العدمي غير النظري، ظننتكَ رسّختَ قناعاتك، ارتضيتها نهجاً معاشاً، لولا الظهور غير المتوقّع لمبارك سويّد وراء زجاج عازل معزز

بالأسلاك لكابينة مقابلة نزلاء. رأيته، رآني، تسارعتْ خطواته بالاتجاه، صدرتْ عنه حركة أشبه بمن يهمّ يفتح ذراعيه، أنا، راوحتْ قدماي في المكان، الحصار داخل علبة الكابينة إحباط أم قنوط شعوري، وجه مبارك سويّد حمل انطباعاً محتفياً خالطه أسى شفيف، قال كلاماً لم تلتقطه أذني، أشرتُ لجهاز الهاتف الموضوع فوق الطرف المقابل للعارضة، خطفَ السمّاعة، خطفتُ سماعة الهاتف الكائن أمامي، سمعته يردد متشككاً. أنتَ حيّ. خانتني كلماتي، أو إنّه الاختناق بمحاولة حبس الانخراط بكاءً، لوّحتُ رأسي دلالة الضياع. كيف حدث هذا. حنجرتي باقية تحبس صوتي، لوّحتُ رأسي ثانية، عيناه تسبران وجهي. لماذا سُجنت. الدلالة الواردة هو لا يعرف. سعود كما يبدو كتم السر، سمعته يردد منحى استنكار.لا تقل لي إنّه سعود. تحرّك رأسي إيجاباً، اطلقَ زفرة صاحبتها شتيمة، تلفّتَ حوله، عدّل مِنْ وضع المقعد الخشبي، جلس، جلستُ، ارختْ حنجرتي حصارها لصوتي، أوّل فكرة وردت ذهني. مدّة اللقاء عشر دقائق. ابتسمَ مُحبطاً، أردتُ استغلال الدقائق المتبقية، خبرّته بخصوص متعلّقات ملحق النقرة، مالك البناية، ازماع الهدم، ملفّاتي وسجّادة أميّ. سألني ثانية، كيف استطاع سعود، اختزلتُ له حادثة مجيء سعود، مجيء رجال أمن دولة، القفص السقيفة، المحاكمة، ردد مبارك سويّد يائساً. الأحكام العرفية نهائية، خمس سنوات، كان الله بالعون. استدرك. ولا أحد يدري. سكت وهلة. القاضي صلاح الفهد موجود في بريطانيا منذ أسبوعين، مشاكل صحية متعلّقة بالقلب. سكتَ وهلة أخرى. سليمان الياسين عاد من فرنسا قبل يومين، لم تسنح لي فرصة رؤيته بعد. سمعتُ خبطة حذاء أسفل الباب ورائي، رجل الأمن ينبّهني للوقت، قلتُ لمبارك سويّد. عساني أراك ثانية. استمهلني باشارة يده. إليك هذا الخبر. تكررتْ خبطة الحذاء العسكري على الباب ورائي، انهى مبارك سويّد. عهود ولدت بنتاً سمّتها

زينب. عشر دقائق زيارة أعادني بعدها رجل الأمن إلى زنزانتي رقم 7 شخصاً آخر، صادفني ما يشبه الانقلاب الداخلي، توارتْ عدميتي وراء غلالة أمل رقيقة، عدتُ أعاني احساسي بآدميتي، الخمس سنوات سجن مع النفاذ تعني ستين شهر غياب عن الخارج، حساب الأيام 1825 ولا أنس إضافة يومين لسنتين كبيستين، العدد 1827، قضيتُ منها 35، يتوجّبني انهج عدّاً تصاعدياً لتوالي الأيام. هناك من قضوا مدد محكوميات أطول، خرجوا للحياة ثانية، واصلوها بهذا الشكل أو ذاك، مسألة صاحب سوابق أمر مقدور عليه، لستُ موظفاً كي أحرم من. يجيء يوم، أغادر السجن، ابدأ حياة، لدي من يمدّ يد العون، الأصدقاء وحدهم، ولن أكون مسؤولاً تجاه أحد غيري، عهود مؤهّلة تتكفّل بالوليدة زينب، استعيد أيام خريف عام 1985، دمشق، اصطحاب عهود لي، مقام السيّدة زينب، نذرها الذي تقدّمتْ به، إنْ رُزقتْ بنتاً، بعد خمس سنوات وبضعة أشهر رُزقت بنتاً، وفّت نذراً، دون التفات لأب معني، بعدما ينهي الأب خمساً مع النفاذ، يغادر السجن تكون زينب أنهت خامستها، لو سنحت له فرصة رؤيتها، ناداها، يا زينب، ما أدراه إنّها تركض إليه بما يضطرّه يقعي أرضاً فاتحاً ذراعيه، في حالة وصاية الأم للطفل يكفل القانون للأب حق الرؤية مرّة أسبوعياً على الأقل، ما عادت هناك فكرة لاستمرار الزواج في المطلق، الطلاق قرار لا رجعة عنه، الزواج مرّة ثانية لا، يكفيكَ التفاتك إليك، تكفّلك حالك وحدك، ترصد أو تراقب تنشئة زينب، الأخيرة تكبر في كنف أمّها، لا بأس، تكبر، تصبح شابة مدركة، مؤهّلة لأن تخصّ أباها محبّة تعوضّه ما فاته، عهود حكمتْ عليّ بالالغاء، لها مُطلق الالغاء ولي حق الرضوخ حاملاً وزر موافقة الزواج، تتخفف معاناتي لوزري بتحقق كائن يخصّني، زينب، سعود سلك بما يناسب ضميره، كراهيتي له تسمم روحي، بديل ذلك، انتهي منه بأنْ اقتله في داخلي، سليمان الياسين عاد من فرنسا،

مبارك سويّد استدلّ مكاني، يُسمح بزيارة السجن مرّة كل أسبوعين لمدّة عشر دقائق، لن يقلقني مصير متعلّقاتي داخل ملحق نقرة آيل للهدم، يقلقني حدّ حصار الحنجرة الوضع الصحي للقاضي صلاح الفهد، القلب وطن المشاعر المرهفة، وقتها كان صلاح الفهد في لندن رحلة علاج، اتذكّر لقاءً أخيراً بيت إبن عم مبارك سويّد، السالمية، جلسة مقاعد بلاستيكية تحت اشتباك أفرع يوكالبتس بسعف نخلتين، المذياع الذي أهداني إيّاه، روايات لكتّاب من امريكا اللاتينية، كتاب كفاحي لهتلر. السجن المركزي بلا مكتبة، بلا كتب إعارة، القراءة داخل الزنزانة أمر مستبعد إنْ لم يكن ممنوعاً، عدا قراءة كتاب وحيد، القرآن الكريم، تواجدي هناك، تنبّهت إلى إنّ عدداً من رفاق الزنزانة يلحّون على طلب القرآن الكريم، يخصّون معظم وقتهم قراءة، هادفين لاستظهار أكبر قدر ممكن، الفضول يقود للمعرفة، قال لي أحدهم. أمر متعارف عليه، حفظ أجزاء من القرآن الكريم عن ظهر قلب بمعرفة إدارة السجن يساعد على تخفيض مدد محكوميات بعض الجرائم. منحى علاج نفسي تقويمي سلوكي مدعّم بواعز تشجيعي، قراءة كلام الله سبحانه وتعالى تدعو لخلوص الروح من أدرانها، اغتنمتُ إحدى مناسبات تلبية طلب سجين رجوتُ لو يخصّوني بنسخة قرآن كريم، سألني رجل الأمن. نوع جريمتك. أمن دولة. جرائم أمن دولة غير مشمولة بقرار تخفيض مدد محكوميات. أعرف. لا يمسّه إلاّ المطهرون، ابذلُ جهدي أكون، أتمعّن، إضافة لطهارة البدن يحضرني شأن بأهمية موازية، طهارة النفس واجبة أيضاً، القراءة مرور العينين فوق الكلمات، ترابطها آيات، تتابعها، القراءة الخالصة مغايرة، عليك حضورك في ذهنك، وعي الحضور أوّلاً، اخلاء المخيّلة من انشغالات عائدة للمكان حيث أنت، من اشغالات تسببت بوجودك المكان، تنأى عن ذلك كلّه لكي تصغي لتلاوة عينيك، تسمعها فيك، هو توق الخلاص وجدانياً، زيارة مبارك سويّد ولّدت قناعة، لست

منسياً، قبلها كنتُ متماهياً عدمياً، بعدها صرتُ أقرب للتماهي بتجربة المتصوّفة، جسدك فسحة مكان خانق وسط زحمة سجناء زنزانة رقم 7، ذاتك في المنأى الطلق، جرائم أمن دولة غير مشمولة بقرار تخفيض، العناية الربانية غير مشمولة بقوانين وضعية، في شهر يونيو من كل عام يبدأ صيف الكويت يعلن حضوره قوياً، أشعة الشمس العمودية تشوي الجدران الكونكريتية المدعمة بالحديد نهاراً، ترتفع درجة الحرارة داخل الزنازين، يتحوّل السجناء إلى كائنات عدوانية تثور لأتفه الأسباب، تصّب جام غضبها بعضها البعض، اطبق أحد السجناء المصحف الشريف الذي كان يقرأ منه، احتفظ به بين يديه، قال موجّهاً حديثه للجميع. نحن محظوظون. انشدّت إليه العيون متسائلة، نبس سجين يتخذ من الركن الأبعد عن دورة المياه مكان جلوس تساءل متحدياً. من أين يجيء الحظ. أجاب الأوّل. رغم كوننا في منتصف شهر يونيو إلاّ إنّ حرارة الجو مازالت محتملة. سرتْ وسط الجمع غمغمات موافقة، تدخل سجين يحتلّ ركناً ثانياً مبدياً استغرابه. كيف لم نلحظ ذلك. أنبرى الاول. الله العلي القدير رأف بحالنا حجب عنّا الشمس بسحب الدخان. تردد صدى ضحكة ساخرة. سحب الدخان منبعثة عن حرائق آبار البترول، بعد أيام تطفأ الحرائق وتعود الحرارة. ما أدراك إنّها تُطفأ بعد أيام. يجب أن تُطفأ. احتج الأوّل غاضباً. أنتَ يجب أنْ تصمت. غضب الثاني أيضاً. أنتَ تخرس لسانك. هب الأوّل واقفاً مستعدّاً للعراك. اعرف قدرك يا قذر. نهض الثاني. الإناء ينضح بما فيه. كانا مهيئين للاشتباك لولا مبادرة رجل خمسيني ذي لحية بيضاء مدببة بالوقوف. صلّوا على النبي يا جماعة. استجاب الموجودون كافة بصوت موحّد رددت جدران الزنزانة صداه، شاع المكان جو من الخشوع، أشار الرجل الكهل للاثنين الغاضبين بالتناوب. تقرأون كتاب الله الحكيم وتصدر عنكم كلمات نابية لا ترضيه. خفّض الرجلان رأسيهما خجلاً،

عـاودا جلوسـهما صامتيـن، أشـاد الرجـل الكهـل. هكـذا يكون سـلوك المسـلم. تلفّت حواليه، ثبتتْ عيناه على وجهي، اقترب، جلس أمامي. منذ عشرة أيام أعمل على حفظ جزء تبارك، لست متأكّداً إن كنتُ ختمته بالشـكل الصحيح. رقّ صوته. هلاّ سـمّعته لي. كان إسـمه ناصر، اعتاد الجميع مناداته حاج ناصر.

اجلسُ وراء الزجاج العازل للكابينة، عيناي عالقتان بالباب الكائن فـي الطـرف الأبعـد لقاعـة مقابلة الـزوّار، رجل الأمن الـذي رافقني من زنزانـة 7 حتّـى هنا لم يُفصح عن إسـم الشـخص القـادم، مازال احتمال استدلال سعود على مكاني يقلقني، المشكلة لا تتمثّل في رفضي تطليق أختـه أو موافقتـي، لكنّـه هاجـس رؤية سـحنته الحاقـدة بمواجهتي وراء الزجاج العازل، فتح الباب الجانبي أخيراً، وقف رجل أمن مسؤول خلل فرجته مفسحاً طريق الدخول للزائر القادم، انتابتني رعشة المفاجأة، هفا قلبـي، رأيـتُ سـليمان الياسـين، رأيته يرفع يده ملوّحـاً، انفرج فمي دون ايعاز مسـبق منّي بابتسـامة احتفاء واسـعة، بادر اقتعد الكرسـي الخشبي، رفـع سـماعة الهاتـف عنـده، التقطـتُ سـماعة الهاتـف عنـدي، وصلني صوته لاهفاً. عاش من شافك.عاشت أيامك. حضرته روحه المشاكسة. خارج أسوار السجن. وجدتني أضحك. المدّة المحددة للزيارة معروفة، اسـتحوذ سـليمان الياسـين على معظمها، لعلّه اجرى بروفة وقت خاصة بالمقابلة قبلها، قال كلاماً كثيراً، مهّد له. مبارك سويّد يبلغك تحياته، هو موجـود خـارج هـذه القاعة، هم سـمحوا بدخول شـخص واحد. فهمت منـه، البرامـج البرقيـة التـي بثّها إذاعـة بو الفهود كانـت مبعث فخر لنا، نحنُ الفريق الكويتي العامل في إذاعة مونت كارلو أيام إحتلال الكويت، كنّـا نتولّـى تسـجيلها لغـرض إعادة بثّهـا، أنتَ كاتب برامـج إذاعية عالية الجـودة، السـجن للرجـال، خـذُ هذه المقولة علـى عواهنها، لا يتملكك اليـأس، الحيـاة خبـرات، قدركَ أنْ تواجه تجربة السـجن، ليكن في بالك

إنّك لن تقضي خمس سنوات هنا، هناك العديد من الهيئات والمنظمات المهتمّة بحقوق الإنسان، على المستويين المحلّي والعالمى بادرتْ اعلنتْ احتجاجها، شجبها أحياناً لطبيعة المحاكمات العرفية التي جرتْ في الكويت ما بعد التحرير مباشرة، دول التحالف العالمى بعدما هبّتْ لنصرة القضية الكويتية وحاربتْ من أجلها صرّحت عن ضرورة مراعاة النهج الدمقراطي وعدم اخضاع السلطة القضائية لأهواء السلطة التنفيذية، الأحكام العرفية مرفوضة شكلاً وموضوعاً لدى منظمات المجتمع المدني، خلص سليمان الياسين لاستنتاجه المتفائل جدّاً. الكويت استجابتْ للنداءات الدولية، أوقفتْ سير المحاكمات العرفية منذ أيام، وعدتْ تعيد النظر بالاحكام الصادرة عن القضاء العرفي، إيلاء هذه المهمة لمحكمة مدنية مستقلة. أطلق ضحكة قصيرة، قال.عليك صبرك، يوم الحكومة كما تعرف حساب سنة. سألته. الحالة الصحيّة للقاضي صلاح الفهد. شابتْ صوته نغمة حزن. يتابع علاجه في بريطانيا. سكتَ وهلة. هاتفناه قبل يومين، صحّته آخذة تتحسّن تدريجياً.عسى. استعاد سليمان الياسين روحه المرحة ثانية، القضاة عادة ما يكونون أصحاب قلوب صلبة. نمّ فمه عن إبتسامة مفارقة. صلاح الفهد قاض مختلف. خضّني صوت خبطة حذاء عسكري على اسفل الباب ورائي، نفاد صبر رجل الأمن المرافق لي مرهون بنفاد دقائقنا العشر. وطّنتُ نفسي أنْ لا أُصاب بالأمل فينالني إحباط يكرّس حالة اليأس أكثر، الاخبار التي سارّني بها سليمان الياسين تبعثُ على تفاؤل محدود، القضاء سواءٌ كان عُرفياً أو مدنياً يدين المتهم من خلال اعترافاته، أنا عن سابق وعي كامل تطوّعت في الجيش الشعبي للنظام العراقي حتّى وإن اقتصر تطوّعي على تدريب لمدة ثلاثة أسابيع، إحالتي دافع تطوّعي جرّاء مكيدة نسيبي سعود لن تدفع عنّي صفة المجرم مرتكب الفعل المشين مع سبق الاصرار، ما الذي سأجنيه من إعادة محاكمتي أمام قضاء مدني، أتذكّر فحوى كلمات

قـدّم بهـا قاضـي الوسـط في المحكمـة العرفية، لأنّ المدعـو متزوج من كويتيـة ولأنّ الظـرف المصاحـب لارتـكاب الجريمـة ارتـأت المحكمـة معاملة حالته بعين الرأفة حكمتْ، في الوقت ذاته أتذكر إنّ أيّاً من بدون تصادف تطوّع جيش شعبي إيّاه، مَثَلَ أمام المحكمة العرفية إيّاها لم ينل أقلّ من سبع سنوات مع النفاذ والإبعاد عن البلاد، أظنني وحدي بعين الرأفة ولا إبعاد. باستجابة الحكومة الكويتية لضغوط خارجية وداخلية، إعادة المحاكمات مدنياً، جلّ الذي سيترتّب عن ذلك، الأخذ بعين رأفة أخـرى، مراعـاة الظروف المصاحبة لارتكاب الجريمة، تخفيض سـنوات المحكوميـة، بالعـودة إلـيّ أنـا نلـتُ نصيبـي مقدّماً، وعسـى أنْ لا يجيء المـردود عكسـياً، تُعـاد صياغـة منطـوق الحكم، يضاف لها مـع الإبعاد، استناداً لمبدأ المساواة بين البدون أمام القانون، يسوقني رجل الأمن باتجاه زنزانتي رقم 7، انبّتني، انشـغالي بسـماع أخبار سـليمان الياسـين أنسـاني سؤاله عن مصير متعلّقاتي، هدم العقار حيث الملحق يتهددها بالضياع، عـدتُ زجرتنـي، خالصاً لنتيجتـي، مصيري هو المهدد، المتعلّقات أهمية ثانويـة، يزجّني رجـل الأمـن في الزنزانة، يقفل البـاب، أتوجّه إلى حيث دثاري، اجلس مزحوماً بأفكاري، عينا الرجل الكهل الحاج ناصر تتابعان حركتي، يغادر مكانه، يقترب، يقف أمامي. إذا لم تمانع. هززت رأسـي دلالـة لا معارضـة، جلـس متربّعاً أمامـي، تطلّع في وجهي كمن يتفحّص الآخـر. بـدلاً مـن أنْ تعـود مسـروراً بانتهاء وقت الزيارة عـدتَ مغموماً. معـك حـق. استسـلامك لليـأس ينغّـص عليـك حياتك هنا أكثـر. تريّث ذهنـي عنـد تعبير حياتك هنا، سـمعته يختـم. ولا تقنطوا من رحمة الله. مـرور أيـام الزنزانـة توطّدت علاقتنا الحاج ناصر وأنا، كَشـفَ لي ماضيه قبل السـجن، كان مسؤول أحد أقسـام التغذية في بلدية الكويت، دخل السجن أوائل شهر يونيو عام 1988 تنفيذاً لحكم خمس سنوات سجن. لعلّك لا تصدّق، أيام مزاولتي مسـؤوليتي عُرف عنّي إنّي موظف مثالي

ملتزم بواجباتي الدنيوية والدينية يحتذي زملائي بي لولا دناءة نفس. طوّفتْ وجهه سحابة حزن. قبول رشوة. بدأها مرّة فاستساغ مردودها، قُبض عليه بالجرم المشهود اثر تسلّمه ألف دينار مرقّمة بناءً على بلاغ مسبق. هو الكمين، رُبّ ضارة نافعة. ثاب لرشده بعد دخوله السجن، قضى سنتين وشهرين، جاء حدث الاحتلال، رافقه اطلاق سراح جبري، عاش أيام الاحتلال وسط عائلته، بعد انقضاء أسبوعين على التحرير سلّم نفسه للسلطات رغبة منه بانهاء مدّة محكوميته، التمعتْ عيناه. وعدتني إدارة السجن إنْ داومت على حفظ القرآن الكريم يدرجون إسمي ضمن كشوف سجناء كويتيين يستحقون الاعفاء من متبقي مدّة عقوبتهم بمناسبة العيد الوطني، شهر فبراير القادم. عرف منّي سبب سجني، أبدى وجهة نظره أو قناعته. زواج البدون بكويتية عُملة ذات وجهين، نعمة ونقمة. رحل صوته وراء ذكراه خارج السجن. إحدى قريباتي متزوجة من بدون، طيّب مهذب، سامه أهلها صنوف العذاب، اضطر للهجرة إلى كندا، بقي هناك. علاقتي بالحاج ناصر حققتْ لي نوعاً من الحضور داخل الزنزانة، نلتُ احترام باقي السجناء، فأجأني ثلاثة منهم عصر أحد الأيام، ارتأوا عليّ نقل دثاري من المكان القريب لدورة المياه إلى مكان آخر بعدما قرّبوا دثرهم من بعضها، مفسحين مساحة تكفيني، شعور بالامتنان مدعّم ألفة، مرّ يومان على انتقالي لموقعي الجديد، إقترح أحد الثلاثة أن يستبدل مكانه مع الحاج ناصر، مبرراً عرضه باريحية. تكون قريباً من صاحبك. تجاور دثارينا أنا والحاج ناصر منحنا فرصة تبادل الحديث ليلاً همساً. منتصف شهر يوليو عاد الحاج ناصر من زيارة العشر دقائق متهلل الوجه. منَّ الله سبحانه وتعالى على إبني العَود بصبي منحه إسمي. سكت برهة انكمشتْ خلالها فرحته. لو يسمحون لي برؤية حفيدي ناصر. حدّق إليّ في عيني، قال كمن يحدّث نفسه. يلزمني استظهر أجزاء أكثر من القرآن الكريم.

يا زينب، أُحّدثكِ عن الزمن بصفته وجوداً مادّياً لذاته، في الخارج يمر الزمن متسارعاً أو متباطئاً، لا حساب دقائق أو ساعات، وفي بعض الأحيان لا احتساب لأشهر أو سنوات، لكنّه يتكاثف نوعياً عند حالات الانتظار، يصير عامل ضغط مرهق للنفس، سرعان ما يعود لطبيعته بحضور الغائب أو تحقق القصد. داخل السجن يتحوّل الزمن كلّه حالة انتظار موصولة الساعات والأيام والأشهر، ولا يتغير رتمها الضاغط المرهق للنفس لدرجة التآكل من داخل إلاّ من خلال معاناة نوع انتظار ثان موقوت بعشر دقائق زيارة، يستعد لها الواحد قبلها بأيام، ما الذي يتوجّب قوله، وكيف يُصار إلى اختزاله بأقل كلمات ممكنة مع الابقاء على المعنى، فإنْ تراءتْ المواضيع كثيرة لا تسعها الدقائق المعنية حلّتْ لحظة المفاضلة بين المواضيع، استبعاد المهم والاحتفاظ بالاكبر أهمية، ولا نغفل ضرورة الاصغاء للزائر القادم، شحذ قدرات الذهن أقصاها، حشدها انتباهاً للسماع والاستيعاب، موازنة قلقة ومقلقة في آن بين الكلام الواجب القول ونظيره المسموع، ولا مناص أنْ تقول لزائرك أو يقول لك. بقيّة الكلام في لقاء بعد اسبوعين. يهوّن الحاج ناصر من شأن المعاناة. لهذا كان السجن عقاباً. أوافقه رأيه بخصوص حالته. العقاب نظير إرتكاب. في زيارته الثانية قال مبارك سويّد. قررنا أنا وسليمان الياسين توزّع أدوارنا بالمجيء إليك. أدوار كلمة ذات علاقة بالتمثيل، قلت ممتنّاً أو متأسّياً. صرتُ حملاً يثقل كاهل الأصدقاء. حدجني شزراً. الحمل الثقيل هو دولاب ملفّاتك، مشقّة نقله من ملحق النقرة للسالمية. ركض ذهني لبيت إبن عمه، غرفة السطح، والاطلالة على مستشفى هادي، لم أشأ أسبّق باستنتاجي. لماذا السالمية. مبادرة

من سليمان الياسين. تشتت ذهني، لابد أنْ تكون سالمية أخرى، سمعته. اجتمع سليمان الياسين بأعضاء مجلس إدارة مسرح الخليج. ابقى جملته مفتوحة، سكتَ ثانيتين. بما إنّك عضو شبه مؤسس يمرّ بظرف خاص وافق مجلس الإدارة، خصّك بغرفة في مبنى مقرّه هناك. هي الغرفة التي اشغلها الآن جالساً متربّعاً فوق سجّادة أميّ مواجهاً صندوقكِ الأسود مواصلاً تسويد أوراقي هذه. عمري الحالي تجاوز خمساً وخمسين سنة حرمان أو حرمان، ولا استبعد أعوام الطفولة والصبا، فإن استبعدتها لأبدا من مسرح خليج شارع موسى بن نصير تراودني الصداقة معادلاً تعويضياً، لولاه لَما توفرتْ لي امكانية المكابدة حتّى اللحظة. لمّا زيارة مبارك سويّد الثانية، كابينة زجاج عازل، سجن مركزي، كان عمري وقتها خمس وثلاثين سنة، في حين لم يتجاوز عمركِ ثلاثة أشهر، رفيق الزنزانة الحاج ناصر يهفو لرؤية حفيده حامل إسمه، وأنا. عشر دقائق حشدها مبارك سويّد بأخباره، القاضي صلاح الفهد غادر مستشفاه في لندن، معالجوه قالوا له، وضع القلب مطمئن يحتاج فترة نقاهة لمدّة شهر، يعود بعده لمزاولة حياته بالشكل الطبيعي، دبّ خلاف حاد بين سعود وامّه، ربما كان الخلاف موجوداً من قبل، لكنّه استفحل في الأيام الأخيرة، أم سعود اصغتْ لنصيحة العم فرحان، أخلتْ نفسها من المنزل، سكنتْ إحدى شقق عمارة مملوكة للعائلة في منطقة السالمية، ماعاد المنزل الكبير مشغولاً بغير الضدّين اللذين ما زالا متلازمين، سعود وعهود، ثالثتهم ابنتكَ زينب، بالمناسبة، العم فرحان حمّلني تحاياه، يقول لك شدّ حيلك، الظلم جولة لا تدوم إلى مالا نهاية، عدالة الباري عزّ وجلّ آتية لامحالة. مسألة إعادة النظر بالأحكام الصادرة عن القضاء العرفي صارت واقعاً ملموساً اثر صدور مرسوم يقضي بتشكيل محكمة أمن دولة مدنية مستقلّة، يتولّى المجلس الأعلى للقضاء تسمية العاملين فيها. لم أقل لمبارك سويد حينها. التهمة التي عوقبتُ عليها

ثابتة بناءً على وقائع مدعّمة باعترافي الصريح بما يعني بقاء حكم السجن إن لم يتأكد باضافة الإبعاد. قلتُ له. محكمة أمن دولة إسم مخيف أيضاً. بعد ثلاثين دقيقة موزّعة على ثلاثة لقاءات بمعدل لقاء كلّ أسبوعين حلّ دور سليمان الياسين لتأدية زيارته الثالثة، كنّا أواخر شهر آغسطس 1991، وراء الزجاج العازل للكابينة إيّاها، الهواء المكتوم المشبع رطوبة يجعل من التنفس عملية مرهقة، اجتيازه الباب الكائن في الجانب الأبعد للقاعة، رؤيتي له انستني ما أعانيه، وَصَلَ متهلل الأسارير فوق العادة، سارع اقتعد الكرسي الخشبي، خطف سمّاعته، خطفتُ سمّاعتي. القاضي صلاح الفهد عاد من رحلة العلاج قبل أيام. عساه يكون بصحّة جيدة. جيدة. قالها سريعة، تابع. في اليوم التالي لوصوله جرى تبليغه رسميّاً، كلّفوه برئاسة محكمة أمن الدولة. تبرعم الأمل داخل صدري، أحسستُ بالكابينة الضيّقة تتسع رويداً، صلاح الفهد يعرفني تماماً، يعرفُ دوري، إنْ كانوا بصدد إعادة محاكمتي أمامه، عندما أُلقي علي قبض أمن دولة من باب ملحق نقرة كنتُ خرج ولم يَعُد، لا أحد يعرف أين أكون، السقيفة القفص تقع داخل منشأة حكومية بما يعزلها عن خارج، تذكّرتُ سألتُ سليمان الياسين. هل عرف صلاح الفهد بأني مسجون هنا. أنا ومبارك سويّد زرناه مساء أمس في منزله، خبّرناه بما جرى لك، تملّكه الغضب، أوّل مرّة أراه غاضباً لدرجة إرتفاع الصوت، قال عنك منسي يستحق وساماً لا أنْ يُزجّ في السجن. أحسستُ بالكابينة تتسع أكثر، أحسستني أخفّ وزناً، ما عاد الهواء المشبع رطوبة يضايقني. سمعتُ سليمان الياسين. صلاح الفهد يبلغك تحياته، يقول لك، هانت، يعدك أنْ ينصفك القانون، تستعيد حريتك، وتتوفّر لك فرصة الزجّ بنسيبك سعود في السجن. وسط احتفائي بما اسمع تواردتْ لذهني فكرة بدتْ طارئة مثلما هي غريبة مستهجنة، رسخ في دخيلتي، سعود تافه لا يستحق أنْ يُسجن، عقاب السجن تكفير عن ذنب، ليرفل

سعود بذنبه، هناك من هو غير جدير بالتكفير. استطرادات أخرى لسليمان الياسين، يلزمني أن أتحلّى بالصبر، حسم الأمور لن يتم بين يوم وليلة، محكمة أمن الدولة حالة قضائية مستجدّة، يتحتّم وضع لوائح منظّمة تكفل سير عملها توافقاً مع الصيغة المعتمدة دولياً تحاشياً لاعتراضات أو احتجاجات متوقعة من جانب جمعيات حقوق إنسان أو هيئات عالمية ذات إهتمام. شهران، ربّما أكثر، ريثما تبدأ المحكمة مباشرة عملها. لقاء قبوله رئاسة هذه المحكمة اشترط صلاح الفهد أنْ تجري المحاكمات بصورة علنيّة، يُتاح حضورها للمهتمين من الجمهور ورجال الصحافة والإعلام، إضافة لممثلين معتمدين عن الهيئات والجمعيات المختصة بحقوق الانسان، مع منح المتهمين حقّ انتداب محامين يختارونهم بمعرفتهم لغرض الدفاع عنهم. شأن أخير بدا وكأنّه خارج سياق لقائنا ذاك، دولاب ملفّاتي قديم يعود لأوائل السبعينات، أخشابه متهالكة، عملية نقله من ملحق النقرة إلى مقر مسرح الخليج في السالمية ضاعفت تهالكه، اضطر سليمان الياسين استعان بنجار ايراني نشيط، يمتلك ورشة نجارة قريبة من مبنى المسرح، ارتأى عليه إعداد أرفف جديدة تليق بملفّاتي. السجّادة العتيدة بالحفظ والصون. بعد مرور ثلاثة أيام تفاجأ نزلاء الزنزانة 7 بقدوم ضابط أمن رتبة نقيب يصحبه عسكري حامل مفاتيح الزنازين، وقف الإثنان أمام القضبان، عيون النزلاء كافّة مشدودة مشحونة توقّعاً قلقاً، ما الذي بصدد الحدوث، تساءل الضابط إنْ كان المدعو منسي موجوداً هنا. انتابتني رعشة داخلية بعثت برودتها خلل أعضائي رغم حرارة الجو، عساه لا يكون سعود وراء الطلب، كان الوقت ظهراً، ما قبل موعد توزيع وجبة الغداء بدقائق، سارعتُ استجبتُ واقفاً. أنا. تناهتْ لأذني همسة متوجّسة صادرة عن الحاج ناصر. اللهم اجعله خيراً. سمعتُ الضابط النقيب. تعال. نبرة صوته لا تتضمّن حسّاً عدائياً أو امتعاضاً، تواترتْ حولي غمغمات خافتة، السجناء يسارّون

مشـاركاتهم الوجدانية، أشـار الضابط النقيب للعسكري حامل المفاتيح، تقدّم الأخير عالج الباب، فتحه، تقدّمتُ صوبه، تنمّل معصماي استعداداً لوضع الأصفاد. تعال. خرجتُ إلى الممر، معصماي يواصلان تنمّلهما، لعلهم اغفلوا مسألة القيد، بادر العسكري اقفل باب الزنزانة. سترافقني. قالهـا الضابـط النقيب، أحسسـته يضمر إعزازاً خـارج ظرفه، هل أُكذّب حدسـي، اسـتنكر اسـتنتاجي لفهم نبرة صوت ضابطهم، تقدّمني ماشـياً، مشيت وراءه تتناهبني وساوس لا عهد لي بها، لدى بلوغنا بّوابة العنبر تخلّف العسـكري حامل المفاتيح عن مرافقتنا، خرجنا، الضابط النقيب وأنا، إلى الأرض الفضاء، جرتْ العادة أن يُسـاق السـجين، يمشـي في المقدّمة، الذي حدث كان النقيب يسبقني خطوتين، لحقته صامتاً حائراً، أينـي ممـا يـدور، شـمس الظهيرة محتجبة خلف سـحب دخانية رماديّة، حرائق الآبار لم تُخمد كلّها بعد، تنبّهتُ لوجود سقالات معدنية تحوّط مبنى عنبر مجاور، عشرات العمّال يواصلون جهد إعادة التأهيل، شارفنا بلوغ مبنى كبير يتألف من طابقين تعلو واجهته لوحة عريضة تعرّف به، إدارة السـجن المركـزي، ليتنـي أعرف مـا يبيّتونه، توقّفَ الضابط النقيب عند مدخل منشأة إدارة السجن، توقّفت بدوري، إلتفتَ إليّ، عيناه ليستا عدائيتين، وجهه يحمل انطباعاً بالجدّية، مدّ يده، صدرتْ عنّي حركة لا إراديـة، لعلّهـا جـاءت جـرّاء اعتيـاد الرضوخ لاجـراءات متبعة، جمعتُ معصمـيّ يـدي لبعضهمـا، قرّبتهما نحوه، اسـتعداداً لتلقّـي إطباقة القيد، خـلال ثانيـة زمـن واحدة ادركتُ خطل رد فعلـي اللاإرادي، يدُ الضابط النقيب لم تكن تحمل قيداً، تنبّه لما بدرعني، تجاوز شـعوري بالحرج، انفـرج فمـه عن ابتسـامة اجزم إنّها ودودة. قـال. المصافحة باليد اليمنى فقـط، أخـذ كفّـي اليمنـى، شـدّ عليهـا. أنتَ إنسـان نبيل. إشـادة صادقة مصدرهـا ضابـط أمـن رتبة نقيب، تفاررتْ كلماتـي من واجهة مخيلتي، في حين انتابتني الرعدة. شـعرتُ غصّة تطبق على حنجرتي، أنا إنسـان

نبيل، هل هي لحظة الحقيقة، تدافعت أحزاني تزاحم بعضها داخل صدري، ادريني اوشكُ انتحب، بذلتُ جهدي أتمالكني، غافلتني عيناي ضببتا رؤيتي، وصلني صوت الضابط كأنّه قادم من البعيد جداً. أنا النقيب داوود. تحرّى اختيار كلماته. اعتبرني أخاً لكَ. اسعفني لساني غمغمتُ. شكراً. أفلتَ كفّي. مساء أمس كنتُ مع المستشار صلاح الفهد. ها أنا اعرف السبب، خففت غصتي وقعها، وحدها الرؤية باقية مضببة، يا منسي، لماذا صنوف الخبرات، كيفيتها فائقة الاحتمال، تعزز صوت النقيب داوود بالمحبّة، قال. كان لي شرف العمل مع المستشار صلاح الفهد أيام الاحتلال. الاحتلال ولّى وها هو منسي يعاني آثاراً مترتبة، تناهى إليّ صوت النقيب داوود. عرفتُ من المستشار صلاح الفهد بالمكيدة الرخيصة التي دبرّها أحدهم للايقاع بكَ. تراجعتُ عن أنْ أصرّح، المكيدة أبعد ما تكون رخيصة، هي باهظة الثمن لدرجة ضياع العمر. قال هادفاً يشد أزري. اطمئن، ستأخذ العدالة مجراها، وينال المجرم الحقيقي جزاءه. أومأ صوب بوّابة مبنى إدارة سجنهم. تعال. مشيتُ معه، قطعنا ممراً طويلاً عريضاً نسبياً، اسمعُ لغط الموظفين وراء الأبواب المواربة للمكاتب على جانبي الممر، قسم الصادر والوارد، إدارة المشتريات، شعبة الملفّات، لست وحدي من يُعنى بالملفّات، لا صوت لوقع أحذيتنا، أرضية الممر مفروشة حديثاً بالسجّاد، أرضيات الزنازين كونكريت، وقفنا أمام باب كبير الحجم مقارنة بالأبواب الأخرى، اللوحة المثبتة، مدير السجن، تقدّم النقيب داوود نقر على الباب بظاهر كفّه، بلغنا صوت مهيب آمر. ادخل. وسّع النقيب داوود فتحة الباب، افسح لي طريق الدخول، تملكتني الرهبة، لماذا أنا، ترددتُ باستجابتي، تفهّم النقيب داوود حالتي، سبقني خطا للداخل، استعان بصوته. حّياك أخ منسي. خطوتُ، غرفة واسعة بحجم قاعة، مفروشة أثاثاً جلدياً، يتصدّرها مكتب كبير يجلس وراءه ضابط أمن رتبة

عقيـد، إضافـة لوجـود ضابطيـن آخريـن، نقيب ورائد، يحتـلاّن مقعدين متجاورين، لدى دخولي بصحبة النقيب داوود نهض العقيد مدير السجن عـن مقعـده، مال بجسـده إلى أمام مادّاً يـده قصد المصافحة، الضابطان الضيفان نهضا بدورهما، أنا وسط دوامة قوامها رتب عسكرية، صافحتُ مدير السجن، تحوّلت صافحت الضيفين، أكفّهم رغم مهابة رتبهم طيّعة ناعمـة. تفضّـل أخ منسـي اجلـس. رددهـا المديـر العقيد مشـيراً لمقعد قريب، أموري خارج نطاق التوقّع، إحساسـي بالرهبة باق يهيمن عليّ، العسـكرية منهـج طاعة، جلسـتُ، التفـتَ المدير العقيـد للنقيب داوود. اجلـس يـا داوود، أخـالُ الأخيـر أزمع الشـدّ مـن أزري جلس جواري. سـمعنا عنك كلاماً طيّباً من مصدر لا يطاله الشـك. قالها العقيد موجّهاً حديثه لي. سعادة المستشار رئيس محكمة أمن الدولة أشاد بمشاركتك فـي عمـل المقاومة الكويتية أيام الاحتلال العراقي البغيض. لأني مجرّد سـماع واصلتُ الاصغاء دون أنْ تخطر على بالي فكرة الادلاء بتعقيب محـدد. نحـنُ نتفهّـم طبيعـة الظلـم الذي لحـق بكَ نتيجـة عمل كيدي. اسـتدرك. لكـنّ القوانين قوانين. ابتسـمَ بدلالة التفهّـم. الأحكام العرفية الصادرة تبقى ملزمة النفاذ لحين نقضها أو تغييرها باحكام ثانية صادرة عـن محكمـة أمـن الدولة. استرسـل المدير العقيد قال كلاماً اسـتوعبتُ بعضـه وفاتنـي بعـض ثـان، انتهى لنتيجتـه، طوال الفتـرة المتبقّية لوجود منسـي في السـجن المركزي يُعامل بصفته ضيفاً، بناءً عليه مَنَحَ المدير صلاحيـات بهـذا الخصـوص للنقيب داوود كـي يتابع عمل اللازم. ربع سـاعة اصغـاء بمثابـة عقاب رصين، حان بعدهـا أوان المغادرة، تذكرتُ ضرورة الشدّ على أيدي الرتب الثلاث. لكم جزيل الشكر سيّدي. قلتها خافتة للعقيد، سـارع عدّل صيغتي. الشـكر موصول لسـعادة المستشـار رئيـس محكمـة أمـن الدولـة. صحبني النقيـب داوود خارجين من مبنى إدارة السـجن، حثثنـا خطونـا صوب ما يشـبه عنبـراً أصغر حجماً مقارنة

بالعنابر المعتادة، تتصدّره بوابة أنيقة تنتظمها كابينة خاصة بافراد الحراسة، قال النقيب داوود. بدءاً من هذا اليوم ستشغل زنزانة معدّة لسجن كبار الشخصيات. اجتزنا البوابة الأنيقة، دخلنا دهليزاً يمتد بطول العنبر، على جانبيه ستة أبواب مزدوجة، باب من القضبان الحديدية ينفتح باتجاه الدهليز، وآخر خشبي يُفتح للداخل، مدّ النقيب داوود يده للباب القضبان، فتحه، رأيتُ لوحة صغيرة مثبّتة أعلى الباب الخشبي زنزانة 1، فتح الباب الخشب، دعاني للدخول، شقة صغيرة نظام ستديو، نوافذ معززة بالقضبان الحديدية تطلّ على الأرض الفضاء خارجاً، باب جانبي نصف مفتوح يكشف عن حمام بدورة مياه افرنجية، جهاز تكييف هواء أرضي، سرير فاره، طاولة مع كرسيين خيزران، دولاب ملابس، مطبخ تحضير صغير، صوفا جلدية إلى جانب ثلاثة مقاعد، جهاز هاتف. هذا العنبر ما يزال خالياً من النزلاء. المعنى الضمني، أنا وحدي، احتلّ مرافقي أحد المقاعد الجلدية، أشار لي أجلس. قبل الاحتلال كانت زنازين العنبر مزوّدة بثلاجات صغيرة واجهزة تلفزيون. سكتَ لثانيتين. سأعمل على توفير ذلك لك في القريب العاجل. لا أملك سوى الاصغاء. بامكانك استقبال زوارك هنا طوال أيام الأسبوع. تنبّه حدد. خلال ساعات النهار. لعلّه حدس ما خَطَرَ في بالي، أطلق ضحكة قصيرة. إنسَ مسألة العشر دقائق، وقت الزيارات مفتوح. عقد حاجبيه كمن تذكّر أمراً. أنتَ لم تتناول وجبة الغداء بعد. سارع نهض. لا بأس أنْ أُوصي لك على ترمس للشاي. غادرني مسرعاً مغفلاً إقفال الباب الخشبي الحامل لوحة زنزانة 1 وكذلك الباب القضبان. أقفُ عند إحدى النوافذ، اسمعُ أزيز محرّك طائرة، أتطلّعُ نحو السماء، السحب الدخانية المتكاثفة تحجب رؤية ما فوقها، أطوف بنظراتي على الأرض الفضاء، مبنى إدارة السجن على بُعد يسير، عدد من عنابر عملاقة تصطفّ وراءه، عبرتْ سيّارة جيب عسكرية أثارتْ سحابة تراب صغيرة همدتْ سريعاً،

الجدار، حيث أقف، بثلاث نوافذ واسعة، الزنزانة 7 ولا نافذة، سعة الأرضية هناك لا تتجاوز اربعين متراً، عدد نزلائها 30، صاروا الآن 29، السعة هنا تقارب سبعين متراً يشغلها نزيل واحد، أنا حسبة أحد كبار الشخصيات، يلزمني أتآلف مع المكان، أتآلف مع كوني وحيد المكان، أيام إقامة جبرية، بيت إبن عم مبارك سويّد السالمية، كنتُ جاراً لمستشفى هادي، أطلّ عليه من فوق السطح، وقتها لدي ما يشغلني عنّي، العناية بنبتات الحديقة، زراعة خضروات ورقيّة، قراءة روايات لكتّاب من، جاءني بها، وجاءني بكتاب كفاحي ومذياع، الأهم من هذا كلّه انشغالي بإعداد برامج إذاعية ذات طابع برقي، ماذا لو سألتُ النقيب داوود إن كانوا يسمحون لي أحضرُ بعض الكتب، حضر النقيب داوود، باثره شاب بنغالي يحمل صينية كبيرة عليها أوعية فلينيّة مغلقة، بادر وضعها فوق الطاولة، استدار منصرفاً، أفادني النقيب داوود، آكلُ من ذات الوجبات المخصصة للضبّاط، اومأتُ برأسي ممتنّاً، تذكّرتُ. هل تسمحون لي أطلب من صديق يأتيني ببعض الكتب الأدبية للقراءة. انفرج فمه عن ابتسامة دالّة. ونسمح بكتابة برامج إذاعية أيضاً. أشار لجهاز الهاتف. إنْ احتجتني في شيء ارفع السماعة اطلب الرقم الداخلي 22، هو رقم مكتبي. أضاف. إن أردتَ إجراء مكالمة خاصّة لشخص خارج السجن اضغط الرقم 9، تحصل على الخط، تُدير الأرقام المطلوبة. عاد ابتسم. اتركك تتناول غداءك. بعد انصرافه لم اقبل على الطعام مباشرة، اقبلتُ على الهاتف. الرقم 9 أوّلاً. انتظرتُ هنيهة، أدرت أرقاماً محفوظة في الذاكرة، سمعتُ رنين جرس هاتف الطرف الآخر، أعقبه صوت سليمان الياسين مضمّناً هامش فضول. ألو نعم.

مؤلمة هي الكتابة عن زمن وجودي في السجن يا زينب، بصرف النظر أنْ أكون محشوراً في زنزانة منكتمة الهواء رفقة 29 محكومين، أو وحيد مساحة زنزانة فندقية فارهة، أكررُ ما قاله الضابط عقيد مدير

السجن المركزي عندما استقبلني في مكتبه مؤكّداً حتمية الحال، القوانين قوانين، أعيدُ صياغته، السجن سجن، معاناة شعور المحاصرة بالمكان، أو رتم الزمان المتماهي فيه، اجلسُ منذ ساعات مواجهاً صندوقكِ الأسود آملاً مواصلة الكتابة من حيث توقّفتُ، برد شتاء الكويت يكاد ينحسر بانحسار شهر فبراير، البارحة مارستُ طقس الجلوس أمام صندوقكِ، قضيتُ ساعتين محاولاً حشد مزاج الكتابة، سوّدتُ بعدها ثلاث ورقات، ادركتُ اثرها إنّي كافكاوي أكثر من كافكا، سارعتُ مزّقت الأوراق الثلاث، هل أُحيلُ سبب احتدام ذهني لدرجة إلتباس الرؤية على الأصدقاء، بغيابهم أو حضورهم، هناك غيابات شفيفة، أنا حنظلة الكويتي، ناجي العلي غياب بفعل نيران صديقة يوليو 1987، أنا إنسان نبيل أستحق وساماً، غياب صلاح الفهد بفعل أزمة قلبية حادة يوليو 2003، هناك غياب آخر ذو خاصية مفتوحة على التوقّع، بموازاة حضور مفاجئ، يحدثُ خللاً للموازنة الراكدة التي ارتضيتها منهجاً لأيامي هنا يصيّرها موازنة قلقة لأمد مرهون باستعادتي قدرة الكتابة إليكِ، عساني أُنهي، مبارك سويّد إقامة دائمة في المغرب وزيارة خاطفة للكويت، سليمان الياسين موزّع ما بين فرنسا حيث تتواجد عائلته وهنا، مشاركة تمثيل دراما تلفزيونية. قبل أشهر من الآن زارني مبارك سويّد، باق بضعة أيام، عائد بعدها لأقصى الشمال الأفريقي. تعال معي، نتناول طعام الغداء معاً. أخذني لبيته، منطقة مشرف غير ما كانت عليه، لا أثر لمنزل العم فرحان، الأخير نزيل دار الرعاية الاجتماعية، باركنسون، الذكرى تلامس القلب، ترهفه، يشرع أبوابه للحزن، حضور الصديق اثر غياب طويل مبعث احتفاء، حضوره إيّاه يستجلب ذكريات موغلة باعثة على ماذا. ظهر أمس، الساعة الثانية تحديداً، اجلس في الديوانية، أواجه شاشة التلفزيون، أتابع نشرة أخبار قناة فضائية، صبي الخدمة كومار يجلس غير بعيد عنّي، مبنى مسرح الخليج خال من غيرنا، خضّنا رنين

جرس الباب، تبادلنا، كومار وأنا، نظرات متسائلة، من يكون القادم، هبّ كومار مُلبياً، تبادر لذهني إنّه أحد شباب الفرقة جاء لغرض في نفسه، مرّت ثوان، اعقبها سماعي وقع خطوات آخذة تقترب، التفتُ صوب الباب، التقتْ عيناي بعيني سليمان الياسين. حتّى متّى تظلّ ملازماً منفاك الاختياري. تساؤله يُبيّتُ استغراباً عاتباً، وما قلتُ له. لا طاقة لي أنفي نفسي إلى فرنسا. كنت منشغلاً بالشروع لاحتضانه، دعوته للجلوس. ليس طويلاً. علقتْ نظراته بشاشة التلفزيون. متى تترك عنك السياسة. ليس جريدة السياسة. اقترب كومار. شاي أم قهوة. بعدين. إلتفت إلي. تعال نتغدّى في مطعم يجاور البحر. أكلتُ قبل ساعة. تشرب قهوة تركية خلال تناولي الغداء. لماذا تركية. عقد حاجبيه ممتعضاً. تعال وكفى. جلسنا متقابلين حول طاولة عند الواجهة الزجاجية العريضة المطلة على البحر في مطعم فندق المسيلة، السماء صافية عدا نتف غيوم قطنية متباعدة، البحر مدّ ساكن نسبياً، بضعة طيور نورس تحلّق لتحط فوق الساتر الصخري للموج. المباني المشيّدة ما بعد التحرير حجبتْ مجال رؤية مجمع لؤلؤة المرزوق السكني، استجابة لطلب سليمان الياسين جاء نادل المطعم بإناء تتوسطه شريحة سمك كبيرة. باشرها من فوره، خلال شهرين أخيرين قضاهما في فرنسا أكل السمك مرّات عديدة، لامس اعتداده صوته. يبقى السمك الكويتي هو الأفضل. حكم المفارقة، بادرته. ماذا عن الانسان الكويتي. وجّه لي نظرة محذّرة. عن الغلط. عاد النادل حاملاً صينية فضيّة صغيرة يتوسطها فنجان القهوة خاصّتي. سادت لحظات صمت. كيف قضيت مدة الشهرين في فرنسا. انفرجت أساريره. لا وجود لزمن مجّاني هناك. حتّى لا أستثيره احتفظت بتساؤلي عن الزمن هنا، شاغلتني بارتشاف قهوتي، أصغيتُ. الوقت سلعة غالية، تجد نفسك طوال ساعات اليوم لاهثاً وراء ماهو مفيد وممتع، لا تصادف ما يثير نقمتك أو نفاد صبرك، لا تحتاج قيلولة بعد الغداء، لديك حافز

زيارة متاحف أو ارتياد سينما ومثلها عروض مسرحية توسّع مداركك، ترقى بذوقك الفنّي. شردتْ عيناه وراء الواجهة الزجاجية. ليتني أعود لكتابة الدراما. أحجمت أقول. أنا أكتب دراما مغايرة. شفّ صوته. لو تواتيني فرصة لعب دور مسرحي جاد حقيقي. واجهتني عيناه. أين لنا بسنوات السبعينات، بثنائي مسرحي يملأ فراغ صقر الرشود وعبد العزيز السريع. تداعى ذهني استحضر أيام دمشق ومسرحية رحلة حنظلة، قلتُ. البركة في فؤاد الشطي. فؤاد الشطي يقول سلّمني نصّاً مسرحياً قادراً يهزّ لي داخلي تجدني أتجنّد لإخراجه فوراً. الحال باقية تراوح مكانها، كان سليمان الياسين ينتوي البقاء في فرنسا لستة أشهر، هاتفه صديق مخرج تلفزيوني، اداء دور رئيسي، مسلسل 30 حلقة يُبث خلال شهر رمضان. أنتَ لا تستطيع ردّ طلب صديق. لدى عودته عرضتْ له فرصة مشاركة مسلسل تلفزيوني آخر، عدا جملة أعمال اذاعية. سنوات تتلوها سنوات وأنا أدور داخل حلقة مفرغة، المكسب الوحيد أكل عيش، الأعمال التلفزيونية التي شاركت فيها لم تُضفْ لرصيدي الفنّي شيئاً يُذكر. سكت برهة. في بالي مشروع سبق حدّثتك عنه. ضحكتُ. لا حصر لمشاريع حدثتني عنها طوال عشرين سنة أعقبت الاحتلال أو التحرير. هو مشروع مختلف يتطلّب مشاركة فعلية من جانبك. عاجلته ردّي. ليس الآن. هبط صوته. لماذا. ستعرف في حينه. متى. حال عودتنا لمبنى المسرح. حال عبورنا الباب الرئيسي لمبنى المسرح أخذتُ سليمان الياسين من يده، اقتدته نحو غرفتي، حدجنا كومار نظرة استغراب، لا أحد يتخطى عتبة غرفتي سواه، تفحّص سليمان الياسين المكان بنظرة سريعة، منذ اشرافه على وضع رفوف الملفات قبل حوالي عشرين سنة، لم تتسن له رؤية الغرفة من داخل. ملفّاتك تتوالد على نفسها. ابدى مشاركة. أنت بحاجة لطاولة كتابة وكرسي. لا احتاج مزيد أثاث. اطلق ضحكة. أين هو الأثاث، لا أرى هنا سوى حشية

اسفنجية وهذه السجّادة العتيدة. نبهته، سجّادة أمّي. لهج. رحمها الله. استقرتْ عيناه فوق صندوقكِ الأسود، تحفة. اقترب للصندوق، اقعى عنده. منقوش باسم ابنتك زينب. مدّ يده محاولاً رفع غطائه. هو مقفل. مدّ يديه إليه، رفعه قليلاً. ثقيل، ما الذي يحويه. اقعيتُ أمامه، عالجتُ قفل الصندوق بالمفتاح، رفعتُ غطاءه. ارتفع حاجبا سليمان الياسين لدى رؤيته كدس الأوراق داخل الصندوق. يبدو إنّك انتهيت من. ابتسم مستنتجاً. أو توشك تنتهي من كتابة مسلسل تلفزيوني يحمل إسم ابنتك. ضحكتُ. هذه رسالة. فغر فاه دهشة. رسالة. موجّهة لزينب. لا لوم على من يقول منسي غريب الأطوار. حريّ بزينب معرفة سيرة أبيها. طوّفت وجهه سحابة أسى. معك حق. اطبقتُ غطاء الصندوق، سلّمته النسخة الاحتياطية لمفتاحه. ما هذا. تحتفظ به. لامس صوته جزعه. ما الذي تفكّر فيه. ضحكتُ ثانية. لا شيء يستدعي القلق. أضفتُ. من باب الاحتياط. حدّق إليّ في عمق عيني محاولاً سبر أغواري. منسي. تجاوزتُ عتبه أو تحذيره. لا أحد يجزم بما يأتي. هل أنتَ مصاب بمرض خطير.لا. لماذا إذن. في حالة ما إذا. ابقيتُ جملتي مفتوحة. تبذل جهدك توصل الصندوق لزينب. ما دمت تصرّ. سجّادة أميّ رغم محدودية مساحتها تَسَعُ شخصين، جلسنا، سليمان الياسين وأنا، متقابلين، يتوسّطنا صندوقكِ، اكرمنا الشاب كومار، دخل حاملاً صينية بكوبي شاي، أبعدتُ الصندوق جانباً لتحتلّ الصينية مكانه. رفعَ سليمان الياسين كوبه، أخذ رشفة، حضرته روحه المرحة، التفتَ لكومار الذي كان يهم بالانصراف. شاي سيلاني أصلي. التمعت عينا كومار اعتزازاً. أنا سيلاني. غادرنا مواربا باب الغرفة وراءه. أُصدِقك القول منسي. مهّد بها سليمان الياسين، أفاض، الأعمال التلفزيونية التي شارك بها لا ترقى لطموحه، ماعاد لدينا من يؤمن بالوظيفة الاجتماعية للفن. أنتَ يا منسي كاتب دراما اذاعية متميّزة، الدراما الاذاعية لا تختلف كثيراً عن الأخرى

التلفزيونية. بأمكاننا، هو وأنا، أن نشكّل ثنائياً يُحدث تغييراً نوعيّاً على مستوى الأعمال التي تغرق السوق، حبّذا لو حققنا عملاً هادفاً يجمع بين الدراما والأكشن، نركّز على قضايا الفساد، فساد الذمم، فساد النفوس، هيمنة القلة باحتكارهم للسلع، سرقات المال العام. سكت برهة. هل تتذكّر ملخّص العمل الدرامي الذي اقترحته قبل عشرين سنة لمّا كنتَ نزيل دار استراحة السجن المركزي. الأخوات جحا. عليك نور. أردف سائلاً. هل أنت مستعد لمشاركتي كتابته. أومأت لصندوقكِ. بعدما انهي رسالتي لزينب. زايل حماسه صوته. متى تُنهي. لا أدري. أطلّ حزنه من عينيه، ادريه بذل جهده يداري شعوره بالاحباط، غادرني آملاً بلقاء ثان، لازمني احباطي الخاص، أنا مبعث حزن عند الصديق، جحا نقيض ذلك.

ساعة أولى لتواجدي في دار استراحة السجن المركزي، على حدّ تعبير سليمان الياسين الذي أبدى شديد استغرابه عندما هاتفته وقتها، كيف لي أنْ اتصل ومن أين، الأمر بما لا يصدّق، أنا أيضاً لا أكاد أُصدّق، لكنّه واقع الحال الآن، هي جهود القاضي صلاح الفهد، وقت الزيارة مفتوح طوال ساعات النهار، قراءة الكتب مسموح بها. وصل بعد ساعتين حاملاً كتباً، كتاب جحا العربي لمحمد رجب النجار من بينها. احرص على قراءته قبل غيره. لماذا. تجاهل ردّ سؤالي. ما دامت الزيارة متاحة آتيك غداً بأوراق وأقلام. تطالبني أكتبُ بحثاً تراثياً. تحدد أفكاراً رئيسية لكتابة مسلسل تلفزيوني تراثي. شملني استغرابي. وأنا في السجن. لديك فائض وقت. ازمعتُ الاعتراض لكنّه واصل. في الكتب التاريخية، التراثية تحديداً، يجمع محققوها على إنّ جحا رجل، ماذا لو كان إمرأة. مددت يدي للكتاب، تصفحته. هل توصّل مؤلّفه لهذه الفكرة. أنا صاحب البدعة. سنكون عرضة للاستنكار. احتدام الجدل حول فكرة يساعد على انتشارها. سكت وهلة. نركز على انتقاد أوضاع

سلبية سائدة، توسّلنا بالتراث يمنحنا حريّة ملامسة مواجعنا. وددتُ مشاكسته. شرط أنْ نضمّن قضيّة البدون. نهرني. منسي. حدّق في وجهي اردف متسائلاً متشككاً. ما ادرانا إنّ البدون غير موجودين أيام العصر الوسيط. ضحكتُ. موجودون في كل العصور. عاد نهرني. منسي. عدتُ تصفّحتُ الكتاب، ترسمّتُ جديّتي. أعدك إنّي أحاول. قبل مغادرة سليمان الياسين تذكرتُ هاتفتُ مبارك سويّد. لا أصدّق. صدّق. جهود صلاح الفهد. متى أراك. مسافة الطريق. جئني بغيار ملابس وصابونة. ضحك. فرشاة أسنان. حدجني سليمان الياسين نظرة عتب. أنتَ لم تسألني. كنتُ مهموماً بمسألة الكتب. احتراماً للوائح السجن غادرني مبارك سويّد مع غروب الشمس، بعد ساعة وصل النقيب داوود متبوعاً بالشاب البنغالي حاملاً وجبة العشاء، وشاب ثان يحمل ثلاجة صغيرة. غداً يصلك التلفزيون. نمّ فمه عن ابتسامة ودودة. إنْ كانتْ لديك احتياجات اخرى. تقدّمتْ ساعات الليل، عمّ السكون المكان عدا أزيز خافت يصدر عن الثلاجة الصغيرة، أيام بيت السالمية، اثر بدء الحرب الجوية، كان الليل مزحوماً بهدير محرّكات طائرات الدول المتحالفة، استمرت الحال خمسة أسابيع تخللها صفير الصواريخ العابرة، غرفة السطح هناك تقرّبني للسماء أكثر، شئتُ قتل الوحدة بالقراءة، جاوزت الساعة منتصف الليل، ينتابني الارهاق جسدياً لكنّ احتدام الذهن ابعد النوم، ليال مضتْ، زنزانة 7، الحاج ناصر وأنا نتبادل حديثنا همساً، رفاق الزنزانة لم يبدوا امتعاضاً، النقيب داوود قال، إن كانت لديك احتياجات أخرى، لو قلت له، أحتاجُ أحد نزلاء زنزانة 7 يشاركني المكان هنا، في احدى مساراته شكا الحاج ناصر. سُجنت خمس سنوات لقاء رشوة ألف دينار. شاب صوته حسّ مفارقة. مائتا دينار لقاء كلّ سنة. شرد ذهنه لثوان. الجريمة جريمة وإن كانتْ الرشوة لغرض تمشية معاملة. عاد صوته لامس مفارقته. مسؤول كبير قبض

مليوني دينار لقاء تمشية مناقصة بأرقام فلكية، الرشوة في الأرقام الفلكية تسمى عمولة، عندما انكشف أمر المسؤول الكبير ألزموه بالاستقالة من منصبه، بعد أشهر صارعضواً منتدباً لاحدى الشركات الكبرى. شمله حزنه. أنا لا املك وجاهة تؤهلني لتسلّم عمل فى القطاع الخاص، في الوقت ذاته محروم من العمل الحكومي، ارتكاب جريمة مخلّة بالشرف. اطلق ضحكة خافتة. المبالغ الصغيرة تلحق ضرراً جسيماً بالشرف. تتابعتْ أيامي في زنزانة كبار الشخصيات مريحة رتيبة مملة، لا شاغل لي سوى القراءة، النقيب داوود لم يأل جهده يتفقّد احتياجاتي بانتظام، رغم الرقّة التي كان يبديها نحوي استبعدت فكرة نشوء صحبة دافئة بيننا، لعلّه فعل البزّة العسكرية، أو نتيجة موقف داخلي غامض مترتّب عن إحالة ذات ظرف ارتدادي عندما اقدمتُ ظهر يوم احتلالي ماطر على دفن بزّة نائب ضابط جيش شعبي عراقي في مقبرة صليبيخات، سليمان الياسين واصل الحاحه. ليتكَ تخصص بعض وقتك لفكرة مسلسل جحا. خلال جلسة ثنائية طفقنا نفكّر معاً، ارتأينا اضفاء طابع الحيوية على النص المزمع، كأن تكون حاملة الإسم جحا إمرأة ثلاثينية ممشوقة القوام جميلة ذكية قويّة الشخصية ويكون لها في الوقت نفسه أختان، بما يشكل فريق عمل جحوي. متى نبدأ الكتابة. لايني سليمان الياسين يسأل، لأردّ. لمّا يحين الوقت. لأسباب ما تزال مجهولة لي لم يحن الوقت حتّى هذه اللحظة، صدّقي يا زينب أو لا تصدّقي، عايشتني شخصية جحا الثلاثينية الجميلة طوال عشرين سنة، لتتلبس بفعل غير مدرك شخصية أمّك عهود، أرتدّ على داخلي مهزوماً، الأمر الأكثر غرابة، رغم مرور هذه العشرين سنة بقيت عهود الجحوية ثلاثينية دمشقية لم يتقدّم بها العمر، الأنّه عمى الفراق، أو قصوري النفسي الذي يجعل جانب اللاوعي عندي عاجزاً عن قبول الأمر الواقع، مرّ شهران على وجودي في زنزانتي الجديدة، اتفق الإثنان سليمان الياسين ومبارك

سويّد يخصّاني بيوم الجمعة من كل أسبوع، يجيئان سويّة نقضي ساعات في تبادل أحاديث لا تخلو من مشاكسات منشطة، مع عدم اغفالهما متابعة أمر إعادة النظر بقضية سجني. محكمة أمن الدولة برئاسة القاضي صلاح الفهد بدأت عملها في إحدى قاعات مجمع محاكم حولّي بحراسة أمنيّة مشددة، هو المكان إيّاه إذن، القاضي صلاح الفهد لم تشغله كثرة القضايا المعروضة أمامه عن التفكير بأمري، الحال عكس ما قد أظن، هو يهدف لتحقيق عنصر الاحتشاد بخصوص القرائن الدالّة على براءتي، هو بصرف النظر عن مجريات الحكم العرفي السابق الذي زجّني خمس سنوات، يعرف مالا يعرفه قاضي اليمين وكذلك قاضي اليسار اللذان يشكلاّن معه هيئة المحكمة، إصدار حكم ببراءتي استناداً لقناعته أو معرفته الشخصية بي سيكون مثار تساؤل عند زميليه ما داما يجهلان دوري أيام الاحتلال، مثلما يجهلان خلفيات كيديّة مصدرها سعود، ملف قضيّتي بين يديه، إطلّع عليه، أهمّ ما يحويه صيغة الحكم الآخذ بعين الرأفة والبلاغ المقدّم من جانب سعود، المدعو منسي تعاون مع قوّات الاحتلال، التحاق جيش شعبي عدو، بإمكان صلاح الفهد فرض طلب حضور صاحب البلاغ للمثول أمامه، مواجهته بي يوم إعادة النظر بقضّيتي، تبقى خشية انكار سعود فعل تبليغه الكيدي الأوّل لمّا قصد عسكر احتلال سابع اكتوبر، شخصية مثل سعود مؤهّلة لأنْ تكذب، ولا مجال لاثبات فعل الكذب إلاّ بوجود شهود عيان محل ثقة حضروا الواقعة، وهذا أمر بحكم المحال، لأنّ الشهود هم عسكر الاحتلال، تبقى فرصة العثور على دلائل أو قرائن ماديّة تقود لإدانة سعود، كيف لي مداراة شعوري باليأس، اقول كمن يحدّث نفسه على مسامع كلّ من سليمان الياسين ومبارك سويّد. افهمُ من هذه المجريات إنّي باق هنا لحين نفاد المدّة. ينبري سليمان الياسين مهوّناً. لا بأس عليك، أنتَ تنعم بدار استراحة خمس نجوم. ينقبض صدري. اشغل المكان لعدم

وجود سجناء من كبار الشخصيات، فإن وُجدوا تحين عودتي للزنزانة 7. يتدخّل مبارك سويّد. خلال الانسحاب السريع غير المنظم لعسكر الاحتلال عند بدء الحرب البريّة خلّف وراءه كمّاً هائلاً من الوثائق والسجلات والمكاتبات، داخل المخافر والمنشآت التي حولّها مقرّات ومعسكرات. سكت برهة. حرص رجال المقاومة الكويتية على جمعها في الأيام الأولى للتحرير بصفتها أدلّة تدين العدو وتؤرخ لمسلكه العدواني تجاه الكويتيين. فهمتُ من سياق كلامه إنّ القاضي صلاح الفهد يأمل بالحصول على وثائق مخفر منطقة النقرة لشهر اكتوبر 1990. ماذا لو لم. رفع يده في وجهي. هناك فريق مكلّف يتولّى البحث. توالتْ الأيام، تحوّلت أسابيع، حالة انتظار مفتوح على زمن مجهول، في زلّة لسان من جانب سليمان الياسين. عثر فريق البحث على وثائق وسجلات مخافر مناطق بيان والروضة والأحمدي وصليبيخات. سكت فجأة، ادركتُ أنْ لا أثر لما يطلبه القاضي صلاح الفهد. تنبّه محدّثي، عزز فمه بابتسامة. لا تيأس. لم أقل له، اليأس والسجن سلّة واحدة. حاول اشغال وقتك بشيء مجد. حدّقت فيه متسائلاً. إبدأ كتابة جحا. لم أقل له، جحا شخصية مرحة بطبعها، تشيع الفرح حولها، وأنا. أعدّ أيام الأسبوع أو أعانيها، في ستة منها أكون نهباً لحالة انتظار بائسة مسوّراً باليأس والقنوط، صبيحة يوم الجمعة أواجهني مبكراً، اصدر أمري لي. غيّر مزاجك، عدّله، افرد قسمات وجهك، ابحث عن ابتسامة ما، سليمان الياسين ومبارك سويّد في طريقهما للقائك، ليس عدلاً أنْ تغمّ الأصدقاء، هما يحرصان يزورانك، بعد مغادرتهما لُذ بوحدتك ما شئت، كن حرّاً بيأسك اطلق له أعنّته كلّها. ترافقتْ طلائع فصل الشتاء في شهر نوفمبر بانقشاع سحب الدخان الرمادية، تمّ اخماد آخر حرائق آبار النفط، طفقت أشعة الشمس تغمر زنزانة كبار الشخصيات، عابرة خلل زجاج النوافذ، سألني النقيب داوود إنْ كنتُ ارغب بستر النوافذ. مرحباً

بالشمس الشتوية. ابتسم لإجابتي، عندما يجنّ الليل يتقدّم، اطفئ الأنوار، اقتعد كرسياً مواجهاً إحدى النوافذ، أرى السماء هناك مزحومة نجوماً، لو أتخفف من شعوري الضاغط بالمحاصرة، لو تماهيت بخيالى غادرتُ خارجاً، وددتُ أوفّق لتوطين نفسي على اليأس نهائياً، لا قرائن تدحض ادعاء سعود، لا وجود لسجلاّت ووثائق مخفر نقرة، لعلّ عساكر الاحتلال وجدوا فسحة وقت أثناء انسحابهم أخذوا سجلاّتهم معهم، لا مناص والحالة هذه من بقائي حبيساً، لزوم اكمال المدّة، مبارك سويّد، بين زيارة وزيارة، لايني يؤكّد. أكداس هائلة من وثائق الغزو باقية مكدّسة في أماكن متفرّقة. لم أنبس. الكلمة متفرّقة تعني أحد أوجه الاستحالة، يقول. مازال البحث جارياً عن. استجيبُ له بابتسامة امتنان، لا بأس أنْ يوافيك من يعزّيك، الوقت والرتم المصاحب، عافتْ نفسي قراءة الروايات، توفّر بديل يمتّ لي بصلة ضاربة في العمر، دأب الإثنان، مبارك سويّد وسليمان الياسين، على تجميع أعداد الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية التي عاودت صدورها، جلبها يوم الجمعة، مع تكدّس حصيلتي نشطتْ فيّ غوايتي، صرتُ اقتطع ما أراه يناسب ملفّاتي، أسلّمه لأيّ منهما، رجاء ايداعه حيث استقرّت ملفّات سابقة في غرفة لم أكن رأيتها بعد.هنا، الآن يا زينب، غرفة مسرح الخليج إيّاها يحضرني قولي. الانسان عدواني بطبيعته تجاه زمنه الشخصي، هو يعيش ما بين حالتين، حركة هادفة لبلوغ قصد محدد أو انتظار يتوق لتحقق ذلك القصد، وفي الحالتين يرى نفسه تعيساً به، بلوغ القصد يمثّل ارتياحاً جزئياً أو فرحة عابرة، سرعان ما تبهتْ، مخلية مكانها لحالة لهاث وليد سعياً وراء قصد جديد يلزم بلوغه، لن أقول حلقة مفرغة، لكنّها تراجيديا وعي الكائن، حين تصادفنا لحظة تريّث بعد طول لهاث نلتفتُ وراء، نرى الحال أو الموقف الواقع الذي كان تعيساً في الماضي شاعرياً شفيفاً لا يُقارن بما نحن فيه، هنا الآن، أتذكر أيام زنزانة كبار الشخصيات أراني

أقلّ تعاسة مقارنة، كنتُ محاطاً بحب اصدقاء يولوني رعايتهم، ويقلقون نيابة عنّي. انقضى شهر نوفمبر 1991، تلاه ديسمبر، صبيحة يوم جمعة أوّل من شهر يناير قال لي مبارك سويّد. القاضي صلاح الفهد يُبلغك تحياته، يتمنّى عليك أنْ تصبر. ضحكتُ. تدريني لا خيار سوى الصبر. نفض يده كأنّه ينشّ كلماتي. الفريق المكلّف بالبحث وجد كدس وثائق وسجلاّت في أحد منازل منطقة القرين كان ما يزال قيد الانشاء. تدخّل سليمان الياسين. واحد من اثنين، شباب المقاومة جمعوها أيام التحرير الأولى، أو إنّ عسكر الاحتلال جمعها لغرض نقلها، لكنّه غفل عنها وسط فوضى انسحابه. ما الذي أفهمه. فريق البحث عثرعلى سجّلات عائدة لمخفر النقرة. أفهم من هذا. زجرني مبارك سويد. لاتتعجّل فهمك. تدخّل سليمان الياسين. لم يعثروا على ما يخص شهر اكتوبر. غريق يتشبّث بقشّة. أنتَ منحوس. لا اعتراض.

عادة متأصّلة عند غالبية الكويتيين، معايشة الصحراء في شهر فبراير كلّ عام، تجتاحهم عدوى حنين جيني للعودة إلى حضن الصحراء، مؤشّرات قدوم فصل الربيع، ينصبون خيامهم على ضفاف المناطق المسكونة، يتوغّلون حتّى عمق الصحراء أحياناً، منشأة السجن المركزي لها عمقها الخاص بها جرّاء انعزالها وسط أرض صحراوية مكشوفة، أتطلّع عبر زجاج النوافذ أرى بدء اخضرار مساحات صغيرة غير مطروقة، أدريها تنمو سريعاً، تزهر، لتموت مع حلول فصل الصيف، ماذا عن الفقع، أستعيدُ حواراً تواتر بين سليمان الياسين ومبارك سويد ظهر يوم دفن أميّ، مطر شهر نوفمبر، ما قاله الفلكي العجيري وما لم يقله، هل تحبّل الأراضي المحوّطة لعنابر السجن المركزي بالفقع، أتذكّر حلم رفيق الزنزانة السابقة الحاج ناصر استظهار المزيد من أجزاء القرآن الكريم، عساه يتمّ الافراج عنه بمناسبة ذكرى العيد الوطني. ظهر يوم أحد، أسبوع ثان لشهر فبراير، فاجأني الإثنان، سليمان الياسين

ومبارك سويّد، زيارة لا على العادة. ما الذي جاء بكما. أنتَ. يسعدني إهتمامهما ويحزّني انشغالهما الكبير بي. وجهاهما ينمّان عن خبر مبيّت. خير. الخير كلّه هذه المرّة. تناوبا افضاءهما. التقيا القاضي صلاح الفهد قبل مجيئهما، ذهبا إليه بناءً على طلبه، أثمرتْ جهود فريق البحث في الوثائق التي خلّفها الغزو، السجل الخاص بمخفر النقرة لشهر اكتوبر احتلال صار بين يديه. قرأ البلاغ الانتقامي لسعود خط اليد، مذيّلاً باسمه الثلاثي وتوقيعه، أنا لم ادّع، أنا لم أُبالغ. حماسهما ازاء صدق روايتي للواقعة، كما لو إنّهما تخففا من إحساس غامض بالشك. صلاح الفهد يقول حان أوان ردّ اعتبار منسي بصفته أحد افراد المقاومة الكويتية. أنا. نعم أنت. مع وجود السجل بالامكان إثبات جرمية قصد سعود، زجّه داخل السجن ما دام عميلاً متطوّعاً للعدو، هدف للإضرار بالمقاومة، الخيانة درجات، هذه إحداها، مصادفة محسوبة لصالح منسي، سعود متواجد داخل الكويت، جرى إبلاغه رسميّاً بحضور جلسة المحاكمة صباح يوم الإثنين القادم، لغرض تثبيت أقواله حول واقعة التحاق السجين منسي بالجيش الشعبي العائد للعدو، يا منسي، القاضي صلاح الفهد يوصيك بضرورة التكتّم على خبر السجل المعني، يجب أنْ لا يعرف سعود أمره حتّي حينه. شملني إحساس بالمفارقة، كيف لي انا المحتجز هنا أن. التحذير سار علينا جميعاً. يا منسي قاضيك يقول لك هانتْ، ويسألك أنْ تكون ضيفهَ يوم الإثنين القادم تشاركه طعام الغداء في بيته. أُصدّق ما اسمع أو اتشكك، عندما يخرقُ الشعور بالفرح معياره ينقلبُ نحيباً، تحلّق الصديقان حولي، ربّتا على كتفي. سمعتُ سليمان الياسين يهمس مشاكساً. تستطيع تضمين جانب من قصّتك مع سعود كموضوع رئيسي لإحدى حلقات مسلسلنا التلفزيوني جحا واخواتها. اضحك خلل دموعي، أتنبّه اسأل إن كان القاضي صلاح الفهد جادّاً بمسألة دعوة الغداء، يحدجني مبارك سويد نظرة عتب. جديّة القاضي

جزء من مسلكه الشخصي. أنقّل بصري بين وجهيهما أتفحصّهما كأنّي أراهما مرّة أولى، يبتسم سليمان الياسين. لا تقلق، سنكون معك. أموري، بيني وبين نفسي، ما عادت مستغلقة عليّ، لستُ رهين فكرة وفاء أربع سنوات وأربعة أشهر بقيّة مدّة محكومية، المتبقّي فعلاً سبعة أيام آخذة تتآكل، صباح يوم الجمعة زارني الإثنان، سليمان الياسين ومبارك سويد. هل أنتَ مستعد. صدرت عنّي ضحكة حيرة خافتة. لا ادري كيف أتصرف لدى مثولي أمام هيئة محكمة برئاسة. لماذا. هل يُسمح لي بتحيّة القاضي مثلاً. الاّ إلقاء التحيّة. لكن. الذي يجب أن يحدث أنتَ لاتعرف صلاح الفهد. صار معلوم. وإذا وجّه إليك سؤالاً تمهّد لردّك قائلاً سيّدي القاضي. صار معلوم. سيكون سعود موجوداً، إيّاك أنْ تبدي ردّ فعل يؤكد عداءً سابقاً أو كراهية. ذهن الواحد نشاط مصاحب، سألتُ. هل سأكون المتهم الوحيد. جرتْ عادة محكمة أمن الدولة النظر في عدّة قضايا. عساهم لا يأخذوني من هنا لهناك بالباص المقفلة. مقفلة أو مفتوحة ما الفرق. لم أُعقب، احساس السجين غير احساس من ينعم، قلتُ لهما. لمّا حاكموني عرفياً كان هناك قفص داخل قاعة المحكمة. ستوضع داخل القفص لحين بدء نظر قضيّتك. اظنّهم يقيّدون يدي أيضاً. لماذا الخوض في تفاصيل تعرفها. حاصرني سؤالي. كيف سأتناول طعام الغداء في بيت صلاح الفهد. تبادل الإثنان نظرات إستنكار. يُطلق سراحك فتذهب برفقتنا. سؤالي باق يحاصرني. ماذا عن الزي الذي أرتديه، هل أذهب بملابس السجين. قهقه الإثنان معاً. تدقق تفاصيل لا تطرأ على البال. صمتا برهة، خلصا لقولهما. لا تشغل بالك. لو صارحتهما. الموقف المتمثّل ليس جزءاً من مشهد درامي مسرحي أو تلفزيوني يعبر أمام عيني مشاهد غير معني. مساء يوم الأحد اللاحق زارني النقيب داوود. لابُدّ إنّها ليلتك الأخيرة. حدّق إليّ في عيني. لن تغادر هذا المكان إلى قاعة المحكمة في الباص

المخصصة لنقل مساجين آخرين، تركب معي سيارة الجيب، أُلازمك لحين اطلاق سراحك. شاغلني هاجسي. تقضي لوائحكم باعادة المفرج عنهم لهنا من أجل استكمال الاجراءات الخاصة بتسليم العهدة وابراء الذمة. اعتاد القاضي صلاح الفهد تجاوز الاجراءات الروتينية، فإنْ قضى باطلاق سراح واحد نفّذناه فوراً. اطلقَ ضحكة قصيرة مرحة. من قفص الاتهام إلى البيت. يقينه يعمر صوته، انتقلت عدوى يقينه إلي، انفرج فمي خارج ارادتي عن ابتسامة طموحة بقدر ماهي دالّة على فرح بدأ يعتمل في داخلي. لعلّه حسن حظّك، بقي هذا العنبر خالياً، خلال اليومين القادمين نتسلّم سجينين كبار شخصيات. ازمع ينصرف تذكّر نبّه. سيكون يوم غد حافلاً بالنسبة لك، يلزمك أخذ كفايتك من النوم. وما صارحته، النوم لا يمتثل بناءً على تمنٍ، استلقي فوق السرير، أظلُّ ساكناً دقائق، عيناي مشدودتان إلى السقف، إطباق الجفنين أمر مستبعد ما دام النوم في النأي، اتركُ السرير، أتوجّه لإحدى النوافذ، أقف متطلعاً للسماء، عدالتها التي طال انتظارها، يغافلني ذهني، يستعيد قاعة المحكمة، المصاطب الخشبية التي كانت فارغة عدا محام رهن الحاجة، الحضور اللافت لرجال الأمن، المنصة والمقاعد الجلدية عالية الظهر، قفص مفتوح السقف وأنا وراء قضبانه المصفوفة، سعود يجيء شاهد اثبات، يتطلّع أي منّا للأخر. حذّرتك مرّات عدّة، طلقّ اختي بخط اليد، فإن تحاشيت وجه سعود بحقده المبيّت أو الصريح انتقلت ببصري للمنصّة، القاضي صلاح الفهد يترأس الجلسة، أعجبُ من منحى تفكيره واذعن له، آثر ابقائي سجن مركزي مدّة أطول شريطة توفّر أدلّة بخط اليد أيضاً، خط اليد وجه للبصمة، تراه داخله هامش شك حول روايتي بخصوص التبليغ الأوّل. لسعود، سعى للحصول على الدليل الدامغ، أم إنّه اراد إحكام عقدة الحبل حول رقبة من، لقاءات عديدة جمعتني به، كلّها كانت عابرة، عدا جلسة ضحى في حديقة بيت السالمية، احسسته

وقتها رجلاً مهيباً بقلب طفل، يمنحك محّبته ولا ينتظر ردّاً، معضلة وحيدة، نظرته السابرة والمحرجة في الوقت نفسه، لمّا يتملكك شعورك إنّك عار أمامه، يا سيّدي القاضي، العدالة مجرى، الظلم مجار لا حصر. يا سيدي أنتَ الحكم وأنتَ الشاهد العارف بالذي كان، ماقولك، يجف الفم، ولا تتدفق الأقوال مادامت الأفعال كيف، يكفّ ذهني فجأة، يوقف ارتحالاته وراء تصّوراته، يحتلّ واجهته سؤال مفاجئ، ماذا لو حضرتْ عهود رفقة أخيها، اللوائح المنظمة التي استنّتها محكمة أمن الدولة تسمح بحضور جمهور مهتم أو ذي علاقة، هل تتواجه نظراتنا، هنا أنا داخل القفص، هناك مَنْ، هنا نحن مازلنا ورقة زواج، بيننا قدر مشترك، أنتِ يا زينب، عمركِ وقتها عشرة أشهر، الطلاق استعداد مفتوح مع سبق الإصرار مدعّم بسبق إصرار ثانٍ ينصّ على منحي حق رؤيتكِ مرّة اسبوعياً اسوة بأيّ من الآباء المطلقين حول العالم، بقيتُ ليلتي تلك مناوباً بين السرير والنافذة ريثما شفّ زجاج الأخيرة، سرّب أنواراً فجرية رمادية، أخالني غفوت ساعة، استيقظتُ منتهباً خجلاً، تراءى لي إنّ النقيب داوود واقف عند رأسي يستحثني، أدركنا الوقت، كانت الساعة شارفتْ سادستها، النقيب داوود لم يصل بعد، كان الوقت صباحاً مبكراً. الآن وأنا أواصل الكتابة جاوزت الساعة منتصف ليل مقر مسرح الخليج بالسالمية، من باب العلم بالشيء، عصر يومي هذا استوقفتني عناوين صحفيّة عديدة، الكويت تتبرّع لضحايا زلزال، تساهم بشقّ قنوات ري، المفارقة أنْ يسترعي إنتباهي عنوان ثانوي مفاده، أحد القائمين على معالجة مشكلة المقيمين بصورة غير مشروعة يجتمع بممثلين عن اللجان الخيرية العاملة في الداخل، تعميم رسمي، منع بات صرف مبالغ زكاة لمن لا يحمل بطاقة أمنية، مفارقة أنْ لا اعجب لمنْ لا يجد طعاماً في بيته ولا، الذهنية الجمعية تبتكر وسائلها، أسائلني عن عناوين أخرى لم تُطبع بعد.

أوقفَ النقيب داوود جيبه العسكرية في الساحة الداخلية لمجمع محاكم منطقة حولّي. يلزمنا مراعاة اللوائح. الوقت صباح أقرب لأن يكون ربيعياً، شمس الساعة الثامنة باقية باردة،جمعتُ معصمي معاً، مددتهما أمامه. تتخلّص من هذا قريباً. لابأس. أطبق حلقتي قيده، تسرّبتْ برودة المعدن خلل جلدة يديّ. لن يكتمل انعقاد الهيئة القضائية قبل الساعة التاسعة. صار معلوم. دخلنا القاعة عبر باب جانبي ضيّق، لاشيء تغيّر في القاعة منذ زمنها العرفي، رأيتها خالية، مصاطب الجمهور أو منصّة القضاة، باستثناء القفص الحديدي، وجوه لثلاثة رجال وراء صف القضبان، ثلاثة أمن يقفون عند القفص، انتصبتْ ظهورهم لدى اقترابنا، أدّوا تحيّتهم للنقيب داوود، سارع أحدهم فتح باب القفص، لم انتظر سماع طلب مرافقي، عبرتُ داخلاً، أطبق الباب، تفحّصتني عيون المتهمين السابقين لي بفضول، وددتُ أقول، لا بأس صرنا أربعة، رأيتُ النقيب داوود يخطو نحو الصفّ الامامي للمصاطب، يجلس. مرّت ربع ساعة صمت مطبق، بدأ توافد الجمهور، سرى لغطهم في أرجاء القاعة، دخل صحفيون عرفتهم من كاميراتهم، احتلّوا صفّ مصاطب محددة، تنبّهتُ لدخول وفود من ذوي سحنات أوربيّة وشرق آسيوية توزّعوا مصاطب الصف الثاني، الأصوات غمغمات مندغمة ببعضها أشبه بازيز متواتر، تملّكني شرودي وهلة، لفت اهتمامي اثرها امتلاء القاعة عن آخرها، عدا الصف الأمامي حيث يجلس النقيب داوود وثلاثة رجال بالزي الوطني، عرفتُ في وقت لاحق إنّهم محامو رفاقي المتهمين الثلاثة، أدور بعيني على الوجوه، سعود لم يحضر، تجتهد مخيلتي تحاول ايجاد تبرير لعلّه يتواجد في مكان قريب، غرفة مخصصة

لانتظار الشهود مثلاً، أتطلّع إلى المنصّة كأنّني أراها للمرّة الأولى، لاتحوي سوى ثلاثة مقاعد جلدية، لا وجود لمقعد رابع يخصّ ضابط رتبة شأن محاكمة الزمن العرفي، الأزيز المتواتر للقاعة يتواصل، شاع ارتياحي في داخلي، رأيتُ الإثنين سليمان الياسين ومبارك سويّد يسيران وسط الممر الكائن بين صفوف المصاطب، اختارا مكاناً من الطرف الأبعد للصف الثاني، احتفائي بحضورهما شابه عتب يمازجه امتعاض، أيّ منهما لم يعنِ بالنظر نحو القفص، دخل حاجب المحكمة عبر الباب الجانبي للمنصة، واجه القاعة رافعاً صوته، معلناً بدء انعقاد الجلسة، شدّ رجال الأمن قاماتهم، وقف النقيب داوود شادّاً قامته أيضاً، تلاشى الأزيز، ساد الصمت المكان، انسحب الحاجب، ظهر القاضي صلاح الفهد من الباب الجانبي ذاته، يتبعه قاضيان، احتلّ الثلاثة مقاعدهم، ارتختْ قامات رجال الأمن، عاود النقيب داوود جلوسه، حدد صلاح الفهد بصره صوب القفص، دارتْ عيناه على الوجوه قبل أنْ تتريّث عند وجهي، شيء ما يشبه ابتسامة ترحيب خفيّة يصعب رصدها لمن لا تخصّه، صدح بي داخلي فرحاً، نظرته استغرقت ثانية واحدة، ربمّا أقلّ، رغم قصرها ذاك لم تبلغني مضمنة تعاطفاً أو رثاءً، لكنها محمّلة اعتزازاً بدلالة امتنان الصديق لصديقه، ينسى الواحد كونه قادماً توّه من سجن، تتوارى عذابات شتى، أخطف نظرة باتجاه الطرف الابعد لمصاطب الصف الثاني، سليمان الياسين ومبارك سويّد يجلسان، أنْ لا يعيرني أيّ منهما اهتمامه هو الاهتمام جوهراً، يناوشني قلقي فجأة، لا أثر لسعود أو عهود، لو استبعدتُ مجيء الأخيرة لأسباب تخصّها ماذا عن سعود، مبارك سويّد وسليمان الياسين أفادا، جرى ابلاغه بحضور جلسة المحاكمة لغرض إدلاء شهادة. ما ادراني إنّه لم يحدس ما يحاك له، احتاط لنفسه، تغيّب، بما يلزم تأجيل محاكمتي، ما ادراني لم يختف، يغادر الكويت لزمن ينقضي بانقضاء ماذا. يوم المحاكمة العرفية كان

عـدد المتهميـن داخـل القفص تسـعة أنا عاشـرهم، عند تلاوة الأسـماء جئـت آخرهـم، محاكمـة أمـن دولة عـدد المقفصين ثلاثة، أنـا رابعهم، أين ترتيبي بينهم، بدأ الحاجب قراءة ديباجة محددة، صباح يوم الاثنين الموافق بالتاريخ الميلادي والهجري، انعقاد جلسة المحاكمة للنظر في قضايـا المتهميـن الماثليـن، أرهفت أذني اسـمعه يتلو إسـماً ثلاثياً لأحد المتواجديـن، حاضـر، أسـماً ثلاثيـاً لآخر، حاضر، إسـماً ثلاثياً، حاضر، لم يبق سـواي، وهو يشـرع بنطق إسـمي وأنا استجيب، حاضر، انشـدّ اهتمـام القضـاة الثلاثـة إلى الممر الكائـن بين المصاطب، أحدهم يتقدّم مسرعاً، يلحقه رجل الأمن المسؤول عن باب القاعة المخصص لدخول الجمهـور يسـتمهله بنبـرة صوت حـادّة. يا أخ. لحق به قبل وصوله أمام المنصّة، امسكه من كتفه. تعال. حرن الآخر مكانه. أنا لم آت للفرجة. الصـوتُ هـو، حـددتُ بصـري بالاتجـاه، هـو سـعود، انتابني احسـاس بالقشـعريرة غريب علي، لماذا الآن، في الوقت ذاته ترسّـخت قناعتي، مجـيء سـعود يعنـي فصل انتهـاء، لحظتها رأيتُ القاضـي صلاح الفهد يرفع يده لرجل الأمن يرتأي عليه تمهّله، قال لسعود قاصداً التوضيح. لا يسمحُ بدخول قاعة المحكمة بعد بدء انعقاد الجلسة. انبرى سعود يرد من منطق صاحب حق. أنتم طلبتم حضوري. خيّل لي إنّ عينّي صلاح الفهد التمعتا بواعز الانجاز. حدّق للآخر. ما اسمك. أنا الدكتور سعود استاذ جامعي تسلّمت تبليغ حضور من أجل ادلاء شهادة بخصوص أحد المتهمين الذين التحقوا بالجيش الشـعبي للغزو الغاشـم. تفاجأت برؤية أسارير وجه صلاح الفهد وهي تنفرج، كان أشبه بمن وجد ضالته أخيراً، ردد مرحبّاً. حيّـا اللـه دكتـور سـعود. صدرتْ عنه ايمـاءة رأس للنقيب داوود. نهض الأخير من مجلسـه، توجّه إلى حيث يقف سـعود بصحبة رجل الأمن، أشار لرجل الأمن بالعودة لمكانه. تعال معي دكتور. رددها على مسـامع سـعود، وجّهه نحو المنصة، انقاد له سـعود صامتاً، وقف

النقيب داوود أمام المنصة. أوامركم سيدي القاضي. دفع إليه صلاح الفهد ورقة. اثبات حالة حضور شاهد رئيسي، يكتب فيها الدكتور إسمه الثلاثي ورقم بطاقته المدنية قبل أنْ يذيلها بتوقيعه. حاضر. سعود وهو يسمع سارع استلّ قلمه، ناوله النقيب داوود الورقة، انشغل الأوّل يكتب، تبادل القاضي صلاح الفهد والنقيب داوود نظرات متفاهمة لم يلحظها سواي، إحكام الفخ. منذ دخوله العاصف أو المرتبك جراء وصوله متأخراً وملاحقة رجل الأمن له، منذ أنْ ردّ القاضي صلاح الفهد له اعتباره، حيّا الله دكتور سعود، منذ أنْ صار برفقة ضابط نقيب يعاملة بأدب جم، منذ هذا كلّه لم تحن عن سعود التفاتة ناحية القفص، اثر انتهائه من تحرير الورقة وجّهه النقيب للجلوس على مصطبة في الصف الأمامي، بعد جلوسه صوّب سعود نظره نحو القفص، التقت عيوننا، كان يتطلع إلي من عُل. أنتَ يا النكرة.

أتذكّر تفاصيل محاكمة الرجال الثلاثة الذين سبقوني أو لا أتذكرها، القاضي صلاح الفهد لم يدّخر وسعه، إطلاق سراح للأوّل، الاكتفاء بعدم النطق للثاني، الثالث تخفيض مدّة السجن من عشرة أعوام إلى ثلاثة باحتساب المدّة السابقة، محكمة أمن الدولة تأخذ الظروف الاستثنائية لزمن الاحتلال بعين الاعتبار. كانت الساعة قاربت الواحدة لمّا حان دوري، القضية رقم، المدعو، تهمة تطوّع، أقف داخل القفص مقيّد اليدين، يبادر أحد رجال الأمن يفتح باب القفص، يقترب النقيب داوود، يقتادني لكي أقف أمام المنصّة، يقف النقيب داوود إلى جانبي، سياق محاكمة الرجال الثلاثة السابقين لي تبدأ بالمناداة على المتهم ليلتحق به محاميه، الأسئلة توجّه للمتهم يتولّى محاميه الرد، الاّ إذا كان هناك ما يستدعي، فيما يخصّني أنا بلا محام، القاضي صلاح الفهد لم يوجّه اهتمامه أو أسئلته لي، صبّ اهتمامه على الشاهد سعود. تعال هنا. تلفّت سعود حواليه متشككاً بأنّ النداء موجّه إليه. هنا أمام المنصّة يا

دكتور سعود. امتثل الأخير اقترب لعند المنصّة. نعم. ما الذي تعرفه عن المتهم منسي. اعرفه التحق بالجيش الشعبي العراقي أيام الغزو الغاشم برتبة ضابط ملازم ثان. هل رأيته وهو يزاول عمله ببزّته الرسمية أو من دونها ضمن إحدى وحدات الجيش الشعبي ذاك. انفرج فم سعود بابتسامة دالّة على لا معقولية السؤال الموجّه إليه. لا يوجد كويتي شريف يرضى لنفسه مخالطة أيّ من أفراد العدو. أنتَ لم تجب سؤالي، رأيته أم لم تره. لا فرصة لسعود حتّى يرى المجرم متلبساً بجريمته لأنّه يربأ بنفسه ومكانته العلمية إلى جانب وطنيته. اجابتك مراوغة يا دكتور سعود. أنا في حقيقة الأمر نأيتُ عن كلّ ماله علاقة بعسكر الاحتلال، وزّعتُ وقتي ما بين البيت والمسجد. الستَ معي يا دكتور أنتَ ما زلتَ تراوغ. ماهو المطلوب منّي. حدّثنا عن علاقتك بالمتهم. لا افهم المطلوب مني. هل توجد علاقة نسب بينكما. للأسف نعم. ابقى صلاح الفهد عينيه السابرتين على وجه سعود. للأسف أقول هو زوج اختي، لكنّ زواجهما باطل. سبب بطلانه. معارضة وليّ الأمر. من هو وليّ الأمر. أنا. سرتْ في أرجاء القاعة همهمات اسكتها القاضي صلاح لمّا رفع صوته موجّهاً خطابه لسعود إنْ كانت لديه أقوال أخرى، دارى سعود امتعاضه، في باله هو جاء للادلاء بشهادته حول التحاق أحدهم بالجيش الشعبي البغيض، لكنّ المحكمة الموقرة تطرّقتْ لمواضيع خارجة عن. دارى سعود امتعاضه للمرة الثانية. عساهم يسمحون له ينصرف لشأنه. لا. ما الذي يريدونه. كيف عرفتَ عن التحاق المدعو بالجيش المعني. عصف الاضطراب بسعود، ادّعى إنّه سمع. من أين. من مصادر موثوقة. نريد معرفة هذه المصادر الموثوقة. سعود لا يتذكّر. تبادل صلاح الفهد حديثاً هامساً مع القاضيين الجالسين إلى جانبيه، نبس سعود متضايقاً. ليتهم يسمحون له بالانصراف. التفتَ إليه صلاح الفهد.صبرك علينا يا دكتور سعود. عاد يشاور زميليه، استلّ ورقة من ملف أمامه. اقترب

لهنا دكتور سعود. انصاع الأخير، قرّب صلاح الفهد ورقته من وجه سعود، هذا نصّ البلاغ الذي تقدّمتَ به لجهاز أمن الدولة الكويتي. لهج سعود. هذا شرف أعتزُّ به، من واجب كلّ مواطن شريف أنْ يبلّغ عن من خانوا الوطن. هل سبق أن تقدّمت ببلاغ ثانٍ لجهة اخرى غير جهاز أمن الدولة الكويتي. لا. أنت مسؤول عن إجابتك هذه. نعم. استلّ صلاح الفهد ورقة ثانية، دفعها أمام عيني سعود. ما هذا. انفرج فم سعود بابتسامة يشوبها استخفاف. إثبات حضور شاهد كتبتها لحظة وصولي لهنا. إسمك الثلاثي وتوقيعك. بالضبط. مدّ صلاح الفهد يده أسفل الطاولة، أخرج سجلاً، فتحه على صفحة بذاتها. مدّها أمام عيني سعود. إسمك الثلاثي وتوقيعك متطابقان. ما هذا. سجل مخفر النقرة لشهر أكتوبر أيام الاحتلال. خُذ إقرأ ما كتبته بخط يدك. أوشك سعود على الانهيار، تداركه النقيب داوود أسند له وقفته، خاطبه صلاح الفهد. تمالك جأشك يا دكتور سعود. إنتابتْ صوت سعود رعشته. أنتم. نحن ماذا. تريدون سجني. لن نسجنك اذا كنت صادقاً. ما المطلوب منّي. إقرأ ما كتبته لعسكر الاحتلال. عمّ القاعة صمت مهيب، هل تفصّد عرق سعود من وجهه، سمعته يقرأ بصوت راعش من صفحة سجل أمام عينيه. أنا المدعو، اتقدّم ببلاغي هذا ضد زوج اختي المدعو، له نشاط مريب يعاقب عليه القانون. كفّ عن القراءة، تطلّع في وجه صلاح الفهد. ردد مستضعفاً، هم أجبروني على كتابة هذه. من هم الذين أجبروك. استخبارات الاحتلال. إنْ كانت استخبارات الاحتلال أجبرتك في بلاغك الأوّل، من الذي أجبرك على تقديم بلاغك الثاني لجهاز أمن الدولة الكويتي بعد التحرير. خرس سعود لثوان. غمغم. أنا آسف، أنا مخطىء، أنا أتحمّل نتائج خطأي. أومأ له صلاح الفهد برأسه كمن يشد أزر محدّثه. ليتك يا دكتور سعود تذكر لنا إسم المصدر الموثوق الذي سمعت منه خبر التحاق المدعو. لا وجود لأي مصدر. معنى هذا إنّ

بلاغك لأمن الدولة الكويتي مجرّد اجتهاد شخصي. نبس قاضي اليمين كمن يؤكّد. هو انتقام شخصي. امتقع وجه سعود، طمأنه صلاح الفهد. طلبناك اليوم كشاهد، تستطيع الانصراف الآن. انفلتَ سعود مسرعاً نحو باب القاعة، شيّعته غمغمات الجمهور، أومأ صلاح الفهد للنقيب داوود، تقدّم الأخير منّي، فكّ قيدي.

مائدة الغداء، منزل صلاح الفهد، لفتت نظري شخصية القاضي ذات المنحى الشعبي العفوي، بدتْ لي مغايرة تماماً عن ما كانت عليه في قاعة المحكمة أو عبر لقاءات أيام إحتلال، سليمان الياسين ومبارك سويّد، سجيّتهما المشاكسة بعضهما البعض، وحده النقيب داوود لازم تشبّثه باطراف كياسته، لعلّه فعل الزي العسكري الذي يرتديه، فيما يخصّني بذلتُ جهدي انهج طبيعياً، لكن أشهر السجن، السلوك الواجب اتباعه، لم استطع تقمّص شخصية منسي الحقيقية. يا منسي بن أبيه. دأب صلاح الفهد يوجّه لي حديثه ممهوراً بإسمي الفني. بامكانك إقامة دعوى قضائية على نسيبك الموتور سعود، تدخله السجن. لم أُحر جواباً في حينه، حوّل صلاح الفهد عينيه من وجهي لوجه النقيب داوود. ما رأيك. ابتسم الأخير. إن حكمتم بسجنه أتعهّد لكم أضعه في الزنزانة واحد من العنبر واحد. لماذا زنزانة واحد. لأنّها خاصّة بالمجرمين العتاة. ضحك كلّ من سليمان الياسين ومبارك سويّد، هل أُجاري ضاحكاً، عاد صلاح الفهد بعينيه إلي. ما رأيك. حضرتني مقولة سمعتها تتردد كثيراً داخل الزنزانة 7. السجن للرجال. ابتسم صلاح الفهد. وصلتْ الرسالة. سادت لحظات صمت قطعها الأخير. سمعت إنّك، خلال فترة وجودك في السجن، رُزقت إبنة إسمها زينب. غافلني حزني لامس صوتي. عساني أراها. عقد حاجبيه. زوجتك كما أعرف باقية على ذمتك. أومأتُ برأسي دلالة الإيجاب، أضاف مستنتجاً. إنْ لم يجانبني الصواب طباع زوجتك من طباع أخيها سعود. هذا صحيح. خير لكَ في مثل حالتك قطع دابر

المشقّة بالطلاق. سبق أن اتخذتُ قرار الطلاق. جيّد. سَكَتَ هنيهة. قانون الأحوال الشخصيّة يكفل لك حق رؤية إبنتك بانتظام. انفضاض غداء احتفاء اطلاق السراح، شيّعنا صلاح الفهد لعند باب منزله، بادر النقيب داوود شدّ على يدي قوياً. اسعدتني معرفتك، اتمنّى لقاءك ثانية ابتسمتُ ممتناً، فارقنا مبارك سويّد قائلاً. الحقُ بكم بعد ساعة. جلستُ في المقعد، الأمامي لسيارة سليمان الياسين، وهو يُدير محرّك سيارته عَني الأخير بوضع حزام الأمان، التفتَ إلي. افعل مثلي، كويت ما بعد التحرير تلتزم بقوانين المرور. لا اجزم إن كان جاداً، لكنّ المعنى المضمّن لا التزام بقوانين أخرى. انطلقتْ بنا السيّارة نحو السالمية مروراً بشارع بغداد، سارني متسائلاً ما إذا ابقوا على إسم الشارع، تلفتُّ الجهات، ليس ما يدلّ، استرعى انتباهي تعليق أعلام الكويت على أعمدة الإنارة، لعلّه قرأ ما يدور في ذهني. استعدادات الاحتفال بالعيدين، الوطني والتحرير. مناسبة حلول يوم التحرير تالياً لليوم الوطني مباشرة. تذكرتُ رفيق زنزانة 7، الحاج ناصر، حلمه أن يرى حفيده حامل إسمه، متى تسنح لي فرصة رؤيتكِ زينب، القاضي صلاح الفهد يقول عن ثقة. قانون الأحوال الشخصية يكفل. أنتَ متشائم. قالها سليمان الياسين. ضحكتُ. كيف عرفت. نظرتك الشاردة تدلّ. ضحكتُ ثانية. أظنني لم اعتد حريّتي بعد. سادتْ لحظات صمت. مساحة الغرفة التي خصصها لك مسرح الخليج اضعاف مساحة غرفة ملحقك. ملحقي اختفى للأبد بجداره الجيري وبابه الخشبي، رسمة ناجي العلي، حنظلة الكويتي، الكويتيون مولعون يقوّضون كل الذي له صلة بماضيهم، الاحتلال صار ماضياً، كيفية إزالته من الذاكرة الجمعية، الحّ علي سؤالي. هل غيروا إسم هذا الشارع. ما زالت المسألة قيد التداول. لا ادري إن كان جاداً. سمعته. أحد الصحفيين، من كتاب الأعمدة اليومية، طلب طمس الإسم. مقر مسرح الخليج السالمية. وصلنا. أشار سليمان

الياسين بامتداد ذراعه. السوق المركزي للجمعية التعاونية لا يبعد كثيراً عن هنا، بامكانك بلوغه مشياً. ترجّلنا أمام الباب الرئيسي. رفع مرافقي يده كي يضغط زرّ الجرس لحظة انفتح الباب. أطلّ من فرجته رجل يماثلني سنّاً. أهلاً إستاذ سليمان. لهجته تؤكّد إنّه مصري. حدث هذا في فبراير عام 1992، لعلّ مُساكني الحالي الشاب السيريلانكي كومار كان طفلاً رضيعاً. ردّ سليمان الياسين تحيّة الرجل. أهلاً يا مرزق. أشار نحوي. هذا هو منسي الذي سيشغل قاعة الملفّات. ادهشني توصيفه لغرفة سكني، تهلل وجه مرزق، ردد مرحّباً. نوّرت المكان استاذ منسي، إسمك مصري بصحيح. سبقنا نحو الغرفة، هامسني سليمان الياسين. مرزق صعيدي قبطي، لكنّه حين يحدّثك يسبّق لكلامه، صلّي على النبي محمد، وهو في الغالب يقسم بالمصحف يلحقه بالتوراة والإنجيل، طيّب على نيّاته. سكتَ برهة. شباب المسرح يتواجدون ليلاً لساعات محدودة، تزداد ساعات تواجدهم لمّا تكون هناك جلسات قراءة نص مسرحي أو عمل بروفات، أغلب الأوقات أنت ومرزق وحدكما. اسمعُ سليمان الياسين يواصل همسه، اعرفهُ يهدف يحقق لي ألفة مكان، دخلنا الغرفة، هالني اتساعها، هو لم يبالغ بشأنها، غمغمتُ. كبيرة جدّاً. شاكسني.عساك لا تملأ جدرانها بارفف ملفّات. خلال عقدين من السنوات تضاعف عدد أرفف الملفّات مرات، صدق حدس سليمان الياسين، لحظتنا تلك إلتفتَ لمرزق، أوصاه. أنتَ مسؤول عن منسي، باشرهُ بالشاي الصعيدي عشر مرات يومياً. بعد مشاهدة الغرفة صحبني للديوانية، جلسنا هناك، في حين انصرف مرزق يُعدّ لنا شايه، دخل مبارك سويّد معتكر الوجه. سعود وشخص ثان يقول عنه انّه محاميه لحقا بي لهنا. هبّ سليمان الياسين واقفاً غاضباً. أنا اتكفّل بطردهما. وجّه مبارك سويّد خطابه لي. هما يريدان مقابلتك. تذكّر أضاف. لا يبيّتان شرّاً. تذكّر أضاف. يعتزم سعود تقديم اعتذار شخصي. اتخذ

سليمان الياسين قراره. نخرج لهما نحن الثلاثة. اتخذتُ قراري. أخرج لهما وحدي. تبادل الإثنان نظرات حائرة. ليس هناك ما يدعو لقلقكما. أُغادر الديوانية، بضعة أمتار تفصلني عن الباب المؤدي للخارج، سعود في الخارج، اعتاد المرابطة أمام الأبواب، ما الذي حدّاه لأن يجيء بهذه السرعة، جلسة المحاكمة قبل ساعات، الخزي الذي ناله، أم خوفه من بطش يضمره له القاضي صلاح الفهد، أنا لا أُفكر بردّ صاع، لا أقول عفا الله عمّا سلف، لكنّه وجود زينب بيننا، استبعد ما يُدعى صحوة ضمير، سعود في النأي منه، يواجهني الباب مواربأ، افتحه، أرى ثلاث سيارات، احداها لسليمان الياسين، الثانية لمبارك سويد، ينفتح بابا السيّارة الثالثة، ينزل رجلان بالزي الوطني، أحدهما سعود، أدقق وجه مرافقه، تحضرني قسمات محاميه سليمان، يحضرني لقاء ما قبل سنوات في مبنى جريدة السياسة. اسعدتنا رؤيتك استاذ منسي. شكراً. اقترب المحامي سليمان شاهراً كفّه للمصافحة، شدّ على يدي، انسحب خطوتين مفسحاً مجال مصافحة سعود، مرّة أولى أُلامس يد المعني، احسستها رخوة، تصدّى سليمان المحامي نيابة، ابدى صادق أسفه لازعاجي في يومي الحافل هذا، هو لن يأخذ من وقتي الكثير، الأمور بما انتهت إليه، سعادته تجاه براءتي لا توصف، وها هو الحق يظهر جليّاً، يبقى الطموح أنْ تصفو النفوس، نطوي صفحة الماضي حيث لا رجعة، ولا أفضل من العفو عند المقدرة، يكون في علمي، سعود لم يشأ للأمور أنْ تذهب بعيداً بالصورة المؤسفة، هو لا يكنّ لي سوى التقدير والاحترام، لولا إصرار أخته السيّدة عهود وقناعاتها الخاصة بها وحدها، احقاقاً للحق السيّدة عهود هي المحرّك الأساسي لما بدر سابقاً، بدءاً من حضوره محاكمة أمن الدولة اليوم ادرك الدكتور سعود إنّ أخته السيّدة عهود متجنّية على زوجها البريء، لهذا جاء يعتذر طالباً السماح ودفن الأحقاد، ولا بأس أنْ يكون في علمي أيضاً، واجه الدكتور سعود أخته المعنيّة بالتأنيب

الشـديد جدّاً، ارتأى عليها تولّيها أمورها بنفسـها، هو منها براء، إضافة لهذا كلّه، لديه اسـتعداد للتسـوية السـلميّة دون حاجة لشـكوى قضائية، عساني أتفهّم وضعه المالي المحدود فلا أطلب تعويضاً نقدياً تعجيزياً، لدى توصلنا لاتفاق يرضي الطرفين نسـدل السـتار على الماضي الأليم، والله وليّ التوفيق. أسمع مرافعة سليمان المحامي أو لا اسمعها، أموري واضحـة بالنسبة لـي، مثلمـا هي أمور سـعود وعهـود. لا اعتزم مقاضاة أحدهمـا. انفرجـت أسـارير الإثنيـن. ولا أريدُ تعويضاً ماليـاً. وددتُ لو أقـول. تعويضـي الوحيـد أنْ تضمنـوا لي رؤية إبنتـي زينب دون اللجوء لمحكمة الأحوال الشـخصية، انبرى سـليمان المحامي مستوضحاً سبب رفضـي قبـول التعويـض. لأنه إهانـة. ارتفعت حواجبهما اسـتغراباً. عاد المحامي سليمان ألحّ. قبول مبدأ التعويض يقطع دابر الشك. أي شك. كأن تُعيد النظر يا استاذ منسي بالذي تعرّضت له، تقيم دعوى ثأرية. لن أفعل. الوعد الشفوي لا يدعو للاطمئنان. ما الذي تريدانه. تعهّد خطي يقضي بأنّك لن تقدم على إقامة دعوى ثأرية. الابتزاز مدعاة إشـمئزاز، سألته. هل أنتَ جاد بطلبك. لم يحر جواباً.

السـاعة الواحـدة ظهـر يـوم تـالٍ، داخـل الغرفة الواسـعة من مبنى مسـرح الخليـج، كنـتُ وسـط أكـداس ملفّاتـي، أحـاول تصنيفهـا فـوق الأرفـف الخشـبية، تناهـى لسـمعي صوت جـرس البـاب الخارجي، لم أُعـره اهتمامـي. الرجـل المصري مرزق هو المسـؤول، أنا بحكم ضيف لاغيـر. بعـد ثـوان اقتحم مرزق عليّ الغرفة. واحدة سـتّ كويتية تطلبك عند الباب. اسـتبدّتْ دهشـتي بي. تطلبني أنا. بالإسـم. نشط ذهني وهلة أولى اسـتعرض وجوه بشـر يمتّون لي، لا وجود لوجه امرأة، اسـتبعدتُ وجـه عهـود، مهاتفتـي لمنـزل مشـرف ما بعـد التحرير إلتقاطها سـمّاعة الهاتـف، السـلام عليكم، فإن تعرّفـتْ صوتي، اللعنة، اقفلتْ الخط، بما يؤكّد احراق جسور العلاقة، مرزق يقف منتظراً ردّي أو ردّ فعلي، ملزم

أُلبي ما دمتُ مطلوباً بالإسم، كذلك ملزم أعرف من يكون السائل عنّي، أنا الطارئ على المكان، لم يمر يوم كامل على وجودي هنا. لا بأس. أسمعتها لمرزق، كي أصرفه خارج الغرفة، نفضتُ الغبار العالق بكفي. أيامي الأولى خارج السجن تحمل مفاجآت أو مفارقات، هل أُصدّق عيني، ليس سوى عهود، عباءة سوداء تنسدل حتى القدمين، شعرها متوار تحت حجاب أسود محكم اللف، وجهها شاحب باهت خال من آثار الزينة، سنة واربعة شهور مُذ فارقتني على حين تخلّ، كيف لإنسان يتقدّم بالسن بمثل هذه السرعة، أمّكِ يا زينب، كانت في السابعة والثلاثين لا أكثر، ألأنّها لم تعن تتزيّن، ألأنّها تقصّدت تبدو كمن قارب الخمسين، أواجهُ عينيها، افتقدُ نظرتها المشوبة بحيويّة التحدّي والفضول، آلمني أراها بما آلت، آلمني أكثر إنّها جاءت من دونك. السلام عليكم. عليكم السلام. الحمد لله على سلامتك. شكراً، تبادلنا نتف تحياتنا كأننا معرفة سطحية تقتضي نمط مجاملة مفروضة، لم الحظ رغبتها في أنْ تمدّ كفها تصافحني، عساني لا اتذكر عناقاتها لي خارج السرير أو فيه. عساني لا اتذكرنا زوجين، كنّا واقفين أمام باب مقر المسرح، كان الجوار مقفراً من المارّة، عبرتْ سيارة في الطرف الأبعد للطريق، ما خطر لي ادعوها نتجالس في الديوانية، إحساسي المستوطن داخلي، هي وأنا، كلانا، لا يملك دالّة على الآخر، غربتك تجاه الواحد لا تعني جهل من يكون. أُصدّق أو لا أُصدّق، عهود لا تكرهني، لم يراودها إحساس كراهية نحوي في أيّ يوم من أيام تعايشنا، ابعدتُ عن ذهني فكرة سؤالها دوافع اختفائها من الشقّة زمن الاحتلال دون أنْ تصّرح، تمهّد، تترك رسالة، ساورتني لحظتها خاطرتي، لا أظنّها عرفتْ بوفاة أميّ، توقّعتها تأتي على ذكرها، أخبار خالتي، وإنْ لم تكن خالتها، كيف حال أمّك، عهود تنشغل تقول. حياتنا التي عشناها هي وأنا، حلوها ومرّها تستحق منّا الاحترام، اختلاف نظراتنا تجاه الأمور والأحداث شيء طبيعي لاغبار عليه، حتّى

إذا جاء الفكّ يتوجّب أنْ يكون إنسانياً وديّاً تقديراً لتاريخ العلاقة. اصغي لها تفضي ولا سبيل لاعتراض، ولا دافع لدفاع عن موقف، تقول، حسم الأمور نهائياً أفضل من الابقاء عليها هامشاً يؤلم القلب، هل هفا قلبي غفلة منّي لكي انقم عليه أوعلى الماثلة أمامي، لو ناشدتها، تجاوزي تمهيداتكِ ومقدماتكِ، سرّعي الافصاح بقصدك، دعيني أعود لكدس ملفّاتي، ادفنني، أعود استعيدني فارغاً أجوف، خالياً من أيّة عاطفة حبّ أو كراهية، أمام الباب الحديدي الأسود لمبنى المسرح، المرأة الواقفة أمامي متشحة كلّها بالسواد، ليكن في علمي، عهود براء من جميع التصرفات الشائهة التي صدرت عن أخيها سعود، الأخير لا يمثّل الاّ نفسه وقناعاته الخاصة به، عهود لا تعرف طبيعة أعمال قام بها سعود ضدّي ولا تريد أنْ تعرف، لن يضيرها اعترافها إنّها اخطأتْ بزواجها الأوّل، اخطأتْ لما غفلتْ أمر حملها فاجهضتْ، لا يحزنها كونها دفعتْ ثمن ذلك غالياً، لا تدري إنْ كانت اخطأتْ بزواجها الثاني أيضاً، لكنّها والحمد لله غير نادمة ما دامت زينب حصيلة هذا الزواج، هي، إنْ شاء القدير وتطلّقتْ منّي، لن تراودها فكرة الزواج لمرّة ثالثة، الأجدى بها تنذر بقيّة عمرها لرعاية وحيدتها زينب، نذرها للسيّدة زينب ما زال واجب السداد، شرد ذهني لثوان طارد مقولة وجوبية السداد، ما الذي تعنيه عهود، استعادني صوتها، لأنّها ليستْ بصدد الزواج مرّة ثالثة تستطيع ابقاء صيغة الزواج قائمة إلى ما لا نهاية، للرجل، كما أعرف وتعرف هي حقّه بتعدد الزوجات، بقاؤها على ذمتي لا يلحق أذى بمشاريعي المستقبلية، لم اشهر كفّي بوجهها، كفاكِ هذراً، سمعتها، لولا انشغال ذهنها تجاه ابنتنا زينب، اراحني قليلاً تذكّرها لي، نسبتكِ لي مثلما أنت لها، سمعتها، واجبنا الإنساني هي وأنا يقتضينا اتخاذنا قرارنا المتصل بنا سريعاً، فكّنا بائناً، حدستُ ما تقصده عهود، الابقاء على صيغة زواج شكلية يعني ارتهان حياتكِ زينب بصفتك بدون، الطلاق

البائـن يحيلـكِ إبنـة امـرأة كويتيـة مطلّقـة، يمنحكِ حق معاملة مشـروع مواطِنـة، لحيـن البـتّ بكِ كويتيـة إلحاقاً بأمّكِ، هذا ما ينصّ عليه قانون الجنسـية، ولا عـزاء لمـن، اسـمعها، أنتَ كاتب صحفـي مثقّف ومطلّع، لعلـك تتابـع مـا يعانيـه البدون بعـد التحرير على وجـه الخصوص، ولا أظنك ترضى لابنتك حرمانها من. حلّ أوان مصارحتها، منسي استعداد بيّن لطلاق بائن، لاشـيء غير اشـتراط وحيد، ضمان حق الرؤية. انفرج فمها عن ابتسـامة رضا واعدة. ليس ما يدعوك لأن تشـترط، الرؤية حق مطلق إنسـاني شـرعي للأب مثلما هو ضرورة نفسـية حتمية لنشأة الإبنة بشكل سوي.

يا زينب، أتذكّر لقاءنا الأخير أمّك وأنا أمام الباب الحديدي لمبنى مسـرح الخليـج، حديثنـا، حديثها المحسـوب ذاك، عسـى الله سـبحانه يكتب الصالح للجميع، آمين، مع السلامة، لم انتظرعليها مغادرتها قفلتُ راجعـاً عبـرتُ البـاب داخلاً مهزوماً او مأزوماً، تراني إلي أين، تمثّل لي داخلـي فراغـاً متراميـاً موحشـاً، لـو إنّي لم التق بأمك منـذ البدء، لو لم استسـلم لمشـروعها القاضي بماذا، أخلو لنفسـي وسـط ملفّاتي، يشـرد ذهني بعيداً، أطارده، اسـتعيده، أسـارره، تكفيني رؤيتي لابنتي، لا أحد سواكِ، أنتِ الكائن المرتبط بي شاء آخرون أو أبوا، الأبوّة مشاعر خبرتها غيبـاً، تبـدّت لـي بوطـأة توق العاجز عـن النيلّ، معاناة حـادّة قاهرة تهدّ القلب، محاصرة ضاغطة داخل الصدر تكتم الأنفاس، واقع من حرمان مشـبع بظلم فادح لا سـبيل لتبريره، ليس ما يدعوك لأن تشـترط، قالت عهـود، الرؤيـة حـق مطلق انسـاني شـرعي لـلأب، قالت عهـود، بذلتْ قصارى جهدها تطمئن محدّثها قبل المفارقة، فاتني أسألها، متى، فاتني ابدي جانب لهفتي، أودّ لو اليوم، لابأس من غد، أُعود أهادن انفعالي، أتوصّل لاسـتنتاجي، عهود تعرف ما الذي يعنيه الحنين، ادركتْ رغبتي عبر اشتراطي. لازمتُ غرفة ملفّاتي في مقر مسرح الخليج، علّها تجيء

اليوم مصطحبة زينب، تتباطأ ساعات النهار، يحلّ المساء، يظلم الليل، أراوغني، أخاطبني، لدى عهود ما شغلها، عساها تجيء غدا رفقة ابنتنا، انشطُ صباحاً، استعدّ، انتظر، تتوالى ساعات النهار يحلّ ليل، يتلوه ليل، يتلوه، تراها كيف، جبستني اختياراً عشرة أيام داخل مبنى المسرح، لعلّ عهود تهلّ حاملة إبنتنا، تحوّل مبارك سويّد خلالها إلى ما يشبه الوسيط الذي ينقل الأخبار بين منطقتي مشرف والسالمية، سعود يقول نقلاً عن عهود. زينب معتلة صحياً قليلاً، درجة حرارتها مرتفعة نسبيّاً جرّاء التسنين. كلمة تسنين غريبة عليّ، يطلق مبارك سويّد ضحكة قصيرة. بعض الاطفال تبدأ اسنانهم اللبنية بالظهور قبل إتمامهم عامهم الأوّل، عملية ظهور السن وهو يخترق اللحم مؤلمة، تكون مصحوبة بحمّى خفيفة أحياناً. حتّى متى. تستغرق زمناً يدوم أشهر، هذه حال عادية عند جميع الأطفال، بامكانهم معايشة الوضع إلاّ إذا كان أحد الأبوين يعاني من التطيّر. المقصود بالتطيّر هنا عهود، في سياق أحاديثنا عرفتُ من مبارك سويّد إنّ خلافاً حاداً نشأ بين عهود وعمّها فرحان قبل أشهر من الآن، أعقبه خلاف بينها وبين أمّها، سعود، كما يتبادر للذهن، يتبّع سياسة فَرّق تَسُد، ثلاثة أسابيع وسط دوامة حيرة آخذة تتسع، تصير متاهة، أين إبنتي زينب من احترابهم بعضهم البعض، مطلع الأسبوع الرابع خبّرني مبارك سويّد. تحدَدَ موعد مثولكما أنتَ وعهود أمام القاضي الشرعي لغرض اعلان الطلاق غداً صباحاً الساعة التاسعة، مجمع محاكم منطقة الرقعي. نمتُ ليلتي تلك أو لم، حوالي الساعة الثامنة صباحاً وصل سليمان الياسين، هل عرف معاناتي وأنا استعد لفسخ بائن، أراد اضفاء جو مرح. ساحظى بشرف مرافقتك لمجمع محاكم، مبارك سويّد غير قادر على رؤية سعود أكثر. مفردة الرؤية، بالنسبة لي، تعني شيئاً آخر له وقع الأبوّة، هي حقّ أقرب لأن يكون مقدّساً، يكفله القانون. زحمة الطريق بالسيّارات، تنبّهتُ لخلو أعمدة

الإنـارة مـن الأعـلام الكويتيـة، العيـدان، الوطنـي والتحريـر انقضيا منذ أسـبوعين، شـهر مارس نهاية حقيقية لفصل الشـتاء باحالته على الربيع، عهـود وأنـا، لقـاء تعارف أوّل، خريف دمشـقي عـام 1985، طلاقنا ربيع كويتـي، بعـد مرور سـبع سـنوات تخللها حدث احتـلال، تخللها مخفر نقـرة، أعقبتـه شـعبية عراقيـة، أعقبتهـا دوّار العظـام ومنـه إلـى مقبـرة صليبيخـات، لـك الرحمـة يـا أمـيّ، أريدُ رؤيـة أولادكَ قبـل أن أموت، الموت حق، الرؤية حق لم تكفله لك الحياة يا أميّ، لكنها كفلتْ قفصاً سـقيفة لأحدهم ريثما إلى سـجن مركزي. أنتَ شـارد الذهن. سـليمان الياسـين يبذل جهده يسـتعيدني إليه. الذهن يا إبن الياسـين ينشط خارج الإرادة الآنيّة لأحدهم، الشرود اجترار للزمن والأحداث. ما الذي يشغل بالك. كلّ ما لا يمتُّ للواقع الحالي بصلة، أو إنّه حصيلة حتمية. أنتَ ساكت يا منسي. يرددها سليمان الياسين عاتبة. التفتُ، ابتسم، أقول وأنا احيط الجوار ما وراء زجاج السيّارة بإشارة يدي. الكويت نظيفة. فاجأني سـؤاله اللئيم. نظيفة من ماذا. شـارفتْ السـاعة التاسـعة صباحاً، أوقف سليمان الياسين سيارته إلى جانب الرصيف غير بعيد عن مبنى المحاكم. وصلنـا علـى الموعـد. حس الانجاز يسـكن صوته. دقائـق قليلة تتحوّل بعدها من شخص مقيدّ بزواج لطليق حر. روحه المرحة تخفف الوطأة، أكتشفُ معنى جديداً لمفردة طلاق، في التعبير الأدبي يُقال عن شخص تـزوج حديثـاً دخـل القفص الذهبي، وإنْ اسـتهدف التعبيـر معنى واقعياً أكثـر قيـل دخـل قفص الزوجية. القفص هنا يضـم اثنين، قفص معتقلي أمن دولة ما بعد تحرير ضمّ مئات، قفص اتهام قضاء عرفي ضم عشرة، الحيـاة أقفـاص متفاوتـة. أنـتَ حتّـى الآن شـارد الذهـن. هـذا المبنـى المخصص للمحاكم جديد. حدجني سليمان الياسين نظرة عاتبة، اجتزنا بوابـة المبنـى مـروراً بالوحـدة الأمنيـة، واجهتنـا قاعـة واسـعة مزحومة مراجعيـن مـن الجنسـين، عشـرات النسـاء بعبـاءات سـوداء فضفاضـة

وحجابات رأس محكمة الشـد، عيناي تبحثان، أين عهود، فإن جاءت، أيـن زينـب، خطـا سـليمان الياسـين نحو واجهـة زجاجية بكـوّة يجلس وراءهـا شـاب بالـزي الوطنـي. تبادل معه حديثاً، عـاد أخذني من يدي. الإدارة المختصة بشـؤون الطلاق في الجانب الثاني للمبنى. انقدتُ له، الطـلاق إدارة خاصّـة، دخلنـا قاعة أصغر مسـاحة مقارنة بالأولى، بضعة أبواب مواربة، ثُبتتْ عند طرف أحدها لوحة خشـبية، القاضي الشـرعي، صـفّ مقاعـد لصق الجـدار المواجه لمكتب القاضـي، المكان خالٍ إلاّ من رجل وامرأة مسـربلة بالسـواد، الإثنان جلسـا متباعدين، متى تصل عهود، حثّ سليمان الياسين خطوه، دخل مكتب السكرتارية، غاب ثوان عاد مخبّراً. إسمك مدرج في السجل، أنتَ الأوّل. ماذا عن إسم عهود، ثوان معدودة من جلوسنا وصل المحامي سليمان يلحق به سعود، علقتْ عينـاي عبـر مدخـل القاعة، يتحتم وصول عهـود الآن، اقترب المحامي سـليمان منّـا مـاداً كفه، نهضـتُ، صافحتُ، توسّـعتْ ابتسـامة المحامي سـليمان وهو يمدّ كفّه يصافح سـليمان الياسـين. جميل أن نلتقي بفناننا الكبير. سعود بقي واقفاً في الجوار، حيّاني بايماءة رأس، قبل أنْ يتطلع لوجه سليمان الياسين كمن يرى كائناً غريباً، عهود لم تأت، أُبقي تساؤلي حبيسـاً داخلي، الدقائق القادمة تزيل الغموض، مرّتْ دقائق، خرج أحد الموظفين من مكتب السـكرتارية، دخل مكتب القاضي، السـاعة قاربت التاسـعة والنصف، عهود لم، أطلّ الموظف نادى عليّ بالإسـم، وقفتُ تتناهبني حيرتي، موظفهم يقف في فرجة الباب ينتظر اسـتجابة المنادى عليه للمثول أمام القاضي، التفتُّ لسليمان الياسين ناشداً مساعدته. كيف تتـم اجـراءات طـلاق بغيـاب مـن. سـمعتُ صـوت سـليمان المحامي. الطلاق لا يلزم حضور المرأة. دارى سليمان الياسين استغرابه، أشار لي أنْ استجيب، مشـيتُ مشـتت الذهن والخطوات، افسـح موظفهم طريق دخولي، القاضي يجلس وراء مكتبه. أنت منسي. أنا منسي. سألني عن

السـبب الذي دفعني لطلب الطلاق، أوشـك لسـاني يفلت، لستُ طالب طـلاق. تذكّـرتُ وقوفنـا عهـود وأنا عند الباب الحديدي الأسـود لمبنى مسـرح. عدم اتفاق الزوجين. صدرتْ عنّي كأنها تخصّ بشـراً آخرين. حدّق إليّ القاضي. هذا سبب غير كاف، اختلاف وجهات نظر الزوجين أمر اعتيادي لابُدّ من التمسـك بعُرى الزوجية أبغض الحلال. اسـتحالة اسـتمرارنا زوجين. قرأ القاضي إحدى أوراقه، رفع رأسـه. أين الزوجة. لا أعرف. حدجني شـزراً. يلزم حضور الزوجة. تناول قلمه. تعال أنتَ والزوجـة فـي مثـل هذا اليوم من الأسـبوع القادم. هـل أقوله له، لا دالّة لي على الزوجة، دخل المحامي سـليمان يتبعه سـعود. السـلام عليكم سعادة المستشار. مفاجأة دخولهما، كظم القاضي ردّ فعله، عقد حاجبيه. من أنتما. نرجو المسامحة صاحب السعادة، أنا سليمان محامي الدكتور سعود. لماذا دخلتما. الدكتور سعود شقيق السيدة عهود موضوع طلب الطـلاق مـن الاسـتاذ منسـي، علماً بأن الدكتور سـعود مخـوّل بناء على توكيـل رسـمي عـام بالحضـور أمام جنابكم لغرض انجاز مسـألة طلاق شقيقته. تأمّل القاضي ما سمع ثانيتين. أين هذا التوكيل. دسّ سعود يده في جيب دشداشته استلّ ورقة مطويّة سلّمها للقاضي، قبل اطلاعه على محتـوى الورقـة التفتَ القاضي لسـليمان المحامي. انتظر خارجاً. أمرك سـعادة المستشـار. أفاد القاضي. توكيل حديث. رفع عينيه لوجه سعود. مـا الـذي منـع اختـك عن الحضور. أختي مُصابـة بمرض عضال الزمها السرير. سارع دسّ يده فى الجيب الثاني لدشداشته، استلّ ورقة مطوية أيضـاً دفعهـا للقاضـي. هذا تقرير طبي يؤكّد مرضها. لمّا عهود وأنا قبل ثلاثة اسـابيع لم يبدُ عليها إنّها، مسـاررتي لي من عدمها، أعاد القاضي الورقة لسعود. لا بأس عليها. سكت برهة موازناً قراره، نقل بصره بين وجهينـا أنـا وسـعود. نيّة الطلاق برضا الطرفين واجمـاع رأييهما. انبرى سـعود. نعم. حدّق القاضي إلي في عيني ينتظر سـماع اسـتجابتي، شُـلّ

لساني، صار قطعة خشب، عيناه تتنظران، أومأتُ برأسي موافقاً. إنّا لله وإنّا إليه راجعون. صوتُ القاضي يُضمر تأنيباً ينحو إدانة، تناول قلمه. وافقنا على طلقة واحدة، وللطرفين حقّ المراجعة قبل انتهاء عدة الطلاق. تدخلّ سعود. نريده طلاقاً بائناً. إحتد صوت القاضي. تريدان تطويع أحكام الشرع. وددت لو أنبس، أنا لا، انهى القاضي كتابته. ليكن بعلمكما الطلقة الواحدة تصير بائنة إن لم يعاود الزوج زوجته خلال المدّة المحددة شرعاً. خصّني بسؤاله. لديك أطفال منهما. طفلة رضيع. خيّل لي رقّ صوته نحا نصحاً. وجود طفل بينكما يحفّزكما على أن تراجعا قراركما قبل فوات الأوان. لا مكان أصرّح، فَكّ الارتباط إتجاه جبري، تجرأتُ قلت. ليتكم تضمنون لي حق رؤية إبنتي. شاب صوته هامش انزعاج. هذه المحكمة مختصّة بألطلاق، الأمور المترتّبة على ما بعده تحسم باتفاق الطرفين، وإن حدث خلاف غير قابل للحل يلجأ الطرف المتضرر لمحكمة الأحوال الشخصية. غادرتُ مكتب القاضي مخطوف الذهن، عهود وسعود تلاعبا بي، غياب عهود عن الحضور، التوكيل العام حديث الاصدار، مسألة التقريرالطبي، عهود مصابة بمرض عضال ألزمها الفراش، صِدقُ الآخر من زيفه، سعود تسلّم نسخة ورقة طلقة أولى، أشار لمحاميه، تعال، حثّا خطوهما مبتعدين، رآني سليمان الياسين مقترباً إليه هبّ واقفاً. أنتَ حر الآن. تعال. أين. نلحق بسعود ومحاميه. ما الذي تريده من بشر لا. لم يوف توصيفه. أحتاج إجابة سؤال. مشيتُ، سارعتُ خطواتي، سايرني سليمان الياسين، رأيتُ الإثنين، كانا يهمّان يركبان سيارتهما. يا دكتور سعود. التفتَ، عيناه فارغتان، أو إنّه شاء الاحتفاظ بحياده الانفعالي. نعم. وصلته. سؤال واحد. نعم. مدى خطورة مرض عهود. رفع حاجبيه دهشة. لم افهم قصدك. هل هي مريضة فعلاً. أرخى حاجبيه، نمّتْ نظرته عن لا مبالاته، لم يخف استهانته. هل ترغب بقراءة التقرير الطبي. تملكتني قناعتي،

عهود ليست مريضة، لؤم الانسان يحفّز فيه قدرة افحام الآخر، سعود افحمني لدرجة إحساسي بأنّي مغفل، أمر الفكّ صار واقعاً قائماً، سعود حقق مطلبه، أيّاً كانت لعبة الفكّ يبقى الأمر الذي يحتلّ أولوية اهتمامي مثلما يكرّس توقي، سألته متى يسمحون لي أرى إبنتي زينب، دارى لا مبالاته، اختصر ردّه وهو يفتح باب سيارته. عهود مسؤولة. ما القصد، ماذا فهمت عنه، كيف يتسنى لي، متى، أسئلتي تدور في تشفّ خصّني به سعود، لا جدوى من إذلال أكثر، عساني التقي القاضي صلاح الفهد يمحضني نصحه، قفلتُ راجعاً حيث ينتظرني سليمان الياسين عند سيارته. أنتَ غاضب. ما الفرق.

الخيانة أوجه، أشدّها شناعة أنْ يأتيك من ينتهزك، يوهمك بما تراه عادلاً، يسايرك مبيّتاً غدراً، حتى إذا بحثت في الأسباب التي ولّدتْ لديه حافز الغدر وجدتها غير مبررة، هو لن يكسب من وراء غدره سوى فعل الإيذاء المبرمج والممتد في زمنكَ كلّه، انتقام حصري موجّه للاهدف، هل هدفتْ عهود للانتقام من صنف رجال أشباه زوجها الأوّل عبد السلام وشقيقها سعود مثلاً بصبّ جام حقدها عليّ. عندما ارتأيتُ على مبارك سويّد يرافقني لزيارة القاضي صلاح الفهد عساه يمدّ يدّ مساعدة ضمان حق رؤية، فاجأني مبارك سويّد. عهود غادرتْ الكويت. سكت وهلة كمن يرأف بمتلقي خبره. أخذت إبنتها معها. الإبنة المأخوذة أنتِ. نبرة صوت مبارك سويد تعني رحيلاً بزمن مفتوح، كيف لي افهم ما يدور في الخفاء منّي، أين يكمن خطأي التراجيدي لكي تُهدر أبوّتي، يعاودني الإحساس بالقفص، لكنّه هذه المرّة قفص داخلي، هناك مواطِن، وهناك غير. من حقّ المواطن أنْ، ومن حقّ غيره أنْ يشرب البحر. قال مبارك سويّد. عهود تكتّمتْ خبر سفرها، استعدّتْ له سرّاً. قال. احتمال معرفة أختها جود، أغلب الظنّ عهود سافرت لاختها المتزوجة من طبيب أسنان سوري في دير زور. قال. وهي تنوي التوجّه للمطار اقتطعتْ عهود

دقائق من وقتها خصّتْ بها أمّها، أسرّتْ لها ما مفاده يستحيل عيشها هنا ما دام سعود. قال. العم فرحان وهو ينقل روايته لي نقلاً عن أرملة المرحوم أخيه لم تأتِ عهود على ذكر إسم منسي لا بالخير ولا بالشر. هل تعزيني فكرة عهود لم، أم إنّها تحيلني لاحتمال، أنا الصفر المغفل بالنسبة لها، محصلّتها إبنتها زينب وكفى، شاغلني وقتها تساؤلي، زينب باقية فئة بدون، الفئة المعنيّة محرومة حق الحصول على وثيقة سفر، كيف تأتّى لعهود، عرفتُ في وقت لاحق عن إمكانية صرف وثائق سفر مادّة 17 لأبناء الكويتيات، عهود وُفقتْ نفذتْ بابنتي خارج الحدود، أنا هنا، أُقيم في المكان، أُقيم داخلي، الطلقة الأولى صارت بائنة مع انقضاء مدّة العدّة، أمل معلّق يخفف وقع الفقدان أن تنال زينب حق المواطنة بصفتها إبنة لكويتية مطلّقة، أتابع مراسيم صادرة بهذا الشأن، حرصتُ اقتني أعداد الجريدة الرسمية، أتصفّحها مليّاً، أعداد المدرجين قليلة، ولا أرى إسمكِ، امنّيني، في العدد القادم، أُقيم في المكان، ليت عهود تحنّ لبلدها تعود رفقة زينب، عهود غير معنية تعود، في وقت موغل ما بعد السجن المركزي أردتُ إغراق نفسي في عمل وظيفي دوام كامل، كي أُجهدني كفاية أُشاغلني عنّي، حاولتُ، حاول معي كل من مبارك سويّد وسليمان الياسين، إرتدنا أروقة وزارات ومؤسسات وشركات، أبواب العمل مقفلة في القطاعين العام والخاص أمام فئة محددة، التعليمات تقضي بأنْ لا، وحده أحمد الجارالله سمح لي بمعاودة كتابة عمودي الصحفي، بدأته ومازلتُ.

الزمن توالٍ باتجاه أمام، مبارك سويّد هجر الكويت إلى المغرب، قبل استقراره هناك عرفتُ منه، أم سعود لحقتْ بابنتيها إلى سوريا. مقيم في المكان، عاصرتُ أربعة فرّاشين عملوا في مبنى مسرح الخليج، السالمية، أوّلهم المصري مرزق وآخرهم الشاب السريلانكي كومار، أدمن اقتطاع قصاصات الصحف والمجلات، إعداد ملفّات، تصنيفها،

إعادة تصنيفها بناءً على ما يستجد، مراسيم الجريدة الرسمية صار لها أكثر من ملف. صباح اليوم زارني سليمان الياسين منفرج الأسارير. تعال. أين. وزارة الداخلية. خير. صديق متنفذ في الوزارة حدثته بموضوعك، أفاد عن إمكانية صرف جواز سفر لأسباب إنسانية. سكت ثانيتين. عساك تسافر لرؤية إبنتك. انفرج داخلي. لوغادرت الكويت غادرتها. ضحك. سافر أوّلاً ثمّ قرر. استقبلنا صديقه المتنفّذ في مكتبه الفاره، استضافنا أكواب شاي بملاعق ذهبية. إسمك الثلاثي إستاذ منسي. أمليته ثلاثيتي، نقر على مفاتيح حاسوب مثبّت على طرف مكتبه، انتظر ثوان، اعتكر مزاجه. عليك قيد أمني. انبرى سليمان الياسين. إن كان على دخوله السجن المركزي بعد التحرير فقد برّأته محكمة أمن الدولة في حينه. البراءة من الحكم لا تعني الغاء القيد الأمني أضاف. لو كنتُ أعرف مسألة القيد الأمني ما كلّفتكم عناء المجيء. سكت برهة. تعليمات صارمة تقضي بعدم صرف وثائق سفر لاصحاب القيود الأمنية من فئة البدون. ما الحكمة من ذلك. ابتسم المسؤول محرجاً. ما باليد حيلة. كانت الساعة قاربت الحادية عشرة عندما غادرنا المبنى إلى الشارع. كانت شمس الكويت صفراء ساطعة، حدستُ وجود نتف غيوم بيضاء في السماء، رفعتُ عيني، لا أثر للغيوم بالمرّة. إلتفتَ إليّ سليمان الياسين. أنتَ ساكت. أبداً.

فصل أخير

وَرَدَ في سفر الأحوال، إذا بلغ الكلام منتهاه حان أوان ما يسمّى القول الفصل، هذا الفصل لا حول ولا قول له، زينب.

مؤلفات إسماعيل فهد إسماعيل

أولاً الروايات

1- كانت السماء زرقاء
2- المستنقعات الضوئية
3- الحبل
4- الضفاف الأخرى
5- ملف الحادثة 67
6- الشياح
7- الطيور والأصدقاء
8- خطوة في الحلم
9- النيل يجري شمالاً: البدايات
10- النيل يجري شمالاً: النواطير
11- النيل الطعم والرائحة
12- أحداثيات زمن العزلة: الشمس في برج الحوت - كتاب أول
13- أحداثيات زمن العزلة: الحياة وجه أخر - كتاب ثان
14- أحداثيات زمن العزلة: قيد الأشياء - كتاب ثالث
15- أحداثيات زمن العزلة: دوائر الاستحالة - كتاب رابع
16- أحداثيات زمن العزلة: ذاكرة الحضور - كتاب خامس
17- أحداثيات زمن العزلة: الأبابيليون - كتاب سادس
18- أحداثيات زمن إلعزلة: العصف - كتاب سابع
19- يحدث أمس
20- بعيداً إلى هنا

21- سماء نائية

22- الكائن الظل

23- مسك..

24- عندما رأسك في طريق واسمك في طريق أخرى

25- في حضرة العنقاء والخل الوفي

ثانياً: قصص ومسرحيات

1- البقعة الداكنة: مجموعة قصص

2- الأقفاص واللغة المشتركة: مجموعة قصص

3- مالا يراه نائم: مجموعة قصص

4- النص: مسرحية

5- للحدث بقية: مسرحية

ثالثاً: دراسات

1- القصة العربية في الكويت

2- الفعل والنقيض في أوديب سوفوكل

3- الكلمة الفعل في مسرح سعد الله ونوس

4- علي السبتي.. شاعر في الهواء الطلق

5- مبدعون مغايرون.. كتابات مغامرة

6- ما تعلمته الشجرة.. مجتزأ من سيرة ليلى العثمان

إسماعيل فهد إسماعيل

في حَضرة العَنقاء والخِلّ الوفيّ

رواية

في هذه الرواية يبدو هذا الروائي المخضرم شاباً موهوباً، للتو غادر السبعين من عمره كي يبدأ الكتابة في خضم الدهشة واسترسال الاكتشاف وزهو الموهبة الفريدة. ولعلي لا أبالغ إذا قلت أنني شعرت وأنا أقرأ هذه الرواية وكأنني أقرأ لإسماعيل فهد اسماعيل لأول مرة في حياتي، أنا التي اطلعت على معظم رواياته الأربع والعشرين السابقة والتي أصدرها على مدى أربعة عقود كاملة، ربما لأنه يحاول من خلالها أن يقدم نمطاً كتابياً جديداً يخلط فيه وفقاً لمقادير محسوبة، من دون أن تخل بعفوية الفن الروائي في ذلك الشق، بين الحياة كما عاش بعض مواقفها فعلاً، وبينها كما يريد أن يعيش بعض مواقفها، وبين ما يتوقع أن تكون، وبين الحلم. وأيضاً لأنه في هذه الحياة التي كتبها بين ثنايا رواية اختزل الكثير مما يقال في سبيل التطلع إلى قارئ نوعي ومتلق جاد وذكي. والأهم عاشق للرواية.

«في حضرة العنقاء والخل الوفي» إذاً رواية «صعبة» ليس على صعيد الكتابة وحدها بل على صعيد القراءة، وأتوقع من المتلقي أن يجتهد كثيراً في سبيل استخلاص المتع الراسبة بين نهايات الفصول حتماً.

سعديّة مفرّح



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com




ISBN 978-614-01-0656-7
9 786140 106567

لوحة الغلاف: الغجري النائم، هنري روسو – تصميم الغلاف: سامح خلف